التهامي نقرة





رسالة دكتوراه

الحلقة الثالثة

جامعة الجزائر 1971

الشركة التونسية للتوزيع

الفهرس

الباب الاول

قسم البحث النظري :

(305 - 47)

الفصل الأول : مصدر القصة القرآنية

(84 - 49)

الفصل الثاني : المنهج القصصي للقرآن

(110 - 85)

الفصل الثالث : التكرار فى قصص القرآن

(155 ـ 111)

الفصل الرابع : أنواع القصص القرآنى

(256 ـ 156)

الفصل الخامس : جوانب المعرفة فى قصص القرآن

(274 ـ 257)

الفصل السادس : عرض ونقد لمنازع المفسرين

(305 ـ 275)

الباب الثانى
قسم البحث التحليلى

(597 – 309)

الفصل الأول : تحليل القصة القرآنية

(420 – 348)

الفصل الثانى : عناصر القصة القرآنية

(420 – 348)

الفصل الثالث : عوامل التأثير فى قصص القرآن

(508 – 421)

الفصل الرابع : نظرات فى قصة يوسف

(542 – 509)

الفصل الخامس : الجانب التربوى فى قصص القرآن

(597 – 543)

الفهارس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بدأت حياة الانسان على الأرض بقصّة عُرضت فيها تجربتُه الأولى متمثِّلة في شعوره بنفسه ، وفي يقظة القوى الكامنة في طبيعته المزدوجة من الخير والشر .

إنها قصة هذا الكائن البشري الذي شاءت إرادة الخالق العليا أن تُكرمه ، فتستخلفه في الأرض وتمكّنه فيها ، وتكل إليه أمر كتشاف الحقيقة بعد أن أودعته سر القدرة على المعرفة بارشاد الرسل وهدي العقل ، معرفة النواميس التي تحكم هذا الوجود ، ووهبته حريّة الارادة ، إرادة الفكر والفعل ليوجِّه سلوكه ، ويختار طريقه في الحياة ....

ويتجلّى هذا الصِّراع في قصة ابنيْ آدم : « إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ، قَالَ : لَأَقْتُلَنَّكَ ! قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِين . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ، فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ » (1) .

---

(1) المائدة : 27 ـ 31 .

فهذه القصة رسمت معالم شخصيتين متباينتين بالحوار الذي أظهر نفسية الإيمان ونفسية الكفر ، وشرح ما يعتمل في نفس الشرير . فهابيل وقابيل شقيقان ، ولكنهما نموذجان من البشر مختلفان . أحدهما يمثل نزعة الشر ببغيه وعدوانه ، وثانيهما يمثل نزعة الخير باستقامة طبعه وحبه للسلام .

وبمرور الزمن يتسع نطاق الصراع بتوسع التجربة في الإنسان ، فيتجاوز شعوره بنفسه ، وشعوره نحو أخيه الإنسان ، إلى الكون الرهيب ، فيلتقي فيه بحواسه مستكنها أسراره . وتأخذه الدهشة ويتملكه الخوف من الظواهر الكونية المفزعة ، كالعواصف والصواعق والزلازل والبراكين ، فلا يجد حيلة لاتقائها إلا أن يستسلم إلى الاعتقاد بأن وراء تلك الظواهر أرواحا جبارة تتصرف في الكون كما تشاء . فيتخذ منها آلهة تُعبَد ، وتكذبه التجربة ، فيلتجئ إلى قوة كونية أخرى يراها أقوى مما كان يعبد ....

وتتعدد الافتراضات ، فتتعدد الالهة وتتنوع .

وهكذا كان الإنسان متدينا بفطرته ، وكانت طفولة الإنسانية قصة مثيرة ، مليئة بالمخاوف وبالميثولوجيا التي من أخص مميزاتها دخول الأساطير الدينية في تفسير العلاقة التي تربط الإنسان بالوجود، وتعليل ما يجري فيه من ظواهر .

فكان معظم الأساطير القديمة ينبع من شعور ديني أنشأته غريزة الخوف . وعنصر الدين في "التراجيديا" القديمة هو الذي حفظ لها حرارتها على مدى العصور . فهي — بالرغم مما تشتمل عليه من خرافات تبدو للنظرة السطيحة سخيفة — لا تخلو من روعة

الفنّ ، وذلك باستبطانها للانفعالات والأحاسيس التي انتابت الإنسانية وهي تصارع الحياة ، وبتصويرها لمأساة الإنسان في حيرته وخوفه ، وفي تردّده بين الألوهية والحيوانية .

وبالرجوع إلى تاريخ الفنّ ندرك كيف تفجّر عن الشعور الديني ، إذا كنّا نعني بالدّين : محاولة الإنسان أن يجد الجواب على معضلة وجوده ومصيره ! فما استلهم الإنسان روائع الفن إلاّ في جلال الكون ، وهيبة الهياكل والمعابد .

قال تولستوي (Tolostoï) : « إنّ تقييم المشاعر الإنسانية يقوم على الأديان وحدها .... وهذا التصوّر الديني هو الذي يقرّر المشاعر التي يعبّر عنها » (1) .

والحقّ أنّ الأديان السماويّة التي رفعت منزلة الإنسان في الكون ، وعلّمته كيف يسمو فوق ذاته ، كان لها النصيب الأوفر في دفع عجلة الزّمن للخروج بالإنسانية من البدائية اللاّهوتية التي كان من أبرز آثارها في الإنسان سيطرة الأوهام عليه ، فأصبح بفضل ما غرستْ هذه الأديان في قلبه من اطمئنان ، وفي نفسه من ثقة ، باحثا عن حقيقة وجوده ، وعمّا يمكّنه من فرض سيادته على هذا الكون الذي أنس إليه بعد الوحشة ، معتقدا أنّ هذه القوى الكونيّة الهائلة التي تنشر الدّمار والخراب ، هي في الوقت نفسه تحفظ الحياة ، وتزيدها قوّة ونماء ، لأنها لا تتصرّف فيها إرادة عمياء ، بل إرادة مبدِعة حسب سنن ونواميس ، ممّا جعل الحياة الإنسانية في اتّصالها بالحقائق أعمق تفاؤلا وأكثر أمنا .

---

(1) **مجلة الآداب** : 1954 ، ع : 11 ، ص : 41 .

قال برناردشو (Bernard Shaw) : « إنّ دراسة تاريخ الأديان تصف لنا تطوّر نظرية الوجود ، من العبادة الوحشية الخشنة إلى العبادة المعنوية المهذّبة . ولقد كانت كلّ مرحلة من مراحل التطوّر الديني تمضي بالإنسان خطوة إلى تصوّر الطبيعة في صورة أنبل وأعمق » (1)

فالأديان السّماوية بدعوتها الإنسان إلى الملاحظة التأمّلية في نفسه وفي الكون ، هي التي أعدّته إلى هذا اللّون الجديد من المعرفة :

ففي القرآن :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ » (2) .

في الإنجيل :

« مَا يَنْفَعُ الإنسان لو ربح العالَم كلّه وخسر نفسه ، وماذا يُعْطَى عن نفسه » (3)

وفي التوراة :

« وقال الله نصنع إنسانا بتصويرنا إيّاه ، مسلّطا ، يستولي على سمك البحر ، وطير السماء ، والبهائم ، وجميع الأرض » (4) . فهذا التحوّل الجذري من حتميّة آليّة إلى تحرّر واع من قيود الخوف بلا مبرّر ، يظهر في « المأساة » على الخصوص .

---

(1) بنت الشاطىء : **مقال في الانسان** : 173 .
(2) فصلت : 55 .
(3) **انجيل متى** : اصحاح : 16 . / 26 .
(4) سفر الخليقة : فصل : 1 .

فقد كانت في العهد الإغريقي تتّسم بجبريّة رتيبة يخضع فيها أبطال القصة أو الرواية إلى سلطة خارجية مُبْهَمَة ، هي التي تقودهم ، وتجعل أدوارهم ثانوية ، وتُرجِع كلّ مصيبة تقع لهم إلى ذنب اقتُرف في حق تلك القوى أو المعبودات ، كما في أسطورة «أوديب» .

وبانتشار الأديان السماوية وتطوّر الحياة ، قَوِي الجانب النّفسي في الإنسان . فصارت مواقف الأشخاص في القصّة أو الرواية صادرة عن إرادتهم ، نابعة من ذواتهم . فهم يتحمّلون مسؤولية أخطائهم ، ويتمتّعون بحقهم في الاختيار ، وفي حرّية القبول والرفض ......

ولئن كان للتقدّم البشري الذي حقّقه العلم في شتّى مجالات الحياة شأن في هذا الاعتداد وهذه الثقة بالنفس ، فقد بيّنت التجربة أنّ الحقيقة التي يكشفها العقل المحض ، ليس لها من القدرة ما للدّين على إشعال جذوة الإيمان الصّادق ، « وهذا هو السبب في أن التفكير المجرّد لم يؤثر في النّاس إلا قليلا ، في حين أنّ الدّين استطاع أن يغيّر مجرى الحياة ، كما استطاع أن ينهض بالأفراد ، ويبدّل الجماعات ، ويغيّرهم من حال إلى حال » (1) .

فكيف إذا عُرض الدّين على القلب والعقل معا في سياق قصصي مثير ؟

ذلك أنّ الأسلوب القصصي يُعتبر من أنجح الأساليب للتقويم والهداية . وقد روى القرآن أخبار الأمم السالفة ، فقدّمها إلى القلب والشعور بطرق مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن نوازع الشرّ ، تحمل في طيّاتها بذور الإيمان .

---

(1) محمد اقبال . **تجديد التفكير الديني في الاسلام** : 207 .

ومن ناحية أخرى فإن القصّة – على اختلاف أنواعها – كانت ولم تزل رفيقة الإنسان في جميع المراحل التاريخيّة التي مرّ بها ، معبّرة عن آماله وآلامه ، كاشفة عن نظرته للحياة وفلسفته فيها .

وقد استطاعت أن تحلّل النّفس بما لها من أبعاد متشعّبة تحليلا عميقا ، وتبيّن نزعاتها الطارئة في إطار عواطفها ، وتحت تأثير الظروف الخارجيّة ، وتصوّر واقعها في حيرتها واهتدائها ، وفرحها وحزنها ، وغضبها وهدوئها ، وضعفها وقوّتها ، وحبّها وبغضها ، وتفاؤلها وتشاؤمها ؛ وتصوّر الحقيقة التي تقوم عليها الحياة من خير وشرّ ، و ظلام و نور ، و سعادة و شقاء ! فهي تربة خصبة في حقل فسيح لإنتاج التّجارب الإنسانية التي ينصهر فيها القاصّ ويعانيها ، فيقدّمها صادقة في الإحساس ، نابضة بالحياة ، زاخرة بالفنّ .

قال قيّون (Guyan) :

« إننا لم نُخلَق لنُحبس في ذواتنا ، لأن دموعنا أكثر مما تحتاج إليه آلامنا ، وأفراحنا أعظم مما تقتضيه سعادتنا » (1)

وإنما يكون تأثير القصّة بحسب ما يملك القاصّ من قدرة على إخراج القارىء من حدود نفسه إلى جوّها ، وعلى إدماجه في حوادثها ليعيش مع الأشخاص حياتهم وتجاربهم .

وقد انتشرت القصّة في عصرنا انتشارا فاقت به أنواع الأدب الأخرى في إثارة مختلف المشاعر والأفكار . فعُرضت مكتوبة ومسموعة

---

(1) الاخلاق بدون فريضة ولا جزاء : L'Irreligion de l'avenir : Esquisse d'une morale sans obligation ni sanction.

ومشاهـدة ، وأقبل الناس عليها في شغف وشوق ، لأن فهمها لا يستدعي جهدا كالشعر ، ولا إرهاقا كالبحث ، بل إنّ الفكر والوجدان يتلقّفان ما حملته من آراء وعواطف واتّجاهات في نشوة الجمال الفنّي الذي تُعرض فيه .

لذلك استُخدمت لبثّ العقائد الدينية . فقد كان الكهنة ورجال الدين يتّخذونها وسيلة لنشر العقيدة ، وحمل الناس على الإيمان بها منذ عشرات القرون ، كما تشهد بذلك الآثار التي خلّفها قدماء المصريين والأشوريين والبابليين والكلدانيين . كما استُخدمت لنشر المذاهب الاجتماعية ، والنظريات الفلسفية . فكان تأثيرها في كل ذلك عميقا . لأنها تغترف من معين الحياة ، وترتاد مجالات الفكر والعاطفة والواقع والخيال والتاريخ والدّين ......

لكن من القصص ما ينير سبيل الحقّ والإيمان والخير . ومنها ما يثير الشكّ والحيرة ، ويدعو إلى التمرّد على كلّ القيم ، والثّورة على كل القيود . ومنها ما تمايه بواعث التسلية وعلالات البطالة والأهواء والغرائز الجنسية لتزجية الفراغ وقتل الوقت ، فتعرض المواقف وتسوق الأحداث بطريقة تُسوّغ الخطيئة ، وتبرّر الأسباب الدافعة إليها ، وتهوّن أمر التوقّي منها ، حتى يكون القارىء أحيانا في صفّ الجريمة ومرتكبيها .

وكثيرا ما تحفّ بالقصة مسالك يشوبها النّزق والطيش ، ولكن عناصر المغامرة والمرح التي تتخلّلها في براعة وحذق تجعل هذه المسالك كأنّها نداء الطبيعة الذي لا بدّ منه (1) .

---

(1) محمد الغزالي : **نظرات فى القرآن** : 119 .

واعتبارا لما لها من دور خطير في التوجيه الخفيّ المؤثّر ، ألحّ علماء التربية على حسن اختيار ما يعرَض أو يُقدّم للناشئة من قصص ، حتى لا ينقلب عاملا سيّء الأثر في تربيتهم وتكوينهم الفكري والخلقي ، وهم لم يبلغوا بعدُ درجة من النضج تؤهّلهم للتمييز ، وتمكّنهم من الحكم الصحيح على المواقف والتّصرّفات .

وفي القرآن الكريم يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (1) » ، « فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (2) » .

وفي العصر الحديث تغلغلت القصّة في أعماق الدين ، فتناولت مشاكل القدَر ، والحظوظ الإنسانية ، دون أن تعالج هذه القضايا معالجة موضوعيّة ، أو تجد لها حلولها ، بل زرعت في القارىء أشواك القلق والحيرة . والتشكّك في العدالة الإلهية ، وفي كثير من القيم الرّوحيّة . وكان لهذا القصص الوجودي صداه في نفوس بعض الشباب ، لأن له أبعادا فلسفية ، إذْ هو يمثّل وجهة نظر الكاتب في الحياة ، وتفسيره لها بطريقة مزجت بين الفكر والعاطفة ، والفلسفة والفن ، فكان له تجاوب مع النّفوس القلقة الحائرة .

ومن القصص الفلسفي الذي يجعل من الإنسان وحيرته محورا ما يعتمد على منطق العقل وحده . ولخلوّه من النزعة الرّوحية والنظرة المتطلّعة إلى ما وراء الطبيعة جاء جافّا قاحلا ضيّق الأفق . ليس فيه رُواء الفن الذي قيمته في تأثيره ، وفيما يحمل من مشاعر دينيّة ،

---

(1) يوسف : 3 .
(2) الاعراف : 176 .

وليس فيه صدى للحياة التي هي حركة مستمرّة ، ونأي عن المنطق المألوف في كثير من الأحيان .

وأرى من المفيد أن أتبسّط قليلا في عرض بعض القصص الفلسفي عرضا سريعا كمَدخل للقصص القرآني الذي لا يخلو من فلسفة في الدّين والحياة والتاريخ وما وراء عالم المادة ، حتى يتجلّى الفرق في الغايات والأهداف بين القصص الفلسفي الوجودي ، والقصص القرآني ، وهما متقابلان في كثير من الأحيان شكّا ويقينا ، وإيمانا وإلحادا ، وتحرّرا والتزاما ، وبناء وهدما .

ولكن لا يصح تعميم هذه الأحكام على كلّ ما ظهر من قصص فلسفي . فقد ظهرت قديما قصة (حي بن يقظان) لا بن طفيل ، التي تبيّن كيف يستطيع الإنسان أن يتوصل إلى معرفة العالَم العلوي ويهتدي إلى معرفة الله وخلود النفس دون معونة من الخارج .

كما ظهرت حديثا عدّة قصص وروايات تمثّل هذا اللّون الفلسفي الميتافيزيقي الذي يستهدف كشف الذات وتوضيح الشعور نحو ما يحيط بالانسان من هذا الوجود الذي لا حدود له ، ومدى قدرته على استكناه أسراره . ومن ذلك مثلا :

قصّة "السّد" التي يمثّل فيها « غيلان » إرادة الصّراع العنيف بين الواقع المقيت والغيب المسدود في ثورة عارمة على الزيف والعجز و الموت ، وعلى الاستسلام في أحضان الدّعة الجامدة ، تائقا إلى المطلَق ، مؤمنا أنْ « ليس في الحدود والعراقيل حدّ واحد ولا عقال واحد يعجز عن كسره العزم » (1) .

---

(1) محمود المسعدى : **السد** : 97 .

ورواية « شهرزاد » التي تتعقّد فيها مشكلة المعرفة عندما يشتدّ ظمأ « شهريار » لها . ولكنه يصطدم بانغلاق سرّها عليه بقدر ما يزداد تطلّعه إلى الحقيقة (1) .

و« الإخوة كارامازوف » و« حذاء الشيطان » لدوستويفسكي «Dostoievski» وهما تمثّلان مأساة الشرّ والخير على ضوء التعاليم المسيحية ، باعتبار أنهما لا يُدرَكان إلا فيما يقوم به النّاس من أفعال .

ومن هذا القبيل مسرحيّات كلودال « Claudel » ، في صدق تعبيرها عن الروح الكاثولوكية .

ومسرحيات ميترلنلك « Materlink » ، في محاولة وصفها للغموض الرهيب الذي يكتنف الحياة ، والضّيق الذي يرهق الروح .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه كلّما اتّجهت القصة نحو الذّات الإنسانية للبحث عن دورها ومصدر حيرتها وقيمتها في الوجود التجأ القاص إلى التّجربة الميتافيزيقية ، واشتدّ تَوْقه إلى ما وراء الحسّ . وكلّ إنسان يمرّ حتما بهذه التجربة ، ولو في فترة عابرة من حياته خلال أفراحه ومتاعبه ، وهدوئه وثورته ، ومخاوفه وآماله .

ولكنّ بعض القاصّين الوجوديين تاهوا في متاهات الشك والتشاؤم ، فأتَوا باسم العقل والواقع على جذور الإيمان فاقتلعوها بمعْول الإلحاد . ثمّ جعلوا من مواجهة القدَر في هذه الحياة التي ليست في نظرهم سوى رحلة قصيرة بين الرّحِم والقبْر بطولةً

(1) توفيق الحكيم : **شهرزاد** : 82 .

مأساويّة لإنسان القرن العشرين الذي أضجرته تفاهة الحياة وسيرها إلى غير وِجهة .

وهذا ما نجده في أكثر القصص المتأثِّر بالفلسفة الوجودية الملحدة ، أو فلسفة العبث ؛ مثل : « يأس الإنسان تجاه لا معقوليّة الوجود » ، لكافكا « Kafka » ، و « الجدار » ، لسارتر « Sartre » و « سوء تفاهم » لكامو « Camus » ، ونحو ذلك من القصص الحديث الذي يحاول علاج وضع الإنسان التّعس كوجود بدون ماهية ، على اعتبار أن كلّ ما يجري خارج تيّار الزمن ، وكلّ ما يوسَم بالثبّات هُو مزيّف .

ولكن موقف القاصّ هنا سلبي ، لأنه لا يفترض حلاّ ، ولايمدّ ضياء . بل هو يعرض الحيرة والشك والخوف ، ويكتفي بالتشاؤم والرفض .

فقصّة الغريب مثلا : للكاتب الأنقليزي ، كولين ولسون « Wilson Colin » التي طبعت سنة 1956 سبع مرات ، والتي تبحث عن كُنْهِ مرض الإنسانية في هذا القرن ، محاوِلة تشخيص المرض الذي تعانيه ، تُعتبر مثالا حيّا لهذه الأزمة النفسية التي تتخبط فيها .

وتتمثّل هذه الغربة في إحساس « الغريب » بأن العالَم غير حقيقي . ويظلّ غريبا حين يعجز عن معرفة نفسه معرفةً تمكّنه من إدراك كنه القوّة الدافعة وراء أحاسيسه .

وبجانب مشكلة انعدام المعنى للحياة ، يهتمّ الكاتب بمشكلة أخرى وثيقة الصلة بها ، وهي مشكلة الحريّة . فيرى أنها تَفترِض

حريّة الإرادة . ولكن لا توجد الإرادة إلا إذا وُجدت الدوافع أوّلاً . فلا إرادة بدون دوافع . والدوافع أمور متعلقة بالإيمان . فلا يرغب المرء في عملٍ ما إلاّ إذا آمن بأنه ذو معنى . والإيمان بدَوره معناه : إيمان بوجود شيء ، أي إيمان مرتبط بما هو حقيقي .

وهكذا ترتكز الحريّة في نهاية الأمر إلى ما هو حقيقي . ولذلك نجد إحساس « الغريب » بعدم توفّر الحقيقة في الحياة يقتلع حريتَه من جذورها ، إذ يستحيل على المرء أن يكون حرّاً في عالم غير حقيقي ، كما يستحيل عليه ان يقفز وهو ساقط (1) .

وهذا الكاتب الفرنسي جيد « Gide » ينحو منحى سوفوكل « Sophocle » في قصة « اوديب » ولكنه يجعل من إيمانه بالإنسان مادّة خشوع تحلّ في النفس محلّ ذلك الخشوع للقوى الخفيّة العليا .

إنه يلخِّص لنا ما يؤمن به الفكر الأروبي المعاصر : وهو أن لا شيء في الكون غير الإنسان ، ولا قيمة في الكون لغير الإنسان (2) .

ثم هذا الكاتب الايرلندي بيكيت « Beckett » في روايته الشهيرة « في انتظار قودو » التي أثارت من الاهتمام ما لم تنله رواية معاصرة ، كانت فيها تجربة « بيكيت » نابعة من روح يائسة .

فبينما يُلقي الوهم ظلالَه الكئيبة على أبطال الرواية ، منتظِرين خلاص « قودو » أي خلاص المسيح لإنقاذ العالَم ، يرى « بيكيت » أنهم ينتظرون الفراغ ، لأنه لا يشاركهم هذا الاعتقاد ، بل يعتبره عبثا. إنه لا يؤمن بغير هذا الشّعار : « لا شيء أكثر حقيقة من اللاّشيء» .

---

(1) مصطفى بدوى : **دراسات فى الشعر والمسرح** : 229 ـ 254

(2) توفيق الحكيم : **أوديب** : المقدمة .

والقول بأن الإنسان عاجز عن إدراك العدالة الالهية — رغم وجودها — هو في رأيه عقيدة سخيفة ، لا تزيده إلا مأساة وشعورا بالغربة .

فما الزمن إلا خدعة . وما وجودنا اليومي سوى لُعبة تهريجية بدون نتائج حقيقية . لعبة تنبثق من الأمل الكاذب .

وتتضخّم مأساة الإنسان — حسب زعم الكاتب — بإحساسه بفراغ الكون ، وهجرة الله ، وانعدام الأمن والعدالة في هذه الرِّحلة التي تهدّد الإنسانَ فيها ذئاب شرسة خلف كل منعَطف (1) .

وأيّ تشاؤم أشدّ من عرض صورة رمزيّة تجعل كل شخصيّة في الرواية تعيش في ظلمات الأوهام بلا أمل ولا هدف ؟

لقد قصدتُ أن أسهب قليلا في عرض نماذج لهذا اللّون من القصص الذي طغى في عصرنا ، حتى كاد يقضي على القيم الروحية والأخلاقية التي كانت تقوم عند الشعوب الكاثوليكية قرونا طويلة على أساس الدّين . وهو أنّ في الكون إلها قويّا قد أعدّ الثّواب لمن أطاعه ، والعقاب لمن عصاه .

ولمّا تزعزع الدّين وضعف سلطانه ، فقدت الأخلاق أساسها المتين ، وفقد الانسان كلّ اطمئنان في الحياة (2) . في حين أن القصص السّماوي عامة والقصص القرآني خاصة ، جعل لحياة الإنسان معنى لا يزول ، وجعله متّصلا بحياة الكون في أوسع مداه .

---

(1) مجلة **المعرفة** : 1969 — ع : 83 — ص : 46 — 75 .

(2) ق : لوبون « G. le Bon » . **روح التربية** (ت) طه حسين : 111 .

وبصلاح العقيدة تصلح الأخلاق ، ويستقيم النظر للحياة . إذ أن العقيدة الدينية قوة عظيمة تحرّك السلوك وتوجّهه ، ويستمدّ منها الإنسان في شتّى ظروف الحياة ما تتخاذل دونه النّزوات والأهواء ، وما يكون له عونا على البتّ في ما يعرض له من قضايا يغشاها الصراع النّفسي بين الدوافع المختلفة (1) .

قال يونق « Yung » : يمكن القول بأنّ سيّد العناصر والآلات لم تجعل منه كلّ وسائل التقدّم العلمي إنسانا أكبر من حقيقته ، وإنّما على العكس من ذلك ، صغّرت من هذه الحقيقة ، بل كادت تسحقها . ويعلّل هذا الصّدام بين الدين والعلم أن معتقدات الكنيسة موغلة في القِدَم . فهي مليئة بالرموز الميثولوجية التي لابدّ أن تصبح يوما ما في حالة صراع مع المعرفة (2) .

ومن يتعمق في درس الفكر الاسلامي يدرك أن طبيعة الاسلام ومرونته ، ووضوح منهجه العلمي والعمليّ ، ممّا يحُول دون أيّ صدام أو صراع مهما تطوّرت الحياة .

وإذا كانت الأديان السماوية حفظت للإنسان منزلة رفيعة في الأرض والسماء إذا هو عرف حقيقة وجوده ، واحتفظ بهذا المستوى الرفيع لمنزلته ، فإنّ العلم جعل له سلطانا على قوى الطبيعة ، ولكنّه في نفس الوقت حبسه في بوتقة المادّة ، وصرفه عن التأمّل في الجانب المقابل لكيانه الإنساني ، وهو الجانب الروحي ، وقطع صلته بأعماق

---

(1) احمد عزت راجح : **اصول علم النفس** : 140 ـ 141 .

(2) **المعرفة** 1964 : ع : 32 ـ ص : 117 ـ 118 .

وجوده ، وسلبه نعمة الإيمان بمُبْدع الكون ، وإيمانه في مصيره هو ، وأفقده الثّقة بكلّ شيء .

يقول آداموف « Adamov » معبِّرا عن معاناته المريرة : « أعرف قبل كل شيء أنني موجود . لكن من أنا ؟ أعرف أنّني أتألّم . وإذا كنت أتألم فلأنّ في أعماقي انفصاما وانقساما . إنني منفصم . هذا صحيح . ولكن ما هذا الذي انفصمت عنه ؟ إنني لا أستطيع أن أعرفه أو أسمّيه » (1) .

إنّ التحرر من سلطان الدّين مصدر القيم الروحية والمُثل العليا هو في الحقيقة عبوديّة النفس للنزوات والأهواء ، وانحرافها عن مصدر النّور والهداية .

ذلك أنّ الدين هو الذي حمى الإنسان من فكرة العدم المدمِّرة لإرادة الحياة ، ومنحه الأمل في أنّ كفاحه في رحلته ليس عبثا ينتهي بضجْعة القبر . « أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وأنَّكُمْ إلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ » (2) .

ومن هنا كان من أهمّ أهداف القصص القرآني إثبات عقيدة البعث ودفع الشك عنها ، بما ضرب لذلك من أمثلة واقعيّة تؤيّد هذه الحقيقة وتقرّرها ، وتُثبت أنّ أنفُسنا روحية تمتاز جوهريّا عن نفس الحيوان .

وكم في هذا القصص من آيات الله في الكون وفي عالم النفس ، وفي وقائع التاريخ ما ينهض دليلا على وجوده وقدرته !!

---

(1) **المسرح والسينما** : ع 57 – ص : 34 .
(2) المؤمنون : 115 .

إنّ إنسـان العصر الذي فجّر الذّرة ، وتحـكّم في موجات الأثيـر ، واقتحم مجاهل الفضاء ، وغزا القمر ، لا سبيل له الى طمأنينـة تريحـه من عنـاء الحيـرة والخوف والتشاؤم إلاّ إيمـانه بما وراء عالم المادّة المحسوس ، على أساس ألاّ تعارضَ بين الإيمان بالعلم،والإيمان بالدّين (1).

إذ أنّ استغلال الدّين ضدّ طبيعتـه لعرقلـة التقدم ، كاستغلال العلم ضد طبيعتـه لتدمير الحضارة . وربط الإلحـاد بالرقي الفـكري والتقدّم العلمي لا يقلّ سذاجـة عن ربط الديـن بالتخلف الحضاري والجمود العقلـي (2) .

ومازال علماء الاجتماع يعـدّون من أسبـاب نهوض المجتمعـات وانحلالها حالـة الدين والعقيدة . وقد شهد القرآن بذلك ونّبه إليـه على لسـان سليمـان في قصته مع بلقيس :

« وَأوتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وكُنَّا مُسْلِمِينَ . وصَدّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ » (3)

فقد كانت عبادتها للشمس ممّا صدّها عن حصول العلم النافع ، اذ أنهـا بذلك الاعتقاد الباطل منصرفة عن الرشد الفكري ، واستـكمال الحضارة الصحيحة ، لأنّ أعمال الناس تتـكيّف بحسب ما يصدر عن معتقداتهـم من أفـكار وسلـوك (4) .

---

(1) **مقال في الانسان** : 156 .

(2) المصدر السابق : 169 .

(3) النمـل : 42 .

(4) محمد الطاهر ابن عاشور : **أصـول النظام الاجتماعـي والـدولى فـي الاسلام** : 9 ـ 10

وقد أبان بعض أحداث القصص القرآني أنّ الفكر في الإنسان ليس كلّ شيء ، بل هو نافذة من نوافذ النفس الكثيرة التي تُطلّ على هذا الوجود ، رغم ما يزعمه الماديّون والطبيعيّون بأنّ الأديان حوادث تاريخية اقتضتها ظروف خاصة ، وقد أدّت وظيفتها وأخذت في الاضمحلال ، ولن يقوم لها في عصر العلم قائمة .

وهكذا كان القصص القرآني وسيلة طريفة لتقرير جوهر العقيدة ، وتوجيه النفس إلى الله ، حتى تظهر آثار التوحيد في المشاعر والتصوّرات ، ظهورها في السلوك والتصرفات . كما كان أداة لتربية النفوس ، وغرس الشعور بالسلطان الالهي الأعلى منشإ التعظيم والخضوع ، وروح العبادة والخشوع ، لأنه يستمدّ قدسيّته من قدسيّة الله .

وقد حاول النضر بن الحارث من مشركي قريش المناهضين للدّعوة مقاومة الرسول بقصص ينافس به قصص القرآن فلم يفلح .

« روي انه كان يتّجر إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم ، فيحدّث بها قريشا ويقول :

« إذا كان محمد يحدّثكم بحديث عاد وثمود ، فأنا أحدّثكم بأحاديث رُستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة » ، فأنزل الله فيه (1) :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وإذا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (2) .

---

(1) الزمخشري : **الكشاف** : ج : 2 / 193 .

(2) لقمان : 5 ـ 6 .



موضوع البحث ومنهجه

إن دراسة القصة القرآنية وتحليلها من حيث عوامل التأثير فيها ، ومن حيث منهجها القصصي ، ومصادر المعرفة فيها ، ودورها في التوجيه والتربية وغرس الإيمان ، وتحليل عناصرها من حوار وأحداث وأشخاص ، لَممّا يمكّن من الوقوف على ما فيها من إبداع فني يكشف عن أسرار إعجازها البياني ، وإقناع عقليّ يُلزم بالحجة ويهدي إلى الحق ، وتأثير وجداني يغذّي المشاعر ويسمو بالنفس . ذلك هو موضوع هذا البحث .

ولعلّ الجديد فيه يتمثّل في محاولة استخدام بعض القواعد والأصول المقرَّرة عند علماء النفس والتربية والاجتماع ، وفي استعمال المنهج التحليلي إلى جانب البحث النظري كوسيلة لدراسة القصة القرآنية بأكثر شمول وعمق ، وربط الجانب الفنّي فيها بالجانب النفسيّ لأنهما يلتقيان في الهدف ، وهو التأثير الديني ؛ ولأن صلة الفنّ بالدّين عريقة ومتينة .

ولعلّ من المفيد أن نشير بإيجاز إلى تفسير عنوان البحث ووجه اختياره . فكلمة بسيكولوجية « Psychologie » عبارة يونانية الأصل مركّبة من كلمتين كما هو معروف . وهما « Psukhé » ومعناها : النفس ، و« Logos » ومعناها : العلم ، فصيّرها الاصطلاح كلمة واحدة

وانتشر استعمال هذا الاصطلاح في المشرق العربي في شتّى الدراسات النفسية ، حتى صارت كلمة « سيكولوجية » من أشهر المصطلحات العلمية التي ذاعت في الاستعمال العربي الحديث مثل : « سيكولوجية المجتمع ، وسيكولوجية الضمير ، وسيكولوجية التعليم ، وسيكولوجية الاطفال ، وسيكولوجية الأشخاص في القصص والروايات » .

وقد انفصل علم النفس عن الفلسفة منذ القرن التاسع عشر ، فأصبح علما مستقلاً بذاته لمّا دخل المجالَ التجريبي والتحليلي ، وارتبط بالاحصاء وبالطب والرياضيات ، بعد أن كان مقتصرا على نظريّات مجردة .

وكان من دواعي الاختيار لهذا العنوان « سيكولوجية القصة في القرآن » اعتبار ما للمنهج التحليلي من أهميّة في كلّ ما يتّصل بالمؤثّرات النفسية في هذا القصص ، واعتبار أنّ المبادىء والقيم الرّوحية التي يحتوي عليها ، هي في ذاتها موضوعات هامة جديرة بالبحث والتحليل . وإني - إذ توخيت هذا الجانب النفسي لمعرفة عوامل التأثير في أسلوب القصص القرآني ، واستهوائه الوجداني ، وتوجيهاته التربوية ، وحججه المنطقية - لَمُدرِك دقّة الموضوع وتشعّبه .

قال ق . لوبون « G. Le Bon » : للأسلحة النفسية قدرة أعظم من المدافع . غير أن استعمال مفتاح العوامل النفسية صعب لا يتسنّى إلا بكثير من المهارة والحذق (1) .

---

(1) **فلسفة التاريخ** (ت) عادل زعيتر : 262 .

والقصة القرآنية سلاح نفسي في الدعوة المحمّدية إلى عقيدة التوحيد ، وفي إقناع المخالفين عن طريق الجدل والحوار بسموّ هذه العقيدة ، ونُبل أهدافها .

فهي إذْ تعرض صورا من الحياة ، ولقطات منتخبة من التاريخ تسمعنا أصداء النفوس في جهرها ونجواها ، وحين ترتفع في معارج الخير ، أو تتردّى في مهاوي الشر ، وتُشعرنا بما في قرارة الجنس البشري من تجانس وتقابل عَبر التاريخ .

كما أنّها تُخرجنا بسرعة من حدود أنفسنا إلى جوّ أحداثها لنعيش مع أشخاصها حياتهم ، ونُحكّم عقولنا وعواطفنا في ما توحي به تصرّفاتهم .

والسّرعة التي تمتاز بها في العرض هي طابع العصر الحديث . فهدف هذا البحث — حينئذ — هو معرفة منهج القرآن في قصصه الذي يختلف عن القصص البشري شكلا ومضمونا ، كما هو يختلف عن قصص الكتاب المقدّس .

وإذا علمنا أنّ أكثر القصص القرآني نزل في العهد المكّي ، وكان موجّها لبناء العقيدة الإسلامية ، أدركنا أنّ الجانب النفسي فيه من أهم الجوانب الجديرة بالدرس ، لمّا له من دور في التأثير على قوم حياتُهم النفسيّة متعلقةٌ بالبيئة القبليّة ، وما يتبعها من عصبيات متعددة ، تمزّق الوحدة الاجتماعية ، وتقف في وجه أي دعوة دينية ، أو إصلاح اجتماعي .

وهذا التحوّل العقائدي ليس حادثا بسيطا كاهتداء عقليّ مفاجيء ، وإنما هو تحوّل جذري في الشخصيّة ومقوّماتها ، نتيجة لعوامل مؤثّرة ،

وتوجيه حكيم . وللقصص القرآني دور عظيم في هذا التوجيه والتأثير . فما هي العوامل المؤثِّرة فيه ؟ أهي فنية ، أم دينية ، أم نفسية ؟ وما سرّ هذا التأثير ؟

أهو الحضور الالهي في القصة ، والحياة مع الله في الكون وفي النفس ، والشعور باللاّمتناهي في روعة الغيب ، ومفاجأة الخوارق ، وهول الأحداث ، وتصرّفات القدَر ؟

أهو الترهيب من قوة خفية قاهرة ، أم الترغيب في حمى الإيمان ، مصدر الأمن وينبوع الخير ؟

أهو الإبداع الفني ، أم الإقناع العقلي ، أم الإيحاء النفسي ؟

وهل جاءت القصّة القرآنية تعليمية لمعرفة التاريخ ، أو تربوية لتهذيب السلوك ، وتقويم العقيدة ، أو بيانية للاعجاز البياني ؟ أو جاءت لكل ذلك .

إنّا لنجد في القصة القرآنية ما يثير ويؤثِّر ، فكان لا بدّ من كشف مواطن الإثارة والتأثير فيها . والمسلمون اليوم لم يكن لأكثرهم ذلك الذّوق الفطري السليم ، وتلك السليقة التي كانت تهزّ مشاعر العربي حين نزول القرآن بروعة بيانه وبديع نظمه .

ولئن تعذّر على المسلمين اليوم أن يدركوا أسرار الإعجاز البياني في قصص القرآن بالذوق الفطري ، فليدركوه بطريقة التحليل الفني والنفسي ، سيما وقد أضحت دراسة القصة وتحليلها طريقةً شيّقة لإبراز قيمتها في الأسلوب والمحتوى ، والكشف عن موحياتها النفسية ، وأبعادها الفكرية ، وتسليط الأضواء عليها ، لتنبيه الناس إليها ، وترغيبهم في قراءتها قراءةً ممعِنة .

وهنا لابد من فهم أسلوب القرآن في إيجازه ومجازه ، وكناياته وإشاراته . لذلك ينبغي لمن رام تحليل القصة القرآنية تحليلا منهجيا موضوعيا :

1) أن يتخلّص مبدئيا من التأثر بتحكّمات أهل الرأي في تحليلهم لهذا القصص ، ومواجيد الصوفية ، وتصوّرات الرّمزيين ، وآراء اصحاب المذاهب والفرق المختلفة ، ووجهات عشّاق المأثور للروايات الغريبة ، والإسرائيليات الموضوعة ، والخرافات الشائعة .

2) أن يتجنب التبسّط في تفصيل ما أجملته القصة من أخبار ، والاستقصاء لما أعرضت عنه قصدا من جزئيات ، إلا إذا ورد في شأنها ما يفصّلها من حديث صحيح ، كقصة أصحاب الاخدود ؛ وذلك حتى لا يخرج بها عن الهدف الذي سيقت من أجله ، وحتى لا يجعل منها نقطة انطلاق لسرد أخبار تملأ ما فيها من فجوات ، أو تؤدي إلى ألوان متشعبّة من الحديث ، أو تصوّرات خيالية تبعد بها عن سير الفكرة الرئيسية فيها ، والمغزى العام لها .

ولكن ذلك لا ينافي جمع ما تفرّق في القرآن من أطراف القصّة وحلقاتها للإحاطة بمضمونها ومغزاها ، أو للمقارنة والاستنتاج ، ولا سيما في دراسة الشخصية التي يتعدّد ذكرها في كثير من المناسبات .

وأملي أن أوفّق إلى السير في خطوط هذا المنهج ، وأن يكون في هذا البحث ما يلفت النظر إلى أهمّ ما ينبغي اعتباره في تحليل القصة القرآنية لإدراك مراميها ، ورؤية أبعادها ؛ وخاصة ما يتصل بموضوع البحث اتصالا جذريا وهو الجانب النفسي ، وماله من تأثير بعيد المدى .



البحوث السابقة وطرقها

لقد تناول قصَصَ القرآن بالشرح والتحليل والدرس كثيرٌ من المفسّرين والمؤرخين والباحثين قديما وحديثا ، سواء في كتب التفسير ومقدماته ، أو في كتب التاريخ ، أو من كتب مفردة ، أو فصول خاصة . ومنهم من أفرد كتابا لقصة واحدة من هذا القصص ، أو موضوعا واحدا فيه ، ولكنهم كانوا مختلفين في طرقهم اختلافا يمكن تصنيفه وتقسيمه إلى أربع طرق :

1) **طريقة التبسيط والتفصيل :** وذلك باستقصاء ظروف القصة وجزئياتها وكلّ ما يتصل بها من مواقف وأحداث مع تحديد زمانها ومكانها وتعيين أشخاصها .

وجلّ من سلك هذا المسلك من المؤرخين والمفسّرين كان همّه الاستقصاء والإحاطة ، لإشباع رغبات المتطلّعين إلى هذا القصص الديني ، وخاصة ما يتعلق منه بتاريخ بدء الخليقة والأنبياء والأمم الغابرة ، دون أن يتحرّى فيما يروي من أخبار ، ويجمع من نقول امتزجت في أكثر الأحيان بالخرافات والأساطير والاسرائيليات .

فمن كتب التفسير :

جامع البيان في تفسير القرآن : لمحمد بن جرير الطبري
الكشف والبيان عن تفسير القرآن : لأحمد بن إبراهيم الثعلبي

لباب التأويل في معاني التنزيل : لعلاء الدين علي بن محمد الشيحي المعروف بالخازن .

السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير : لشمس الدين محمد الشربيني

ومن كتب التاريخ :

تاريخ الامم والملوك : لمحمد بن جرير الطبري . ج : 1 – (م . الاستقامة . القاهرة : 1939)

الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي الشيباني المعروف بابن الاثير – ج : 1 (م . المنيرية مصر : 1943) .

نهاية الأرب في فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد النويري – ج . 13 و 14 – (م.دار الكتب المصرية : 1943).

ومن الكتب المفردة :

بدء الخلق وقصص الأنبياء : لأبي رفاعة عمارة الفارسي (مخطوط) (1)
المبتدأ في قصص الانبياء : لعلي بن حمزة الكسائي (مخطوط) (2)
عرائس المجالس في قصص الأنبياء : لأبي اسحاق بن محمد النيسابوري
قصص الانبياء : لمحمد بن عبدالله الكسائي

---

(1) يوجد الجزء الاخير منه بالفاتيكان : 3 : 165 – انظر **تاريخ الادب العربى** لبروكلمان ذ : 1 / 217 .

(2) المكتبة الوطنية بتونس : 806 .

نفائس المرجان في جمع قصص القرآن : لاحمد بن أبي بكر الموصلي (مخطوط) (1)

قصة أهل الكهف : لعبدالله بن عباس : (مخطوط) (2)

(2) طريقة التحليل في حدود النص القرآني : وذلك بتوضيح ما في القصة من إشارات وعبر ، والإجابة على ما أثير فيها من مشكلات وشبهات ، وإجلاء عوامل التأثير في أسلوبها البياني ، أو حججها العقلية ، أو لمسّاتها الوجدانية . وأصحاب هذا المنهج يعتمدون غالبا طريقة تفسير القرآن بالقرآن وبالسنّة والأثر الصحيح . وإذا أوردوا بعض الأخبار في القصة عن أصحاب السِّيَر، فإمّا لأنّها متواترة مشهورة ، تلائم حقائق القرآن والسنّة ، وتلقي الأضواء على ما يحتاج إلى الإيضاح والبيان ؛ وإمّا لأنّها مزيّفة تحتاج الى الردّ والتنبيه .

وتمتاز أكثر التفاسير والكتب الحديثة بعرض القصة في أسلوب أدبي شيّق .

فمن كتب التفسير القديمة والحديثة :

تفسير القرآن العظيم : لإسماعيل بن كثير
مفاتيح الغيب : لمحمد فخرالدين الرازي

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقويل في وجوه التأويل : لابي القاسم محمود الزمخشرى

---

(1) المكتبة الوطنية بتونس : ج : 1 / 522 .
(2) المكتبة الوطنية بتونس : 895 .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل : لناصر الدين بن عبدالله البيضاوى
تفسير المنار : لمحمد عبده
في ظلال القرآن : لسيد قطب
التحرير والتنوير : لمحمّد الطاهر ابن عاشور

ومن كتب التاريخ القديمة والحديثة :

كتاب البداية والنهاية : لأبي الفداء إسماعيل بن كثير

ويحتوي قسم منه على « قصص الانبياء » . أفرده محققه (مصطفى عبدالواحد) في جزءين مستقلين ، نشرا سنة 1968 بعنوان ذلك القسم

قصص القرآن : لمحمد أحمد جاد المولى وزملائه

وقد جاء في مقدمة مؤلّفيه : « ولـمّا رأيناه من إقبال النّاس على قراءة القصص ، ولما شاهدناه من انصرافهم عن قصص القرآن — على ما فيه من شريف المقاصد والأغراض — وضعنا بهذا الكتاب قصصا شتّى في ضوء القرآن وهديه ، وعلى طريقته الحكيمة ، من الاقتصار على بسط موضوع العبرة ، إلا أن يكون موضعا يحتاج إلى بيان ، أو إشارة يعوز فيها القارىء التوضيح ، وجلوناه في ثوب أدبيّ وأسلوب سائغ . ولم نخرج فيما كتبناه عن آراء انتحلناها من كتب التفسير المشهورة ، وأخبار رويناها عن ثقات المؤرخين » .

قصص الانبياء : لعبدالوهاب النجار

أورد مؤلفه في الطبعة الثانية والثالثة آراء معارضيه من اللّجنة العلمية التي ألّفها عميد كلية أصول الدين الشيخ عبدالمجيد اللبان

للنظر في هذا الكتاب ، وإبداء رأيها فيه ، ثمّ ردّه عليهم في كل اعتراضاتهم . وكان ممّا أبدته تلك اللجنة في تقريرها : « أنها لا ترى تداوله بين طلاب المعاهد الدينية وغيرهم لأسباب ، أهمها : أنّ مؤلفه تعسّف في التأويل ، وأخرج الآيات القرآنية تخريجا بعيدا إن لم يكن باطلا . فخالف بذلك إجماع المفسّرين ، ولم يكلّف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحا . وهو مع ذلك يتصرف فيما ينقل من أقوال ، وينكر بعض الأحاديث الصحيحة ليحكّم عقله ، ويجعل التوراة والانجيل مهيمنين على القرآن » .

ومن الكتب الحديثة لقصّة واحدة :

يوسف عليه السلام : لإبراهيم علي أبو الخشب

قصة موسى عليه السلام : لأحمد الجبالي

ومن الكتب الحديثة لموضوع واحد :

دعوة الرسل إلى الله تعالى : لمحمد أحمد العدوي

بيّن في مقدّمة كتابه أنه سيعنى فيه بتحليل كلمات كل رسول وردت قصته في القرآن ، ويقارن بينها وبين كلمات خصومه . وعُدّته في ذلك التدبّر العميق فيما تضمّنه القرآن من عبَر ، والإمعان فيما عليه الناس من أخلاق وطباع « وإذا كان من الواجب على الزعماء السياسيين وقادة الشعوب أن يدرسوا تاريخ الرسل ، وسيرة أوّل المصلحين في الأرض فليدرسوها من مصدرها الصحيح ، وينبوعها الصافي ، وهو القرآن الكريم » (1) .

---

(1) المقدمة (ط) .

« كما قصدت أن يكون شرحي بعيدا عن الإسرائيليات التي تعوّد المفسرون أن يشحنوا بها الكتب ، متمشّيا مع سياق الآية ، متّفقا والأصول العامة للدّين ، مسايرا لما ينبغي لرسل الله من عصمة ، لائقا بما أعدّه الله لهم من زعامة » (1) .

(3) **طريقة التبسيط والتيسير :** وذلك بعرض القصه القرآنية في أسلوب بسيط ، ولغة سهلة لا يحتاج إلى جهد من الفهم ، حتى تكون في متناول الأطفال ومن لم ينل حظا كبيرا من الثقافة .

وكثيرا ما يعنى أصحاب هذه الطريقة بإبراز الجوانب الأخلاقية والتربوية من القصة ، والقضايا البسيطة فيها ، وما يغرس الشعور الديني .

فمن الكتب الحديثة :

سلسلة من القصص القرآني : لسيد قطب ، وعبدالحميد جودة السحار

وتشتمل الحلقة الأولى من هذه السلسلة على ثمانية عشر جزءا ، انفرد كل جزء منها بقصة .

مجموعة قصص الأنبياء : بإشراف محمد أحمد برانق

وتحتوي هذه المجموعة على عشرين جزءا انفرد كل واحد منها بقصة .

---

(1) المقدمة (م) .

مجموعة القصص الدينية : بإشراف : محمد أحمد برانق

وتحتوي على عشرين جزءا أكثر قصصها من القرآن . وقد انفرد كل جزء منها بقصة أيضا .

(4) **طريقة الدراسة للقصص القرآني** : وذلك بتحليل منهجه ، وإبراز خصائصه ، والبحث عمّا أثير فيه من قضايا وشبهات ، وما قدّمه بعض المستشرقين وغيرهم من تساؤلات واعتراضات : كمصدر القصص القرآني ، ومطابقته للتاريخ ، وما يبدو فيه من تعارض .

وهذه الطريقة هي أشدّ الطرق اتّصالا بموضوع هذا البحث . لذلك نرى من المفيد أن نشير بإيجاز إلى أهمّ القضايا والجوانب التى درستْها فى هذا القصص كتبٌ مفردة أو فصول خاصة .

فمن الكتب المفردة :

الفنّ القصصي في القرآن الكريم : لمحمد أحمد خلف‌الله .

وهو عنوان لرسالة جامعيّة كان قدّمها صاحبها سنة 1927 . فلم تقبلها اللّجنة ، بل إنّ من أعضائها من طالب يومئذ بتطبيق أحكام الردّة على مؤلفها . وقد شنّت جبهة العلماء حملات عنيفة في الردّ على ما رأت فيها من زيغ وضلال (1) .

---

(1) انظر : مجلة **الرسالة** ـ مجلد : 2 / 15 : صفحات : 1067 ـ 1102 ـ 1106 ـ 1121 ـ 1192 ـ 1205 ـ 1221 ـ 1275 ـ 1294 ـ 1335 .

والمنهج الذي سلكه المؤلف في هذه الدراسة هو منهج المدرسة البيانية ، أو مدرسة الأمناء (1) التي جعلت "فنّ القول" مسرحا لآرائها ومذاهبها في البيان العربي (2) .

ومن هنا جعل المؤلف الفنّ الأدبي في القصة القرآنية أساسا لدراسته ، وبنى على ذلك أن القرآن لا يلتزم الحقيقة التاريخية ، إذ هو يلغي المقومات التاريخية في تصويره للحادثة، ويعرضها على الوجه الذي يراه أشدّ تأثيرا ، وأكثر استجابة لدواعي الفن .

وقد بيّن أنّ هذه الدراسة تنتهي إلى هدفين رئيسيين :

أوّلهما درس أدبي في القصة القرآنية يكشف عن بعض أسرار الإعجاز فيها ، وعن مذهب القرآن في بنائها ، والألوان القصصية فيها من تاريخية وتمثيلية "وأسطورية" .

وثانيهما تقرير قاعدة أو نظرية تحلّ المشكلات وتنفي المطاعن على القرآن بأن في قصصه أخطاء تاريخية ، وتعارضا في القصة التي تكررت . وهذه المطاعن وغيرها إنّما كانت لأن العقل الإسلامي أقام فهمه لقصص القرآن على أساس من التاريخ . ولو أنه حاول فهمه على أساس الفن الأدبي « لأدرك أنّ القرآن لم يقصد في قصصه التاريخ ، وأنّ الاختلاف في هذا القصص إنما هو نتيجة لا ختلاف المقاصد الذي يدفع إلى اختلاف الصور الأدبية ، وعندئذ يغلق هذا الباب الذي جاءت منه الريح » (3) .

---

(1) هى مدرسة أدبية تنسب الى رئيسها أمين الخولى .

(2) انظر : **القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه** : لعبد الكريم الخطيب : 291 .

(3) **الفن القصصى فى القرآن الكريم** : 338 ـ 339 .

القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : لعبد الكريم الخطيب

قدّم المؤلف هذا الكتاب بالحديث عن نشأة القصة في تاريخ الإنسانية عامة ، والحياة العربية خاصة ، مستخلصا من ذلك أن قصص القرآن هو على سمت القصص العربي الذي عرفه العرب في جاهليتهم والذي هو في طبيعته صور منتزعة من الواقع ، بعيدة عن الخيال والتهويل والمبالغة (1) .

ولئن كانت دراسته لقصص القرآن "إنما هي محاولة للكشف عن أسلوب من أساليب القرآن في تبليغ الرسالات السماوية": (2) فقد انتقد طريقة "خلف الله" في أخذه هذا القصص بمعايير القصص الأدبي ، بما فيه من تلفيقات الوهم والخيال ، والتصرّف في أحداث القصة التاريخية ، استجابة لمقتضيات الفنّ في عرضها .

أمّا المنهج الذي ترسّمه هو في بحثه ، فذكر أنه يقوم على التزام النص القرآني ومدلول اللغة له ، دون أن يتجاوزه أو يلقي عليه من مشاعره الذاتية ونوازعه الشخصية دلالات ومفاهيم هي في الواقع غريبة عنه ، دخيلة عليه . لأن ذلك في نظره تبديل لكلمات الله ، وتحريف لها عن مواضعها (3)

وتوضيحا لهذا المنهج قدّم له نموذجا في : (وقفة مع قصة آدم) . وأما البحوث التي تعرّض لها فتشمل : مفهوم القصة القرآنية ، وعناصرها ، وما تتضمنه من قوى غيبية ، ومن صراع ، ونفي التكرار والرمزيّة عنها الخ .... »

---

(1) **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : 39 .**

(2) المصدر السابق : 54 .

(3) المصدر السابق : 373 .

ومن الفصول والمقالات :

القصة في القرآن : من كتاب : (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب .

بيّن في هذا الفصل خضوع القصة القرآنية في موضوعها ، وفي طريقة عرضها ، وإدارة حوادثها لمقتضى أحد الأغراض الدينية التي جمعها في عشرة .

كما بيّن ظهور آثار ذلك الخضوع في سمات معينة ؛ كتكرار القصة الواحدة في مواضيع شتّى ، وعرضها بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض ، وما يتبع ذلك من خصائص تتمثل خاصة في تنوّع طريقة العرض ، والمفاجأة ، وفي الفجوات بين المشهد والمشهد ، وإبداع التصوير في المشاهد ، وفي رسم الشخصيات .

قصص القرآن :

المقدمة السابعة في الجزء الأول من تفسير (التحرير والتنوير) للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .

في هذه المقدمة عرض المؤلف تحقيقات عن القصة القرآنية . فبيّن في تعريفها أنها خبر عن حادثة غائبة عن المخبَر بها . فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة زمن نزوله قصصا ، مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوّهم (1) . كما بيّن الغرض من سَوق القصة القرآنية وأسلوبها ، واستخلص من درسه لها عشر فوائد فصّل القول فيها .

---

(1) **التحرير والتنوير** : 58 .

وختم هذه التحقيقات التي ربما كانت بعض معانيها غير صريحة في كلام السابقين بتوضيح فوائد التكرار للقصة أو لبعض حلقاتها في سور كثيرة ، وما في هذا التكرار من تنويع هو من آيات الإعجاز البياني في القرآن .

1) قصص القرآن من الناحية البيانية ،

2) قصص القرآن : لون من تصريف بيانه

من كتاب : المعجزة الكبرى : القرآن : لمحمد أبوزهرة

بيّن في الفصل الأول وجوه البلاغة فيما تكررّ من قصص القرآن باعتبار أن هذا القصص كان لأمور واقعة، سيق للعبَر واعطاء المثُلات ، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية « ولكي يتبين القارىء الكريم ان التكرار بسبب تعدد العبر التي هي المقصد الأول من القصص نذكر قصة ابراهيم وقصة موسى عليهما السلام فإنهما ذكرتا كثيرا في القرآن الكريم (1) .

وذكر في الفصل الثاني أن البيان القرآني فيه تصريف القول على ألوان متعددة متباينة في حقيقتها ، متلاقية في غايتها . والقصص القرآني لون من هذا التصريف البياني زيادة على أنه في ذاته إعجاز لأن التالي للقرآن يتساءل : من أين جاء محمد بهذا القصص الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها لأنه لم يكن قارئا ؟ انه من عند الله . وبذلك كان هذا القصص من التحدّي (2) فهو لم يكن عبرة

---

(1) **المعجزة الكبرى القرآن** : 175 ـ 176 .

(2) المصدر السابق : 205 .

فقط ، بل كان بيانا لحقائق الاسلام . فنجد فيه بيانا لعقيدة التوحيد والبرهان عليها ، وفيه الحث على المعاملة الطيبة ، وفيه ميزان العدالة في الحكم ، وفيه بيان لبعض الاحكام . وقد مثّل لكل حقيقة بأمثلة من القصص القرآني . وختم هذا الفصل بالحديث عن أسلوب القصص في القرآن وما فيه من تصوير ؛ وذلك من خلال قصص موسى في مدين ، ونوح مع قومه ومع ابنه في حادثة الطوفان ، وأهل الكهف .

اليهود في القرآن : لعفيف عبدالفتاح طبارة .

عرض المؤلف في هذا الكتاب بعض ما ورد في القرآن من آيات في شأن اليهود ، تصور طباعهم ونفوسهم ، ثم رأى أن بحثه عن اليهودية لا تتم فصوله الا اذا أردفه ببعض دراسات لها علاقة وثيقة به . فاختار قصص ثلاثة أنبياء ، وهم : إبراهيم وموسى ويوسف عليهم السلام .

فإبراهيم هو أبو الانبياء ، وجدّ اليهود والنصارى والمسلمين وهو الصّلة الروحية التي تجمع بين هذه الأديان الثلاثة . أمّا يوسف فسيرته مليئة بالأحداث المثيرة ، والعظات الباهرة . وقصته لا تخلو من تصوير بعض الجوانب في البيئة اليهودية .

وأما موسى فهو نبي اليهود الأكبر ومخلصهم من الاضطهاد الفرعوني ، وهو الذى أنزلت عليه التوراة (1) .

القرآن والقصص للشيخ : محمد البشير النيفر

وهو عنوان رسالة مطبوعة ضمّنها خلاصة درس ألقاه ، استهلّه بتقسيم قصص القرآن إلى ما يتعلق بالتاريخ الماضي ، وإلى

---

(1) **اليهود فى القرآن** : 101 ـ 255 .

ما يتعلق بالتاريخ الحاضر زمن التنزيل . ثم شرح طريقة القرآن في ذكر القصص ، والفوائد المشتركة من عرض الأخبار الماضية والحاضرة ، والفوائد الخاصة بكل قسم .

القصص القرآني : القسم الثاني من كتاب "القرآن والكتاب" للاستاذ الحداد .

وهو كتاب جمعت فيه "دروس قرآنيّة" لهذا المؤلف المسيحي تحت ذلك العنوان .

وقد تعرض في هذه الفصول إلى أغراض القصص القرآني وأسلوبه وصلته بالبيئة العربية الكتابية ، وهل القصص القرآني للتاريخ ، أو للتمثيل ؟ وهل من تعارض فيما تكرر منه ؟ وهل هو من المتشابه ؟ وتتلخص هذه الآراء التي بنى عليها بحثه ، في أن أسلوب هذا القصص وموضوعه ظاهرة العهد الثاني بمكة وهو — حسب رأيه — العهد الإسرائيلي في القرآن ، لاعتماد ما جاء في قصصه على علماء بني اسرائيل (1) بمعنى أن القرآن ناقل عن القصص التوراتي الذي كان شائعا في بيئته العربية الكتابية (2) . وهو يرى أن قصص القرآن تاريخ وتمثيل معا . فلا هو من التاريخ الصرف ، ولا هو من التمثيل الصرف . ويردّ على من يقول بالإعجاز البياني في تكرار القصة الواحدة « بأن القرآن هو كتاب دين ، لا كتاب فن ، وأن ما يهمّ البشرية هو صلاحها في الدّنيا ، وصلاحها في الآخرة ، لا الفنّ الأدبي ، والقول الجميل » (3) ويرى أنّ في هذا التكرار تعارضا يجعل القصص القرآني من المتشابه (4) .

(1) **القرآن والكتاب** : (ق : 2) 440 .
(2) المصدر السابق : 571 .
(3) المصدر السابق : 567 .
(4) المصدر السابق : 576 .

من معاني القـــرآن : لعبد الرحيم فودة

احتوى هذا الكتاب فيما احتوى على بعض القصص القرآني . كقصة آدم ، وقصص موسى مع بني إسرائيل وفرعون . وقد سلك المؤلف منهج التحليل المتبسط للمعاني انطلاقا من الدلالات اللّغوية للألفاظ ، كما يدّل على ذلك عنوان الكتاب

القصة ومنهجها في القرآن : للتهامي نقرة .

وهو بحث في حلقات متتابعة ، نشرت تحت هذا العنوان في مجلة "جوهر الاسلام" سنة 1968 في اعداد : 5 و 6 و 7 و 8 و 9 و 10 و 11 و 12 .

وقد تضمّن هذا البحث : منهج القرآن في أسلوب قصصه ، وأوجْه الاختلاف في ذلك بينه وبين الكاتب المقدس ، ومناقشة بعض الباحثين في مصدره وخاصة المستشرقين ، وأسباب دخول الإسرائيليات في تفسيره ، واتجاهات المفسرين فيه بحسب منازعهم .

(1) الخطة المثلى لفهم القرآن وتفسيره – (2) تعليقات المفسرين على القصص :

من كتاب "القرآن المجيد" لمحمد عزة دروزة :

شرح في الفصل الأول ما يهدف إليه القصص القرآني ، وأقام بعض الأدلة على أنّ ماورد فيه من أخبار الأنبياء والأمم السابقة

كان مما يعرفه العرب جزئيا أو كليّا . وعلّل تكرار بعض القصص بتنوع المواقف النبوية في الدعوة ، وتساءل عما اذا كان محتوى قصص القرآن صحيحا من الوجهة التاريخية في جزئيات وقائعة ، وحقائق حدوثه ؟ (1) .

وانتقد في الفصل الثاني ولوع بعض المفسرين بالتخمين والتكلّف والمبالغة ، واختلافهم الشديد في مثل قصص ذي القرنين وموسى وفرعون وبني اسرائيل وسليمان ، مبينا أنّ الطريقة المثلى في تفسيره ان يتفق مع أهدافه ، وأن تقتضيه عباراته ، حتى لا يضيع القصد الجوهري منه (2) .

التربية بالقصة : من كتاب : (منهج التربية الاسلامية) لمحمد قطب

بيّن في هذا الفصل كيف استخدم القرآن قصة آدم ، لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم ، وهي من أهم القصص التوجيهي في القرآن ، لأنها « قصة البشر كلهم على مدار التاريخ » (3) . كما بيّن كيف كان استخدام القصص للتربية جزءا من منهج التربية الإسلامية ، وكيف يختار القرآن من مواقف بطل القصة اللقطة المترفعة التي تغري بالقدوة والسموّ ، واللقطة السوداء التي تنفّر من سلوك المنحرفين (4) .

---

(1) **القرآن المجيد** : 166 ـ 191 .

(2) المصدر السابق : 233 ـ 242 .

(3) **منهج التربية الاسلامية** : 239 .

(4) المصدر السابق : 241 .

قصص القـرآن : من كتاب « نظرات في القرآن » لمحمد الغزالي

وضّـح بالأمثلـة في هـذا الفصل كيف كان قصص القرآن تاريخا للدعـوات الدينية ، ومواقف البشر منهـا منذ فجـر الخليقـة ، وكيف احتـوى على جملـة من سنن الله الكونيـة في قيـام الأمـم وفنائهـا ، وأن ما جاء فيه من أخبار ، هو حق لا ريب فيه . لأن القرآن لا يلجأ الى الأساطير وتلفيق الحكايات لغرس معنى معيّن ، كما يزعم بعضهم (1).

القطيعـة الوطنيـة : من كتـاب معضلـة محمـد : لبلاشـار
R. Blachere : "Le probleme du Mahomet." Rupture avec le paganisme"

تعرض في هذا الفصل للحديث عن مصدر القصص القرآني ، ذاكرا بالخصوص أنّ ممّا لفت انتبـاه المستشرقيـن هو التشابـه الحاصل بين هذا القصص ، وبين القصص اليهودي المسيحي . وقد كان التأثير المسيحي واضحـا في السّور المكيـة الأولى ، إذ كثيـرا ما تكشف مقارنـة القرآن بالنصوص غير الرسمية – « كإنجيل الطفولة » الذي كان سائدا في ذلك العهـد – عن شبـّـه قوي . ويعرض في هـذا الصـدد آراء بعـض الباحثيـن من السـاميين ، مبيّنـا رأيـه فيمـا يستنتـج من العلاقات المستمرة التي كانت تربط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين بمـكة (2) .

مناهج الناس في فهـم القصص : من كتـاب (تفسيـر القرآن الكريم) للشيخ : محمـود شلتـوت

في هذا الفصـل تحدّث عن مناهج الناس في فهـم القصص القرآني كرأي الشيخيـن محمـد عبـده ، ورشيـد رضا في تخريـج قصـة بني

---

(1) نظرات في القرآن : 114 _ 124 ٠
(2) Le Problème du Mahomet : 60

إسرائيل تخريجا لا تساعد عليه اللغة ولا السياق . كما تعرّض إلى نقد منهج المؤوِّلين للقصص كالصوفية والباطنية وأهل الوهم والتخييل الذين يقولون بأن من قصص القرآن ما هو شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين ، أو على ألسنة الطيُور والحيَوان ، للإيحاء فقط بمغزى الحكاية من الإرشاد إلى فضيلة ، والحث عليها ، أو التحذير من رذيلة ، والتنفير منها (1) .

كما عرض المؤلف إلى منهج المفسرين في قبول الروايات على علاّتها ناقدا إياه ، وموضِّحا رأيه في المنهج الذي يختاره . وهو الوقوف على ما ورد في القرآن ، مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها ، وترك ما اتصل بها من روايات ليس لها سند صحيح .

المنهج السماوي في الدعوة إلى الله : من الكتاب الأول (قضية الألوهية بين الفلسفة والدين) لعبد الكريم الخطيب .

وقد تعرَّض في هذا الفصل إلى المنهج السماوي في الدعوة إلى الله ، وأسلوب القرآن في ذلك كدعوة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى . مشيرا إلى وجوه الحكمة في إطلاق وقائع تلك الدعوات من قيود الزمان والمكان . وما مرت به من مراحل عبر تاريخ الانسانية مسايِرة لتطوّرها ورشدها ، وملائِمة لوعيها وإدراكها . ومن دور تلقيني ، يُلزِم الناس بالإيمان بالله، من غير أن تكون لهم مشاركة عقلية أو قلبية في البحث عنه ، والاستدلال عليه ، إلى دور استدلالي يعتمد على المنطق الوجداني ، والبراهين العقلية (2) .

---

(1) **تفسير القرآن الكريم** : 54 .

(2) **قضية الالوهية** ... ج (1) / 317 .



الباب الأول
قسم البحث النظري



الفصل الأول

مصدر القصة القرآنية

ليس البحث عن مصدر القصة القرآنية سوى البحث عن مصدر القرآن كله باعتبار أن قصصه جزء لا يتجزأ منه . (*)

والبحث في هذا الموضوع قد يبدو غريبا . لأنه ما كان يوما محل جدال بين العلماء المسلمين ، ولا محور بحث عندهم ، لولا ما أثاره بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم ، وبنوا على آرائهم في هذه القضية نتائج وأحكاما خاطئة ، لا تتّفق وحقيقة القرآن . فمنهم من يرى في قصص القرآن عامة ، وفيما تكرر منه خاصة تناقضا مع نفسه ، أو مع حقائق التاريخ . وهذا التناقض المزعوم أرجعه بعضهم إلى جهل الرسول بالتاريخ ، وبعضهم الآخر إلى اختلاف الظروف النفسيّة التي كان يعيشها في مراحل التبليغ . فلم تكن تلك الأحداث التي يقصّها – وقد أغرقت في القدم – إلا تصويرا لواقعه النفسي .

(*) رأيت من المفيد إضافة هذا الفصل الى الرسالة لما له من علاقة متينة بموضوع « القصة القرآنية » واقتبست معظمه من دراسة لى نشرت فى العدد الاول من النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين (1972) بعنوان « القرآن والرسول » .

وطائفة تقول : إنّ عمل الفنان لا يعنيه الواقع التاريخي بقدر ما يعنيه التصوير الفني في الابتكار والتغيير ، كما يتّجه الأديب الى تصوير الحادثة تصويرا فنيّا من غير التزام بصدق التاريخ .

وطائفة تزعم أن الأنباء التاريخية إنّما سبيلها النّقل . فهو قد تلقاها عمّن لا يوثق بأخبارهم ورواياتهم من أهل الكتاب الشعبيّين.... إلى غير ذلك من الادّعاءات والافتراضات الوهمية .

ورد في كتاب تاريخ الأديان (Manuel de L'histoire des religions) « كان أسلوب النبيء في القرآن أولَ عهده بالدعوة مفعما بالعواطف قصير العبارات ، فخم الصورة ، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة . وكثيرا ما يكرر الآيات تكرار مملاّ ، حتى تنقلب معانيها إلى الضّدّ . فلّما تقدم الزمن بالنبيء ، فقدَ الأسلوب منهجه الأول ، وأخذ يقص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجة "بوتيفار" . وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك . وفي آخر عهد النبيء فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن ، وأغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى » (1) .

فهي إذن قضية أساسيّة . بل نقطة انطلاق في فهم القصص القرآني وتحليله ، بل فهم القرآن كله . ومنها تفترق طرق دراسته عند من يؤمنون بأنه من عند الله وحده ، وعند من يرون أنه من إنتاج محمد وإنشائه .

---

(1) انظر : **عن القرآن** : محمد صبيح : 144 ـ 147 .

وممّا حال دون إدراكهم لحقيقة القرآن ومصدره أنهم لا يُقبلون على دراسته إلا كما يقبل عالِم النّبات بمِشرطه ومجهره . فوُفّق بعضهم في بحث المسائل القرآنية التي لا تخضع إلا لحكم العقل ، وأخفق جلّهم في سرّ إعجاز القرآن وروعة أسلوبه . فكانت أحكامهم – كما رأيت – مشوبة بالأخطاء .

كما حال دون إقرارهم بقداسة القرآن عدم تصورهم الصحيح لقضية جوهرية أخرى يتوقف عليها إدراك حقيقته وهي :

الوحي والنبوة :

فإن من لا يدرك طبيعة الوحي ولا خصائص النبوة استهدفت دراسته للقرآن إلى الخروج عن المنهج القويم لهذا اللّون من المعرفة .

ومن هنا كان خطأ بعض الباحثين عند تحليلهم لنفسيات الأنبياء ، وفي تفسيرهم لظاهرة الوحي خطأ جوهريا حاد بهم عن الوجهة السّديدة في معالجة هذا الموضوع .

فويلز (G. Wells) مثلا يتخيّل محمدا صلى الله عليه وسلّم رجلا دفعته وساوسه في سنّ الكهولة إلى تأسيس دين ليُعدّ في زمرة القدّيسين . فألّف مجموعة من عقائد خرافية ، وآداب سطحية ، وقام بنشرها في قومه فاتّبعه رجال منهم (1) .

والمستشرق الألماني هوبرت قريمي (H. Grimme) يرى في كتابه "محمد" (2) أنه لم يكن في بادىء الأمر يبشّر بدين جديد ، بل

---

(1) انور الجندى : **الاسلام والثقافة العربية** ... 239 .

(2) Hubert Grimme : Mohamed

كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية كمحاولة للاصلاح الاجتماعي وإزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين.... لذلك نراه يفرض ضريبة معيّنة لمساعدة المحتاجين . وهو إنّما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي ، وتأييد دعوته (1) .

ويرى المستشرق النمساوي الويس شبرنجر (Alois Sprenger) في كتابه "حياة محمد وتعاليمه" (2) أنّ الإسلام لم ينبثق عن إرادة رجل ، بل عن حاجات العصر . وهو لم يتورّع عن أن يستنبط من مدائح أنصار الرسول الجوانب التي يراها مظلمة في شخصيّته . وفي النهاية ينسب إليه مرض الهستريا . .

وأما قولدتزيهر المستشرق المجري فإنه لا يؤمن بأن مصدر وحي الأنبياء هو الله ، بل إن أمْر الأنبياء في رأيه مسألة نفسية ترجع إلى تشبّع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها . ويحاول تطبيق ذلك على محمد صلّى الله عليه وسلم ، ولكن في منطق يتجافى عن الواقع والحصافة . فهو ينسب المعرفة الدّينيّة التي تلقّاها من الوحْي الى عنصرين : أحدهما خارجي يرجع — حسب زعمه — إلى ما استقاه من معرفة دينية بسبب اتصاله باليهود والنصارى وأخْذه عنهم ، وثانيهما داخلي نفساني يرجع الى تأمّلات الخلوة التي أثارت نفسه ، والأحلام والرؤى التي فرضت نفسها على مخيّلته . فهو يقول : (فتبشير النبيء العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينيّة عرفها واستقاها بسبب اتّصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثّر بها تأثّرا عميقا ، والتي رآها

(1) محمد كامل عياد : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . ج 4 / 2 / 44 — 7903 .

(2) Alois Sprenger : Das Leben und die Lehre des Mohamed

جديـرة بـأن توقظ عاطفـة دينيـة حقيقيـة عند بني وطنـه . وهـذه التعاليم التي أخذهـا من تلك العناصر الأجنبيـة كانت في رأيـه كذلك ضروريـة لتثبيـت ضرب من الحيـاة في الاتّجـاه الذي تريـده الإرادة الالهيّـة ...

لقـد تأثّر بهـذه الأفـكار تأثّرا وصل إلى أعمـاق نفسـه ، وأدركها بإيحـاء قـوة التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطـوى عليهـا قلبـه ، كمـا صار يعتبـر هـذه التعاليـم وحيا إلهيّا (1)

ويقـول في موطـن آخـر : « لقد كان مسقـط رأس محمـد مركـَزا من المراكز الهامّة الخطيـرة لعبـادة الأوثان والأصنـام ، كمـا كان مقـرا للـكعبـة المقدسة والحجـر الأسـود ، ومع هـذا كانت المادّيـة ، وكبرياء الجاهلية ، وتحـكّـم الأغنياء في الفقـراء ، هـي المميـزات السائـدة عنـد أشـراف مكـة » .

«رأى محمد هذا ، فأخذ يشكو من اضطهاد الفقراء ، وطمع الاغنياء وسوء المعاملة ، وعدم المبالاة بالصالح العام ، وواجبات الحياة الإنسانية ...

وعندئـذ قابـل بين هـذه الأمـور التي أثارت نفسـه ، والأثـر الذى كان باقيـا وحيّا فيـه ، وهو الأثر المدين به للتعاليـم التي سبق أن تلقّاهـا ، وتفتّحت لهـا نفسه ، وَأشرِبها قلبـه (2) » .

أمّا الوحي كعلم أضافـه الله على روح محمـد وقلبـه بطريقـة غير الطرق الـكسبيـة للعلم ، وفـوق الإلهامات النفسيـة المأثـورة عن بعـض

---

(1) قولد تزيهر : **العقيدة والشريعة فى الاسلام** : ت : محمد يوسف موسى وزميله ــ 12 .

(2) المصدر السابق : 13 .

الخاصة ، وخلاف ما هو مقرّر في علم النفس والفلسفة وسيَر الحكماء والعلماء — فإن (قولد تزهير) لا يتصوره الا أعراضا (باتولوجية) يصاب بها أفذاذ من الرجال . فهو يقول :

(لا نريد أن نتتبع خطوة فخطوة المراحل (الباتولوجية) التي نشأ فيها الشعور بهذا الوحي واعتقاده وتثبيته في نفسه . ومن أجل هذا علينا أن نتذكّر كلمة ذات معنى قالها (هارناك) عن الأمراض التي تصيب الرجال الذين هم فوق البشر دون سواهم ، والتي يستقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة ، كما يتخذون منها قوة تهدم جميع العقبات . ومن ذلك حمية النبيء أو الحواري) (1) .

وقوستاف لوبون لم يفتأ أن جعل الحالة التي تعتري النبيء صلّى الله عليه وسلم عند تَلَقِّي الوحي أشبه بالنّوبة التي تعتري المهوّسين من ذوي الحسّ المرهف ، والمزاج الحارّ ، والشعور الحادّ ، رغم إقراره بحصافة رأيه ، وسلامة فكره . فهو يقول :

« قيل إن محمدا كان مصابا بالصرع ، ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي . وكلّ ما في الأمر ما رواه معاصرو محمد وعائشة منهم ، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهي ، فغطيط فغشيان . وإذا عدوت هوس محمد ككل مفتون وجدته حصيفا سليم الفكر » .

ثمّ يقول :

« ويجب عدّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكثر مؤسّسي الديانات . ولا كبير أهمية لذلك . فلم يكن ذوو

(1) المصدر السابق : 12 .

المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الدّيانات ويقودون النّاس ، وانما أولوا الهوس هم الذين مثّلوا هذا الدور.........
وهم الذين أقاموا الأديان وهدّموا الدول ، وأثاروا الجموع ، وقادوا البشر . ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر » (1) .

إن الأعراض النفسية والفيزيولوجية التي أشار إليها ڤولدتزيهر ، ولوبون في حديثهما عن محمد صلّى الله عليه وسلم وسائر مؤسسي الديانات من الأنبياء ، لا تعدو أن تكون إصابات لأمراض « عصابية ناجمة عن مجموعة من الانحرافات النفسية ، كالتوتّر النفسي ، والكآبة والقلق ، والوساوس ، والأفعال البشرية اللاّرادية ، والشعور بوهن العزيمة ، والعجز عن تحقيق الأهداف ، والمخاوف ، والأفكار السوداء التي تحاصر الفرد في يقظته ، فتدعه مشتّت البال ، وفي النوم ، فلا تدَع للسُّبات إلى جفنية سبيلا » (2) .

إن من التحكّم والمجازفة أن يعُدّ (لوبون) محمدا صلّى الله عليه وسلم من فصيلة المتهوسين ، ولم يثبت تاريخيا قبل البعثة ولا بعدها ، أنه كان من ذوي الوساوس أو السلوك الشاذ والتصرف الغريب ، أو نحو ذلك من الانحرافات النفسيّة التي لا بدّ لها من انعكاسات وردود فعل .

ألم تشهد خديجة وتُعرِّفه بحقيقته لمّا جاءه الحق وهو في غار حراء ، لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع ؟

---

(1) ق لوبون (G. : Le Bon) **حضارة العرب** : 141 ـ 145 .
(2) مصطفى فهمى : **الدوافع النفسية** : 175 .

« كلاّ والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرّحم ، وتحمل الكَلّ ، وتُكسب المعدوم ، وتُقْرِي الضيف ، وتعينُ على نوائب الحقّ » (1)

فما أبعد هذا الكمال الانساني عن الهوس الذي قد يملي على صاحبه مواقف غريبة وأفعالا ينبو عنها ما نسب إليه ربه في قوله :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » (2) .

«ولو انحطّت فطرتهم عن فطرة أهل زمانهم، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخرى ، أومسّ عقولَهم شيء من الضعف، لمَا كانوا أهلا لهذا الاختصاص ، اختصاصهم بوحيه ، والكشف عن أسرار علمه » (3) .

إن الوحي الإلهّي لا يفهم حقيقتَه إلا من أوتي نصيبا من علم الاجتماع ، وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد .

والعلماء المسيحيون فيه ما بين إفراط وتفريط .

فالمتدينّون منهم يفسّرونه بأنه حلول روح الله في روح المُلهَم . ومن حلّ فيه روح الله صار إلها . فالمسيح لم يكن عندهم إلها إلا بهذا الحلول .

فهو في اعتقادهم طبيعة مركبة من طبيعتين امتزجتا وصارتا واحدة . هو مركّب من الناسوت واللاّهوت .

والماديّون يصوّرون الوحي بالصورة التي يقبلها عقل لا يؤمن صاحبه بما وراء الطبيعة من عالم الغيب . بيْد أن العقل ليس

---

(1) رواه البخارى .
(2) سورة القلم : 4 .
(3) محمد عبده : **رسالة التوحيد** : 86 ـ 87 .

مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات (1) ، إذ أن الموجودات أكبر وأبعد مدى من ظواهرها التي يزعم العلم التجريبي أنه يستطيع هضمها ، ولكن قدرة العقل على تحصيل المحسوس هي التي تيسّر له الانتقال إلى غير المحسوس لأن من المدركات العقلية ما ليس بحسّي .

ومن ناحية أخرى فإن البحوث الخاصة بالأديان وبتطور العقائد عَبر التاريخ ، قد زوّدت علم النفس بالعناصر الأولى التي قام عليها علم النفس الديني . غير أنها لم تكشف إلا عن الظواهر الخارجية للدّين كما يحياها المجتمع ، ولا شأن لها بالدين من حيث هو حياة نفسية يحياها الفرد العادي ، فضلا عن النبيء ، لاتّصاله الروحي بما هو إلهي .

يقول فلورنوا "Flournoy" : لنكن على يقين أن عالم النفس مهما كانت درجة الكمال التي بلغها ، سيبقى عاجزا عن حلّ الألغاز المحيِّرة التي يُلقيها الكون والحياة علينا، ولن ينتهك في يوم ما حقّ النفوس الدينية في أن تصوغ عقائدها بشأن القول الفصل في الحقيقة والمصير . ويعترض «فلورنوا» على المتحمّسين للنّزعة العلمية تحمّسا يجعلهم يَرون الدين وما يَتصلُ به من غيبيّات ، لا ينبغي أن يُضيع فيه العالِم وقته ، ولاينبغي أن يكون من موضوعات العلم .

فيعتبر أن في القطع سلفا بذلك مجافاة للروح العلمية الأصيلة التي تتطلب من الباحث النزيه ألاّ يتصدّى لإنكار قضية أو إثباتها إلا بعد فحص تجريبي ، ما دام ذلك القطع يجب أن يستند إلى تحقيق تجريبي (2) »

---

(1) الغزالي : **المنقذ من الضلال** : 86 .

(2) Les principes de la psychologie réligieuse : T. 2, n° 9

« ومن البيّن أن العلوم التجريبيّة بمعناها الإصطلاحي الدقيق قد نشأت في عصر النهضة حين قرر قاليليو (Galiliée) وليوناردي فانسي (L. de Vinci) : أنه من الممكن تعليل أحداث الطبيعة وظواهرها دون أدنى تدخّل لأيّة قوة غير طبيعية . ولم تلبث هذه العلوم الجديدة التي لا تعتمد إلا على التجربة والرياضيات أن اعتقدها عدد من المفكرين ، وكان بعضهم جدّيا ، والبعض الآخر مستهترا . ولكن كلا الفريقين لم يتردد في أن يعلن على الملإ : أن هذه العلوم الحديثة لا تلتئم ألبته مع الروحانية التي أتى بها الوحي . ثم جعلوا يستعينون بتلك العلوم في تأييد مذاهب الماديين ، وفي نشر الريبة والإلحاد (1) » .

وهكذا فإن تفسير ظاهرة الوحي الالهي – وما كان يعتري النبيء عند تلقّيه من حالات خاصة ناشئة عن انسلاخه من البشرية الجسمانية، واتّصاله بالملكيّة الرّوحانيّة – بالهوس أو الصرع أو نحو ذلك من الانحرافات الفسيولوجية أو النفسية على ضوء هذه العلوم التجريبية أو التحليل النفسي ، ضربٌ من التحكّم وجهل لحقيقة النبوة .

وهل يكفي لصنف من أصناف العلوم أن يصل إلى حدّ كبير من الدقّة والتطور حتى تُفرض طريقته في البحث على الميادين الأخرى ، وينتصب رائدا ومعيارا ؟

إن تطور منهج من المناهج العلميّة لا يُعطى كمعيار خارج ميدانه (2)

---

(1) محمد غلاب : **المعرفة عند مفكري المسلمين** – 101 – 102 .

(2) محمد عزيز الحبابي : **الشخصانية الاسلامية** : 69 .

وأمعنُ من ذلك في الخطإ ، الاعتقادُ بأن المنهج الذي يعتمد الملاحظة والتجربة والبرهان ، هو المنهج العلمي الوحيد لكلّ شيء ، وأن كل شيء في الوجود يُحلّ بالعلم ، وبمنهج العلم. وفات الذين يعتقدون ذلك ، أنّهم بمنهجهم العلمي ، قد اتجهوا اتجاها صحيحا نحو عجلة العالَم يفحصونها ويجرّبونها ، ولكنّهم لم يتجهوا نحو مُحرّك العجلة . وقد لا يستطيع العلم بمنهجه أن يبحث المحرّك . ولكن الباحث الدقيق النّظر ، الواسع الفكر ، لايقف في بحثه عند العجلة ودورانها ، بل يبحث ماوراءها . لايقف عند المادة ، ولكن يبحث ما وراء المادة (1) .

وهكذا فإن الباحثين العلميين الذين يستعملون منهج النقد العلمي في موضوع الدين يضعون أنفسهم تمشّيا مع موقفهم العلمي خارج الدين ، لأنهم تعوزهم في الغالب المعرفة بفلسفة الدّين (2)

اثر الوحي السماوي

وفي نظري أن البحث في ماهية الوحي الالهي كالبحث في ماهية النفس ، لا ينتهي إلى نتيجة حاسمة يشتى بها الذين لا يؤمنون بالنبّوة ولا بخصائصها، ولا يحكّمون في مثل هذه القضية سوى العلوم التجريبية التي يعالجون بها المسائل الروحية خارج بيئتها ، كما يعالجون سائر القضايا .

ولعل البحث في الوحي السماوي يكون أجدى وأقوى موضوعية لو صُرِف إلى مضمونه ومحتواه ، وماله من أثر عميق في الأفراد والجماعات .

---

(1) أحمد أمين : **فيض الخاطر** ج : 152/4

(2) دى بور(T. J. de Boer)**تاريخ الفلسفة فى الاسلام** (ت) بوريدة : 84

واذا طلبنا الدليل على نبوّة محمد بعدما أتى بما أتى به ، كنّا كمن يطلب ورقة من الباني العظيم تنص على علمه ومعرفته ، بعد أن انتهى من إقامة الصروح (1) .

أيُّ أمّيّ في التّاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم ، يقطع مرحلة الشباب وديعا هادئا لم يؤْثَر عنه علم ولا حكمة ، ولا شعر ولا خطابة ، ولا إبداع العباقرة ، ولا وثبات الأبطال والزعماء ، ثم ينفتح في الأربعين على عالَم حيث اللهُ يدبّر النظام ، ويهيْمن على أسراره ، فيُصلح أديان البشر : عقائدها وآدابها وشرائعها ، ويُحدث ثورة روحية اجتماعية لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية ، في سنّ لا يتأتّى لمن بلغ مثلها « أن يبتدىء أو يبتدع فيها علما أو فنا ، أو يسنّ فيها شرعا ، أو ينهض في العالم بانقلاب عظيم ، ما لم يكن قد ظهر استعداده له ، وأخذ مقدّماته في ريعان الشباب ؟ » (2)

لم يكن هذا الذي سما بنفسه وهمّته ، وحمله على أن يدفع بالطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والسموّ غير الوحي السماوي يضيء له السبيل .

إنّه القرآن الذي أبدع الله فيه من فنون القول ما أعجز مقارعيه من أهل البيان عن معارضته ، وأودع فيه من بليغ المعاني الحكميّة ، وسامي التشريع ، وروعة الإشارات العقليّة والعلميّة ما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزوله ، وفي عصور بعده متفاوتة . فكان

---

(1) محمود جواد مغنية : **معالم الفلسفة الاسلامية** ـ 159 ـ 160 .

(2) محمد رشيد رضا : **الوحى المحمدى** : 302 .

الوحي نفس المعجزة ، والمعجزة نفس الوحي . وهي دعوة برهانها منها ودليلها متّصل بها ، يؤكّد المعنى الذي أصّله حديث الصحيح عن أبي هريرة أن النبيء صلّى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ نبيٍّ إلا أوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مثلهُ آمن عَلَيْهِ البشر ، وإنّمَا كَانَ الذي أوتيتُ وحْيا أوحَاهُ الله إليَ ، فَأرجُو أنْ أكُونَ أكثرهم تَابعا يَوم القيامة » (1) .

أفيكون هذا القرآن الذي لو نزل في هذا العصر لما اختلفت نظرته للكون ، ولا وصاياه للانسان – وقد حوى من كنوز المعرفة ما لم يحوه سفر – نابعا من استعداد محمّد الشخصي ، أو ممّا اقتبسه في بيئته وأسفاره من أهل الكتاب ، أو بعض الأعراب.... ؟

من آراء المستشرقين في القرآن وقصصه :

إن كثيرا من المستشرقين ممّن عُنوا بالدراسات الإسلامية يكادون يتفقون في الحكم على القرآن بأنه ليس من عند الله ، وأن محمّدا صلّى الله عليه وسلم استقى مادّته ولا سيما قصصه من الأحبار والرهبان الذين كان يلقاهم في أسفاره ، أو يتّصل بهم في مكّة .

ويستدلّون على ذلك بأنّ دراسة القصص القرآني على ضوء ما كشفت عنه الوثائق التاريخية من العهدين وغيرهما من كتب التاريخ والأخبار ، أبانت عن مفارقات تشكّك في صحته ، لأنه كان يتلقّى هذه الأخبار عن الأرقّاء المسيحيين الذين كانوا يخدمون السّادة من قريش ، وكانوا يروون ما تناقلوه من قصص دينّي محرّف .

(1) اخرجه عياض في **الشفاء** : ج : 334/13 .

يقول درمنقام « E. Dermanghame » متحدِّثاً عن كفالة أبي طالب لمحمّد بعد وفاة جدّه : « إنه لم يكن غنيّاً ، فلم يُتَح له تعليم الصبيّ الذي بقي أميّا طول حياته ، ولكنه يستصحبه في التجارة ، فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد النائية ، وتحدق عيناه الجميلتان بمَدْين ، ووادي القرى ، وديار ثمود ، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل ، وماضي نبيّها ويقال : إنه في إحدى هذه الرحلات إلى الشّام التقى بالراهب (بحيرى) في جوار مدينة بصرى ، وأنّ الراهب رأى فيه علامات النبوّة على ما تدلّ عليه أنباء كتبه » (1) .

ولا شك أنّ من يعمد إلى مخالفة الناس فيما تواتر عندهم ، ويأتي على ما يرَون ويعتقدون ، ينبغي أن يكون لديه من الحجج والبراهين ما يَقوى على نقض ذلك ودحضه .

فكيف إن كان حكمه لا يستند إلى دليل نقليّ يثبته التاريخ ، أو برهان عقلي صحيح ؟

فكُتب التاريخ التي أفاضت القول في سيرته صلّى الله عليه وسلم لم تذكر أنه سافر قبل البعثة أكثر من مرتين . وكان سفره في تجارة إلى الشام : مرة في طفولته مع عمه أبي طالب ، وأخرى في شبابه مع (ميسرة) غلام خديجة . ولم يتجاوز في المرتين سوق بصرى . (والقوافل التي تذهب إلى الشام لم تكن تمرّ بمَدْين وهي في أرض سيناء) (2)

---

(1) **الوحي المحمدي** : 86 .

(2) المصدر السابق : 86 .

ثمّ من أين (لدرمنقام) أن محمدا كان أثناء رحلاته يستمع إلى حديث العرب عن ديار ثمود ونبيّهم ؟

ويقول قولدتزيهر : « لقد أفاد محمّد من تاريخ العهد القديم – وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء – ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم ووقفوا في طريقهم » (1)

ويقول : « إن محمدا أخذ يجمع ما وجده في اتّصاله السّطحي أثناء رحلاته التجارية بما كانت طبيعة هذا الذي وجده ، ثم أفاد من دون أيّ تنظيم » (2) .

ويقول في (مذاهب التفسير الاسلامي) : « كان هناك ما ورد في الكتب السابقة من مختلف القصص التي أجملها محمّد وقدّمها في منتهى الإيجاز وأحيانا على وجه متداخل » (3) .

فما هي الرحلات التّجارية التي كان يعنيها قولدتزيهر ؟

وهل كان محمد وتجّار مكّة من رُوّاد العلم والتاريخ بالمعنى الحديث فيشتغلوا بالبحث عن الأمم والأديان ؟ ثم أي خلل أو تداخل رآه في القصص القرآني حتى يحكم عليه به ؟ إنه قول مجرد عن الدليل . فهو لم يذكر ولو على سبيل المثال قصة واحدة من القرآن ، فيقارنها بما يثق به من أخبار القصص الدّيني . إنه لا يصح التنبؤ بما ستسفر عنه هذه المقارنة . لذلك فكل حكم مسبّق لا تؤدي إليه نتيجة البحث لا يُعتدّ به .

(1) **العقيدة والشريعة فى الاسلام** : 15 .
(2) المصدر السابق : 25 .
(3) **مذاهب التفسير الاسلامى** : 75 .

وقد كان مشركو مكة يزعمون أنّ القصص التي جاء بها القرآن إنما تعلّمها محمد من نصراني أعجمي اللسان كان بمكة ، وكان ردّ القرآن على زعمهم : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » (1) .

وذكر الطبري عند تفسيره لهذه الآية أسماء بعض الأشخاص الذين يزعم المشركون أنّ محمدا كان يتّصل بهم ، ويأخذ عنهم هذه الأخبار .

وقال الباقلاني : « إن ما انطوى عليه القرآن من قصص الأولين وسيَر الماضين وأحاديث المتقدمين وذكر ما شجر بينهم ، ممّا لا يجوز علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السيَر ، ودرسه لها ، وعنايته بها ، ومجالسته لأهلها ، وكان ممّن يتلو الكتب ويستخرجها ، مع العلم بأن النبيء صلى الله عليه وسلم لم يكن يتلو كتابا ولا يخطّه بيمينه ، وأنه لم يكن ممّن يُعرف بدراسة الكتب ، ومجالسة أهل السيَر والأخذ عنهم ، ولا لقي إلا من لقوه ، ولا عرف إلا من عرفوه ، وأنهم يعرفون منشأه وتصرّفه في إقامته بينهم ، وظعنه عنهم . فدلّ ذلك على أن المخبِر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه وتعالى علاّم الغيوب » (2)

وقد سار الحدّاد في هذا الاتّجاه ، ولكنّه سلك طريقا ملتويا ، إذ حاول أن يتخرج بالنصوص القرآنية عن مدلولها وتأويلها وفقا

---

(1) النحل 103 .

(2) إعجاز القرآن : 51 .

لهواه ، واخضاعها إلى آرائه الشّخصية ، ليجعل منها دليلا على ما ذهب إليه ، مع تناقض واضح وخلط ملحوظ .

فهو يقول : « يظهر أن اتّصال محمّد كان بالكتب المنحولة المفسّرة للعهد العتيق والجديد عند اليهود والنصارى ، أكثر منه بالكتاب المقدّس الرسمي بسبب شعبيّتها . وكان اتّصاله غالبا بواسطة البيئة وعن طريق السّماع (1)

وكان العهد الثاني من الدعوة القرآنية إسرائيليا بعد هجرة جماعته الصغيرة إلى الحبشة المسيحيّة . في هذا العهد يدعو النبيء إلى التوحيد الخالص بأسلوب القصص القرآني ، حيث يصوّر موقف الحاضرين بأحوال الغابرين (2)....

والسرّ الكبير في حياة محمد وثقافته الكتابيّة والإنجيليّة هو وجود العالِم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد ، ابن عمّ السيدة خديجة في جوار النبيء . وهو الذي زوّجه ابنة عمّه . فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصّر . وكان يترجم التّوراة والإنجيل إلى العربية . فهو إذنْ عالم مسيحي كبير ، يدعو بالتّرجمة إلى المسيحيّة . وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عاما قبل مبعثه . ألاَ تكفي هذه المدّة لنابغة العرب محمد بن عبدالله لكي يأخذ عن نسيبه شيئا من علوم التوراة والإنجيل ؟ وينص صحيح البخاري أيضا أن ورقة هو الذي ثبّت محمدا في دعوته وبعثته لمّا عاد خائفا من غار

---

(1) **القرآن والكتاب** : ق : 2 : اطوار الدعوة القرآنية : 1062 .

(2) المصدر السابق : 1063 .

حراء . وينصّ أخيرا على أنّ الوحي القرآني فتر لما توفّي ورقة ، وحاول محمد الانتحار مرارا لفقده ولفتور الوحي . ونجد في المدينة في معيّة النبيء حاشية مسيحيّة ويهوديّة قد أسلمت ، أو سايرت الإسلام : نجد بلال الحبشي مؤذن النبيء ، وصهيب الرومي المسيحي الثري ، وسلمان الفارسي المسيحي الأصل ، وعبدالله بن سلام اليهودي الوحيد الذي أسلم في المدينة مع كعب الأخبار . وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة الدائم سوى التوراة والإنجيل ؟ »

«فوجود العالم المسيحي مترجم الكتاب إلى العربية ورقة بن نوفل في جوار محمد خمسة عشر عاما قبل البعثة ، وأعواما بعدها في أوائل الدعوة ، ووجود هذه الحاشية الكريمة في المدينة مع النبيء في كل زمان ومكان ، حجّة قاطعة على أن بيئة النبيء والقرآن كانت كتابية من كلّ نواحيها ، وأنْ ثقافة محمد والقرآن كتابيّة في كل مظاهرها ، وذلك في معزل عن الوحي والتّنزيل (1)....»

« والقرآن يصرّح بأن محمّدا يلتقي بالكتاب بدون شك :

« ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » (2)

فالكتاب موجود بالعربية ، ومحمّد يلتقي به ويتّصل بأهله» (3).

أمّا ما يراه الحدّاد من اتّصال محمّد بالكتب المنحولة للعهدين فليس إلاّ صدى لما قاله قولدتزيهر ، وكذلك بلاشير في كتابه

---

(1) المصدر السابق : ق : 2 اطوار الدعوة القرآنية : 1059 ـ 1060 .
(2) السجدة : 23 .
(3) **القرآن والكتاب** : ق : 3 ، اطوار الدعوة القرآنية : 1056 .

"معضلة محمد" إذ يقول : إن مقارنة النصوص القرآنية بالنصوص الإنجيلية غير الرسمية كإنجيل الطفولة توضّح ما كان بينهما من وثيق الصلات ، وليس هذا بالامر الغريب ، متى أدركنا القيمة التي كانت تكتسيها الأناجيل غير الرسمية في عصورنا الوسطى (1) .

فهو يعتبر أن ما ورد في المرحلة المكية الأولى من القصص القرآني يشبه لا محالة القصص اليهودي والمسيحي . ولكنه يتساءل عن وجود اتّصالات مستمرّة بين محمد والفقراء المسيحيين بمكة . فلا ينفي هذه الاتّصالات، بل يؤكّد ثبوتها ، ولكنّه يحترز في إثبات أن يكونوا هم المخبرين له بذلك القصص . ويعلّل هذا الاحتراز تعليلا منطقيا فيقول : « وها أننّا نشعر أنّ النقاش سيحتّد . فالمجادلون المعارضون للاسلام اكتشفوا مادّة ثريّة جدّا في تشابه القصص القرآني والقصص اليهودي المسيحي . فهل كانت لمؤسّس المذهب الإسلامي علاقات مستمرة ومتينة بالفقراء المسيحيين بمكة ؟

يمكن لنا أن نسلّم بوجود هذه العلاقات بدليل ما ردّه القرآن على تُهم المشركين « وقَالَ الذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلا إفْكٌ افْتَرَاه وأعَانَهُ عَلَيْهِ قَومٌ آخَرُون ، فَقَدْ جَاءوا ظُلْمًا وزُورًا وقَالُوا : أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأصِيلاً » (2) وفي هذا الصدد يدلي الطبري في تفسيره بأسماء بعض العبيد المسيحيّين الذين عملوا كمخبرين لمحمّد في مكة ، غير أنه يجب ألا نثق في هذا الخبر أكثر ممّا يجب . فهو لا يفسّر أبدا المكانة الممتازة

---

(1) R. Blachère : Le problème de Mahomet. p. 59

(2) الفرقان : 4 – 5 .

التي يتمتّع بها موسى والحواريّون في النصوص القرآنية التي ندرسها (1) .

ولابد هنا من الإشارة إلى أنّ الأسفار الخمسة التي يسمونها "التوراة" لا دليل على أن موسى هو الذي كتبها ، ولا هي محفوظة عنه بدليل ما فيها من بعض الأخبار التاريخية ، مثل ذكر كتابة موسى للتوراة ووضعها في جانب من التابوت ، وذكر موته ، وعدم مجيء مثله من الأنبياء إلى عهد كتابتها . وقد قامت الأدلّة عند الباحثين الأوروبيين وغيرهم على أنها كُتبت بعده بزمن طويل (2) بغير لغة العصر والبيئة التي ترجع إليها أخبار الوحي ؛ وهي العبرانية القديمة ؛ وإنّما كتبت باللغة الآرمية التي لم تكن موجودة في عصر موسى عليه السلام .

وأمّا الأناجيل الأربعة الرسميّة ؛ وهي كتبٌ في سيرة المسيح عليه السلام وشيء من تاريخه وتعاليمه ، فليس لها سند متصل عند أهلها ، ولم تكتب بالآرميّة (اللغة العبرانية الحديثة) التي كانت سائدة في عصر نزول الوحي على عيسى عليه السلام ، وإنّما كتبتْ باليونانية والسريانية باختلاف الأناجيل . وكذلك يقال في سائر الكتب المنسوبة إلى الأنبياء في مجموع (الكتاب المقدس) (3) الذي اعتاد المسيحيون أن ينظروا إليه كوثيقة إنسانية يمكن بحثها بنفس الطرق التي تُبحث بها الوثائق التاريخيّة . وبالرغم من أنّهم يدركون قيمته كتنزيل إلهي في الأمور الدينية البحتة . فهُم

---

(1) Le problème de Mahomet P, 60

(2) **محمد** رشيد رضا : تفسير **المنار** ـ : ج : 3 / 158 .

(3) **محمد الفاضل ابن عاشور : نشرية جمعية المحافظة على القرآن**

يعتبرونه نتاجا خاصا بوقته فقط ، وأنه متأثّر ببعض نواحي النقص البشري لمَا فيه من أخطاء علميّة وتاريخية .

قال "هنري مارو" « علينا أن نُثبت بادىء ذي بدء أن تعاليم الكتاب تُكوِّن وحدة منسجمة ، ولكن القصص التّوراتي لن تتعدّى منزلة الخرافة ، ما لم نتوصل إلى تدوين وقائعها ضمن نطاق التاريخ العامّ ، ونجد لها مكانا في التواريخ المقارنة لأمبراطوريات الأرض » (1)

ومن ناحية أخرى فإن فكرة الشعب التي تحكي عنها التوراة تخالف عقيدة مصنّفي التوراة ، وكذلك النّقوش التي تفسّر فكرة الشعب تخالف فكرة التوحيد...... ولكن العبرانيين أنفسهم لم يَبقوا على فكرة التوحيد كما علّمهم الأنبياء ، بل كلّما بعدوا عن عصر النبيء ابتعدوا عن تعاليمه .

وفي روايات التوراة نرى أنّ الله الذي خلق الأرض والسماوات أصبح إله بني إسرائيل فقط ، وذلك لأن موسى لمّا ذهب إلى فرعون قال له : « هكذا يقول الربّ إله إسرائيل : أطلقْ شعبي ليعبّدوا إليّ في البريّة » (2) .

فهذا الإله المحصور في شعب بني إسرائيل هو كأيّ صنم آخر كانت القبائل تعبده . وبمرور الزمن أخذ بنو إسرائيل يشخّصون الإله وينسبون إليه عواطف الإنسان وأعماله . فذكروا : أنه كان يتمشّى في الجنة ، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويخشى مركبات الجبال ، وانه دفن موسى حين مات في موآب . ولم

(1) جوزاف هورس : قيمة التاريخ : 31 .
(2) سفر الخروج : الاصحاح الخامس : 1 .

تذكر التوراة أي شيء عن خلود الروح ولا عن البعث والجزاء ، بينما نجد في القرآن ما يدلّ على دعوة موسى إلى الإيمان بذلك (1) .

ثم إنّ من يدرس القصص الذي اشترك في عرضه القرآن والكتاب المقدّس يتجلّى له الفرق واضحا بينهما : سواء في المحتوى أو في الغرض المستخلَص من القصة ، كما سنبيّن ذلك في الفصل الثاني عند الحديث عن منهج القصة القرآنية . فقد وصف اليهود الخالق بما لا يجوز في حقّه ، ووصفوا الأنبياء بما هم معصومون منه .

كما نسب المسيحيّون إلى الله ما نفاه عنه القرآن وهو الأبوّة . فذكروا من وصايا عيسى عليه السلام : (أحبّوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكُم ، صلّوا للذين يسيئون اليكم ويطردونكم كي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات) (2) .

ثم اختلف اليهود والنصارى: (وَقَالَتِ اليَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النّصَارَى : المَسِيحُ ابْنُ اللهِ (3) .

وكلّ ذلك يدل على أنّ التّوحيد الخالص الذي كان يدعو إليه محمّد صلّى الله عليه وسلم ليس إسرائيليا كما يزعم الحدّاد الذي يقول : لقد آمن القرآن ونبيّه الإيمانَ كلّه بنبوّة المسيح ورسالة الإنجيل ، ولكن النّبيء العربي لم يعترف ببنُوّة المسيح ، لأن لم يعرفها حق معرفتها . فقد ظنّ أنّ كل بنُوّة تخضع حكما وضرورة لناموس الجسد ، ولا تكون إلا بامرأة وزوج . ويستدل إثر

---

(1) انظر : سورة غافر : 27 وسورة النجم : 36 ـ 42 .
(2) انجيل متى : اصحاح : 6 .
(3) آل عمران : 68 .

ذلك بآيات من القرآن تُنزّه الخالق عن أن يكون له ولد ، وكأنّ القرآن من تأليف محمد ومن وحي أفكاره ..!

وغريب أمر هذا التحكُّم منه ، إذ تحمله عقيدته على الاستدلال بالقرآن لإثبات ما يريد إثباته من علوّ منزلة المسيح عليه السلام ، وصدق ما جاء به، ومن وحدة الأديان في أصول العقيدة ، ثم هو يُعرض عن ذكر الآيات التي تؤكِّد أن مصدر القرآن هو الله ، صنيعَ من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض — والقرآن وحدة متكاملة في قصصه وأخباره ، وأحكامه وتشريعاته ومنهجه العقائدي وسننه الأخلاقية ، رغم اختلاف نزول آيهِ في الزمان والمكان — وهو مع ذلك لا يعتبره في مستوى الكتب السماوية التي أنزلها الله على الرسل ، رغم إقراره بأنّ (ما حفظ القرآن عن المسيح والإنجيل والنّصارى هو مفخرة للمسلمين إذا هُمْ تجردوا عن تفاسير الشحناء والبغضاء) (1) . وينفي أن يكون لصاحب الدعوة الاسلامية صلى الله عليه وسلم ما يؤيّده من مثل معجزات الأنبياء الذين سبقوه (2) . وبالتالي ينفي ان يكون اسم (أحمد) ترجمة (البارقليط) الذي بشّر به المسيح في الإنجيل ، هو محمد صلى الله عليه وسلم (3). ويُرجع سبب فتور الوحي في الفترة الاولى من البعثة إلى موت ورقة بن نوفل مستدلاً بما ورد في البخاري : (ثم لم يلبث ورقة أن توفّي وفتر الوحي) .

والبخاري لم يقصد أبدا أن تكون الجملة الثانية نتيجة للأولى . ولو قَصد ذلك لاستعمل الفاء بدل الواو ، إذ الواو لاتفيد الترتيب .

---

(1) **الانجيل فى القرآن** : 420 ـ 421 .

(2) المصدر السابق : 718 ـ 720 .

(3) **القرآن والكتاب** : اطوار الدعوة : 672 .

(4) المصدر السابق : 994 .

ثمّ إنّ ما يدّعيه من استفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحيّة الذين أسلموا أو كانوا في معيّته ، فإن إسلامهم حجة قائمة على صدق ما جاء به من الوحي الإلهي . ولو تبيّن لهم أنه كان يتتلمذ بهم في خفاء ليتلقّى عنهم ما كان يدعو إليه لانفضّوا من حوله ، وعادوا إلى ملّتهم ، ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الدعوة إلى الإسلام ، والذّود عن حماه ، والإخلاص للرّسول .

ومن ناحية أخرى فإنّ ما أمكن جمعه واعتماده من وثائق تاريخيّة تتعلّق بالعصر الجاهلي ، لا تفيد أنه يوجد أي تأثير يهودي مسيحي في تلك البيئة .

وقد نفى بشر فارس في دراسة كتبها بالفرنسية (الشّرف عند العرب قبل الإسلام) أن يكون الإسلام من صنع اليهودية والمسيحيّة .

وبحث شدياق (A. P. Chadiac) عن المصادر الإنجيلية التي اعتمدها الغزالي في (الردّ على ألوديّة المسيح بصريح الإنجيل) فاكتشف أنه لم تكن توجد ترجمة عربية للانجيل في عصر الغزالي ، وأنّ أول نص مسيحي تُرجم إلى العربية كان مخطوطا بمكتبة القدّيس (بطرس) كتب حوالي سنة 452هـ (1060)م بيد رجل يدعى (ابن العسّال) (1) .

كما أثبت بعض المؤرخين أن كتاب (التاج) ترجمة عربية كاملة لأسفار العهد القديم قام بها في القرن الرابع للهجرة عالم يهودي شهير يدعى (سعديا الفيومي) . وبعض اليهود ذكر أن هذه أوّل ترجمة للتوراة إلى العربية .

---

(1) مالك ابن نبي : **الظاهرة القرآنية** : (ت) عبد الصبور شاهين : 299

وذكر ابن النديم نقلا عن محمد بن اسحق أن أحمد بن عبدالله بن سلام مولى هارون الرشيد ترجم الصُّحف والتوراة والإنجيل وكُتب الأنبياء والتلاميذ من اللغة العبرانية واليونانية والصابئة إلى اللّغة العربية (1) .

ويبدو أن ابن النديم اطّلع على هذه الترجمة وأفاد منها .

وأمّا استدلال الحدّاد بالآية السابقة على أن محمدا كان يلتقي بأهل الكتاب ، فهو تفسير بالهوى لا بالمنطق ، إن صحّ التعبير . وقد اتّفق الجلالان وابن عباس والنسفي وغيرهم من أعلام المفسرين على أن الضمير في «لقائه» يعود على موسى عليه السلام . والمعنى : فلا تكن في شك من لقائك موسى ليلة الإسراء أو يوم القيامة ، أو من لقاء موسى ربّه في الآخرة .

وهذا شبيه بما ذهب إليه الحدّاد نفسه من تفسير الكتاب بالإنجيل في مثل قوله تعالى : « واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ » (2) .

وبعد هذه الجولات الكبيرة التي قام بها الحدّاد في كُتبه عن القرآن ، وما أثار من شُبهات ، وأوّل من آيات ، ونفى من معجزات ، يتساءل : (هل للقرآن من مصادر ؟) ثم يجيب : (المصدر الأول للقرآن هو الله ، وهذه قضية إيمانيّة لا تُمسّ) (3) .

فأي تناقض أبعد عن الروح العلمية والنظرة الموضوعية من مثل هذا ؟

---

(1) ابن النديم : **الفهرست** : 39 .

(2) **القرآن والكتاب** : ق : 2 : اطوار الدعوة : 1060 .

(3) **القرآن والكتاب** : ق : 2 ـ 298 .

ويضيق نطاق البحث عن مناقشة آراء الكثيرين من المستشرقين وغيرهم ممن ذهبوا إلى أنّ أهل الكتاب هم مصدر القصص القرآني مثل لامنس (Lamance) الذي قال : (حيث التفكير القرآني مسيحي يكون التعبير يهودياً) (1) .

وحنّا زكريا (H. Zakarias) الذي قال : (الاسلام محاولة يهودية قام بها ربّان مكة لتهويد العرب بواسطة محمد) (2) .

ولكن لابد من الإشارة في هذا المجال إلى عنصر جديد أضافه إلى المصدر السابق المستشرق كليمان هوار (C. Hugar) فقد زعم في فصل نشر في المجلة الآسيوية سنة 1904 أنه اكتشف مصدرا جديدا من مصادر القرآن هو شعر أميّة بن أبي الصلت (3) وقارن بينه وبين آيات من القرآن ؛ فاستنتج صحّة هذا الشعر بما يلاحظ من فروق بين ما ورد فيه ، وما ورد في القرآن من تفصيل لبعض قصصه كأخبار ثمود وصالح ، مستدلاً على ذلك بأنه لو كان هذا الشعر منحولا لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن . ثم يزعم أنّ استعانة النبيء به في نظم القرآن ، حملت المسلمين على مقاومته ومحوه ، ليستأثر القرآن بالجدّة ، وليصحّ أن النبيء قد انفرد بتلقّي الوحي من السماء . وكان مما ردّ به الدكتور

---

(1) Une adaptation Arabe du monthéisme : Biblique dans recherches — des sciences religieuses : 161-186.

(2) Entreprise juive. —

(3) شاعر عاش فى الجاهلية والاسلام . وكان يخبر أن نبيا يبعث قد أطل زمانه ، ويؤمل أن يكون هو ذلك النبيء . فلما بلغه خروج رسول الله (ص) وقصته كفر حسدا له ، وكان رغب عن عبادة الأوثان . ولما أنشد رسول الله شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه . وكان يحكى فى شعره قصص الانبياء (ابن قتيبة : **الشعر والشعراء** : 429)

طه حسين على ذلك ، قوله : (والغريب من أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكّون في صحة "السِّيرة" نفسها ويتجاوز بعضهم الشك الى الجحود ، فلا يرون فيها مصدرا تاريخيا صحيحا ، وإنما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعا طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق ليمتاز صحيحها من منحولها . هم يقفون هذا الموقف العلمي من السِّيرة ، ويغلون في هذا الموقف ، ولكنهم يقفون من أميَّة وشعره موقف المستيقن المطمئن ، مع أنّ أخبار أميَّة ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة . فما سرّ هذا الإطمئنان الغريب إلى نحوٍ من الأخبار دون الآخر ؟

أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرءوا من هذا التعصّب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات) ؟ (1)

ومن الكتّاب المسيحيّين من تتحوّل ألسنتهم وأقلامهم — عندما يتحدَّثون عن القرآن والرسول والإسلام — إلى حراب ومعاول مثل : فيليب ايرلنجي (Philippe Erlanger) الذي كتب مقالا طويلا في مجلة تصدر بباريس (2) نسب فيه إلى الرسول من المفتريات والأباطيل قصد النيل من مثاليّتة ، ما يتبرّأ منه كل باحث نزيه ، وما لا يصدر إلا عمّن أغلق فكرَه التعصّبُ والحقد (3) . وكان ممّا ادّعاه في هذا المقال : كثرة اتصال محمد صلّى الله

---

(1) في الادب الجاهلي : 143 .

(2) Historia : Avril 1969-N° 269

(3) انظر مقالـه : qui était Mohamet : 75

عليه وسلم باليهود في مكة – ونحن نعلم أن جلّ يهود الحجاز كانوا بالمدينة ، لابمكة – وأنه كان يسأل خادمهُ زيدا – وهو مملوك للمسيحيين – عن الديانة المسيحية واليهودية ليأخذ عنهما . وكان حاذقا فطِنا أكثر ذكاء وأدق فهما من خادمه .

ويقول في موطن آخر من نفس المقال (1) : « لقد كان محمد عندما هاجر إلى المدينة تلميذا لليهود وهم الذين كوّنوه وأنشأوه.... وقد بدأ جبريل يمدّه ببعض الأساطير التي يعرفها اليهود والمسيحيّون » وغنّي عن البيان هذا التناقض الملحوظ في أقواله التي يقذف بها بلا سند من تاريخ ، أو حجّة من عقل .

وهكذا يمكن القول بأن أكثر المستشرقين وأمثالهم لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن مصدر القرآن وقصصه ، وعن شخصية الرسول والوحي الذي أنزل عليه .

ويرجع ذلك إلى إدراكهم لحقيقة الوحي القرآني ، أو إلى تعصّبهم الديني ، أو إلى تغاليهم في النظرة التاريخية ، ومحاولة إرجاع كل شيء في القرآن وبخاصة قصصه إلى نموذج قديم في كتب العهدين أو في الشعر الجاهلي .

وقد عارض المستشرق السويدي تور اندريه (Tor Andrac) صاحب كتاب : « محمد : حياته وعقيدته » هذه الطريقة العقيمة في البحث ، مبيّنا أن جوهر النبوّة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية . ومهمّة الباحث في رأيه أن يدرك في

---

(1) L'Islam ami des Juifs. P. 81

نظرة موضوعيّة : كيف تتألّف من العناصر والمؤثّرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة . فالإسلام لا ينكر صِلاته بالديانة اليهودية والمسيحيّة ، وعقائد الحنيفية ، وتقاليد العرب القدماء ، ولكن ذلك لا يعني أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر » (1)

الذات المحمدية والوحي القرآني

ولو كان القرآن والحديث صادريْن عن نبع واحد ففيم هذا البون الشاسع بينهما في أسلوب العرض وطريقة التعبير ؟ وكيف يستطيع شخص واحد أن ينطق بكلام فيقول : إنه قرآن من عندالله ثم ينطق بكلام آخر يختلف عنه اختلافا لا يتهيّأ لمصدر واحد مهما كان المتكلّم صَناعا أو حذورا ، فيقول : إنه من كلامه ؟ وكيف يمكن التمييز والتفريق في نفس واحدة وعقل واحد وإدراك واحد بين نوعين من الكلام البليغ (2) ، لكلّ منهما طابعه وصياغته الخاصة ؟ وماذا كان يصدّ الرسول عن نسبة شرف القرآن العظيم إليه ، لو كان من إنشائه وتأليفه ؟

وبالرجوع إلى ما جُمع من شعر ابن أبي الصلت في كتب تاريخ الأدب العربي ، لاحظنا أنّ المسيحييّن من العرب والمستشرقين مثل الأب (شيخو) قد عُنوا بجمع هذا اللون من الشعر الدّيني أكثر من سواهم ....

---

(1) محمد كامل عياد : **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق** – ج : 4 م : 44 – 1969 ص : 797 .

(2) محمد لطفي جمعة : **ثورة الاسلام وبطل الانبياء** : 587 .

ولمزيد الإيضاح نُورد على سبيل المثال هذه الآيات ، وما يتّفق معها من شعره :

« فتَولَّ عَنْهُمْ يومَ يَدْعو الدّاعِي إلى شَيْءٍ نُكُرٍ. خُشَّعًا أبْصَارُهُم يَخْرُجُون مِن الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِر » (1)

« إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أحْسَنُ عَمَلاً . وانَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » (2)

« كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ — قَالُوا بَلَى .... » (3)

ويَومَ موعدهم أن يُحشروا زُمَرا ... يوم التّغابُن إذ لا ينفع الحذرُ
مُستوسقين مع الدّاعي كأنّهمُ ... رِجْلُ الجراد زفتْه الريح منتشرُ
وأبرِزوا بصعيد مُستوٍ جُرُز ... وأنْزِلَ العرش والميزان والزّبُرُ
فمنهمُ فَرِحَ راضٍ بِمَبْعَثِه ... وآخرون عَصوا مأواهمُ سقَرُ
يقول خزّانُها ما كان عندكمُ ؟ ... ألم يكن جاءكم من ربكم نذُرُ ؟
قالو : بلى فتبعنا فِتيةً بطَروا ... وغرّنا طول هذا العيش والعمُرُ (4)

واذا ثبت أنّ هذا الشعر لابن أبي الصلت — ولو أنه لا ينسجم ومواقف أميّة من الرسول موقف الخصومة ، بهجاء أصحابه ، وتأييد مخالفيه ، ورثاء أهل بدر من المشركين — (فلِمَ يكون النبيء هو

(1) القمر : 6 — 7 .
(2) الكهف 7 — 8 .
(3) الملك : 8 — 9 .
(4) البستاني : **المجاني الحديثة** . ج : 1 / 367 .

الذي اخذ عن أميّة ، ولا يكون أميّة هو الذي أخذ عن النبيء ؟

ثم من ذا الذي يستطيع أن يقول : إنّ من ينحل الشعر ليحاكي القرآن ملزَم أن يلائم بين شعره وبين نصوص القرآن ؟ أليس المعقول أن يخالف بينهما ما استطاع ليخفي النحل ويوهم أنّ شعره صحيح لا تكلّف فيه ولا تعمّل ؟ (1) .

كما أورد توسدال (C. Tisdal) شبهات الناقدين للقرآن الكريم ، ومنها هذه الأبيات التي نسبوها إلى امرىء القيس ، والتي لا تخلو من بعض التراكيب القرآنية :

دنت الساعة وانشقّ القمرْ — عن غزال صاد قلبي ونفر
أحْورٍ قد حرت في أوصافه — ناعِس الطرف بعينيه حَورْ
مَرّ يَومَ العيد في زينته — فرماني فتعاطى فعقَر
بِسِهَام من لحاظ فاتك — فتركني كهشيم المحتظَر

« وأيسرُ ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين في أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم ، انهم يحسبون أن العلماء المسلمين يجدون في بحث تلك الأبيات وصَبا واصبا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية ، ولا يلهمهم الذوق الأدبي أن نظرة واحدة كافيه لليقين بإدحاض نسبتها إلى امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية » (2) .

---

(1) طه حسين : **فى الادب الجاهلى** : 142 — 145 .

(2) العقاد : **اسلاميات** : 51 — 53 .

ثم منذ بدء الوحي القرآني إلى نهايته نرى أنّ النبيء صلى الله عليه وسلم لم يتحدّث مع الذّات الإلهية حين تخاطبه بالوحي ، ولم يقف منها موقف المناجاة والحوار ، كما كان موسى وعيسى عليهما السّلام ، وأنّ شخصه لا يردُ في القرآن إلا في واحد من موضعين :

إما موضع المخاطَب : (عَفَا اللهُ عَنْكَ) ، « فَأعْرِضْ عَنْهُمْ وتَوكَّلْ عَلَى اللهِ » ، « وقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا التِي هِيَ أحْسَنُ » .

وإمّا موضع المتحدَّث عنه : « مُحمَّدٌ رسُولُ اللهِ والذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »

بينما نرى أنّ أشخاص أنبياء العهد القديم ، أو شخص عيسى في العهد الجديد ، إنّما يكون كل منهم حاضرا حضور المتكلم لا المخاطَب ، لأنه هو الذي ينشيء الكلام ويتوجّهُ به إلى النّاس باعتبار كَوْنهم شَعْبه ، كما يقول موسى ؛ أو إخوانه كما يقول عيسى .

وأما الله تعالى فنجد حضور ذاته العليّة من خلال نصوص التوراة والانجيل حضور المخاطَب المتوجَّه إليه بالدعاء أو بالمناجاة ، أو حضور المتحدَّث عنه بطريق الحكاية والتبليغ لتعريف الناس به ، ودعوتهم إليه.

فكان للقرآن دون غيره من الكتب السماوية هذه الميزة الفريدة السامية باعتبار أنه (كلمة الله). أعني أنّ الله تعالى بذاته الجليلة هو المتكلّم نفسه بالكلمة القرآنية (1)، كما يدل عليه ضمير المتكلم :

---

(1) الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور : فلسفة القرآن وشموله ، الملحق الثقافي للعمل عدد 57 س 2 ـ 24 / 4 / 1970 تونس .

« نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ، وإذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً » (سورة الانسان 28)

« وإذَا سَألَكَ عِبَادِي عَنِي فَإنِّي قَرِيبٌ» (سورة البقرة 86) .

ولا أدلّ على أنّ الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية ، من نزوله – رغم تباعد الأزمان – على نسق فكري موحّد بعيد عن حدود الفكر البشري في ذلك العصر .

(ولو افترضنا ان التفكير يمكن أن يحدث لا شعوريا ولا إراديا لدى فرد ما ، فإن النبيء رغم هذا لم يكن لديه الزمان المادي كي يتصوّر وينظّم تعاليمه في البرهة الخاطفة للوحي) (1) التي كان يعاني فيها حالة خاصة ، والتي ينزل فيها ما يتجاوز في الكمّ والكيف تلك الومضة السريعة من الزمان . ولقد ألمع القرآن في كثير من إشاراته البارعة إلى هذه الحقيقة بما فيه مقنع للرسول نفسه بضرورة الفصل بين ما هو نابع عن شعوره الخاص ، ومعلوماته الشخصية ، وبين الوحي القرآني حتى يعرف عن بيّنة مدى فضل الله عليه في تعليمه ما لم يكن يعلم.

قال تعالى : « وكَذَلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِنْ أمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ ، ولاَ الإيمَانُ» (2) .

ولا ريب ان هذه الآية وأمثالها قد مرّت بشعوره صلّى الله عليه وسلم ، ومارس حقيقة هذا الفصل وحتميّته التاريخيّة والنفسيّة ، مما تجلّى أثره في أصحابه بكتابتهم ما ينزل عليه من القرآن ،

---

(1) مالك بن بنى : **الظاهرة القرآنية** : 213 .

(2) الشـورى : 52 .

ونهيهم عن كتابة أحاديثه .

وفي هذه الآية : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك . منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » (1) .

يمضي الوحي القرآني ليس أبعد من الفكرة المحمّدية فحسب ، ولكن أبعد مما قد أوحي بالفعل (2) . وهل أدل نفسيّاً على انفصال شخصية الوحي عن شخصيّة الرسول من مخالفة القرآن لطبعه ، وعتابه الشديد له في مثل هذه الآية ؟ « ما كان لنبيء أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدّنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (3) .

فلو أنك تأملت فيما عوتب عليه ، وهو قبول الفداء من أسرى بدر ، لكان أقرب إلى نفسه الكريمة ، وطبعه الرحيم . وهو خير ما يختاره من عُرف برحمة أهله وهداية قومه ، وتأليف خصمه . وإنما نبّهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية . فهل ترى في ذلك ذنبا يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب ؟ أم هو مقام الربوبية ، ومقام العبودية ، وسنّة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب ؟ (4) . وكل هذا مما يفنّد المزاعم القائلة : بأن القرآن من آيات العبقرية المحمديّة . بل يجب ان ننفي عنه صلى الله عليه

---

(1) القصص : 78 .

(2) **الظاهرة القرآنية** : 200 .

(3) الأنفال : 67 ـ 68 .

(4) محمد عبد الله الدراز ـ **النبأ العظيم** : 19 .

وسلم هـذه الصفة إطلاقا إن كانت العبقرية كما قال كرتشمر (-Kretsc hemer) أحد علماء النفس : تقتضي العبقريّة لزوم عنصر المرض النفسي كعامـل جوهـري في شخصيـة العبقـري ، بحيث لو فرضنـا أن صاحبـه يستطيع التخلص منه ، لـكانت النتيجة المحتومـة أن يفقـد عبقريتـه . وقد دعـم رأيـه هـذا بما دلّـت عليـه تراجم العباقـرة ، وما أسفـر عنـه التحليـل النفسي لشخصيّاتهـم من خـلال إنتاجهـم الفـكري والفنـي ، والتشابـه الملحوظ في الظواهر السلوكية لدى كل من العبقري والعصابي (1) ومن ناحيـة أخرى ، فـإنّ النـاس يلـذّ لهـم التـوهّـم بـأن الأفـراد الذيـن يختلفـون عنهـم لا بـدّ أنهـم مصابـون بعلّـة مـا .

والحقّ أنـه لم تـكن للرسول هـذه القدرة العجيبـة على قيـادة الجماهير ، والتأثير في نفوسهـم إلا بمقـدار ما أثّـر فيـه الوحـي الالهي « وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » (2) .

وهـكذا يتبيـن عند تعليـل تلك المفارقات بين ماضي الحيـاة المحمدية وحاضرهـا أنّ القـرآن لم يكن إلا وليـد تعليـم جديـد . وبذلك يصيـر البحث عن مصـدر القـرآن غيـر ذي موضوع ، سيمـا وقـد تظافرت الأدلـة العقليـة والنقليـة والنفسيّة على أن القـرآن كتـاب سمـاوي ، مصـدره هو مصـدر الـكتب السماويـة . فهـو يوصي بمـا أوصت بـه ، ويدعـو إلى مـا دعت إليـه من عقيـدة صحيحـة وخلـق قويـم ، ويصدّق بمـا جاء به موسى وعيسى والأنبيـاء قبلهمـا من الـوحي الإلهـي ، على

---

(1) مصطفى سويف : **الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر** : 129-131
(2) النســاء : 113 .

أساس أن جميع الأديان السماوية تستمد من نبع واحد ، وتتّفق فيما تدعو إليه من حبّ ورحمة واستقامة وإخلاص .

قال عيسى عليه السلام (ما جئت لأنقض الناموس ، بل لأكمله) (1).
وقال محمد صلّى الله عليه وسلّم : إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق) (2)
وقال تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسى وعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (3) .

ولكن ذلك لا ينبغي أن يحمل على الاعتقاد بأن الأديان السماوية – وان اتّفقت في الأصول والأهداف – هي صور مكررة في تشريعها وطرق هدايتها إلى الحق ، لأن ذلك يقتضينا أن نلغي التاريخ ، وألاّ نقيم وزنا لسنّة التطوُّر البشري ، ونتجاهل ما يحيط بكل بيئة وعصر من ظروف خاصة : « وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ ، لِكُلٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً . ولَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » (4) .

(1) **انجيل متى** . الاصحاح الخامس : 17 .
(2) رواه مسلم .
(3) الشورى : 11 .
(4) المائدة : 48 .

الفصل الثاني

المنهج القصصيّ في القرآن

تُعَدّ القصة القرآنية أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي وذلك بما تهدف إليه من دعوة إلى التوحيد ، وتحث عليه من خلق قويم ، وتنهى عنه من فساد وشرك ، وتُثبته من أدلّة على صدق ما جاء به الرسول .

وفي القرآن إشارات تحدّد دورها الأخلاقي الدّيني كقوله تعالى :

« فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (1)

وإذا تأمّلنا في الأسلوب الذي قُدّمت به ، وماله من تأثير نفسي وفنّي ، اتّضَحَ وجه تسميتها "بالقصة" لا استنادا إلى مدلولها اللغوي فقط ، باعتبار أنّ أصل الاشتقاق للفظ (قصة) يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التّسمية القرآنية ، وهو : الإعلام بالنّبإ ،

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقّ » (2)

أو تتبّع الأثر وتقصّيه (3)

« وقَالَتْ لأخْتِهِ قُصِّيهِ » (4)

---

(1) الاعراف : 176 .

(2) الكهف : 13 .

(3) انظر : **القاموس المحيط** : فصل القاف : باب الصاد . ج 2 / 313 .

(4) القصص : 11 .

بل واعتمادا على ما في عرضها من طرق فنيّة ، رغم أن شروط القصة بمعناها الإصطلاحي لا تنطبق عليها غالبا ، لأنها إلى الأقصوصة أقرب ؛ وذلك لقصرها ، واقتصار القرآن في أكثر الأحيان على ذكر حلقة منها أو أكثر ، وعدم استيفائها كل عناصر القصة مجتمعة ، من حوار وأشخاص وزمان ومكان وعقدة ، كما شاع ذلك في معظم القصص الفنّي .

فلا يؤخذ على القرآن أنه لا يتناول القصّة من جميع أطرافها ، أو أنّه يلمّح إليها تلميحا ، اعتمادا على شهرتها « أرأيت الخطيب حين يستشهد بقصة من القصص ؟ أتراه يعمد إلى القصة كلّها فيسردها ، أم إنه يعمد أحيانا إلى جزء من القصة يورده في خطبته . وأحيانا يكتفي بالإيماء إلى القصة ، والإشارة إليها ، من غير أن يكون في مثل هذا العرض نقص في الخطبة ، أو اعتراض على الخطيب ؟ » (1)

لذلك لم يسمّها القرآن (أخبارا) ، لأنه لم يقدّمها كما تقدّم الأخبار المجردة خالية من التصوير الفنّي ، والإثارة النفسية ، ولم يسمّها (حكايات) ، لأنه لم يسردها كما تسرد الحكايات التاريخية في كتب التاريخ مجرّدة ممّا يأخذ الأسماع والقلوب من غوص على مكامن الشعور ، وتشخيص للحادثة ، وتنسيق في العرض ، وإيقاع في الموسيقى اللفظية .

ولكنها أخبار تخيّرها من التاريخ على أساس أنّها أوثق صلة بالإنسان ، وأوضح دلالة على الفكرة ، وأعمق مغزى للغرض .

---

(1) انظر : **اليهود في القرآن** : لطبارة : 256 .

الأسلوب :

فأسلوب القرآن في القصة أن يختار لقطات حيّة من الوقائع التاريخية ، ولا يثقلها بما هو تافه من الجزئيات، والتفاصيل التي تصرف الفكر عن التدبّر والاعتبار ، كما يختار الرسّام للمشاهد من الأشكال والألوان ما يحقّق له الانسجام. وإلاّ فحسبه الصورة الفوتوغرافية الآليّة .

إنه يروي بعض أحداث القصة بأسلوب يبعث فيها الحياة ، فتتخطّى القرون ، ويجعلها كأنها ماثلة، كما في قصة قوم لوط :

« ولَمَّا جاءَتْ رسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وضَاقَ بِهِم ذَرْعًا ، وقَالَ : هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ومِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ . قَال : يَا قَومِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . فَاتَّقُوا اللهَ ولا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي؟ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ؟ قَالُوا : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ . وإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ : لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا : يَا لُوطُ إِنَّا رسُلُ ربِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ . فاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ولا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصابَهُمْ. إِنَّ مَوعِدَهُمُ الصُّبْحُ . أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا،وأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ . ومَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ » (1)

---

(1) هود : 77 – 83 .

لقد أصاب قومَ لوط انحرافٌ فظيع ، فكان ما حكاه القرآن على لسانهم حين قالوا : « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ، وإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ » كاشفا عن نفسيَّة اجتماعيّة منحرفة تَحَلَّل أصحابُهَا من قيود الفضيلة . فلم يصدّهم حياء أو إيمان عن كبت مشاعرهم الجنسيّة الشاذّة ، بلْ أعلنوا عنها في صفاقة ، وكأنهم لا يأتون منكرا . ذلك أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة تشجعه على الاسترسال في ما كان يُحجم عنه منفردا من الميول والأهواء . وهو لا يَكبح جماح نفسه ، لأن الجماعة لا تُسأل عن أفعالها كما يُسأل الفرد ، ولا سيما إذا شاعت تلك الأفعال بين جميع الأفراد (1) : كقوم لوط . فإن الواحد منهم لا يشعر بما قد يجرُّه العمل عليه من تَبِعة وخزي . وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عمَّا لا ينبغي .

فإذا انعدم هذا الشعور حكم المجتمع على نفسه بأنه غير صالح للبقاء . وهكذا نلاحظ كيف اختار القرآن ممّا دار من حوار وجدال بين لوط وقومه عبارة موجزة ، ولكنها بعيدة الأغوار ، فسيحة الآفاق ، تلقي الأضواء على نفسيّة مجتمع مريض .

كما أنّ في ما حكاه القرآن في هذه القصة القصيرة على لسان الملائكة :

« يَا لُوطُ : إنَّا رُسُلُ ربِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ »

---

(1) ق . لوبون (G. Le Bon) : **روح الاجتماع** (ت) أحمد فتحي زغلول : 30 .

ألم يكن هذا التعبير تجسيما لمعنى الأمن من الخوف أمام نفس حزينة حائرة كنفس لوط عليه السلام ، وقد ضاقت به السبل ، واشتدّ عليه الكرب ، وهو الغريب في قوم منحرفين عن فطرة الله ، ضالّين عن هداه ، نزح إليهم من بعيد ، ولا عشيرة له تأويه ، أو قوّة ماديّة تحميه ؟

فكان أصدقَ ما عبّر به عن يأسه وألمه قولُه :

« لَوْ أنّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أوْ آوي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ »

ألاَ يحسّ المؤمنون وهم يتلون هذه الآية مشفقين على لوط من مكر قومه به، وكيدهم له ، ما أحسّ به لوط نفسه عندما علم بأنّه بات في حماية رسل الله من الملائكة الذين جاءوا لتنفيذ أمر الله في قومه ؟

« إنّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ ، ألَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » ؟

ويأتي أمر الله ويحلّ العذاب بقوم لوط فتُصبح قريتهم أثرا بعد عين .

« فَلَمَّا جَاء أمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...... »

فأي تعبير يبلغ في تقريب الموعد وتأكيده ، وتصوير القضاء النازل ، والتدمير الكامل ، وإنذار مشركي قريش عذابا كهذا ، ممّا بلغه ذلك التعبير القرآني الذي يلقي روعته في النفس ، وظلاله في الحسّ ؟ .

وكم يُبدع القرآن في تصوير المشاهد حتى يكاد يجعلها شاخصة كأننا نراها ! ومن ذلك مثلا : هذا الوصف الدقيق لأهل الكهف الذي نقل فيه بالكلمات هيئة الفتْية في مشهد تصويري أظفت عليه صيغة المضارع معنى الإحضار والتّجدّد .

«وتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ . وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ... »

«وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ . وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمِينِ وَذاتَ الشِّمَالِ . وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » (1) .

ومن القصص القرآني ما تمرّ فيه المشاهد قصيرة وبسرعة خاطفة . ومنها ما تمرّ فيه طويلة وفي تُؤَدة ، وذلك بالقدْر الذي يتّفق والغرض الديني منها ، ويتناسق مع السّياق الذي عُرضت فيه . ولكنها في الحالين تضطلع الألفاظ المعبِّرة فيها عن مختلف العواطف والانفعالات ، ويقوم تصوير المشاهد والشخصّيات بدور الإحياء والتّشخيص والحركة . فإذا المعنى المجرد هيئة ماثلة ، وإذا الحالة النفسية لوحة شاخصة ، وإذا الحادثة المعروضة مشهد يجري .

وهكذا فإن التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن . فهو يعبِّر بالصورة المحسوسة المتخيَّلة عن المعنى الذّهنّي ، والحالة النفسيّة.... ثمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها ، فيمنحها الحياة الشّاخصة أو الحركة المتجدّدة...... فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو . وهذه سِمات الانفعالات بشتّى الوجدانات المنبعثة من

---

(1) الكهف : 17 ـ 18 .

المواقف ، تتّسق مع الحوادث . وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنمّ عن الأحاسيس المضمَرة. إنّها الحياة ، وليست حكاية الحياة ! (1) .

الإجمال والتفصيل .

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما نزل من القصص القرآني في أوائل الدّعوة كان جلّه يمتاز بعرض أحداث القصّة في منتهى الإيجاز ، وبالفواصل القصيرة ، والجرس اللّفظي ، والاقتصار على ذكر مَنْ نزل عليهم العذاب ، دون التعرّض غالبا إلى أسماء أنبيائهم ، وما دار بينهم من حوار . لأن الغرض الأول في هذه المرحلة يتمثّل في تحذير مشركي مكّة من العناد والتكذيب والإصرار على الباطل ، وتخويفهم أن يصيبهم ما أصاب مَنْ سبقهم من المكذّبين :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ التِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلاَدِ . وثَمُودَ الذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ . الذِينَ طَغَوْا فِي البِلاَدِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » (2) .

فمَن يتلو مثل هذه الآيات القصيرة السريعة المتّسقة الفواصل ، ذات الرنين الصّوتي المنغّم ، يُحسّ مَا لها من تأثير ، ومن قوة وعنف ، لأنها تتّجه إلى الإرهاب والإثارة .

---

(1) **سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن** : 34 .
(2) **الفجر** : 6 ـ 14 .

إذ لا نكاد نفرغ من قصّة حتى تأتي إثرها قصّة أخرى في سرعة خاطفة وفى نفس الاتّجاه .

وهي طريقة من طرق قصّ القرآن تأخذ السّامعين من جميع أقطارهم ، كما تأخذهم من كلّ مكان ريح عاصفة ، فلا يجدون منها مهربا ، ولا يرون لأنفسهم عنها مَصرفا . وتُصَبّ عليهم العظات والمثُلات ، حتى تقطع عليهم طريق الجدال والحِجاج ، فلا يجدون من الوقت ولا من القوة ما يتيح لهم رجْع الجواب .

وحين تتطوّر الدّعوة ، ويدخل النّاس في دين الله ، ويحتدّ الخصام ويشتدّ الصّراع ، يبرز عنصر الحوار في موضوعات الدعوة : كالوحدانية ورسالات الانبياء والبعث ، فتظهر أسماء الرسل وهم يحاورون أقوامهم . وتمضي القصّة في أناة ومهَل تصوّر الحياة ، وتعبّر عن الشخصية ، فتكون أكثر تبسّطا وتفصيلا ، وتأتي آياتها أكثر طولا ، لأنها تتّجه إلى إثارة التفكير والتأمّل والتروية فيما جرى على الأمم من قبل (1) : كقصة موسى وفرعون في سورة طه التي نزلت بعد سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء ، والتي كان محورها حثّ النبيء صلّى الله عليه وسلم على الصّبر ، وتحمّل ما يلقاه من إعراض قومه عن دعوته تأسّيا بما كان من ثبات موسى وصبره أمام فرعون وملئه .

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ القَوْمَ الظَّالِمِينَ ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ ألاَ يَتَّقُونَ. قَالَ : رَبِّ إِنِّيَ أَخَافُ أنْ يُكَذِّبُونِ .

---

(1) طه حسين : مرآة الاسلام : 150 ـ 151 .

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي . فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ، وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . قَالَ : كَلاَّ . فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ . فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ، وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فِعْلَتَكَ التِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنْ الكَافِرِينَ ؟ قَالَ : فَعَلْتُهَا إِذَنْ وَأَنَا مِنَ الضَّالِينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ المُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ؟ قَالَ : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ؟ قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (1) .

إبـراز العنـاصر

ومن سمات القصص القرآني أنّ العناصر المألوفة للقصّة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكاني وترتيب زماني وعقدة ...... لا نجدها مجتمعة في القصّة القرآنية ، ولا موزّعة توزيعا يجعل لكلّ منها دورا يختلّ بانعدامه توازن القصّة ، لأن المقاصد التي يوحي بها السياق هي التي توجّه أسلوب العرض ، وتتحكّم في ترتيب الأحداث ، وتسلّط الأضواء على العنصر المراد إبرازُه .

(1) الشعراء : 9 ـ 51 .

فقد يكون القصد الإنذار والترهيب مثلا ، فيبرز عنصر الأحداث :
« كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا . فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ (1) .

فقد كان الغرض من عرض ما حلّ بالمكذّبين من قوم عاد وثمود تذكيرَ أهل مكة وتخويفهم من عاقبة تكذيبهم وإنذارهم بعذاب مَنْ سبقهم .

وقد يكون القصد تثبيت الرسول والمؤمنين على الحق الذي يدْعون إليه رغْم ما يلقون في سبيله من أهوال ، فيبرز عنصر الأشخاص تميّزهم الأحداث التي ألمّت بهم ، وما كانت لهم من عاقبة يطمئن إليها المجاهدون .

« وَلُوطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القَرْيَةِ التِي كَانَتْ تَعْمَلُ الخَبَائِثَ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ، وأدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » (2) .

فقد ورد في معرض ما منّ الله به على أصفيائه من نصر وتأييد أنّ لوطا نجّاهُ من القرية التي كان أهلها يرتكبون المنكرات ،

---

(1) الحاقة : 4 ــ 8 .
(2) الانبياء : 74 — 75 .

وآتاه الحكمة والنبوّة ، فحباه برحمته جزاء صلاحه واستقامته ، وأهلك قومه جزاء فسادهم وانحرافهم . فكان في إبراز شخصيّة لوط تسلية وتثبيت لقلب الرسول وأصحابه ، وتفصيل لما أُجمل قبل ذلك بهذه السورة « وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (1)

وقد يكون القصد إقامة الحجة والإقناع بحكاية أقوال الخصم ، أو التعريف بشخصيّة ما ، والتعقيب عليها ، فيبرز عنصر الحوار على طريقة الزّواية للأقوال . فمن التعقيب على أقوال الخصم ومحاجّتهم هذا الحوار الذي جرى بين نوح وقومه مثلا :

« ..... ولاَ أقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خزَائِنُ اللهِ وَلاَ أعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أقُولُ إنّي مَلَكٌ ، وَلاَ أقُولُ لِلذِينَ تَزْدَرِي أعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا . اللهُ أعْلَمُ بِمَا فِي أنْفُسِهِمْ . إنّي إذَنْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا : يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فأكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إنْ شَاءَ وَمَا أنْتُمْ بِمُعْجِزِين . وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أرَدْتُ أنْ أنْصَحَ لَكُمْ إنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (2) .

فقد أشارت هذه الآيات إلى محاجّة نوح لقومه بما يعرّفهم بالله الذي بيده كلّ شيء ، وما كان من عنت قومه وإعراضهم عن الحق.

---

(1) الانبياء : 41 .
(2) هود : 31 – 34 .

ومن تعريف الحوار بالشخصية ما جرى بين موسى وأخيه هارون :

«وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أسِفًا قَالَ : بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي . أعَجِلْتُمْ أمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وألْقَى الألْوَاحَ وَأخَذَ بِرَأسِ أخِيهِ يَجُرُّهُ إلَيْهِ . قَالَ : ابْنَ أمَّ . إنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وكَادُوا يَقْتُلُونَنِي . فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاءِ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَالَ : رَبِّ اغْفِرْلِي وَلأخِي وأدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (1)

فقد دلّت هذه الآيات على سرعة غضب موسى وسرعة رضاه شأنَ صاحب المزاج الحارّ والطبع الحادّ .

وقد يأتي الحدث والشخصية متساويين في الأهمّيّة فيكمّل كلاهما الآخر ويتناوبان على مركز الإهتمام، كما في قصة مولد موسى :

«وأوْحَيْنَا إلَى أمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيهِ . فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَألْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي . إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ . فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وحَزَنًا . إنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ . وَقَالَتِ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ . لاَ تَقْتُلُوهُ ، عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا أوْنَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ » (2) .

---

(1) الأعراف : 150 ــ 151 .
(2) القصص : 6 ــ 8 .

أمّا المكان والزّمان — وإن كانا عنصرين هامّين في القصّة الكلاسيكيّة بإلباسها صورة من الواقع ، وتشخيصها للأحداث في جوّ البيئة التي جرت فيها ، وكلّ ما يتصل بهذه البيئة من ظروف وعادات لها تأثيرها في أخلاق الأشخاص وتصرّفاتهم — فإن القصة القرآنيّة لا يعنيها من ذكر المكان إلا ما جعلت منه جملة الأحداث الهامّة مسرحا لها : كمصر في قصة يوسف مع امرأة العزيز ومع فرعون الملك، وفي غياهب السجن ، وعلى عرش الحكم.

« وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ : أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » (1)

كما لا يعنيها من ذكر الزّمان تحديد تاريخ الحادثة ، ولا مدّتها ، إلا اذا كان في تعيينها أبعادٌ لقيمة الحادثة نفسها : مثل المدّة التي نامها أهل الكهف

« وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » (2) .

والمدة التي أمات الله فيها الرجل الذي مرّ على قرية :

« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا . قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ » (3) .

أمّا الترتيب الزمني للأحداث وما يتبعه من مراعاة الترتيب في الذّكر للوقائع التارخيّة فإنّ القرآن لم يلتزمه . ومن ذلك مثلا :

(1) يوسف : 21 .
(2) الكهف : 25 .
(3) البقرة : 259 .

« وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ ، فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ، وادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وإذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا : اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .... » (1) .

فإن أمْر بني إسرائيل بدخول قرية بيت المقدس كان بعد خروجهم من التّيه ، وإنّ استسقاء موسى وضرب الحجر بعصاه حدثا أثناء زمن التيه ، ولكن القرآن لم يهتم بالزّمن حتى يرتّب عليه الأحداث ، لأنّ غرضه من عرض هذه الأنباء ، إنما هو إثارة الاعتبار ببيان النِّعم متصلة بأسبابها لتُطلب بها ، وبيان النِّقَم متّصلة بعِللها لتُتّقى من وِجهتها .

فكان غرض السّياق يقتضي تذكير بني إسرائيل بما منّ الله عليهم من نعم ، وموقفهم منها موقف الجحود ، ونفض العهود . لذلك جاء ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير ، وأدعى إلى التأثير (2)

ولا شكّ أن هذا الأسلوب في التذكير بالعقاب الإلهي العاجل كنتيجة حتميّة لمعصية الله والكفر بنعمه في حادثة تاريخية معيّنة لممّا يخلق الشعور بالخوف من الله وتجنّب أسباب غضبه وعقابه ،

---

(1) البقرة : 58 ـ 60 .

(2) **المنار** : ج : 1 / 327 .

ويقوى في النفوس القدرة على ضبط الذّات، وتنظيم الدوافع التي توجّه السلوك، فتنمو الشخصيّة، ويعيش المجتمع في سلام وأمن.

وهكذا فإن القرآن لم يلتزم في عرضه لأحداث القصة ترتيبها في الذّكر بحسب ترتيبها في الوقوع، إلا إذا كان الزمن هو المحور الذي يربط الأحداث في تسلسل وتتابع يُفضيان إلى نتائج معيّنة كما جاء في قصة لوط: أنّ الملائكة الذين أرسلوا إليه دخلوا على إبراهيم أوّلاً، ثم عليه ثانيا. فراعى القرآن في الذّكر هذا الترتيب في جميع السور التي عُرضت فيها القصة (1).

وأمّا العقدة فإنها لم تَعد في القصة المعاصرة عنصرا أصليا. وفي قصص القرآن من عوامل الإثارة والتشويق ما أغناه عنها ثم إن في تلميحات القرآن وإشاراته ما يجنّبه الإطالة والسّير في المنعرجات التي تقتضيها العقدة أحيانا. وبذلك استطاع أن يترك في النفس وبسرعة فائقة أثرا عميقا، لأنه لم يزجّ بالسامع أو القارىء في متاهات الخيال، ولم يخرج به عن الغرض الديني المرسوم.

بين القرآن والكتاب المقدّس:

ثُمّ إنّ ما يطويه القرآن في قصصه من مراحل، وما يُعرِض عنه من جزئيات، وما يتركه من فجوات، هو أخصّ ما يمتاز به منهجه القصصي الذي يختلف شكلا ومضمونا عن منهج التوراة والإنجيل.

(1) مثل سورة هود: 69 ـ 83 • وسورة الحجر: 51 ـ 77 •

فقـد عـُنِيت التـوراة كما تـدّل على ذلك فاتحتهـا بتدويـن التّاريخ . وكـان أول سِفـر من أسفارها في تاريـخ الخلـْق منـذ بـدء الخليفـة إلى مـوت يوسف عليـه السـلام .

وكذلك جاءت الأناجيـل الرسميـة (I) تـؤذن فواتحهـا بأن الغرض منهـا تدوين تاريـخ المسيـح عليه السلام ، وذلك ممّا شاهـدوا مـن أفعالـه ، وسمعـوا من أقوالـه ، وعرفـوا من سيرتـه .

أمّا فاتحـة القـرآن فقـد أشارت إلى أنّ القصـد منـه الهدايـة إلى ديـن قويـم ، والإرشاد إلى صراطـه المستقيـم .

ومن هنـا كانت الأحاديث النبويّة المبيـّنـة لقصص القـرآن نادرة بالنسبـة إلى الأحاديث المبيـّنة لآيـات العبادات والمعامـلات ، بـل تـكاد تنحصـر في أحاديث معـدودة كقصـة موسى والخضر . وقصة أصحاب الأخـدود .

وإذا قارنـّا بين ما ورد في الـكتاب المقدّس ، وما ورد في القـرآن من قصص، ظهـر الفـرق جليّـا في الأسلـوب وفي المحتـوى .

فقصّة هبـوط آدم من الجنـّة مثلا تـكتسي في التـوراة صبغـة تشاؤميّة (من المرجـّح أنها نشـأت عن رغبـة الإنسان البـدائي في أن يفسـّر لنفسـه تعاسته البالغة ، وسـوء حالـه في بيئـة غير مـواتيـة لـه ، تفيض بـالمـرض والموت من كـل ناحية في سعيـه لاستبقـاء حياتـه ، إذ لم يـكن له أيّ سلطان على قـوى الطبيعـة . فـكانت نظرتـه إلى الحياة

(I) وهى أربعة : **إنجيل لوقا ـ وإنجيل يوحنا ـ وإنجيل متى ـ وانجيـل مـرقس .**

نظرة متشائمة أمرا طبيعيا) (1) . فقد جعلت هبوط الإنسان إلى الأرض كمن نزل إلى الجحيم ، في حين أنّ القرآن جعل الأرض مستقرا ومتاعا للإنسان ينبغي أن يشكر الله عليه : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ »(2) لأنه ليس غريبا عنها « وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا » (3) ورغم ما سيلقى في الأرض من عناء وكفاح وصراع فإنها لم تُلعن من أجل خطيئته كما جاء في التوراة : « ومن هنا حاقت اللّعنة بالإنسان فكان قضاء مبرما على نوع الإنسان كلّه بعد آدم » .

ولم يجعل القرآن هذه الأرض ساحة عذاب سُجنت فيها إنسانية شرّيرة العنصر ، ولم يجعل المرأة شقيّة بكثرة أتعابها في الحمل وغيره ، وباستعباد زوجها لها كعقاب لها على إغرائه ، لأنهما في القرآن شريكان في المعصية بدون ميز .

بل إنا لنجد في القرآن ما يفيد أن الذي اغترّ بوسوسة الشيطان أوّلاً هو آدم : « فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ؟ » (4)

ولم يرد فيه — كالتوراة — ذكر الثعبان والدور الذي لعبه لغواية المرأة . وليس فيه ما يشير إلى أنّ خطيئة آدم تنتقل إلى جميع أبنائه بالوراثة.

---

(1) إقبال : **تجديد التفكير الدينى فى الاسلام** : 96 — 97 .

(2) الأعراف : 10 .

(3) نوح : 17 .

(4) طه : 120 .

كما أصبح يعتقد المسيحيون أن التعميد عندهم محو للذنوب التي ارتكبها الإنسان ، ومحو للخطيئة الموروثة . بحيث لو مات طفل من غير أن يعمّد لكانت الخطيئة الكبرى التي ورثها عن أبيه كافية في منعه من دخول مملكة السماء . ولكن القرآن ينفي ذلك نفيا قاطعا ، ويجعل مناط التّبعيّة الفردية كل تكليف من تكاليف الدّين ، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق .

« وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا ، وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخْرَى» (1) .

ومبعث الخطيئة الكبرى – كما يستفاد من نص التوراة – هي طموح الإنسان إلى العلم والخلود اللّذْين استأثر الله بهما . فهو على هذه الصورة مَالِكٌ يكره من رعاياه ان ينفسوا عليه أسرار الحكم والبقاء ، أو يتساموا إلى منازعته في المعرفة والخلود والسلطان ، فيبتليهم بالعجز والحرمان ، ويحدّ حظوظهم في النعمة والحياة (2) ، أو نحو ذلك ممّا يتنافى مع الكمال الإلهي الذي بيّنه القرآن . لذلك يجب القطع بأن هذه النقطة محرّفة في التوراة كتحريف نقطة شمول الخطيئة ، لأن القرآن كشف عمّا جاء في التوراة نفسها : وهو أن الخطيئة لا تتعدّى بالوراثة لمن لم يرتكبها : « أمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإبْراهِيمَ الذي وَفَّى ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخْرَى . وأنْ لَيْسَ لِلانْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى » (3)

ثمْ إنا لنجد في التوراة التي بين أيدينا تناقضا في عدة مواطن . منها : أن الأبناء تؤخذ بذنوب الآباء إلى ثلاثة أجيال .

(1) الانعام : 164 .

(2) ع. م. العقاد : **الفلسفة القرآنية** : 142 – 143 .

(3) النجم : 36 – 39 .

وفي الفقرة العشرين من الباب الثامن عشر من كتاب (حزقيال) :
« النفس التي تخطيء فهي تموت . والابن لا يحمل إثم الأب . والأب لا يحمل إثم الابن . وعدل العادل يكون له . ونفاق المنافق يكون عليه » .

القـرآن

البقرة 35 — 39

35) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا . وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

36) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ .

37) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ . إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

التـوراة

سفر التكوين : فصل : 3

1) والثعبان صار حكيما من جميع حيوان الصحراء الذي خلقه الله تعالى . فقال للمرأة : أيقيناً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنان ؟

2) قالت المرأة للثعبان : من ثمر شجر الجنان نأكل

3) لكن من ثمر الشجرة التي في وسطه قال الله : لا تأكلا منه ولا تدنوا كي لا تموتا .

4) قال لها : لستما تموتان

5) إن الله عالم أنكما في يوم أكلكما منه تنفتح عيونكما وتصيران كالملائكة تعرفان الخير والشر أكثر .

38) قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

39) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون .

6) فلمّا رأت المرأة أن الشجرة طيبة المأكل ، شهية المنظر، أخذت ثمرها فأكلت وأعطت بعلها فأكل معها .

....13) قال الله للثعبان : لمّا فعلتَ هذا بعلمٍ فأنت معلوم من جميع البهائم وجميع وحش الصحراء وعلى صدرك تسلك ، وترابًا تأكل طول أيام حياتك .

14) وأحمل عداوة بينك وبين المرأة وبين نفسك ونسلها وهو يشدخ منكَ الرأس ، وانت تلدغه في العقب .

15) وقال للمرأة : لأُكثرنّ مشقتك وحملكِ ، وبمشقة تلدين الأولاد ، وإلى بعلكِ يكون قيادُكِ وهو يتسلط عليكِ .

16) وقال لآدم : لمّا قبلتَ قول زوجتك ، فأكلتَ من الشجرة التي نهيتكَ عنها فملعونةٌ الأرض بسببك . بمشقة تأكل منها طول حياتك .... الخ) .

فالقرآن يختتم هذه القصة بهبوط آدم وزوجه والشيطان إلى الأرض ولا يزيد على ذلك ـ كما تزيد التوراة ـ سوى استغفار آدم من ذنْبه وقبول توبته ، لأنّ الهدف الدّيني يتّم بذلك . أمّا الفنّ فيكتفي بهذا الختام ليترك المجال مفتوحا للخيال يتبع آدم وزوجه في الأرض غريبيْن لم يعرفا أقطارها ، ولم يتعوّدا حياتها ، وليست لهما خبرة بالمعاش فيها ، إلى آخر ما يتملاّه الخيال من مشاهد وفروض قد يقضي على جمالها الفني كلّ إسهاب في القصة بعد هذا الختام (1).

كما يتجلّى الفرق بين أسلوب القرآن والإنجيل في قصة تبشير زكرياء بغلام. وقد وردت هذه القصة في القرآن (2) وفي إنجيل لوقا .

وكلاهما جمع الحديث عن مولد يحي (يوحنّا) بن زكرياء ، وعيسى بن مريم ، إذ لم تَكَدْ تختم فيها قصة ميلاد يحيى ، حتى تُستهلّ بقصة ميلاد عيسى . ويشتركان في الدّلالة على قدرة الله في الخَلق . وفي القرآن إشارة تكشف عن سرّ هذا الجمع بين القصتين في مقام واحد وهو : أنّ ما أثار زكرياء ، وحرّك رغبته في إنجاب الولد وامتداد الحياة في عقبه ما رآه من عناية الله بمكفولته مريم ، وما كان يهيّىء الله لها من الرزق « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّاءُ المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا . قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ . إنّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّاءُ رَبَّهُ .... » (3) .

---

(1) **التصوير الفنى فى القرآن** : 145 .

(2) وردت فى آل عمران : 38 ـ 41 ، وفى مريم : 2 ـ 11 .

(3) آل عمران : 37 .

وهـذا يوضّح كيف أنّ القصص يجيء في القرآن مرتبطا بالسياق ، متناسقا معه . فيكون الجمع بين قصتين أو جملة قصص على أساس وحدة الموضوع والهدف أكثر من أي اعتبار آخر ، كوحدة الزمان والمكان . والجدير بالملاحظة أن القرآن انفرد في هذه القصة – كما هو شأنه في سائر قصصه – بذكر ما يدعم الايمان ويجعل الله سبحانه في كلّ آنٍ قبلة القلوب ومنبع الأسرار ومطمح الأنظار . وهو هنا‌ا توجّه به زكرياء الى الله من دعاء يُشيع في القصة أسمى المعاني الرّوحية

« .... قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » (1) .

« قَالَ : رَبِ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرّأسُ شَيْبًا وَلَمْ أكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِنْ ورَائِي ، وَكَانَتِ امْرأتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » (2) .

وعناية قصص القرآن بالجانب الروحي هو ما يسميه بعض علماء النفس "تسامي الغَرائز" .

ولم يذكر القرآن بعض التفاصيل التي وردت في إنجيل لوقا ، ولا اسم زوجة زكرياء ، ولا عبارات تتصل بالطقوس الدينية القديمة التي لا تتماشى وتجديد الاسلام لروح العبادة، وتطويره لمفهومها ، مثل:

---

(1) آل عمران : 38 .

(2) مريم : 4 – 7 .

هيكل الرب ، ومذبح البخور ، والكهنوت ؛ بل اقتصر في وصفه لهذا المشهد على أنّ زكرياء كان قائما يصلّي في المحراب ، وأن الله استجاب دعاءه لحينه دون أن يَدخل في شيء من التفاصيل الواردة في الإنجيل ؛ لأن غرضه أن يبيّن بالقصّة عنايةَ الله بأنبيائه واستجابتَه لدعائهم جزاء استجابتهم له ، وأن المُوجِدَ الأعظم قادر على خلق غير العاديّ وايجاده ، ولا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء . ولاشك أن هذه الأغراض هي في القرآن أبرز منها في الإنجيل كما سيتضح ذلك بالمقارنة .

وقد قصدتُ عرض القصة كما وردت في سورتي آل عمران ومريم لمعرفة أوجُه التنويع في أسلوب العرض ، ولملاحظة أنّ ما ذُكر منها بإيجاز في سورةٍ ذُكر في الأخرى بأكثر تفصيل كدعاء زكرياء ، ووصف ابنه يحيى . وذلك من منهج القرآن في التكرار كما سنبينه في الفصل الموالي .

القرآن	انجيل لوقا
سورة آل عمران : 38ـ41	الفصل الأول : 7ـ22
(38).....هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّاءُ رَبَّهُ قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ	(7)....ولم يكن لهما ولد لأن "إليصابات" كانت عاقرا وكان كلاهما قد طعنا في أيّامهما .
(39) فَنَادَتْهُ المَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ	(8) فبينما هو يكهن في أيّام ترتيب خدمته أمام الله

أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ونَبِيئًا مِنَ الصَّالِحِينَ .

(40) قَالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ ، وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وامْرأتِي عَاقِرٌ . قَالَ : كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ .

(41) قَالَ : رَبِّ اجْعَلْ لِيَ آيةً. قَالَ : آيتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ إلاَّ رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا ، وسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ والإبْكَارِ

سورة **مريم** : (4-11)

(4) قَالَ : رَبِّ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْبًا وَلَمْ أكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ؛

(9) كعادة الكهنوت إذ بلغته نوبة وضع البخور فدخل هيكل الرّب ؛

(10) وكان جميع الشعب يصلّون خارجا وقت البخور .

(11) فظهر له ملاك الرّب قائما عن يمين مذبح البخور .

(12) فلما رآه زكرياء اضطرب وغشيه خوف عظيم

(13) فقال له الملاك : لا تخف يا زكرياء . فقد سمعت طِلبتك . وامرأتُك "إليصابات" تلد لك ابنا وتسميه "يوحنا"

(14) ويكون الفرح والابتهاج ، لكَ كثيرون سيفرحون بولادته لأنه يكون عظيما أمام الرّب، لا يشرب

(5) وَإِنِي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي ، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا .

(6) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا .

(7) يَا زَكَرِيَّاءُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا .

(8) قَال : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الكِبَرِ عُتِيًّا .

(9) قَالَ : كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا .

(10) قَالَ : رَبِ اجْعَلْ لِيَ آيَةً قال : آيَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا .

خمرا ولا مسكرا ويمتلىء من روح القدس وهو في بطْن أمّه .

(15) ويعيد كثيرا من بني إسرائيل الى الرّب إلههم

(16) وهو يتقدم أمامه بالروح وبقوة إلِيلياء ويقبل بقلوب الآباء على الأبناء والذين لا يطيعون إلى علم الأبرار ، ويعدّ للرّب شعبا مستقيما .

(17) فقال زكرياء للملاك : كيف أعلم هذا وأنا شيخ وامرأتي قد طعنت في أيامها ؟

(18) فأجابه الملاك قائلا : أنا هو جبريل الواقف قدّام الله، أرسِلتُ لأكلّمك بهذا وَأبشرك .

(19) ومن الآن تكون صامتا لا تستطيع أن تتكلم إلى اليوم الذي فيه يكون هذا ، لأنك لم تؤمن بكلامي الذي يتم في أوانه

(20) وكان الشعب منتظرين زكرياء متعجّبين من بُطئه في الهيكل .

(11) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا .

(21) فلمّا خرج لم يقدر أن يكلّمهم . فعلموا أنّه قد رأى رؤيا في الهيكل ، وكان يشير إليهم ، وأقام صامتا .

(22) فلمّا كملت أيامُ خدمته مضى إلى بيته .

وانّما اقتصرت هنا على إيراد بعض ما اشترك في عرضه من القصص القرآنُ والتوراة ، والقرآن والإنجيل دون استقصاء ، لأني قدّمته كنموذج حتّى يتّضح الفرق من حيث المنهج والأسلوب . أمّا الفرق في محتوى هذا القصص فسأوضّحه بأكثر تفصيل في الفصل الرابع عند الحديث عن موضوع "الصدق في أخبار القرآن" .

الفصل الثالث

التكرار في قصص القرآن

أسبابه :

نزل القرآن منجّما في ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة . وكانت المرحلة الأولى للوحي بمكة أين وُلد الرسول ونشأ وبُعث بالرسالة . وكان جُلّ ما نزل من القرآن في هذه المرحلة يهدف إلى إنشاء عقيدة التوحيد ونشرها في قوم لم يكلّفوا قط بشريعة ، لوجودهم في فترة من الرسل بين جدّهم إسماعيل ومحمد عليهما السلام . وهي مدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة (1) .

قال تعالى مخاطبا رسوله صلّى الله عليه وسلم : (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) (2) .

وبتعاقب الدهور والوراثة والمحاكاة تأصّلت فيهم عقيدة الشرك واستحكمت حتى صار من العجَب أن يقال لهم : الله واحد . « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» ؟ (3) .

وقد اقتضت حكمة الله ألاّ تبقى الخوارق المادّيّة هي الدّعامة الأساسية للتصديق بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلم ، وبما يدعو إليه ،

---

(1) محمود شكرى الآلوسى : **بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب** : 109 ـ 110 .

(2) القصص : 45 .

(3) ص : 4 .

رغم إلحاح الجاحدين في مطالبته بالآيات الحسّية كما حكى عنهم القرآن ذلك حوالي خمس وعشرين مرة .

ولا شك أن مناشدة القرآن للعقل والحسّ بالنظر في الكون والنفس ، والوقوف على أخبار الماضين لممّا يوضح سرّ انتهاء النبوّة ببعثة خاتم المرسَلين حتى لا تبقى الخليقة معتمدة إلى الأبد على من يرشدها من الرّسل إلى العقيدة الصحيحة (1) .

ومثل هذا الاعتقاد قوة سيكولوجية تفتح السبيل للعلم والمعرفة ، وتحُول دون الإذعان إلى أي سلطان روحي في الأرض غير سلطان الله . فكان في النبوّة وختمها معا شرف للانسان بإصطفائه لرسالات السماء ، وتكريمٌ له ببلوغه مرحلة الرشد .

ومن هنا ندرك عظمة الرسالة المحمّدية ، وترشيحها للتعميم والخلود ، ومدى الصعوبات التي لاقاها الرسول في الدعوة من قوم استبدّ بهم التعصّب لما أَلِفوه من عادات بلغت من الثّبات درجة الجمود ، فتمكّنت من طباعهم ، ومعتقدات اكتست قداسة بمرور الزّمن ، فسيطرت على قلوبهم ، وتمكّن لهم بها نظام قبلي طبقيّ لا يرضوْن به بديلا ، لأنهم لا يجدون عزّتهم إلا في ظلّه ولا يظفرون بمكانة إلاّ في حماه .

فلقد كانت مكّة منطلَقُ الدعوة المحمّديّة هي موطن السادة من قريش الذين قد لا يخفى على ذكاء بعضهم أنّ ما يدعو إليه القرآن لا يقاس بما في عقيدتهم من سخف وسذاجة ، ولكنهم

---

(1) **تجديد التفكير الدينى فى الاسلام** : 144 .

يـدفعونه بـكلّ ما يملـكو نمن قوّة ، لأنـه يـؤول بهم في النهايـة إلى القضاء على سيادتهـم وفـوارقهم واعتزازهم بأنسابهم ومقوّمـاتهـم الـموروثـة .

كانت قريش في الجاهلية تقف في الحجّ بالمزدلفة ، ومنهـا تفيض . بينمـا تقف بقيّة القبائل العربيـة بعرفات . فجـاء محمّد صلّى الله عليـه وسلم وهو من سادة قـريش ، فـوقف بعرفات مثـل سائـر القبائـل . والقـرآن يـأمر قريشا فيقـول : « ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاسُ » وما ذاك الا تحقيقـا لمبـدإ المسـاواة .

فما حوّل الأثَرة إيثارا ، والإمتيازات مساواة ، والقسوة رحمة ، والعصبيّـة القبليّـة أخـوّة في الدين ، والعبوديّة للتقاليـد والأوثـان عُبودية لله وحـده غيـر عقيـدة التوحيـد التي لم يـكن لهـا هذا الأثـر العظيـم ، إلاّ لأنهـا امتزجت بالمشاعـر ، ورسخت في الضمائـر ، وصارت مصـدرا للنظـام والتشريـع ، وقاعـدة للسيـر والعمـل ؟

وذلك أنّ في الإنسـان من العواطف مـا ينـزع إلى الإبقـاء على القديم، (وروح الإنسان يعـوقهـا في سيـرْها قُدُمـا قـوّى يظهـر أنهـا تعمـل في الاتّجاه المضادّ . وما هـذا إلاّ ضـرب من القـول بـأن الحياة تتحـرّك ، وهي تحمـل على عاتقهـا أثقال ماضيهـا) (1) .

وقد أثبت علمـاء النفـس أنّ هنـاك حيـاة نفسيـة مظلمـة مؤلّفة من النزعات الخفيّة ، والأهواء القديمة ، والأحلام المكبوتة ، والعادات المورو ثـة .

---

(1) **تجديد التفكير الدينى فى الاسلام** : 191 .

قال باسكال : إنّ تهيّجاتنا وأهواءنا وميولنا متّصلة بماضينا ومزاجنا . فتارة تمرّ بنا الأيّام طافحة بالسّرور ، وأخرى نستثقل فيها كل لطيف ، ونستقبح كل جميل (1) .

وما أسرع ما تخبو ومَضات الإيمان إن لم يتمكّن ، وتفتر المشاعر الدينية إن لم تستقرّ ، فتترك القلب في ظلام وحيرة !

وقد قيل : (من السّهل جدّا الإيحاء بفكرة وقتية في عقول الجماعات ، لكن من الصعب جدا تمكين معتقد دائم في قلوبها ، أو هدم اعتقاد تمكّن منها) .

« قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » (2) . ولم يكن للرّسول من دليل في هذه الطريق الشّائكة المتشعّبة سوى الوحي القرآني الذي كان يهدف في المرحلة المكّية الشاقّة إلى أن يُشرب القلوبَ عقيدة التوحيد ، ويمحو منها العقيدة الوثنيّة ، بما قصّ من أنباء وضرب من أمثال ، وأقام من أدلّة . (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلاّ كُفُورًا) (3) لأنّ غرضه ليس بيان الحق فقط ، بل تعميق مجراه في القلوب (4) .

---

(1) جميل صليبا : **علم النفس** : 151 .

(2) الحجرات : 14 .

(3) الاسراء : 89 .

(4) محمد الغزالي : **نظرات في القرآن** : 133 .

ولم يكن هذا الحقّ سوى عقيدة تصل النّاس بربّهم من غير واسطة ، فيؤمنون بأنه هو وحدَه صاحب الحوْل والطّول ، منه المبدأ وإليه المصير ، فتتحرّر قلوبهم ، وتصلح نفوسهم ، وتستقيم حياتهم على نهج قويم .

والاعتقاد هو الحالة النفسّية التي تَعقب الحكم وتقلبه بالتّكرار إلى عادة . وهو يغذّى بالعمل والحياة . والإيمان الذي لم يصحبه عمل قد يكون صادقا ، ولكن لا يلبث أن يصاب بالفتور والموت .

قال ابن القيم الجوزية : «إن كلّ آية في القرآن متضمّنة للتّوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه . فإن القرآن إمّا خَبَر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ؛ فهو التوحيد العلمي الخبري . وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ؛ فهو التوحيد الإراديّ الطلبي . وإما إلزام بطاعته في أمره ونهيه ؛ فهو حقوق التوحيد ومكمّلاته ، وإمّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ؛ فهو جزاء توحيده . وإمّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدّنيا من النّكال ، وما يحلّ بهم في العقبى من العذاب ؛ فهو خبر عمّن خرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم (1) .

فتكرار القصة في القرآن وثيق الصلة بمنهجه القصصي . إذ هو يخدم غرضين فى آن واحد :

---

(1) **مدارج السالكين** : ج : 3 / 289 ـ 290 .

غرضا فنيّا يتمثّل في تجدّد أسلوبها إيرادا وتصويرا ، والتفنّن في عرضها إيجازا وإطنابا ، والتنوّع في أدائها لفظا ومعنى .

وغرضا نفسيّا بمالَـه من تأثير في النفوس . لأنّ المكرّر ينطبع في تجاويف الملكات اللاّشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرّر في علم النفس .

ونحن نلاحظ كيف صار أصحاب المصانع والشركات التجارية يستخدمون وسائل الإشهار لمصنوعاتهم على أوسع مدى ، وذلك بتكرار الدعاية لها في صور متنوّعة ومناسبات مختلفة قصدَ التأثير.

يقول علماء النفس : إنّه متى كثر تكرار أمر تولّد تيّار فكريّ وعاطفيّ يتلوه ذلك المؤثّر العظيم في الأفراد والجماعات وهو العدْوى . إذ لا يكفي لتحوّل الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة ، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرّر حدوثه . فالتّكرار هو السبيل الوحيدة لربط الانفعال به، وتركّزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة (1) وإن عاطفة قوية لَكافية لتحديد نشاط الفرد واتجاهه في الحياة ا(2) ولا شك أن تكرار القول لا يقلّ تأثيرا في إثارة الانفعال وتكوين العواطف من تكرار الفعل ، بل إنّ التكرار في القول ممّا يدفع إلى الفعل .

---

(1) مصطفى فهمي : **الدوافع النفسية** : 101 .

(2) المصدر السابق : 97 .

مواطنه :

ومن هنا كان التكرار في القرآن موجَّهاً إلى صميم العقيدة أكثر من سواها ، كالمعاملات والأحكام . وكان تأكيده لحقيقة التوحيد بتكريره إياها في صور متنوّعة ، وإبرازها في القصص والأمثال على الخصوص ، من أهمّ العوامل في تقريرها وترسيخها .

ومن أكثر الأنبياء ذِكرا في القرآن بعْد موسى إبراهيمُ الخليل . قيل : إنه ذكر في خمسة وثلاثين موضعا . منها خمسة عشر في سورة البقرة (1) .

فهو أبو الأنبياء بعد نوح . « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوءَةَ وَالْكِتَابَ (2) .

وهو أفضل أولي العزم من الرسلِ بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين (3) . لذلك أمر المصلي أن يقول في تشهّده : ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره قال :

« قلنا : يا رسولَ الله ! هذا السلام عليك قد عرفناه . فكيف الصلاة عليك ؟ قال . قولوا : اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . إنك حميد مجيد » .

---

(1) ابن كثير : **قصص الانبياء** . ج : 1 / 241 .
(2) العنكبوت : 27 .
(3) ابن كثير : **قصص الانبياء** . ج : 1 / 245 .

وكانت بعثة محمد صلّى الله عليه وسلم استجابة لدعوته كما ورد في القرآن : « رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (1) فكان هو ومن آمن به أوْلَى الناس باتّباعه « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيءُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (2) » . وفي هذا ما يشرح أسباب دوران شخصيّة إبراهيم في القرآن أكثر من سواه من الرسل ، وعرض ما اتّصل به من وقائع وأحداث بأكثر تنويع .

وفي نظري أنّ القرآن لم يكرّر من القصص أو من حلقاتها إلاّ ما كان أشدّ تجاوبا مع بيئة الدعوة ، وأكثر استجابة لأهدافها ، وخدمة لأغراضها ، مثل قصص آدم ونوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح وشعيب وموسى . وممّا يؤيد ذلك أنّا لا نجد تكرارا في غير قصص الأنبياء كقصة أهل الكهف ، وقصّة ذي القرنين . كما أنّه لم يكرّر بل لم يذكر من قصص الأنبياء إلاّ ما يقوّي عزيمة الرسول وأصحابه ، ويثبّت قلوبهم ، وينير سبيلهم .

« وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » (3) .

---

(1) البقرة : 124 .

(2) آل عمران : 66 ـ 67 .

(3) هود : 119 .

فالقرآن يشير مرارا في مواطن التنديد بمنكرات بني إسرائيل إلى قتلهم الأنبياء : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ . وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؟ (1) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (2)

رُوي أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيّا ، فنهاهم الربّيّون فقتلوهم من يومهم (3) . ولا شك أنّ مقتل الأنبياء من الأحداث العظيمة في الأرض والسماء . فلكلّ حادثِ قَتْل خبَر . ولكل نبيّ قُتل قصةٌ تثير الإهتمام ، وتسترعي الأنظار . ولكن القرآن لم يورد قصة واحدة في مقتل نبيّ من الأنبياء ، حتى لا يتسرّب الخوف والوهن إلى حُماة الدعوة الإسلامية ، سيما وهم يمرّون بفترات عصيبة يحتاجون فيها إلى ما يشدّ أزرهم ، ويربط على قلوبهم ، ويثبّت أقْدامهم .

وقد يكون في قصّ هذه الأحداث ما يوقظ الفتنة النائمة ويغري السفهاء ويُثير مكامن الشرّ في النفوس الشرّيرة ، ويُجرّىء

---

(1) البقرة : 90 .

(2) آل عمران : 22 .

(3) انظر : تفسير الجلالين والنسفى للآية السابقة .

أعداء الدعوة على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أكثر ممّا تجرّأوا .
والقرآن يقرّر عالَميَّة الدعوة الإسلامية وإنسانيّتها من الخطوة الأولى في العهد المكّي ، والمسلمون يومئذ قلة مطرودة من كل حمىً إلاّ حمى الله ، محرومة من كل قوّة ، إلا قوة الإيمان .

فيقول في سورة التكوير وهي من أوائل السور المكّية (إنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (1) .

فإذا أخذنا هذه الحقيقة بعين الاعتبار كان فهمنا أكثر دقة وعمقا لما ترمي إليه الآية الكريمة : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، ومِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (2) » بل إنّ ما عَرَضه من قصصهم لم يستوعب فيه سِيَرَهم ولا أخبارهم ، وإنما اختار منها ما يفي بالغرض .

فزكرياء ويحيى عليهما السلام كلاهما قصّ القرآن من أخبارهما ، ولكنه لم يُشِرْ إلى نبإ قتْلهما ألبتّة .

وإذا تتّبعنا مواطن هذا التكرار في قصص القرآن استخلصنا مبرّراته وأسبابه .

فلقد تكرّرت قصة آدم وإبليس (3) لأنها قصة الإنسانية كلها في صراعها المتجدّد بين قوى الخير والشر كما سيأتي بيان ذلك .

---

(1) الآية : 27 .

(2) غافر : 77 .

(3) وردت قصة آدم في : سورة البقرة (29 ـ 38) والاعراف : (11 ـ 28) والحجر : (25 ـ 40) والاسراء . (60 ـ 65) والكهف : (50) وطه : (116 ـ 123) وص : (67 ـ 85) .

وتكرّرت قصة نوح (1) لأنه هو الرائد الأوّل للرّسل ، وديانته أقدم الديانات . فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض . وكان قومه يعبدون الأصنام دهرا طويلا كالعرب ، حتى قيل : إن هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها انتقلت هي أو أسماؤها إلى العرب ، كما ورد ذكرها في القرآن (ودّ ، وسُواع ، ويغوث ، ويعوقَ ، ونسْر) .

وقد جعل الله ذريّة نوح عمارا لهذه الأرض وخلفاء ، وشاء أن يُبقي ذكره في الأجيال إلى آخر الزمان .

« وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ » (2) .

وقد أنزلَ اللهُ فيه سورة كاملة . وهي سورة نوح .

وتكرّرت قصص عاد وثمود ومدين مع أنبيائهم هود وصالح وشعيب ، لأنهم أقوامٌ عرب تربطهم صلة بالحياة والظروف والتقاليد التي كانت عليها البيئة النبويّة .

ويُروى عن أبي ذرّ في صحيح ابن حبّان في ذكر الأنبياء والرّسل : أن النبيء صلى الله عليه وسلّم قال : أربعة من العرب : ثمود وصالح وشعيب ونبيّك يا أبا ذرّ .

---

(1) في سورة الاعراف : (59 ــ 64) ويونس : (72 ــ 74) وهود : (26 ــ 50) والأنبياء : (27 ــ 28) والمؤمنون : (24 ــ 31) والعنكبوت (106 ــ 123) والصافات : (76 ــ 83) والقمر : (10 ــ 17) .

(2) الصافات : 76 ــ 83 .

أمّا عاد (1) فيعتبرهم المؤرخون أقدم العرب البائدة.(ويذكر بطليموس أنهم كانوا يسكنون فى المناطق الشمالية الغربيّة من شبه جزيرة العرب) (2) ؛

وأما ثمود (3) فتقع منازلهم بين الشام والحجاز . ولم تزل رسومها باقية في طريق الحجيج القادمين من الشام بالقرب من وادي القرى (4) .

وقد مرّ النبيء صلى الله عليه وسلم على ديارهم في غزوة تبوك ، ونهى عن دخولها . وكثيرا ما يقرن القرآن في الذكر بين عاد وثمود «وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ»(5)

وأمّا مدْين (6) فكانوا يسكنون قرية قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز بالقرب من بحيرة لوط ، وكانوا بعدَهم بمدّة قريبة (7) .

---

(1) وردت قصتهم فى : سورة الأعراف : (65 ـ 72) وهود : (50 ـ 60) والمؤمنون : (31 ـ 41) والشعراء : (123 ـ 140) والسجدة : (15 ـ 16) والأحقاف : (21 ـ 25) كما وردت إشارات الى قصصهم فى سور الذاريات ، والنجم ، والقمر ، والحاقة ، والفجر .

(2) سيد عبد العزيز سالم : **دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام** : 92 .

(3) وردت قصتهم فى : سورة الاعراف : (73 ـ 79) وهود : (61 ـ 68) والحجر : (80 ـ 84) والشعراء (141 ـ 159) والنمل : (45 ـ 53) والقمر : (23 ـ 32) .
كما وردت إشارات الى قصتهم فى سورة الاسراء والسجدة .

(4) المسعودى : **مروج الذهب** : ج : 2 / 42 .

(5) العنكبوت : 38 .

(6) وردت قصتهم فى سورة الاعراف : (85 ـ 93) وهود : (84 ـ 95) والشعراء : (176 ـ 191) كما وردت اشارة الى قصتهم فى سورة الحجر .

(7) ابن كثير : **قصص الانبياء** ج : 1 / 274 ـ 275 .

وأما قوم لوط (1) فإنّ قوافل تُجّار مكة كانت تمرّ في الغُدوّ وفي الرواح بآثار قريتهم (سدوم) من أعمال حلب في بلاد الشام . والله تعالى يقول « وإنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وبِاللَّيْلِ . أفَلاَ تَعْقِلُون ؟ » . (2) ولا شك أن مشاهدة آثارهم أبلغ تأثيرا في الاتّعاظ بهم ، والاعتبار بمصارعهم . فإنّ في أطلال قريتهم الخالية حجة شاهدة بصدق ما روى القرآن من أخبارهم « ولَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (3)

وأمّا قوم موسى (4) فقد أذلّهم طول الاستعباد ، وأفسد طباعهم ، فأعرضوا عن الحق ، ولاقى منهم نبيهم ما لاقى محمّد من سادة قريش . فكلاهما أوتي شريعة دينية دنياوية ، وعمل على تكوين أمّة عظيمة ، لكن الدّعوة المحمّدية تمتاز بأنّها إنسانيّة شاملة . وكلاهما كانت مهمّته شاقة في ذلك

---

(1) وردت قصتهم فى سورة الاعراف : (80 ـ 84) وهود : (69 ـ 83) والحجر (50 ـ 77) والشعراء : (160 ـ 175) والنمل (54 ـ 85) والعنكبوت (28 ـ 35) والقمر : (33 ـ 40) . كما وردت اشارات الى قصتهم فى سورة الصافات (133 ـ 138) والذاريات : (38 ـ 40) .

(2) الصافات : 138 .

(3) العنكبوت : 34 .

(4) وردت قصتهم فى سورة الاعراف : (103 ـ 171) ويونس : (75 ـ 92) وطه : (9 ـ 101) والشعراء : (10 ـ 68) والقصص : (3 ـ 48) وغافر : (23 ـ 46) .
كما وردت بايجاز فى سورة هود : (96 ـ 101) وابراهيم (85) والاسراء : (101 ـ 104) والمؤمنون : (45 ـ 48) والنمل : (7 ـ 14) والزخرف : (46 ـ 56) والذاريات : (38 ـ 40) . ووردت اخبار بنى اسرائيل فى سورة البقرة : (39 ـ 123) والمائدة : (20 ـ 26) .

عـروش الظلـم ، وتحـريـر الـرقـاب والقلـوب من استعبـاد الانسـان للانسـان ، واستعباد الهـوى للنفس . فـبنـو إسـرائيـل أذلّهـم الحـكم الطـاغـي فـأصبـحـوا لايملـكـون من أمـر أنفسهـم شيئـا . والعـرب أخـذ سلـطـان القبيلـة بـنـواصيهم ، واستحـوذت العصبيّـة القبيلـة على نفـوسهـم ، فخضع الضعفـاء للأقـويـاء ودان العبيـد للسّـادة .

ثمّ مـا أشبه قصة مـوسى بقصّة محمد عليها السلام فـي الدعـوة !

فقـد تـآمر على مـوسى قـومـه ليقتلـــــوه :

« وَجَـاءَ رَجُـلٌ مِنْ أقْصَى الْمَـدِينَةِ يَسْعَى ، قَـالَ : يَـا مُوسَـى إنَّ الْمَـلأ يَـأتَـمِرُونَ بِـكَ لِيَقْتُلُـوكَ فَـاخْرُجْ إنِّي لَـكَ مِـنَ النَّـاصِحِينَ ، فَخَـرَجَ مِنْهَـا خَـائِفًـا يَتَـرَقَّـبُ قَـالَ : رَبِّ نَجِّنِـي مِنَ الْقَـوْمِ الظَّـالِمِيـنَ » (1) ؛

كما تآمـر على محمّد مشـركـو مـكّة .

« وَإِذْ يَمْـكُـرُ بِـكَ الذِينَ كَفَـرُوا لِيُثْبِتُـوك أَوْ يَقْتُلُـوكَ أَوْ يُخْـرِجُـوكَ . ويَمْـكُـرُونَ ويَمْـكُـرُ اللهُ . واللهُ خَيْـرُ الْمَـاكِـرِيـنَ » (2)

وكـلاهمـا عُذّب المؤمنـون بـهمـا واضطُهـدوا ، فـلـم يـحفلـوا بمـا كانـوا يلقَـوْن . فقـد كان التعذيب مصلتّـا على أصحـاب الـرسول صلّى الله عليـه وسلم ، ورغـم ذلك استمـرّت الدعـوة المحمديـة تغـزو معاقـل الشـرك وتـثلّ عـروش المشركيـن .

---

(1) القصص : 19 ـ 20 .
(2) الأنفـال : 30 .

روي عن عبدالله بن مسعود قال : أوّل من أظهر إسلامَه مِن بين الذين يُخفونه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمّار بن ياسر وأمه سُميّة ، وصهيب وبلال والمقداد .

فأمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمّه أبي طالب . وأمّا أبو بكر فمنعه الله بقومه . وأمّا سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس (1) .

فما أشبه هذا بقصّة السحرة التي تكرّر ذكرها في قصص موسى ، ! (2) فإنّ فرعون حَشر السَّحَرة من كل مكان ليتغلّبوا على موسى ، ويُبطلوا سحره حسب زعمه . ولكنّ الحق ملك قلوبهم ، والإيمان ملأ مشاعرهم ، فاستخفّوا بتهديد فرعون لهم أن يُقطّع أيديَهم وأرجلهم من خلاف ، ويصلبهم في جذوع النخل : « قَالُوا : لاَ ضَيْرَ . إنَّا إلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . إنَّا نَطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاهَا أنْ كُنَّا أوّلَ الْمُؤْمِنِينَ » (3) .

وهنا تتجلّى قوّة الإيمان إذا سكن القلبَ واطمأنّت به النفس ، وتتجلّى الحقيقة بالاستعداد للفداء في سبيلها . ويظهر طغيان فرعون الذي يستعظم أن يكون في بني إسرائيل من يذعن للحقّ قبل أن يأذَن له بذلك .

---

(1) رواه احمد واللفظ له . ورواه الترمذى وسنده جيد (**الفتح الربانى** ج. 20 / 214) .

(2) تكررت فى سورة الأعراف : (113 ـ 126) ويونس (79 ـ 86) وطه : (56 ـ 76) والشعراء : (34 ـ 51) .

(3) الشعراء : 50 ـ 51 .

فكانت قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل قصة حافلة بالعظات التي لا يستغني عنها الرسول صلى الله عليه وسلم في اقتحام العقبات، والتعوّد على الصبر ، والصمود أمام القوى الغاشمة ، ليجعل من الإسلام طلائع النور في أمّةٍ طال عليها اللّيل ، كما طال الأمد على بني إسرائيل فقسمت قلوبهم . وقد كان يهود المدينة أشدّ على الدعوة الاسلامية في المكر والغدر واللجاجة من مشركي مكّة . فهم الذين حرّضوا المشركين وتآمروا معهم ، واحتضنوا المنافقين في المدينة . وهم الذين تولّوا حرب الإشاعات والدسّ في صفوف المسلمين وتشكيكهم في عقيدتهم . فلم يكن بدّ من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من هم أعداؤها ؟ ما طبيعتهم ؟ ، ما تاريخهم ؟ وما وسائلهم ؟

ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة ، كما كانوا أعداء هدي الله في ماضيهم الطويل : « أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (1) .

وأشدُّ القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة قلوب عرفتْ ثمّ انحرفت ، فاقتضى ذلك أن تُلمّ الأمة المسلمة وارثةُ الرّسالات كلها بتاريخ القوم وأخلاقهم وطباعهم وانحرافاتهم حتى تعرف مزالق الطريق ، فتضمّ هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة إلى حصيلة تجاربها وتنتفع بها (2) .

---

(1) البقرة : 75 .

(2) **في ظلال القرآن** : ج : 6 / 125 ـ 126 .

ويذهب الدكتور خلف الله في تعليله لتكرار قصّة موسى في القرآن إلى (أن اليهود كانوا يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني . وهذه السيطرة جعلتهم يقصُّون كثيرا أخبار موسى وفرعون . ومن هنا كانت شخصيّة موسى أكثر دوَرانا في القرآن من شخصيّة أيّوب مثلا ، بل أكثر من أيّ شخصية أخرى) (1).

لكن المعروف عن حياة العرب الدينية قبل الإسلام أنهم كانوا من حيث العقيدة طوائف وفرقا شتى . فَعَبَد بعض اليمنيين الشمس ، وعبدت كنانة القمر ، وعبد قوم من لَخْم وخزاعة وقريش نجْم الشِّعرى ، وآخرون تحنّفوا ، وطائفة أنكروا الأديان كلها ، وقوم من اليمن تهوّدوا ، وقوم من قضاعة تنصّروا . وأكثر الأديان انتشارا بين العرب كانت الوثنيّة .

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر . فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر . فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ، ثم طُفنا به .

وإذنْ فكيف نتصوّر سيطرة اليهوديّة من الوجهة الدينيّة على بيئة لا تسودها العاطفة الدينية ، ومع ذلك فهي قليلة الانتشار بالنسبة للوثنيّة السائدة ؟ . ولئن كانت أكثر القبائل اليهودية تُقيم في يثرب بين قبيلتي الأوس والخزرج ، فإن أكثر ماورد من قصّة موسى وفرعون كان مكيّا ، كما أن العلاقة بينهم لا تخلو من عداء (2) ومثلُ هذه العلاقة لا تهيء النفوس للتأثر بها ، وذلك لانعدام التجاوب.

---

(1) **الفن القصصي في القرآن الكريم** : 234 .

(2) انظر : **المفصل** : لاحمد أمين ورفاقه . ج : 1 / 25 .

وإذا كان القرآن وحده هو النص العربي القديم الذي يستطيع المؤرّخ أن يطمئن إلى صحته ، ويعتبره مشخصا للعصر الذي نزل فيه ، كما يقول الدكتور طه حسن (1) فإن من أبرز خصائص الآيات المكيّة حملتها المتلاحقة على الشرك والوثنيّة . وكل ذلك يدل على مدى استفحالهما في البيئة الجاهلية . فقد دخلت هذه الآيات على المشركين والوثنيين من كل باب ، وضربت لهم أبلغ الأمثال . قال تعالى : «إنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أمْثَالُكُمْ . فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أمْ لَهُمْ أيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أمْ لَهُمْ أعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُون بِهَا» ؟ (2).

رُوِي عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله رضي الله عنه قال : دخل النبيء صلى الله عليه وسلم مكّة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ...... (3)

اغراضه :

وفي رأيي أنّ التكرار في القرآن لم يُقصد به الإعجاز البياني بقدر ما قصد به التأثير النفسي ، لمّا يعلم الله من تفاوت في مدارك البشر وأمزجتهم ، إذ منها ما ينفذ إلى الحقيقة ، ومنها ما يسيطر عليه الوهم تحت سلطان الأفكار الموروثة . ومنها ما يصل به برود العاطفة إلى جمودها رغم المثيرات العاصفة .

---

(1) انظر : **فى الادب الجاهلى** : 176 .

(2) الاعراف : 194 ـ 195 .

(3) رواه البخارى .

جاء في رسائل إخوان الصّفاء : «إنك تجد من يكون جيّد التخيّل ، دقيق التمييز ، سريع التصوّر ، قويّ الذاكرة . ومنهم من يكون بَطيء الذهن ، أعمى القلب ، ساهي النفس ....

فاختلاف المدارك وطبائع العقول سبب بلا شك في اختلاف ما تنتهي إليه هذه العقول . وهل يُتصوّر أن عقلا شاعريا تسيطر عليه العاطفة تتّفق عند دراسته لموضوع ما ، مع عقل منطقيّ رياضيّ يربط الأسباب بالنتائج ربطا محكَما ؟ » (1)

ولمّا كانت ظاهرة التكرار للمعاني المقرّرة للعقيدة شائعة في القرآن كله – وان كانت في قصصه أشدّ ظهورا – فإن بحث هذه الظاهرة في خصوص القصص القرآني لا يستقيم ولا يتّجه إلاّ بالنّظر إلى هذا القصص في إطاره العامّ ، وهو القرآن ، باعتبار أنّه صورة للدعوة الإسلاميّة متناسقة الأجزاء ، متكاملة العناصر .

ومن ناحية أخرى فإن التعمّق في تلك الظاهرة يتطلّب معرفة الظروف النفسية التي كانت تحيط بصاحب الدعوة وأتباعه ممّا لاقوا من صدود ومقاومة وتنكيل ، وبمَن يَدْعَوْن إلى الله ، وما عُرفوا به من تعصّب وعناد واستخفاف . وكل أولئك وهؤلاء كان يقصّ عليهم القرآن .

وبهذا يتسنّى لنا أن نعرف ما وراء عرض القصص وتكرارها أو تكرار بعض حلقاتها من مقاصد .

ومن ذلك ضرب الأمثال للرسول وللمؤمنين بما لاقى الأنبياء وأتباعهم من أذى أقوامهم ، وثباتهم على الحق ، ومصابرتهم في

---

(1) انظر : **رسائل إخوان الصفا** : ج : 3 / 375 – 382 .

سبيل الله ، حتى كانت العاقبة لهم ، والدائرة على أعدائهم :

« حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ، جَاءَهُمْ نَصْرُنَا . فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » (1) .

(فلم يكن التذكير برسالات الأنبياء السابقين بالنسبة لمحمّد (عليه السلام) موضوعا ثانويّا ، بل على العكس من ذلك كان عبرة للجاحدين ومثلاً للمؤمنين) (2)

فتكرار القصة في عدّة سور بأساليب مختلفة إنّما يهدف إلى تمكين هذه السّنن في النفس ، وتثبيتها في القلب ، حتى تقوى داعية الإصلاح عند المصلح ، فلا يجد اليأس سبيلا إليه . وقد كان من تربية الله لنبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم أن قصّ عليه من سِيَر الأنبياء ما يسلّيه . لأن نفوس المفسدين في كل زمان متقاربة ، ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة .

«مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ» (3) .

والقرآن لم يقتصر في مثل هذه المقامات التي يثبّت فيها القلوب ويقوّي العزائم على ذكر قصّة واحدة لأحد الأنبياء يستدلّ بها ، بل قدّم طائفة من قصص الأنبياء قصد توكيد هذه الحقيقة وتقرير أنّها من سنن الله التي لا تتخلّف . كما نرى في عرضه لهذه المجموعة من قصصهم :

---

(1) يوسف : 110 .

(2) Blachère : *Le Problème de Mahomet* : 61

(3) فصلت : 43 .

...« قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ .

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ....) .

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ....... » (1)

ومن مقاصد التكرار ترهيب الجاحدين وإنذارهم بما جرت عليه سنّة الله في المكذّبين لرُسله . ولا أدلّ على صدق السّنن الالهية . من حدوثها مرارا في ظروف مماثلة ، وأزمان متباعدة

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ....

---

(1) الأنبياء : 66 ـ 76 .

.........« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ . فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا . وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (1) .

كما أنّ من مقاصد تكرار القصة ضمن مجموعة من القصص بيانَ وحدة الأديان في أصل العقيدة ، ووحدة الدعوة إليها من الرسل ، وتشابهُ أقوامهم في موقفهم منها .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ يُوحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ » (2) .

ويقتضي تقرير هذه الحقيقة أن تُعرض طائفة من قصص الأنبياء متتابعة تروي كلّ ذلك .

---

(1) العنكبوت : 35 ـ 40 .

(2) الأنبياء : 25 .

ولا شكّ أنّنا سنلاحظ في العرض التزامَ القرآن لصيغة واحدة في ما حكاه من دعوة هؤلاء الرّسل إلى الله . وقد كان له أن يتصرّف في حكاية كلامهم بصيَغ متنوّعة تؤدي نفس المعنى ، لأنهم كانوا يتكلّمون بغير لغة القرآن ، ولكنه قصد هذا التكرار في اللّفظ والمعنى معًا ، للاشعار بأن كلامهم إنّما صدر عن واحد وهو الله ، واتّجه إلى غاية واحدة وهي التوحيد . حتى لَيُخيَّل إلينا ونحن نتلو ما نقل القرآن من توجيهاتهم (أنهم خطباء في حفْل واحد ، اجتمعوا في أمسية موعودة ، أو ليلة مشهودة ، وليسوا رجالا توزّعتهم أكناف القرون المتطاولة) (1)

وهي ناحية نفسية هامّة جديرة بالاعتبار .

وهكذا نستخلص أنّ في تنويع قصص الأنبياء ، وما يجمع بينهم من وحدة المبادىء والأهداف ، أو تشابه العلل والأمراض التي تحُول دون انصياع أقوامهم إلى الحق ، من عوامل تأثير الإلحاح على النفس بالموعظة المتكررة ، والضغط عليها بالعبرة المتجدّدة ممّا يجعل حقيقة الإيمان أكثر غوصا واستقرارا في القلوب ؛ لأن ذلك بمثابة الاستقراء الذي يقيم الدّليل على ثبات تلك الحقيقة ، واطّراد نتائجها إيجابا وسلبا في كل عصر ، مهما تباعد المكان وتفاوت الزمان . وهي طريقة في بيان سنة الله في الأفراد والأمم عبر التاريخ . فإن حركة التاريخ ليست أفقية امتداديّة تسير في خطّ طويل لا نهائيّ ، بل إنها حركة دائرية تُربط فيها الأسباب بالمسبّبات ، والمقدّمات بالنتائج . فالأحداث تتكرر ، والأوضاع تتشابه . وما وقع بالأمس يمكن أن يقع مثله غدا ، إن وجدت الظروف

---

(1) محمد الغزالي : **نظرات في القرآن** : 115 .

والملابسات المتماثلة في موضوعها وجوهرها ، وإن اختلفت الأشكال والصُّور (1) ولعلّ هذا مما يوضّح معنى العبارة المشهورة - لو صَحّت - (التاريخ يعيد نفسه) .

فأمارات الحق والعدل والاستقامة واحدة لا تتغير في جوهرها على مدى الأزمان . والدّعاة إلى الحق من الأنبياء إنّما يَصدرون عن مورد واحد : وهو الله . فجاءت دعواتهم واحدة في جوهرها .

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .... الخ......

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ... الخ...

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ....الخ ....

---

(1) محمد البهى : **الدين والدولة • من توجيه القرآن الكريم** : 29 •

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المُرْسَلِينَ . إذْ قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ لُوطٌ : ألاَ تَتَّقُون ؟ إنِّي لَكُمْ رسُولٌ أمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأطِيعُونِ . وَمَا أسْألُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أجْرٍ . إنْ أجْرِيَ إلاّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .....الخ ....

كَذَّبَ أصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ . إذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ : ألاَ تَتَّقُونَ ؟ إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ . وَمَا أسْألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ . إنْ أجْرِيَ إلاّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ » ....الخ.... (1)

فهؤلاء الأقوام وُجّهت لهم دعوة واحدة ، ولكنّهم كذّبوا واستكبروا ، فكان مصيرهم واحدا رغم تباعد أزمانهم . وقد أكّد القرآن هذه الحقيقة ، فجعل المكذّبين برسولهم مكذّبين بالرّسل جميعهم . « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . » مع أنهم لم يكذّبوا إلا رسولهم نوحا عليه السلام ، وكذلك قوم عاد وثمود ولوط ، لأن الحق تمّحي أمامه كل الفروق بما في ذلك فارق الزمن والجنس .

فالقرآن يخاطب الرّسل بصيغة واحدة ، وكأنّ الزّمن جمع بينهم في صعيد واحد : « يَا أيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا . إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وأنَّ هَذِهِ أمّتُكُمْ أمّةً وَاحِدَةً . وأنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » (2) .

---

(1) الشعراء : 105 ـ 191 .

(2) المؤمنون : 51 : 52 .

وهكذا يتّضح ممّا تقدّم عرضه أنّ تكرار بعض قصص الأنبياء في تلك المجموعات الثّلاث مثل قصص نوح ولوط وشعيب ، إنّما اقتضاه تنوّع الأغراض في كل مجموعة منها وهي : التّثبيت ، أو الترهيب ، أو بيان وحدة الأديان .

وفي القرآن قصة وردت سبع مرات ، ولكنها لم تُعرَض ضمن مجموعة من القصص ، وإنّما عُرِضت منفردة . وهي قصة آدم .

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى . فَقُلْنَا : يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى . فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ؟ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى . قَالَ : اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » (1) .

---

(1) طه : 115 ـ 124 .

والمتأمّل في المواطن التي عُرضت فيها هذه القصّة، يلاحظ أنّها جاءت موزّعة عليها في المعاني والأسلوب والتصوير. وكل هذه النواحي تتّحد على إخراجها قويّة تامّة، مع أنّ كل صورة منها تمثّل القصّة كلّها وتبرز ملامحها. ولعل الغرض العامّ من تكرارها بهذا القدر – زيادة على الأغراض الخاصة المختلفة التي يفسّرها المحور العام للسّورة، وسياق كل موضوع منها عُرضت فيه القصة – إبرازُ كمال العناية الالهية بالإنسان الذي كرّمه الله واستخلفه وعلّمه، وبثّ في كيانه من روحه نفحة قدسيّة علويّة، فكان جديرا بمثل هذه العناية السّامية؛ وأن يقصّ القرآن مرارا تاريخ خَلقه، وغواية الشيطان له وزلّته وهبوطه إلى الأرض وتوبته، لِمَا تفيده قصته من التوجيهات الحكيمة، والمعاني البعيدة التي لم تجعل للقصة صبغة تاريخية محدودة، وإنّما جعلتها تهدف إلى مغزى عام، أو مضمون فلسفي، كإثبات أنّ العلم والدّين نشئَا بنشأة الإنسان. فكما تلقّى آدم من ربّه العلم، تلقّى الدّين بما أمره به ونهاه عنه، وكبيان ما أودع فيه من قدرة على الفعل، وإرادة للطّاعة أو المعصية، يترتّب عليهما تكليفه، وثوابه أو عقابه، وبما ركّب فيه من طبيعة مزدوجة كُتب عليه أن يعيش بها في صراع، واستحقّ بمقتضاها أن يوجّه بواسطة الرّسل، وأن يُحذّر فتنة الشيطان. «يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الْجَنَّةِ» (1).

وهكذا فإن قصّة الشجرة المحرّمة ووسوسة الشيطان باللّذة ونسيان العهد بالمعصية، والصّحوة من بعد السّكرة، والنّدم وطلب

---

(1) الأعراف : 26.

المغفرة ، هي قصّة الإنسان في كلّ زمان ومكان وتجربة البشريّة الدائمة المتجدّدة (1) .

طـريقتـه :

وما تكرّر من قصص القرآن ليس من التكرار الآليّ المملّ الذي يُخلّ بالفنّ ويَعيبُهُ النّقّاد . لأنّ الحقيقة الواحدة يطالعنا بها القرآن في مواطن مختلفة ، ولكن في أثواب جديدة ، مع تصرّف بارع في صيغ التعْبير وطرق الأداء .

وإعَادةُ الكلام في الموضوع الواحد مع التّنويع والطرافة والتجديد من بلاغة القرآن وإعجازه .

ومن أخصّ طرق القرآن في تكرار القصّة أن يعيد ذكرها في منتهى الإجمال والإيجاز ، وذلك في مقام الاستدلال على ما يريد إثباته من حقائق بأمثلة من التّاريخ كما في قوله تعالى :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً »(2).

« وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا . وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا » (3) .

---

(1) في ظلال القرآن : ج : 1 / 32 .
(2) المزمل : 14 .
(3) الاسراء : 59 .

ومعظم التّكرار في القصة القرانية كان في بعض أجزائها . وكثيرا ما يأتي بعض ما ذُكر منها في موطن متمّما لما ذُكر منها في موطن آخر ، بحيث كلّما تكررت حلقة ذُكرت فيها معان جديدة . حتى لا تُمَل ألفاظها أو معانيها .

والسّياق هو الذى يحدّد القدْر الذى يُعرض منها في كل موطن ، كما يحدّد طريقة العرض والأداء بما يحقق التّناسق والجمال الفنّي .

ونادر جدا أن يَعرض القرآن باسترسال وفي موضع واحد قصةً مترابطة الأجزاء ، متسلسلة الحلقات ، مثل قصّة يوسف ومثل قصّة موسى في سورة القصص ، لأن القصّة لم ترد لذاتها ، ولم تتناول أخبار الماضين كما تناولها العهد العتيق وكتب التاريخ ، وإنّما استُخدمت كوسيلة من وسائل التأثير في غرس العقيدة . لذلك جاءت القصّة الواحدة موزّعة في عدّة سور بحسب المناسبات ؛

وكلّما تكرّرت المناسبة أعيد ذكر ما يقتضيه الحال منها .

وكلّ ذلك يرجع في الحقيقة إلى ظروف الدعوة المحمّدية والمراحل التي مرّت بها في مواجهة الفئات والقبائل سنوات طوالا .

وهذه نماذج عُرضت فيها بإيجاز محكَم حلقاتٌ من مواقف موسى مع فرعون وملئِه ، وقد تعدّد ذكرها في عدة مواطن من القرآن ، ولكن بأساليب مختلفة ، وعبارات متنوّعة تجعلنا لا نكاد نشعر عند قراءتها بتكرارها .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا . فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا » (1) .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ . وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ » (2) .

« وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ » (3) ؟

وقد بيّن الباقلاني كيف أعاد القرآن قصّة موسى أو حلقات منها على طرق شتّى ، ووجوه مختلفة ، وفواصل متنوّعة ، مع اتّفاق المعنى ليُعلّم عجزهم . ولهذا قال : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ » (4) ليكون أبلغ في تعجيزهم ، وأظهرَ للحجة عليهم...... وكلّ كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصّة ، فهي بليغة بنفسها ، تامّة في معناها (5) .

---

(1) الفرقان : 35 ـ 36 .
(2) هود : 96 ـ 99 .
(3) الذاريات : 38 ـ 40 .
(4) الطور : 34 .
(5) **اعجاز القرآن** : 288 ـ 290 .

ولمّا كان القصص القرآني يرد ليؤدي وظيفة يقتضيها السّياق : كإقامة الحجّة والبرهان بأمثلة من واقع التاريخ ، نرى القصة الواحدة تتكرّر في مواضع مختلفة ، ولكن بأسلوب يتّفق والسياق الذى تعرض فيه ، والغرض المسوقة له ، معتبَرا فيها ما يناسب كلّ موضوع من حلقات تلك القصة .

ومن هنا نرى أنّ القصّة الواحدة تُذكر على وجوه مختلفة في أماكن متعددة . تختلف بين الطول والقِصَر والإجمال والتفصيل ، والاقتصار والإكمال (1) .

فقصّة موسى مع فرعون مثلا وردت مفصّلة في سورة الأعراف (2) ضمن مجموعة من قصص الأنبياء ، لأنّها جاءت في معرض تصوير طبيعة الكفر في نفوس البشر ، وكيف يُحَاوِلُ الرُّسل الكرام بتوجيه الله وتعليمه إنقاذ البشر من هاوية الضلالة والغواية ، كما تشهد بذلك مواقف الصراع بين الهدى والضّلال ، وبين الحقّ والباطل . وكل هذه المقاصد تقتضي نوعا من التبسيط والإفاضة .

بينما وردت هذه القصة نفسها في سورة الذاريات (3) ضمن مجموعة من قصص الأنبياء أيضا ، ولكن للتشهير بمصارع المكذّبين لرسلهم ، ولتصديق وعد الله في أول السورة « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ » (4) . فكانت تُطْوى تفاصيل الأحداث فيها للوصول سريعا إلى النتيجة الحاسمة ؛ وهي سوء عاقبة هؤلاء موطن العبرة من القصّة ، ومركز الاهتمام فيها .

(1) **تفسير القرآن الكريم** : 547 .
(2) الآيات : 103 – 141 .
(3) الآيات : 38 – 40 .
(4) الذاريات : 4 – 5 .

هل في التكرار تعارض ؟

ثم إنّ في ما تكرر من قَصص ظاهرةً يجدر ذكرها هنا . وهي ما يبدو من اختلاف في بعض المواقف والأحداث للقصة الواحدة التي تعرض في عدة سور من القرآن ، ممّا جعل بعض العلماء مثل الزركشي والسيوطي يعدّون قصص القرآن من المتشابه .

ومن ذلك مثلا : جاءت في دعوة نوح لقومه ، وردّهم عليه : في سورة الأعراف (1) :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ .

وفي هود (2) :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . فَقَالَ الْمَلأُ الذينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا . وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ . بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .

(1) : 58 — 59 .
(2) : 25 — 27 .

وفي سورة المؤمنين (١) :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ ؟ فَقَالَ الْمَلأُ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً . مَا سَمِعْنَا بِهَذا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلاّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ .

وقد أجاب الخطيب الإسكافي على هذا الإشكال بما فيه مقنع ، فقال : « للأنبياء مقامات مع أممهم ، يكون فيها الإعذار والإنذار ، ويرجع فيها عودا على بدء الوعدُ والوعيد ، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله ، ورفض عبادة ما سواه في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغيّر ، بل الواعظ يفتنّ في مقاله ، والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه .

فإذا جاءت المحكيّات على اختلافها لم يطالَب باتّفاقها ؛ لأنّه قال لهم مرّة باللّفظ الذي حكى ، ومرة بلفظ آخر في معناه كما ذكر .

---

(١) : 23 ـ 25 .

وكذلك الجواب يردُ من أقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدعم . وصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه ، فلا وجه إذاً للاعتراض بهذا ونحوه » (1) .

ومثله الاختلاف في وصف عصا موسى لمّا ألقاها :

فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (طه 19)

فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا (النمل 10)

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (الاعراف 106)

قال الزّمخشري : فإن قلتَ : « كيف ذُكرتْ بألفاظ مختلفة بالحيّة والجانّ والثعبان ، قلتُ : أمّا الحيّة : فاسم جنس يقع على الذّكر والأنثى والصّغير والكبير . وأما الثعبان والجانّ ، فبينهما تناف ، لأن الثّعبان العظيم من الحيّات ، والجانّ : الدقيق .

وفي ذلك وجهان : أحدهما أنّها كانت وقت انقلابها حيّة تنقلب حيّة صفراء دقيقة ، ثمّ تتورّم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فأريد بالجانّ أوّل حالها ، وبالثعبان مآلُها .

والثاني : أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجانّ (2).

ومن ذلك أيضا ما نودي به موسى لمّا أتى النّار :

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى : إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ... الخ ... » (طه 19) .

---

(1) **درة التنزيل وغرة التاويل** : 123 .

(2) **الكشاف** : ج 2 / 22 ــ 23 .

« فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .... الخ » (النمل : 8) .

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى : إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (القصص : 30)

فقد ذكر الرّازي : ألاّ منافاة بين هذه الآيات ، لأنه تعالى ذكر الكُلّ . إلاّ أنّه حكى في كل سورة بعضَ ما اشتمل عليه ذلك النِّداء (1) .

وفي قصة تبشير الملائكة بإسحاق ، نجد المبشَّر إبراهيم غالبا . وفي مرّةٍ امرأته : « وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ .... » (هود : 71) .

وأجاب الشيخ محمد عبده بأنّ بشارتها إنّما كانت بالتّبع لبشارة بعلها وهو المقصود بالذات ، وصُرّح به في سور الحجر والصّافات والذّاريات خاصّا به. أي بشرناها بالتّبع لتبشيره بإسحاق (2) . ويؤيِّد ذلك ما ورد في سورة هود نفسها « « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ..... (74)

ولِمَ لا تكون البشرى لهما معا ؟ هُوَ بالأصالة ، باعتبار أنّ الملائكة إنّما أرسلت إليه ، وهي بالتبعية ، لأن النِّساء أعظم سرورا

---

(1) **مفاتيح الغيب** . ج : 245/24 .
(2) **المنار** : ج : 12 / 129 .

بالولد من الرجال ، ولأنه لم يكن لها ولد ، وكان لإبراهيم إسماعيل ؟

والحقّ أنّا نجد مثل هذه الأجوبة في كثير من المواطن الأخرى التي اختلف فيها ظاهريًّا معنى ما تكرّر من القصص. وهي أجوبة مقنعة يرتفع بها كل لبس ، ويزول كل إشكال ، لخلوّها من التمحّل والتكلّف والتأويل البعيد .

ومن هنا يمكن القول بأنه ليس من متشابَه القرآن تكرار قصصه كما يزعم بعضهم، وذلك لانتفاء أيّ تضارب أو اختلاف في القصّة الواحدة التي تعدّد ذكرها وتنوّع عرضها :

« أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا » (1) .

قال مجاهد وعكرمة : كلّ ما سوى آيات الأحكام والقصص متشابه ، وعليه القاضي أبو بكر وإمام الحرمين (2)

آراء في التكرار :

ويذهب الدكتور خلف‌الله إلى أنّ عجز الفكر الإسلامي عن فهم الأسرار التي من أجلها كان التّكرار في قصص القرآن يرجع إلى اعتماد المذهب التاريخي في فهمه . ولو أنّه أقام هذا الفهم

---

(1) النســـاء : 81 .

(2) ابن خلدون : **المقدمة** : 849 .

على أساس فنّي أو أدبي لـمّـا وقـف موقف الحيـرة ، ولمـّا عَدّ قصص القرآن من المتشابه (1) .

ويـرى أنّ العمـل الفنـي والأدبي في القصص القـرآنـيّ يتمثـل في تخليـص العنـاصر التاريخيـة (الأشخـاص والأحـداث) من معانيهـا التاريخية ، وفي تحميل هذه العناصر بالعواطف الإنسانية ، أو بالمعاني الدينيّة والخلُقية (2) . كما يجعل الأديب الفنان من شخصيّـة تاريخية معروفة نقطة الإنطلاق خياله وأفكاره ، أومحورا لفنّه وابتكاره .

وعنـده أنّ أحـداث التـاريـخ . التي وردت في هـذا القصـص ، رُتّبت ترتيبـا عاطفيا ، وبنيت بناء يقصد منه الى استثارة الهمم ، وتحريك النفـوس (3) لأن مقصـد القـرآ ن ـ حسـب رايـه – ليـس الا هـذه الصور التـي يرتّـبهـا مصدرا للانفعـال والتأثير ، وباعثـا للأمن والخوف والـرجـاء (4) .

فليـس يعنيه من عنـاصـر القصّـة أن تـكـون قائمـة على أساس الحق والواقـع ، بقـدرما يعنيـه أن تـكون هـذه العنـاصر ممّا يملـك القلوب ، ويسيطر عليهـا (5)

وإذا حصـل اختـلاف بيـن بعـض عنـاصر القصـة الواحـدة فليس من اللاّزم أن يقـوم عـلى أسـاس الـذي وقع فعـلا وإنّمـا يقـوم على أساس القصد الذي يرمي إليه القرآن من الصّور القصصية .

(1) **الفن القصصى فى القرآن الكريم** : 31 ـ 34 .
(2) المصدر السابق : 236 .
(3) المصدر السابق : 128 ـ 129 .
(4) المصدر السابق : 241 .
(5) المصدر السابق : 248 .

(وهنا نحس أن الاختلاف القائم على أساس الأحداث أيضا يزول . فكون البشارة بالغلام مرّة لسارة ، وأخرى لإبراهيم عليه السلام لا يعتبر من الأختلاف ، لأن هذه قصة ، وتلك قصة . وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذي يتغاير فيه التعبير .

إن هذا الوجه من الرأي يُبطل ذلك القول الخاطيء الذي يقول به المستشرقون من تطوّر الشخصيّة في القرآن الكريم بتطوّر أغراض التبيء عليه السلام ودوافعه ، والظروف المحيطة به ، والمناسبات التي تدعوه إلى بعض المواقف . ذلك التطوّر الذي يمثّلون له بما حدث في شخصيّة إبراهيم عليه السلام (1) لأن أساس هذا القول أن الوحدة القصصية تقوم على وحدة الشخصية ، وهو قول باطل يريحنا منه تقرير أن هذه الوحدة إنما هي وحدة الغرض والعبارة ، لا وحدة الشخص . ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة ، وتكون أقاصيص متعددة لشخص واحد عن موقف واحد لتعدد الأغراض ، واختلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض (2) .

وغني عن البيان أن المقدّمة التي بنى عليها (الدكتور خلف الله) حكمه في عدم التزام القرآن للحق والواقع في قصصه غير صحيحة .

والمقدّمة تتمثّل في إقراره بوجود مفارقات بين ما يكرّر من أحداث القصة الواحدة .

---

(1) راجع مادة ابراهيم فى : **دائرة المعارف الاسلامية** .

(2) **الفن القصصى فى القرآن الكريم** : 196 ـ 197 .

وقد سبق عرض أمثلة لذلك ، وشرحها بما يدفع الشبهة ، وينفي وجود هذه المفارقات التي لا يبررها على افتراض وجودها ما يقتضيه العمل الفني والأدبي من تصرّف في عناصر الأحداث أو الشخصية ، لأن هذا — وان جاز في القصص الأدبي التاريخي — لا يجوز بحال في القصص القرآني ؛ والله تعالى يقول :

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى » (1) .

والجمال الفني في قصص القرآن لا يعتمد على الخَلْق والابتكار والخيال ، ولكن على صدق الرواية ، وإبداع العرض ، وجمال الأداء .

ويرى الحدّاد أنّ القصص القرآني من التاريخ الشعبيّ الذي كان متداولًا في بيئته العربية والكتابية ، ونقلَه القرآن بحسب العقلية الشعبية والبيئة البدائية التي نزل فيها بأسلوب أدبيّ ، لا بأسلوب تاريخيّ (2) .

فهو في هذه النقطة متفق مع الدكتور خلف‌الله ، ويستدلّ بما سبق من كلامه .

وفي قضية التكرار يتساءل : هل إنّ اقتصار الوحي الجديد على عشر روايات مكررة عشرات المرات بأساليب متنوعة ، هو من إعجاز الفنّ وسحر البيان ؟ فنحن نجد في القصص القرآني وأساليبه إعجازا . وغيرنا يجد فيه عجزا . كلٌّ بحسب عقليته

---

(1) يوسف : 111 .
(2) **القرآن والكتاب** (2) / 572 .

وثقـافتـه (1) . ويستـدل على ذلك بـقول لأحـد الغربيين لم يـذكر اسمـه (2) .

ولـكن هـذا (الغيْـر) إن لم يـكن متمـكّنـا في العربيـة وأساليبهـا . وفنـون القـول فيهـا ، لا يمـلك حاسّـة الـذوق ، ولا مَلَـكة النّقـد في هـذا المجال ، فـلا يُقْبَل أنْ ينتصب حَـكَمـا فيما يتجـاوزه من أسـرار الإعجاز البيـاني ، بـل ليس له أن يحـكم على مـا تقصر عنـه مـداركه اللّغويـة والبلاغيـة مهمـا كانت ثقافتـه .

ويـرى (الحدّاد) أن في ما تـكرر من قصص القرآن تعارضا ، فيقول :

(ولا ننسـى أنّ هـذا يمثّل أكثـر من ثلثي القـرآن . وفي اعتبـاره من المتشابَه مـا فيه مـن شبهـة يزيدها مـرارةً ما فيـه من شبهة التعارض) (3)

والتعـارض عنـده نـوعان : تعـارض بين القـرآن والـكتـاب المقـدّس ، وتعارض بيـن آيـات القـرآن نفسهـا .

أمّا الأوّل فيفسّره بـأن مصادر القصص القـرآني هي البيئـة الحجازيـة ، عربيـة وكتابيـة ، وهـذا القصص المتـداوَل هو من التّاريخ الشعبي الذي يختلف عمّا في الـكتاب المقدّس . ويردّ على من يعلّل هـذا التعارض بتحريف التوراة والإنجيـل . ويَعتبِـر ذلك من التفسيـر الرخيص المتهافت ، ويستدِلّ بمـا يقول أهل الـكتاب : هـا أنّ نُسخ التـوراة والإنجيل باقية هي هي على الرّق من قَبْل القرآن بمئات السنيـن ،

---

(1) المصدر السابق 568 .

(2) «Mohamet n'était pas spécialement doué par la spéculation théologique et la monotomie de ses descriptions ne relève un génie littérateur»

(3) المصدر السابق : 574 .

كما يستطيع كل باحث أن يتحقق ذلك في متاحف العالم . ولم يكن جميع أهل الكتاب قبل القرآن بمئات السنين أنبياء ، حتى يشعروا بظهور النبيء الأمّيّ في مكّة ، وتنزيل القرآن عليه معارضا لما عندهم في التفصيل حتى يحرّفوه سلفا (1) .

وأمّا النوع الثاني – من التعارض بين قصص القرآن نفسه – حسب زعمه – فقد اعتبَر هذا القصص (من المتشابه في القرآن ، لا من محكم التنزيل) (2) ، ونَقل قولا لدروزة جاء فيه : وقد بقيتْ مسألتان قد تَبْدُوان مشكلتيْن :

أولاهما : ما إذا كان ما احتواه القرآن من قصص صحيحا في جزئياته ووقائعه وحقائق حدوثه

وثانيهما : ما بين بعض القصص القرآنية المتّصلة بنبيّ أو أمّة من بعض الخلاف ، مثل ذكر وقت ما كان يقع على بني إسرائيل من فرعون ، مِن قتلِ الأبناء واستحياء النّساء ، حيث ذكر هذا الوقت في سورةٍ أنّه قبل بعثة موسى ، وفي سورةٍ أنّه بعد بعثته . ويُجيب على هذا الإشكال الذي أورده جوابا عاطفيّا فيقول :

« ونحن كمسلمين نقول : إنّ كل ما احتواه القرآن حق وواجب الإيمان ، وإنّا آمنّا به (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنَا) ؛ كما أنّنا نقول بوجوب ملاحظة كون القرآن في قصصه إنّما استهدف العظة والتذكير فحسب ، لا التّاريخ . وهما لا يتحققان إلا فيما هو معروف ومسلَّم به إجمالا من السامع ، وإنّ هذا أيضا من الحقّ الذي انطوى

---

(1) المصدر السابق : 575 .
(2) المصدر السابق : 576 .

فيه حكم التنزيل ، وبوجوب الوقوف من هذه القصص عند الحدّ الذي استهدفه القرآن ، وعدم الاستغراق في ماهيتها على غير طائل ولا ضرورة ، لأنّها ليست ممّا يتّصل بالأهداف والأسس» (1) .

ثمّ إنّ نسبة الكمّ التي عيّنها (الحداد) للقصص من القرآن ، فيها إفراط ومبالغة ، إذ هي دون ذلك .

أمّا رأيه في التعارض بين قصص القرآن والكتاب المقدّس ، فهو رأي مغرض . وأقلّ ما يترتب عليه التشكيك في صحة ما ورد في القرآن ، على أساس أنّ نُسَخ التوراة والإنجيل - كما يدّعي - باقية كما هي ، وكما أنزلها الله ، لم يدخل عليها أي تحريف أو تغيير . وهذا غير صحيح .

ومن الأدلّة التاريخية على هذا التحريف أنّ التوراة وكُتب الأنبياء تعرضت إلى أحداث جسام نتيجة الحروب والهجمات التي تعرّض لها اليهود أنفسهم . فقد أحرقت اورشليم وهيكلها وما تحويه من أموال وذخائر على يد بنوخذنصر ملك بابل الذي سار إلى بيت المقدس ، وفتحه عنوة ، وقتّل بني إسرائيل وسباهم وحملهم إلى أرض بابل ، وأخذ التوراة وماكان في الهيكل من كتب الأنبياء ، فصيّرها في بئر وطرح عليها النار (2) .

وتشير التوراة نفسها إلى هذا الحدث مرات كثيرة وان كانت لا تشير إلى إحراق التوراة .

---

(1) محمد عزت دروزة : **القرآن المجيد** : 184 .

(2) اليعقوبي : **تاريخ** ج : 1 / 5049 .

يقول البيروني : إنّ عند كل واحد من اليهود والنصارى نسخة من التوراة تنطق بما يوافق قول أصحابها . فالتي عند اليهود زعموا أنها هي البعيدة عن التخليط ، والتي عند النصارى تسمّى توراة السبعين (1)........

وليستْ للتوراة هاتان النسختان فقط. ولكن لها نسخة ثالثة عند السامرة(2).

فالتوراة إذنْ لم تسلم من الأحداث التي تعرّض لها اليهود عامة ، وأورشليم خاصة . ولذلك يميل المسلمون إلى الرأي بأن اليهود تعمّدوا تحريف التوراة . ولقد قام البيروني أيضا بمناقشة عبارات من التوراة من (سفر أشعيا) وغيره مستشهدا على ان التوراة قد تنبّأت بظهور المسيح ومحمد عليهما السلام . ثم يتّهم عناد اليهود وإنكارهم هذا الأمر نتيجة تحريفهم للتوراة (3) .

كما أنّ التعارض المزعوم بين قصص القرآن إنّما هو وهْم أوقعت فيه النظرة السطحيّة والحكم المستعجَل .

وأمّا ما أورده الأستاذ دروزة من شبهة اختلاف الوقت الذي كان فيه فرعون يقتل أبناء بني اسرائيل ، فإنه يقصد بذلك ماورد في سورة القصص من أنّ فرعون كان يرتكب هذا الجرم الفظيع قبل أن يولَد موسى عليه السلام كما يدلّ عليه سياق هذه الآيات:

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

(1) البيروني : **الآثار الباقية** : 15 .

(2) المصدر السابق : 21 .

(3) **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق** 1970 : 45 . ج : 3 / 638 .

إنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (1) .

ومرة ثانية بعد بعثته كما تشير هذه الآيات :

« وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ : سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ . وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » (2) .

وبالتأمّل يتبيّن ألاّ تعارضَ بين ما ورد من قصة فرعون في السورتين . فإنّ إقدامه على تقتيل الأبناء وقع مرتين : قبل ميلاد موسى بدافع الخوف من تحقيق الرؤيا التي عبّرها له الكهنة ، ثمّ تجدّد بعد بعثته بدافع الانتقام وإدخال الهلع في نفوس المؤمنين .

ومن يقول بالتعارض في قصص القرآن من المحدثين فإنّما يعني تناقضا ، في حين أن التناقض معدوم ، لانعدام شروطه المتّفق عليها عند علماء المنطق : وهي الاختلاف بين قضيتين في الكمّ والكيف والجهة ، والاتّفاق بينهما في وحدات ثمانية : الموضوع والمحمول والزّمان والمكان والإضافة والشرط والقوّة والفعل والجزء والكلّ (3) .

---

(1) القصص : 3 ـ 5 .

(2) الاعراف : 126 .

(3) انظر : **تهذيب المنطق** : للتفتزاني : 156 ـ 160 .

وإذا امعنّا النّظر فيما يبدولنا من اختلاف بين سورتين أو أكثر في القصّة القرآنية الواحدة على ضوء هذه القاعدة المنطقيّة ، فلا بدّ أن نهتدي إلى انعدام وحدة فأكثر من تلك الوحدات التي لا يكون التّناقض إلاّ بتوفّرها معا. وإذن فلا تناقض .

الفصل الرابع

أنواع القصص القرآني

كلُّ ما ورد في القرآن من قصص لايحيد عن الحقّ ؛ لأنه بُني على الحقائق الثابتة الخالصة من زخرف القول وباطله ، ولا يتجافى الصّدق ؛ لانه لم يكن للخيال أو الوهم أو المبالغة مدخل اليه ، سواء أكان هذا الصدق واقعيًا في عرض وقائع التاريخ وتصوير الأشخاص بما هو مطابق للواقع ، أم موضوعيًّا في عرض نماذج لأصناف من البشر على حقيقتهم ، أو أحداث إنْ لم تكن وقعت بالفعل ، فإنّها في قوّة الأحداث الواقعة ، لاحتمال أن تقع في كلّ حين ، وذلك للاقتناع الحاصل بامكان وجود تلك النماذج ، أو وقوع تلك الأحداث في كل عصر ؛

فمّا يتمثل فيه الصّدق الواقعي هوالقصص التاريخي .

وما يتمثل فيه الصدق الموضوعي هو القصص التمثيلي .

وقد تكون القصة التاريخية تمثيلية سيقت مساق المثَل بصريح القرآن كقصّة أصحاب القرية .

« وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ القَرْيَةِ » والقرية هي «أنطاكية» كما حدّدها أكثر المفسرين مثل ابن عباس والنسفى (1).

---

(1) انظر : **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس** : للفيروزابادى : 273 ·
وتفسير النسفى : ج : 4 / 5 ــ 6 ·

وكان أهلها يعبدون الأوثان ، فأرسل إليهم عيسى عليه السلام ثلاثةً من المؤمنين يدعونهم إلى الدّين ، وينهَوْنهم عن الإشراك بالله . فسجنوهم وعذّبوهم وهدّدوهم بالقتل إن لم يكفّوا . فالتحق بهم مؤمن آخر جاء من أقصى المدينة لمساندتهم وإنقاذهم ، وقد بلغه ما نالهم من أذى ، فقتلوه وصلبوه .

و ها هي القصة كما عرضها القرآن :

« واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أصْحَابَ القَرْيَةِ إذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ ، إذْ أرْسَلْنَا إليْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بثالِثٍ ، فَقَالُوا : إنّا إليْكُمْ مُرْسَلُونَ . قَالُوا : مَا أنْتُمْ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ، ومَا أنْزَلَ الرّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إنْ أنْتُمْ إلاّ تَكْذِبُونَ ، قَالُوا : رَبُّنَا يَعْلَمُ إنّا إلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ، وَمَا عَلَيْنَا إلاّ البَلاَغُ المُبِينُ . قَالُوا : إنّا تَطيّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنّكُمْ وَلَيَمَسّنّكُمْ مِنّا عَذَابٌ أليمٌ. قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أئِنْ ذُكِّرْتُمْ ، بَلْ أنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ . وجَاءَ مِنْ أقْصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى . قَالَ : يَا قَوْمِ اتّبِعُوا المُرْسَلِينَ . اتّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْألُكُمْ أجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَالِيَ لاَ أعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أأتّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ؟ إنْ يُرِدْنِي الرّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ

عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ . قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ . قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (1)

وهي من نوع قصص الكفاح التي تنتهي باستشهاد البطل في سبيل الحق . فموتُه وإن كان في الظاهر هزيمة ، لكنّه في الحقيقة انتصار للمبادىء التي آمن بها . ودعا اليها ، وعمل على تحقيقها ، وفوزٌ عظيم له بما نال من رضى الله وجنّة الخلد .

وفي الانبياء من قُتل كما أخبر الله أن بني إسرائيل يقتلون النبيئين بغير حق . وهؤلاء هُمْ كمن يُقْتَل من المؤمنين في الجهاد شهيدا يكون حاله أكمل من حال من يموت حتْف أنفه. ثم إنّ الدّين الذي قاتل عليه الشهداء يظهر وينتصر بانتصار الله لهم ولأتباعهم ، وإعلاء ذكرهم ، ونشر لسان الصدق لهم وبقائه ثناء ودعاء ، وإهلاك أعدائهم ، وإذلال من يحادّهم ويشاقّهم ؛ وهذا غاية ما يكون من النصر. وإذا كان الموت لا بدّ منه فالموت على الوجه الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل. (2) .

---

(1) يس : 13 / 27 .

(2) تقى الدين بن تيمية : **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**. ج : 4/ 264 ـ 265 .

« إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالذينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدّنْيَا ويَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ » (1)

وقد ضرب الله هذه القصة التاريخية مثلا لمشركي مكة الذين كذّبوا الرسول صلى الله عليه وسلم لإنذارهم عذابا ينزل عليهم كما نزل على أصحاب هذه القرية لمّا قتلوا المؤمن الذي دعاهم الى طاعة المرسَلين . وقد غضب الله له ، فعجّل لهم العقوبة :
« وَمَا أنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السّمَاءِ وَمَا كُنّا مُنْزِلِينَ . إنْ كَانَتْ إلاّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإذَا هُمْ خَامِدُونَ » (2)

انتفاء الأسطورة والرمزية

ومن هنا يتّضح أنْ لا مجال للأسطورة في القرآن لانه كلمة الله « لاَ يَأتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »(3)

وأصل الأسطورة خرافة اخترعها خيال الإنسان لتفسير العلاقة التي تربطه بالوجود ، وتعليل ما يجري فيه من بعض الظواهر التي عجز عقله عن معرفة أسبابها الحقيقيّة ، فانساق مع الأوهام . لذلك كان أكثر الأساطير مما يثير العَجَب والدهشة ، لأنّ الأحداث فيها لا تسير سيرها الطبيعي وفق سنن الكون ، ولكن

---

(1) غافر : 51 .
(2) يس : 28 ــ 29 .
(3) فصلت : 42 .

تسيّرها قوة جبّارة خفيّة تصنع الخوارق ، وتهيّء الظروف الملائمة لتمضي بها لا في المسلك الطبيعي ، بل في المسلك الذي رسمه القاصّ إلى النهاية . ويُشبه الأساطير من بعض الوجوه ذلك القصص الديني الذي لم يقتصر فيه الرُّواة والمفسرون على ما أوردته الكتب المقدّسة ، بل جعلوا منه على مرّ العصور مرتعا لتصوّراتهم ومسرحا لتخيّلاتهم . والخرافيّون هم آفة الأخبار وآفة الأديان في كل زمان . والناس يروقهم أن يجعلوا من الاستثناء قاعدة ، ومن الشذوذ قانونا . وهنا الطامّة التي تعصف بالدّين والعلم معا . فكم من قصص ديني لو صحّ لما تماسك للكون نظام ، ولا بقيت لقانون السببية حرمة ! (1)

ويُثبت علماء النفس أن غير المعقول أشد فعلا في النّفس ، لذلك كانت الجوانب الغريبة في هذا القصص أكبر مؤثّر فيها. وقد يسود الوهميّ منها على الحقيقيّ. ومن هذا النّوع ما رواه الكسائي : أنّ يوسف عليه السلام قال لإخوته لمّا أتوه يكتالون وهم لا يعرفونَه :

« يا أولاد يعقوب ! إنّ من العجَب أن يأكل الذئب أخاكم ، وفيكم من يصيح بالأسد فيخرّ ميتا ، وفيكم من يأخذ برِجل الذئب فيشقّه نصفين ، وفيكم من إذا صاح وضعت الحامل ما في بطنها ، وفيكم من يقلع الشجرة من أصلها ، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقها . قالوا : نعم أيها العزيز! وفينا من يفعل أكثر من ذلك ، لكن إذا جاء القضاء عمي البصر ، وضعفت القوة » (2)

---

(1) محمد الغزالي : **ركائز الايمان بين العقل والقلب** : 317 .
(2) **قصص الانبياء** : 170 .

والقرآن لم يذكر شيئا من هذه الأوصاف التي كادت تجعل إخوة يوسف خَلْقا غريبا ، أو من طينة غير آدمية. ولكنّها مبالغات الرّواة ، وأخيلتهم الخصبة في توليد الصّور.

ولعلّ هذه الملابسات التي أدخلوها على القصّة القرآنية فأخرجوها عن منهجها المرسوم إلى ما يشبه الأسطورة ،، هي التي ازداد بها الالتباس ، وبخاصة عند من لا يفرقون بين ما جاء في بعض القصص القرآني من خوارق هي من آيات قدرة الله الباهرة ، وما اخترعه خيال الإنسان من أحداث غريبة ، فتحصل لهم الشبهة لانعدام التمييز .

ويذهب الدكتور «خلف الله» إلى أنّ في القرآن أساطير . وليست له في ذلك من الأدلّة المقْنعة ما يدعم رأيه . فهو لم يَعرِض بصورة جليّة نماذج من القصص القرآني الذي انْتفت عنه الواقعيّة التاريخية ، وثبتتْ له خصائص الأسطورة – إن كان لهذا النوع وجود في القرآن – بل اقتصر على القول بأنّ القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي وجود الأساطير فيه ،وانما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدّليل على أنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس من عند الله . فهو يقول : (واذا كان هذا ثابتا فانّا لا نتحرّج من القول بأنّ في القرآن أساطير . لأنّا في ذلك لا نقول قولا يعارض نصّا من نصوص القرآن (1) .

---

(1) الفن القصصى فى القرآن الكريم : 177 .

واستدلّ، على ذلك بما حكاه القرآن عن مشركي مكّة أنهم وصفوا قصصه (بأساطير الأوّلين) . ومن ذلك مثلا قوله تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ). (1) .

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ، إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ ، الأَوَّلِينَ) (2) .

ولكنْ ردُّ القرآن على دعوى هولاء المشركين ليس إلاّ تكذيبا لِمَا ادّعوا ، ودحضا لما زعموا .

(وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ، وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً . قُلْ : أَنْزَلَهُ الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (3) .

---

(1) الانعام : 26 .

(2) الانفال : 31 .

(3) الفرقان : 4 ـ 6 .

ولا شكّ أنّ في ثبوت نسبة القرآن إلى الله ما ينفي عنه قطعا أن يكون في قصصه أساطير ، والله تعالى يقول :

(إنّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ) (1) .

ومن ناحية أخرى فإنه ينبغي تحديد المعنى المراد من قولهم (أساطير الأوّلين) . فأساطير : جمع الجمع لسطر وأسطر ، ومفرده : سطر . وهو الخط والكتابة . (2) ومنه قوله تعالى : (كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا) (3) أي مكتوبا . فيكون المعنى : أنّ القرآن في زعمهم ممّا كتبه الأوّلون .

ويؤيد هذا الرأي أن الذين زعموا ذلك هم المشركون من العرب .

والعربيّ كان يتصوّر الإشياء كما يتوهم عقله الساذج ، ولكنه لا يخترع الأساطير حولها مهما كانت عنده هذه الأشياء غامضة معقّدة . ومن هنا جاء قصصه بعيدا عن الخيالات التي تبدو في أكثر القصص الميثولوجي والأساطير الشعبية لدى الأمم الأخرى : كأساطير اليونان والهنود والفراعنة . فلم يكن العرب يعرفون الأسطورة بهذا المعنى حتى يُحمَل عليه ما حكاه القرآن عنهم .

---

(1) آل عمران : 62 .

(2) انظر : **القاموس المحيط** ج : 2 / 48 .

(3) الأحزاب : 6 .

ولقد حكى القرآن أقوالا لِمَا لا يَعقِل ، كالنملة والهدهد في قصة سليمان :

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَال : مَالِي لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ ؟ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَمَكُثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَال : أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ،وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ؛ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ . أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) (1) .

---

(1) النمل : 17 ـ 25 .

قال الرّازى تعليقا على هذه القصة : (إنّ الملاحدة طعنت في هذه القصة من وجوه :

أحدها أنّ هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلّما بكلام لا يصدر إلاّ عن العقلاء ، وذلك يجُرّ الى السّفسطة . فإنّا لوْجوّزنا ذلك لما أمنّا في النملة التي نشاهدها في زماننا هذا أن تكون أعلمَ بالهندسة من إقليدس ، والنحو من سبويه . وكذلك القول في القملة ، ويجوز أن يكون فيهم الأنبياء والتكاليف والمعْجزات ! ومعلوم أنّ من جوّز ذلك كان إلى الجنون أقرب .

وثانيها : أنّ سليمان عليه السلام كان بالشّام . فكيف طار الهدهد في تلك اللحظة اللطفية من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه ؟

وثالثها : كيف خفِيَ على سليمان عليه السلام مثلُ تلك الملِكة العظيمة مع ما يقال : إن الجنّ والانس كانوا في طاعة سلميان . وأنّه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكليّة . وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك ، تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ، ومع أنّه يقال : من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ، ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس ، وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟

والجواب عن الأول : أنّ ذلك الاحتمال قائم في أول العقل . وانما يُدفع ذلك بالإجماع . وعن البواقي أنّ الإيمان بافتقار العالَم الى القادر المختار يزيل هذه الشكوك) (1) .

---

(1) **مفاتيح الغيب** : ج : 24 / 190 – 191 .

والمتأمّل في الاعترضات التي أوردها الرازي ، والتي قد يَطعن بها على القرآن الملاحدةُ وغيرهم ، يجدها قويّة الأثر ، لا يدانيها في قوّة عرضها إجابته عليها بعبارة مقتضَبة لا تفي ولا تقنع . ومن يتصدّى لإيراد مثل هذه الافتراضات ، ينبغي أن يكون تصدّيه للإجابة عليها مماثلا إن لم يكن أقوى، حتى لا يبقى مجال للشكوك والشُّبُهات والمطاعن.

ويرى الدكتور خلف الله «أنّ الرازى وغيره من المفسّرين لو درسوا المسألة على أساس من الخلْق الفنّي للشخصيات ، وأنّها ما وُجدت إلاّ لتودّي أدوارها في القصة لمّا وقعوا في تلك الحيرة ، ولمّا كان دفاعٌ واتّهام .

على أنّ المسألة قد تحتاج في نظره الى شيء من الإيضاح، وهو أنّ بعض الأدوار الرئيسية في القصص الحديث تُسنَد الى الحيوانات ، ويكون الحيوان في مثل هذا القصص هو الشخصية الرئيسية التي تتوجّه نحوها الأنظار ، وتلتفت إليها القلوب والأسماع . ولعلّنا لم ننس بعدُ شخصية (لاسي) ذلك الكلب الذى يضطلع بالبطولة في قصة «لاسي يعود الى منزله» . وهي بطولة تتجلّى فيما يرتسم على وجهه من انفعالات إنسانيّة ، وفيما يحرّكه من عواطف بشرية ، إذْ يتحرّك (لاسي) في القصّة كما يتحرك الإنسان النّابه الممتاز الذي يملك رقّة عواطف البشر ودقّة إحساسهم ، ويمتاز بما يمتاز به النّابهون من ذكاء .

وهذه المسألة لا تقتصر على الأدب الحديث . ففي الآداب القديمة ألوان وألوان . ويكفينا من الأدب العربي كتاب (كليلة ودمنة) . ففيه المثُل الصالحة للدلالة على ما يقوم به الطّير والحيوان من عمل ، وما ينطقان به حِكَم وأمثال .

ثم يقول : « أعتقد أنّ السبب في ما وقع فيه هؤلاء المفسّرون من حيرة ، هو اضطرابهم بين ما يشاهدون ويلمسون ، وبين ما يذهب إليه بعضهم من حديث عن عقيدة الخوارق والمعجزات » (1)

ورَأيُ الدّكتور خلف الله في هذه القصة مردود من وجوه:

1) أنّه يراها كالأسطورة وإن لم يصرّح بذلك ، لأن الأساطير القرآنيّة في رأيه هي القصص التي لم تقع ، وذلك لاستحالة أن يصدّق العقل بوقوع مثلها ، « واذا ما قال المستشرقون أنّ بعض القصص القرآني كقصّة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بُنِيت على بعض الأساطير ؛ قلنا : ليس في ذلك على القرآن من بأس . فإنما هذه السبيل سبيلُ الآداب العالَمية ، والأديان الكبرى . ويكفينا فخرا أنّ كِتابنا الكريم قد سنّ السُّنن ، وقعّد القواعد ، وسبق غيرَه في هذه الميادين» (2) .

فاذا كان يعتبر قصة النملة والهدهد أسطورة ، ويعتبر حديثهما من باب الرّمز كما يجري على لسان الأسد والثعلب وابن آوى في كتاب "كليلة ودمنة" فإنّما هو رمز إلى الواقع ، لا إلى الخيال الأسطوري . وما اتّخذ القاصّ في هذا الكتاب من الحيوانات ستَارا لِبثّ أفكاره ومبادئه إلاّ نتيجة لظروف سياسية أو اجتماعية أو نفسية لا تسمح للمرء أن يصرِّح بما يريد ، أو يعبِّر عمّا يُحسّ . ويكفي أن يتصوّر القارىء أشخاصا مكان حيوانات لتبدوَ له القصة واقعيّة، بل

---

(1) **الفن القصصى فى القرآن الكريم** : 266 ـ 267 .

(2) المصدر نفسه : 180 ـ 182 .

مُغرِقة في الواقعيّة ، في حين أنّ الرّمزية في الاصطلاح الأدبي الحديث جعْلُ الكلمة كالصّدى الآتي من بعيد . فهي لا تُقصَد لذاتها ولا تُستعمَل للمعنى الذى وُضعت له ، ولكن لعلاقتها بحقيقة أخرى تثيرها هذه الكلمة في النفس . « وقد جعل الرّمزيّون لكل ظاهر نفسيّة أو فزيولوجيّة علاقة بالعالم المثالي . فالنهر يرمز الى القدَر ، والشمس الغاربة ترمز الى المجد الغارق وهكذا ...»(1) فالرّمزيّة في مفهومها الحديث هي إلى المثاليّة والغموض أقرب منها الى الواقعية والوضوح . وهي بهذا الاعتبار تتجاوز عقول الذين جاء القرآن لهدايتهم ، وخاطبهم بما يفهمون .

ومن ناحية أخرى فإنّه لا داعي لأن تستعار في بعض القصص القرآني كائناتُ غير إنسانية ، لتحلّ محلّ الانسان في دوره القصصي ، كما نجد ذلك في كتاب كليلة ودمنة مثلا .

2) ما ورد في القصة من ضبط للأحداث ومواقعها ، ومن دقّة في حكاية الأقوال ، ثم توجّهُ سليمانَ إلى الله بالدعاء ، كي يُلهمه شكر نعمته عليه بتعليمه منطِق الطير ، وفهمه ما تريد النملة ، وانتهاءُ القصة بنتيجة معيّنة ، وهي إيمان ملكة سبإ بالله ، وإسلامها مع سليمان لله ربّ العالمين ، بعد أنْ أعيتْها كلّ الحيل للابقاء على مُلْكها ، ولربّما رأت من عجائب إحضار عرشها ما أدهشها. أفيَجوز بعد هذه الأدوار العظيمة ، والتصرّفات العجيبة ، تشبيهها بقصة الكلب (لاسي) ، أو بقصص «كليلة ودمنة» التي لم يكن من بين أشخاصها إنسان ؟

---

(1) La Doctrine Symboliste T : IV. P: 84

ويزيد هذا التشبيه المفتعَل بُعداً عن الحقيقة ما نجد أثناء عرض القصة من تدخُّل الخالق سبحانه بذكر ما صدّ هذه الملكة عن عبادته :

«وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » (1)

قال النَّووي في تفسيره لهذه الآية : «وهذا من كلام الله تعالى : أي ومَنَعَ بلقيس عن إظهار الإسلام عبادتُها القديمة للشمس .... وأخبر الله تعالى أنّها كانت من مجوسٍ يعبدون الشمس(2)»

وقال النسفي : «أيْ قَالَ الله تعالى : وصدّها قبل ذلك عمّا دخلتْ فيه ضلالُها عن سواء السبيل (3) »

فهل يجوز بعد ذلك أن نحمل بعض المواقف في القصّة على التمثيل أو التخييل أو الرّمزية ؟ إنّ القول بهذا خروج بالقصة عن هدفها ، وهو : إظهار القدرة الإلهية التي تتحدّى الإنسان مهما بلغ من علم وحكمة «تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ . فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يؤْمِنُونَ ؟» (4)

وما الذى يحُول دون القول بأنّ أحداث هذه القصّة من الخوارق أو المعجزات ؟ سيما وقد أعلن سليمان :

---

(1) النمل : 43 .
(2) **التفسير المنير لمعالم التنزيل** : ج : 2 / 128 .
(3) **تفسير النسفى** : ج : 3 / 214 .
(4) الجاثية : 6 .

«يَـأَيُّهَـا النَّاسُ عُلِّمْنَـا مَنْطِـقَ الطَّيْـرِ وأوتِينَـا مِـنْ كُـلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ» (1) :

وليس هذا الإعلان إلا إشهارا لنعمة الله ، واعترافا بفضلها ، ودعوة الناس الى التصديق بهذه المعجزة .

فعلاقة الارتباط بين هذه القصة القرآنية وما يشبهها من القصص الموضوع ، لا تعني بالضرورة حمل الأوّل على الثاني على سبيل القياس ، وذلك لعوامل مختلفة تمنع من المقايسة .

والخلط بين هذه العوامل يجعل الاستدلال دائريّا لا يؤدّي الى رأي مقنع وتقرير حاسم .

(3) — إنّ الفنّ القصصي في الأدب لا يصحّ أن تُحَكَّمَ مقاييسُه بصورة آليّة مطلقة في القرآن . فهو ليس كتاب أدب وقد ابتدع فيه الخالق منطقة ، كما ابتدع فنّه . والقصص القرآني قصص دينيّ قبل شيء . فلا يمكن النّظر اليه من زاوية أدبيّة صرف ، وقد جاء لخدمة أغراض متنوّعة ، فلا يمكن تفسيره بالاعتماد على نظرية واحدة .

(4) — ولِمَ لا يتصوّر الفكر أنّ الله ألْهم هذا الهدهد ليُعرّف سليمان فيقول له : «أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ» فيتصاغر إليه علمه ، ويكون ذلك لطفا به في ترك الإعجاب الذي

---

(1) النمل : 16 .

هو فتنة العلماء ، ولا يرى غضاضة في أن يأخذ عمّن هو دونه، ولو كان من غير نوعه ؟ فمن الأقرل المشهورة : الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها أنّى وجدها .

ثم إنّ في هذه الآية دليلا على أنّ الأنبياء تخفى عليهم أمور يعرفها غيرهم ، وعلى بطلان قول الرافضة : (إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحدٌ أعلم منه) (1).

وهكذا كشف الهدهد لسليمان سرّا نّدّ عنه أمرُه، واختفى خبره ولم يصل إليه علمه .

ومن هنا يصحّ اعتبار قصة سليمان والهدهد من نوع القصص التعليمي : أي إن القصة تُعلّم حقيقة أكبر منها : مثل قصة موسى والعبد الصالح (2) .

فقد ورد في شأنها ما رواه أبيّ بن كعب عن رسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنّ موسى قام خطيبا في بني إسرائيل ، فسُئل : أيّ النّاس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه ، إذ لم يردّ العلم إليه . فأوحى الله إليه : إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى : أي ربّ ! فكيف لي به ؟ (3) .

فدلّه على مكانه ، وجعل آية لقائه في عودة الحوت المجفّف إلى الحياة .) ... الخ ...

---

(1) **تفسير النسفي** : ج : 3 / 208 .
(2) الكهف : 55 ـ 81 .
(3) رواه **البخاري** .

لم يُرض اللهُ جواب موسى ، لأنه يصوِّر غفلته عن سعة فضل الله على سائر خلقه بما يعلّمهم ويرشدهم ، ويصوّر اغتراره بمظاهر من العلم لا تحيط بأسرار الكون ولا بحقائق الأشياء . فلا ينبغي للمرء مهما أوتي من العلم والحكمة ان يغفل لحظة عن سَعة علم الله الذي يتجاوز تصوّرات البشر ومداركهم . وهذا ما أراد الله أن يُعلِّمه لموسى عندما جمعه بالعبد الصالح .

وممّا يلفت النّظر في القصّة تصميم موسى على لقاء الرجل ليتعلّم منه ولو كلّفه ذلك جهود السنين

« وإذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أبْرَحُ حَتَى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أوْ أمْضِيَ حُقُبًا» (1) ثم حرصه الشديد على صحبته يصوّر مدى تقديره للعلم وأهله : «هَلْ أتّبِعُكَ عَلَى أنْ تُعَلّمَنِي ...» (2) .

كما تكْشف القصّة عن الخلاف بين عالَم الظاهر وعالم الباطن . فالنظر إلى الظواهر دون التفرّس والتعمّق فيما وراءها ، يُبعِد عن الحقيقة التي قد يعجز العقل عن رؤية أبعادها ، إمّا لقصور طبيعي ، وإمّا لعوارضَ داخلية .

فسِرُّ الأحداث في القصة يبدو غريبا . بل إنّه يصادم منطق العقل ، ويجعله في حيرة . لذلك لم يستطع موسى أن يتمالك «وهو يرى السفينةُ تُخرَق . والغلام يُقتل ، والشحّ يقابَل بما يُشبه التبذير ، ثم يراد منه ألاّ يتحرّك ، وأن يضع أعصابه في ثلاّجة ، كما يقال اليوم » (3) .

---

(1) الكهف : 60 .

(2) الكهف : 66 .

(3) محمد المجذوب : **قصص وعبر** : 194 .

فالله لم يفتأ يعلّم أنبياءه ألاّ يستغنوا عن مدده وعونه ، وألاّ يغترّوا بما آتاهم من فضله ، فيحسبوا أنّ ذلك وقف عليهم دون سواهم من مخلوقاته وإن كانت ضعيفة كالهدهد . ولا شك أن ذلك مما يُحيي فيهم الشعور بالضعف أمام الله ، والحاجة الدّائمة إليه .
وفي نفس الاتجاه سار الدكتور خلف الله عندما تحدّث عن شخص إبليس .

فقد أوْرد فقرات من تفسير الرازي لقصّة آدم في سورة طه : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ....» (1) .

«ثمّ إنّ آدم مع كمال عقله وعلمه بأنّ الله تعالى مولاه وناصره ومربّيه ، وأعلمه بأنّ إبليس عدّوه ، حيث امتنع من السجود له ، وعرض نفسه للّعنة بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس ، مع علمه بشدّة عداوته له ، وأعرض عن قول الله تعالى ، مع علمه بأنّه هو النّاصر والمربّي ؟؟ ومَن تأمّل في هذا الباب طال تعجّبه ، وعرف آخر الأمر أنّ هذه القصة كالتنبيه على أنّه لا دافع لقضاء الله ، ولا مانع منه ، وأنّ الدّليل وإنّ كان في غاية الظهور ونهاية القوّة

---

(1) طه : 115 _ 127 .

فإنّه لا يحصل النفع به إلاّ إذا قضى الله تعالى ذلك وقدّره . » (1)

يقول خلف الله معلِّقًا : (2)

وكلام الرّازي مستقيم في تصويره لموقف آدم من ربّه ومن إبليس ، وفي تصويره انتصار إبليس واتّباع آدم له ، وان كنّا نختلف وإيّاه في الفقرة الأخيرة . فنحن نريد أن نفهم المسألة على أنها قصّة رمزيّة تصور النِّزاع بين مَنْ آمنَ ، ومَن استكبر ، وكيف يحاول الثاني أن يغلب الأوّل على أمره ، فيعدُه ويُمنّيه ، حتى يُخرجه عن الطاعة والإيمان . وعند ذلك يتخلّف عنه ، ويقول له ما قاله الشيطان فيما صوّره القرآن الكريم :

«وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ : إنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ..... ! (3) .

وبأدنى تأمّل يظهر أنّ ما أراده الرازى يختلف عمّا اعتمده خلف الله من كلامه . فليس له أن يبني عليه : أنّ قصة آدم وإبليس قصة رمزيّة. فهو تخريجٌ لا يقبله العقل ، لتجافيه عن الموضوعية ، ولا يعدو

---

(1) مفاتيح الغيب : ج : 126/22

(2) الفن القصصى فى القرآن الكريم : 272 .

(3) ابراهيم : 22 .

أنْ يكون رأيا شخصيا يحاول صاحبه دعم ما ذهب اليه وقرّره من أنّ القرآن يتصرّف في قصصه تصرّفا أدبيّا .

وإذا كان في القرآن من الرّمز ما قد يعلو على الفهم ، ويتمثّل ذلك بوجه خاص فيما افتُتحت به بعض السّور من حروف، فلا يدخل ذلك في نطاق الرّمزية بمفهومها الحديث ، والتي يُشبّهها له في مثل قصة آدم وإبليس .

لقد اشتمل القرآن الكريم على صُور تمثّل الرمزيّة العربيّة في الإيجاز والتعبير غير المباشر الذي قد يخفى على غير الأذكياء ، لا الرّمزية التي يتحدّث عنها المجدّدون بأنها فيض عن مشاعر ذاتية ، شبيهة بالتهويمات والرؤى والأحلام ، ولغموض هذه المشاعر ؛ كثيرا ما تتحوّل الى ألْغاز أو طلاسم ، لا يملك مفاتيحها غير أصحابها . والناس يختلفون في فهم ما تدلّ عليه الرموز باختلاف مشاعرهم ونوازعهم ، كما يختلفون في فهم ما ترمز اليه لوحة من لوحات (بيكاسو) مثلا ،

«إنّ القرآن الكريم جمع بين الإيحاء وبين الوضوح ، وخاطب العقل والشعور معا ، وبلغ في ذلك ما لا يستطيع أن يبلغه بشرا .

وأما الرّمزية في الأدب الغربي على الخصوص فقد نفرت من الوضوح ، لانه لا يحقق الإيحاء ، ولأن الرمزيين طرقوا مناطق لا يتسنّى لهم أن يكونوا واضحين في التعبير عنها ، وخاطبوا الشعور فقط» (1) .

---

(1) درويش الجندى : **الرمزية فى الأدب العربى** : 193 .

وإذا كان من الآيات القرآنية ما قد يشتبه على الأفهام ، فهو إنّما يجري في ذلك أيضا على سنن العرب الذين كان أدبهم في الجاهلية يقوم على صفاء الفكرة روضوحها ، والقصد الى الهدف دون التواء أو غموض ، في أوجز لفظ ، ومن أقرب طريق .

القصص التاريخي

ليست الأحداث التاريخية في القصص القرآن متسلسلة الحلقات في السّرد ، لأن التاريخ فيه لم يُقصد لذاته ، ولكن لاستخلاص العبرة منه ، والتفكُّر في العلاقات السببية بين مقدّمات الأحداث ونتائجها وفق سُنن إلهيّة يصِلها بالانسان ما في كيانه من نوازع الخير والشر .

وعلى هذا الأساس أخضع القرآن في قصصه وقائع التاريخ إلى حقائق دينية ، ووضع الدّين في سجلّ الأحداث الكونيّة ، إلى جانب قوانينها الطبيعية أو الاجتماعية ، إذ ليس في مجرى هذه الأحداث ما يحصل بمحض الصدفة ، أو بتأثير الظررف المادّية وحدها . وعلى المتأمل أن يبحث ، ليتوّصل الى معرفة بعض السنُّن التي تساير الإرداة الالهية في الثواب والعقاب ، والبقاء والفناء .

فما الظروف الماديّة إلاّ وسائل تنفيذ . وما الصّدفة إلاّ محض افتراض . فهنالك ظواهر تخضع لقوانين تُصْدُق دائما بحيث يسكن التنبُّؤ بحدوثها متى تحققت شروط وجودها .

« ويكاد العلماء يجمعون على أن فكوة الاستثناء أو الصُّدفة

وليدة الجهل بالقوانين . فلا يلجأ المرء الى تفسير وقوع بعض الحوادث بالصّدفة إلاّ عندما يتبين لـه جهله وعجزه عن تفسير ما يرى» (1) .

تفسيـــر القـــرآن للتـــاريـــخ

وهكذا فإنّ القرآن لم يربط بين الدين وأحداث التاريخ في الأفراد والمجتمعات إلاّ لتقرير أنّ تلك الأحداث وان ارتبطت بقوانين أخرى غير دينيّة ، فإنها ترجع كلّها إلى السبب الأول ، أو العلّة الأولى للوجود ، وهو الله سبحانه . إذ أنّ إدخال قدرته ومشيئته في تصريفها وتدبيرها لا يعني إلغاء البحث عن العلل والأسباب التي يُعنَى بها علم الطبيعة ، أو علم الاجتماع . بل القرآن يدعو إلى الاستقراء في البحث ، لمعرفة الظواهر المختلفة التي تنتهي إلى نتائج معيّنة تفسّر سُنن الله في الخلْق والتدبير . وليس القرآن بحاجة الى مبادىء تخالف القوانين التجريبية .

فلا تعارض إذنْ بين الفكر العلمي والفكر الديني كما يزعم (أوقوست كونت) .

فهو يري استحالة التوفيق بين الطريقة الوضعيّة (Méthode Positive) : وهي التي يُبحث فيها عن طبيعة الظاهرة وسببها المباشر، وما تخضع له من قوانين اكتشفتها العلوم الرياضية والطبيعية . والطريقة الميتافيزيقية (Méthode Métaphisique) : وهي التي تُفهم بها الظاهرة على أنها من تأثير قوّة مريدة بصرف النظر عن طبيعتها وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين (2) .

---

(1) محمود قاسم : **المنطق الحديث ومناهج البحث** : 610 .

(2) علي عبد الواحد وافي : **ابن خلدون منشىء علم الاجتماع** : 131 ـ 134 .

واذا كان (كونت) يرى في الجمع بين الطريقتين تناقضا فلأنّ الروح اللاّهوتية عند المسيحيين هي التي كانت تسيطر على التاريخ ، وعلى مجرى الأحداث ، فتطبع جميع الآراء بطابع علم اللاّهوت .

ومن ذلك مثلا أن لويس الحادي عشر كان ينفق جلّ ماله محاولا أن ينال بأثمن ما يقدّم حمايةَ العذراء وأبرار الفردوس ، مقتنعا بما يرويه له أحد المؤرخين : أنهم يتدخّلون في أعمال الإنسان دائما . وهم القادرون وحدهم على ضمان الانتصارات.(1)

أمّا في القرآن فانّا نجد فيما ترويه قصصه من أحداث التاريخ ، ما يفيد بأنّ سنن الحياة مخلوقة لله «سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ أمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » (2). «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا » (3) . فلا منافاة حينئذ بين البحث عن هذه السنن أو القوانين ، وبين الاعتقاد بخالقها ؛ ولا بين الاعتقاد باقتران المقدّمات بالنتائج ، أو ترتيبها عليها ؛ والإيمانِ بالله باعتباره خالقا للمقدّمة السابقة والنتيجة اللاّحقة ، وما بينهما من ارتباط . لذلك لم يحدُث أيّ تناقض في الفكر الإسلامي بين مبدإ السببية أو القانون العلمي من جهة ، والإيمان بأنّ الله هو المصرّف للامور طبقا لما نعلمه من سُنن ، أوْ مَا لا نعْلمه ، من جهة

---

(1) ق · لوبون G. Le Bon: **فلسفة التاريخ** (ت) ع · زعيتر : 56 – 57 ·

(2) الاحزاب : 38 ·

(3) الفرقان : 2 ·

أخرى . «وموقعُ المعجزة من التفكير السليم أنها شيء لا يخالف العقل ، ولكنه يخالف المألوف والمتواتر المحسوس» (1) :

فتعذيب بعض الأقوام السابقين بالصّاعقة أو الزلزال أو الريح لا يمنع أن يكون كلّ نوع من أنواع هذا التعذيب الذي صبّه الله عليهم ، قد حصل بتوفّر أسبابه الطبيعية المألوفة ، كإرسال السّحب التي تنزل منها الصواعق القاتلة بسبب احتكاك طبقاتها، ولكن ذلك لم يكن نتيجة نهائية لِمَّا يتولّد عن التفاعل القسْريّ للمادّة التي لا تُبصر ولا تَعي ، «لأن السبب أو الناموس لا يملك وحده قدرّة الانطلاق والتّوافق التي يقع بها ألْفُ حادث على نسق واحد ، بل لا بدّ له من القدرة التي يتابع بها هذا التسبّب مرّة مرّة ، وحادثا حادثا» (2) .

قال تعالى : «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» (3).

فهذه السنن جزء من المخطط الالهي . إنّها مخلوقة له ، وليست بديلا عنه ، خلافا لمزاعم القائلين بأنّ اكتشاف القوانين العلمية أغنى عن الإيمان بالله ، ولِمَّا يزعم « ماركس » وغيره من المادّيين أنّ المادة هي أصل الوجود ، وكلّ ما عداها انعكاس لها (4)

فتفسير التاريخ في نظر الماركسية يقوم أساسًا على هذا العالَم المحسوس ، وعلى الإيمان بحتميّة التاريخ ، وهي : أن كلّ

---

(1) ع. م. العقاد : **الفلسفة القرآنية** : 18 .

(2) المصدر السابق : 17 .

(3) الرعد : 13 .

(4) محمد المبارك : **العقيدة في القرآن الكريم** (محاضرة) : 4 و 29 .

خطوة تؤدي حتما الى الخطوة الموالية بطريقة حتميّة . وينْبَني على ذلك أنّ المجتمع يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجّهها .

وقد أنكر العالم الألماني هيزنبرق (Heisenberg) المحرز على جائزة (نوبل) سنة 1932 فكرة الحتمية . فأثار الشكوك القوية من حولها ، مقررًا أنّ التجارب الطبيعية لا تتشابه على الاطلاق ، ولا تأتي تجربة منها وفاقا للتجربة الأخرى تمام الموافقة ،، ولو اتّحدت الآلات والظروف . وسمّى مذهبه هذا باللاّحتمية (1).

أمّا تفسير التاريخ من خلال القصص القرآني فينْبني على أن الحاضر هو نتيجة الماضي ، وأنّ المستقبل متوقّف على الحاضر .

«إن اللهَ لا يُغيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغيّرُوا مَا بأنْفُسِهِمْ . وإذا أراد اللهُ بقومٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدّ لَهُ . وما لَهُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ» (2) .

ويصحب هذا المبدأ شعورٌ فردي وجماعي بملكوت الله في الأرض ، وايمانٌ بأن الله قد سنّ نظاما يُصاغ واقع البشر في إطاره .

وهذا النظام لا يمنع مبدأ الحرية والاختيار ، ولا يَغلق الباب على الإيمان بما وراء الحسّ . فهو يناقض الحتمية (Déterminism) التي يقول بها الماركسيّون ؛ كما يناقض الجبريّة (Fatalism)

---

(1) **الفلسفة القرآنية** : 138 ــ 139 .

(2) الرعد : 11 .

التي يقول بها الجبريون ؛ لأنّ القائلين بالحتمية يؤمنون بالنُّظُم الآلية وحدها ، ولا يؤمنون بإرادة إلهية قد تتعرّض لتلك النّظم بالتبديل والتحويل عند الاقتضاء .

والقائلون بالجبريّة يفسّرون أحداث التّاريخ وحركات الوجود بالإرادة الإلهية وحدها ، وينكرون إرادة الإنسان المُثْبِت لشخصه ، المؤمن بوجوده إيمانَه بوجود خالقه . فكلّ أعماله وتصرّفاته هي لله ، وليست له ، وإن نُسبت إليه ظاهرا . وقد يكون هذا الاعتقاد سبيلا إلى التّواكل ، وذريعة إلى المعاصي.

والحقيقة أنّ الله وإنْ أوجد الإنسان حرّا قادرا مريدا فإنّه يريد أن ينبّهه إلى أنه ما يزال في حضرة وجوده ، ومرتبطا به ، وداخلا في نطاق المُلك الالهي ، رغم حريته وقدرته وارادته.

ونستطيع من جهة أخرى أن نفهم كيف يتدخّل الله في الكون إن شاء ، فتقع الخوارق ، أو غير العادى من الظواهر الطبيعية ، وأن نتصوّر كيف تُوجَّه نفوس بعض الناس ، أو كيف تُلْهَم بعض الحيوانات ؟ لأنّ هذا لا يعدو أن يكون تعطيلا مؤقتا لبعض الخصائص : كعدم إحراق النار لإبراهيم لمّا ألقي فيها، أو زيادة لبعضها بفعل مُوجدها : كانقلاب عصا موسى إلى حيّة تسعى . ولا إشكال في هذا عند من يقول بوجود الإله المدبِّر ، بِمَا لَهُ من صفات الكمال ، وبما له من صلة دائمة بالكون (1)

---

(1) انظر: **تاريخ الفلسفة فى الاسلام** (ت) أبو ريدة : 38 .

فزكرياء عليه السلام لمّا دهشته المفاجأة عند تبشيره بغلام، أخذ يذكر الموانع الطبيعية من إنجاب الولد . «قَالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وامْرَأَتِي عَاقِرٌ؟» (1) وقد حسب هذه الظواهر قانونا مطّردا لا استثناء فيه ، فنبّهه الخالق إلى أنّها ليست كذلك عنده . «ونحن إنّما نرتّب أحكامنا على مشاهداتنا وتجاربنا ، وهي ليست نهائية »

فاذا قلنا : إنّ هنالك قوانين ثابتة ، فهو قول يستند إلى معرفتنا الناقصة ، وليس لنا أن نكذّب بما يقع مخالفا لهذا القانون ؛ لأنّنا عاجزون عن الاستقصاء الحقيقي الكامل الذى نجزم بعده بأن ما اهتدينا اليه هو القانون النهائي الذي لا قانون سواه » (2)

جاء في كتاب « اللهُ يتجلى في عصر العلم » (3) :

«على الرغم من أن في الطبيعة أشياء لم يصل الإنسان إلى معرفة كنهها أو تفسيرها ، لمّا يكتنفها من غموض فإنّنا لا نريد أن نقع في نفس الخطإ الذى وقع فيه الأقدمون عندما اتخذوا آلهة ، كي يجدو تفسيرا لما غمض عليهم ، وحدّدوا لكلّ إله قدرته ، وعيّنوا له وظيفته ودائرة تخصّصه ....

وعندما تقدّمت العلوم ، وأمكن فهم كثير من الظواهر الغامضة ومعرفة القوانين التي تخضع لها ، لم يعُد هؤلاء الناس في حاجة إلى الآلهة التي أقاموها ، بل إنّ كثيرا من البشر أنكروا وجود الله لنفس السبب .

---

(1) آل عمران : 40 .

(2) في ظلال القرآن : ج . 3 / 71 .

(3) جون كلوفر مونسما (ت) الدمرداش عبد المجيد سرحان : 104 .

والـواجب أن نلتمس قـدرة الله فـي النظـام الـذى خلقـه ، والقـوانين التـي أخضع لهـا جميـع الظـواهـر والأشيـاء . فقـد يستطيـع الإنسـان أن يفسـّر مـا كـان غـامضـا عليـه بـاكتشـاف القـوانيـن التـي تحـكمهـا ، ولـكـنّ الإ نسـان عـاجـز عن أن يسنّ تلـك القـوانيـن . فهـي من صنع الله وحـده .

علـى ضـوء هـذه الحقيقة ، يـكـون فهم الـوقـائـع التـاريخية التـي وردت فـي قصص القـرآن ، سـواء منهـا العـاديّة المألوفـة التـي تـؤلف جملـة من السّنن والظـواهـر، أو غيـر العـاديّـة مـن الخـوارق والمعجزات التـي يـراهـا بعض العلمـاء شـاذّة عن قـانـون السببيـة ، ويـراهـا آخـرون منسجمـة مـع قـوانيـن أخـرى نجهلهـا ، وقـد يـكشف عنهـا العلـم ، وقد تبقـى مستـورة أبـدا .

عـرض القـــرآن للتـــاريـخ :

ثـمّ إنّ القـرآن وان لـم يلتـزم فيمـا انتَقـى من أخبـار التّـاريخ قـواعدَ تـدوينه وعـرضه : كـذكـر زمان الـواقـعة ومـكـانهـا وترتيبها الـزمنـي ، فقـد صاغهـا فـي أسلـوب إنشـائـي مـؤثّـــــر .

فقـومُ مَـدين عـرب يـرجـع نسبهـم إلى مـديـن بـن ابـراهيم عليه السلام . وقـد عـاش عمرا طويـلا . وكـان تـزوّج امرأة من العمالقـة ، فـولـدت لـه أربعـة بنيـن ونسلوا . فـكـثـر عددهـم فـي حيـاتـه . ولمّا رأى كثـرة عقبه جمعهم ،وأشـار عليهـم أن يبنـوا مـدينـة ويحصّنوهـا من العمالقـة ، ففعـلوا ذلك ، وجعلـوا أبـوابها من الحـديد ، وسمّـوهـا

«مدين» باسم أبيهم ، وجعلوها محالّ قبائلهم ، فرغب العمالقة في مجاورتهم . وعندئذ امتلأت المدينة بهم وبأهلها حتى ضاقت، فخرج العمالقة من مدين ، ونزلوا بالأيْكة ، وهي غَيضة تقع عن يمينها ، فبنوا هناك الدُّور لأنفسهم .

وتقع مدين بأطراف الشّام التي تلي ناحية الحجاز حول خليج العقبة ، وقربَ بحيرة لوط . وقد جاءوا بعد قوم لوط بمدة قريبة ، فبعث الله فيهم وفي أصحاب الأيْكة شعيْبا عليه السّلام . ولم يزل بأرض مدين حتى جاءه موسى بن عمران من مصر وزوّجه ابنته (1) .

فمِثْلُ هذه المعلومات التاريخية ليست من المقاصد التعليمية في قصص القرآن ، لأن قرب الحادثة أو بُعدها في الزمان والمكان ، لا يؤثّر فيما تحمِل من عبَر، مادامت تلك الحوادث نابعة من غرائز الإنسان ، مرتبطة بما في كيانه من نوازع الاستقامة والانحراف، قائمة على طريق الإنسانية التي لا تتغير في جوهرها بتغير الأجيال.

إنها عبرة يُفيد منها كل مصلح يدعو إلى الحق والفضيلة ، وإلى كلّ أمّة تنشد الحياة والبقاء .

فمجتمع مدين ــ زيادة على ما كانت تسوده من وثنيّة ــ كان مجتمعا جشِعا يستغلّ المال على حساب قوت الناس ومعيشتهم بتنقيص الكيل والميزان عند البيع ، وبخْسٍ الناس أشياءَهم عند الشّراء . كما كانوا مفسدين في الأرض ، يقطعون الطّريق على

---

(1) انظر : (**نهاية الأرب في فنون الأدب** : للنويري : ج : 13 / 167 ــ 172 **وقصص الانبياء** : لابن كثير ج : 1 / 274 ــ 275 .

الناس ، ويفتنون المؤمنين في دينهم ، ويصدّونهم عن سبيل الله . كما جاء في نهيهم على لسان نبيّهم شعيب .

«وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ»(1)

روي عن ابن عباس : « أنّهم كانوا يجلسون في الطريق ، فيقولون لمن أتى عليهم : إنّ شعيبا كذّاب ، فلا يفتننكم عن دينكم » (2) وهذا ما حصل من قريش في أول الدعوة الإسلامية . فقد كانوا يحاولون أن يصرفوا المؤمنين عن الإ سلام بضروب الفتنة والتعذيب

فكانت تصرّفاتهم المشينة تُشيع في نفوس الناس مشاعر الألم والحقد ، واليأس من الخير والعدل وحسن التقدير . وكلّها مشاعر سيئة تُفسد جوّ الحياة والتعامل والروابط الاجتماعيّة .

وكانت قصّتهم خير مثال يربط بين العقيدة في الله ، والسلوك في الحياة ، لأنّ هدف العقيدة حفز النفوس إلى العمل ، ودفعها إلى الطاعة والامتثال مادامت مؤمنة بأنّ الله لا يشرّع للناس إلاّ ما فيه الخير . فهو لا يريد بتشريعه إعناتها ، وما دام أساس تشريعه العلم المحيط ، والحكمة العادلة (3) .

---

(1) الاعراف : 86 .
(2) محمد أحمد العدوى : **دعوة الرسل الى الله تعالى** : 159 .
(3) المصدر نفسه : 157 .

وهكذا كان لهذه القصة أبعاد . فهي تشبه في ظروفها قصة محمد صلى الله عليه وسلم في قومه .

كما توضّح ما ينبغي أن يتحلّى به الهداة ودعاة الحق من كمالات ، وما ينبغي أن يتمسّكوا به من مبادىء، لتطابق أقوالُهم أفعالَهم ، ويكونوا خير قدوة ، وكيف يتلطّفون في الجدال ، ويؤْثرون الاستمالة بالرِّفق ، ونحو ذلك مما هو أدعى لقبول النصح ، وأدلّ على حبّ النفع ، والرّغبة في الخير .

فلنتأملْ إشارات القرآن في القصة .

«وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، وَلاَ تَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ . إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ بالقِسْطِ ، وَلاَ تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ . قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنَ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرّشِيدُ . قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ . إِنْ أُرِيدُ إِلاّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ . وَمَا تَوْفِيقِي

إلاّ بِاللهِ . عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإليْهِ أنِيبُ . وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِ مَنّكُمْ شِقَاقِيَ أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أوْ قَوْمَ هُودٍ أوْ قَوْمَ صَالِحٍ . وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ ثُمّ تُوبُوا إليْهِ . إنّ رَبّي رَحِيمٌ وَدُودٌ . قَالُوا : يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمّا تَقُولُ . وَإنّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا . وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . قَالَ : يَا قَوْمِ أرَهْطِي أعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ؟ واتّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إنّ رَبّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إنّي عَامِلٌ . سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ . وَارْتَقِبُوا إنّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ . ولَمّا جَاءَ أمْرُنَا نَجّيْنَا شُعَيْبًا وَالذين آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا . وأخَذَتِ الذِينَ ظَلَمُوا الصّيْحَةُ ، فَأصْبَحُوا في دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا . ألاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » (1) .

لَقد ربطت قصة مدين بين ثلاثة أشياء تضمّنتها رسالة شعيب وهي :

1) نهيُهم عن عبادة غير الله
2) وعن الظلم باستغلال المال على حساب الآخرين
3) وعن العبث والفساد في الأرض .

---

(1) هود : 83 ـ 95 .

ولكنهم – رغم تكرّر النصح لهم من نبيّهم – تمادوا على الشرك والظلم والفساد ، فكانت عاقبتهم ذلك الزلزال الذى دمّرهم ودمّر كل ما جمعوا وشيّدوا .

واستغلال بعض النُّظُم الرأسمالية المجحفة للطبقات الكادحة أو للشعوب الفقيرة استغلالا يتحدّى كلّ القيم الإنسانية وكلّ حقوق الإنسان ، لا يختلف في أسبابه ونتائجه عن الاستغلال الذى حصل في مجتمع مدين منذ عشرات القرون ، وإن اختلفت الأساليب وتغيّرت الطرق . أمّا الأسباب فهي طغيان الأنانية وقسوة القلوب .

فأنانية الرأسمالية الطاغية تؤكّد وجودها اليوم بالاستعمار المقنّع ، واستثمار الجهود لصالحها ، واستنزاف الثروة الاقتصادية والاجتماعيّة ، والضّغط السياسيّ ، كما كانت أنانيّة المجتمع في «مدين» تؤكّد وجودها في الرفض والتحدّي لنصح شعيب والإصرار على ظلم الناس وسوء معاملتهم في البيع والشّراء . وكل ذلك يُشيع الحقد والبغضاء واليأس من الإصلاح .

وأمّا النتائج ؛ فهي ما يحلُّ بذلك المجتمع من عوامل الانحطاط الخلُقي والفوضى الاجتماعية ، فالانهيار والاضمحلال .

ذلك ان عقوبة الاستئصال الجماعي وان زالت منذ عهد بعيد ، لكن عوّضتها عقوبات دنيوية من نوع آخر جريا على سنن الله التي لا تتبدّل في عقاب الظالمين . فإنّ الزلزال الذي أصاب مجتمع مدين ، فقضى عليه في وقت قصير ، لا يقلّ عنه خطورة تَفجّرُ الشعوبِ وثوراتُها ضد الاستبداد والاستغلال والظلم

الاجتماعي . وكل ذلك يُفقد الأمن والاستقرار والسّلم ، ويضاعف الآلام والمآسي . وكم من نظم متعسّفة جائرة أطاحت بها الثورات العنيفة ، فزلزلت أركانها وحطّمت كيانها !

وهكذا نجد لكلّ قصّة في القرآن أبعادا . وممّا يستخلصه الدّارس لقصّة مدين في أبعادها ، أن يعرِف كيف تتصّل المعاملات بالاعتقاد ، وكيف يتدخّل الدين في الاقتصاد ، فيربط بين الإيمان بالله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادّية في الأسواق ؟ وأن يعرف كيفَ تمرّ الأشياء بمراحل تَحوّل نتيجةً لظروف معينة . ولكنّ مّا يترتّب عليها من نتائج الخير أو الشرّ لا يتغير مهما اختلفت الأزمان ، وتنوعت الأشكال !

فلئن وقع بالامس ظلم للانسان باستعباده ، وجعله سلعة تباع وتشترى في أسواق النخاسة ، فإنّه يقع اليوم باضطهاده وحرمانه من حريّاته الفردية والاجتماعية .... وهكذا (1) .

ومن هذه الاحداث التي تتفاعل وتتشابه فيها الظروف والأسباب والنتائج ،نستخلص سنن الله في الأمم . وهي التي تقودنا إلى معرفة قواعد العمران ، وأصول الاجتماع على أساس أنّ نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج إذا تحققت نفس الظروف.

يقول ديكارت : «انفكرة السببية فكرة فطرها الله في نفوسنا ، فمحالٌ أن تكون خاطئة ، وإنّ فطريّتها دليل على صدقها» (2) .

---

(1) انظر : **الدين والدولة** ... للبهى : تمهيد : 11

(2) **المنطق الحديث ومناهج البحث** : 81 ـ 82 .

وإنّا لنجد في مثل قوله تعالى : « وَتِلْكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ (1)- «ولكُلِّ أمّةٍ أَجَلٌ» (2) - « لِكُلّ أجَلٍ كِتابٌ» (3) ما يوحِي - على ايجازه - بأصول الدّراسة العلمية لحياة الجماعات البشرية «على أساس طبيعة الحياة بوصفها حركة تطوّرية ، وطبيعة الزمن بوصفه موجودا في الخارج ، والوجودُ حركة مستمرّة فيه» (4) .

السنن والظواهر العامة :

وقد جاء القصص التاريخي في القرآن مبيّنا أنّ مشيئة الله في خَلْقه إنما تنفذ حسب سنن حكيمة في السِّلم والحرب .

فمن سار على هديها في الحرب ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدا. ومن تنكّبها هُزم وان كان مؤمنا . وبهذا يفسَّر انهزام المسلمين في غزوة أحُد مثلاً . وقد هاجم المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشجُّوا رأسه ، وكسروا سنّه، وذلك لمخالفتهم أوامر قائدهم ، وإخلاء ظهور الرّمّاة لعدوّهم .

---

(1) آل عمران : 140 .

(2) الاعراف : 34 .

(3) الرعد : 38 .

(4) **تجديد التفكير الديني في الاسلام** : 159 - 162 .

فهذه قصّة يعرضها القرآن ويضمّنها إشاراته إلى سنن الانتصار في الحرب . وملخّصها : أنّ شيوخ بني إسرائيل أعلنوا القتال بعد أن أجلاهم العدوّ عن ديارهم ، وأبعدهم عن أبنائهم واستذلّهم ، ولكنّهم جبُنوا ، رغم أنّ الله كتب عليهم القتال ، ليستردّوا أرضهم التي فقدوها ، وعزّتهم التى سُلبوها ،وليدفعوا الظلم والعدوان . فقد اجتمعوا الى نبيّ لهم طالبين أن يعيّن لهم ملِكا يقاتلون تحت رايته وإمْرته . فأخبرهم بأن الله اختار لهم (طالوت) (1) لِمَا أودع فيه من سعَة العلم الذى يكون به عمق التفكير ، وحسن التدبير . وقد قيل : المعرفة توحي بالفكرة، والفكرة تهيء التجربة . والتجربة تمكّن من النجاح ، ولِمَا أودع فيه أيضا من بسطة الجسم الدّالّة علىاكتمال الصحّة والقوّة والقدرة على الدفاع ، والتي يكون بها الوقار والهيبة .

وقد قرّر علماء النّفس أنّ لِطبيعة الجسم أثرا في تكوين الشخصيّة ، وأنّ للقوّة البدنيّة ولصحة الجسد ونشاطه أثرا نفسيّا لا يُستهان به .

قال أرسطو : «إنّ النفس صورة الجسد» .

وهذا ما توفرّ في طالوت . ولكنّ بني إسرائيل أنكروا اختياره ، لانه ليس له حسب ولا مال ، وهم إنّما تعوّدوا الخضوع

---

(1) قيل : هو تعريب « شناول » اسمه الحقيقى عندهم (المنار : ج : 2 / 469) .

للأشراف والأغنياء . فبشّرهم نبيّهم بأن آية اصطفائه للمُلْك من عند الله ،أنه يردّ التابوت(1) الذي طالت حسْرتهم عليه ، وبذلك أذعنوا . ولكن الملِك أراد أن يستوْثق من استعدادهم للبذْل والتضحية ، لأنّه يعرف أنّ من طبيعتهم في السِّلْم اللّجاجة . وهي خطر في الحرب . وقديما قيل : «من لم يتعرض للبلاء لا يثبت جوهره» ولمّا اختبرهم ليبلُوَ إرادتهم على الحرمان في مواجهة (جالوت) وجنوده المشركين ، لم يثبت منهم إلاّ فئة قليلة من المؤمنين الواثقين بنصر الله وتأييده ، هم الذين اقتحموا المعركة وخاضوا غمارها ، فأعطاهم الله ما سألوا ، وثبّت أقدامهم ، ونصرهم على عدائهم . ولنستمع إلى القرآن يعرض القصة :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيءٍ لَهُمُ : ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ . قَالَ : هَلْ عَسِيتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا ؟ قَالُوا : وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؛ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وأَبْنَائِنَا ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ . واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ؛ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيئُهُمْ : إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا . قَالُوا :أَنّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ ؟ قَالَ : إِنَّ اللهَ

(1) التابوت : هو الصندوق الذى كان موسى يضع فيه التوراة ، وقد استولى عليه العمالقة . فشق على بنى اسرائيل أن يضيع عليهم هذا الأثر المقدس ، ويخرج من ايديهم .

اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ . وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ . وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ قَالَ : إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ . فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي . وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غَرْفَةً بِيَدِهِ . فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ . فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا : لاَ طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ . قَالَ الذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللهِ : كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ! وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ، وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ »(1) .

---

(1) البقرة : 246 ـ 251 .

وهنا يبدو الفرق واضحا بين الجُبن المثبِّط للجهاد ، ومالَه في النفس من أثر سيء ، كالهلع الذى عبّر عنه ملأ بني إسرائيل بقولهم : «لاَ طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ» ، والشجاعة المُقوِّية للعزائم ، ومالَها في النفس من أثر طيّب ، كالاطمئنان الذى عبّر عنه المؤمنون بقولهم : «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» .

وإنمَا تكون الغلَبة بالإيمان الذى يبعث على الصبر والثّبات والاتّحاد والطاعة للقائد . وكثيرا ما تكون الكثرة في القتال على باطل ، فَلاَ تملك من القوّة المعنويّة مَا تملك القلّة . والقوة المعنويّة تفعل مالا تفعل القوّة الحسيّة .

ثمّ إنّ الدعاء المتفجّر من قلوب الفئة المؤمنة لمّا برزوا لجالوت وجنوده ، يدلّ على جديّتهم في الحرب ، وأملهم في النصر بتأييد الله وعونه ، رغم قلّة عددهم ، ولم يكن دعاؤهم مخالفة لما تجرى عليه سنن الله في الخليقة ، وقد راعوا الأدب في طلبهم ، فأعدّوا الأسباب الطبيعية للظّفر في الحرب ، من عُدَد يواجهون بها الأعداء في تفانٍ واستماتة وإخلاص .

والدّعاء سلاح روحيّ للمؤمنين عند الشدائد والخطوب . وقد جرى إبراهيم على سنّة الفطرة في دعائه بأن يجعل الله من ذريّته أيمّة للناس : «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ : وَمِن ذُرِّيَّتِي ؟ قَالَ : لاَيَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ» (1).

(1) البقرة : 124 .

فلمْ يطلبِ الإمامة لجميع ذريّته ، بل لبعضها وهو الممكن . ذلك من شروط الدعاء وآدابه . فمن خالف سنن الله فيه كان غير جدير بالإجابة ، بل هو سيِّء الأدب مع الله تعالى ، لأنه يدعوه أن يُبطل من أجله سُنّته التي لا تُبدّل ولا تتحوّل . (1)

ومن سنن الانتصار في الحرب شعور المجاهدين بأنّهم على الحقّ . ومن كان على حقّ كان الله معه . ثمّ استعدادهم ماديًّا ونفسيًّا للقتال .

أمّا الاستعداد المادىّ فمعروف . وأمّا الاستعداد النفسيّ فأعْلى منازله إيمان المقاتل بأنه ينصر الحق ، ويخذل الباطل ، ويدفع الجوْر بقوّة العقيدة في الله . فهو يرجو من الله مالا يرجوه فاقدها رغم اشتراكهما جميعا في الآلام ومشقّة القتال . وبهذه العقيدة انتصرت الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل ، دون أن تهولَهم كثرة أعدائهم وترهبهم قوّتهم . ولكمْ شهد التاريخ بصدق هذه الحقيقة !

كما أنّ من السّنن العامة التي يمكن استخلاصها من تلك القصة دفع الله النّاس بعضهم ببعض . وهو ما يعبّر عنه بتنازع البقاء ، ويعبّر عنه علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعى أو بقاء الأمثل .

فلولا أنّ الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، وأهل الفساد بأهل الصلاح ، لكان لهم السلطان وحدَهم ، فتفسد الارض بفسادهم . وإنما يستخلف الله في الأرض من يقدرون على تنظيم أحوال أممهم

---

(1) **تفسير المنار** : ج : 1 / 456 .

وتدبير شؤونهم ، ويتقون العدوّ بما أعدّوا له من قوّة ، ويحفظون كيانهم بما وفّروه من أسباب التقدم ، ووسائل الحضارة . وهذا معنى قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » (1)

وليس من الصّالحين المعنيّين هنا ، أولئك الذى يقتصرون على العبادة من صلاة وصيام وتلاوة ، وهم عاجزون عن القيام بشؤون الناس ، وتصريف أمورهم ، والأخذ بسباب الرقيّ المادّيّ والأدبيّ لأمّتهم .

يقول صاحب المنار : «يظنّ بعض المتطفّلين على علم السُّنن في الاجتماع البشريّ أنّ تنازع البقاء الذي يقولون : إنه سنّة عامّة هو من أثَرة المادّيين في هذا العصر ، وأنّه جَوْر وظلم ، وهم الواضعون له والحاكمون به ، وأنّه مخالف لهدْي الدين . ولو عرَف من يقولون هذا معنى الإنسان ، أوْ لوْ عرفوا أنفسَهم لَمّا قالوا مَا قَالوا» (2) .

ويقول في تفسيره لهذه الآية الواردة في قصّة طالوت وبني إسرائيل : « وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ »

« إنّ من النّاس من يظنّ أنّ معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله تعالى ، هو أنّ الله تعالى يفعله بلاسبب ولا جريانٍ على سُنّة من سننه في نظام خلْقه ، وليس كذلك . فإن كلّ شيء بمشيئة الله تعالى ، كما

---

(1) الأنبياء : 105 .
(2) **المنار** : ج : 2 / 487 .

قال جلّ ثناؤه : « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » (1) : أيْ بنظام وتقدير موافق للحكمة ليس فيه جزاف ولا خلل. فإيتاؤه المُلْكَ لمن يشاء بمقتضى سنّته ، إنما يكون بجعله مستعداً للمُلك في نفسه ، وبتوفيق الأسباب لِسَعْيِه في ذلك. أي هو بالجمع بين أمرين : أحدهما في نفس الملِك ، والآخر في حال الأمّة التي يكون فيها.

وفي الأحاديث المشهورة على ألْسِنَة العامّة : «كَمَا تكونوا يوَلّ عليْكم» . وفي كنز العمال أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن البيْهقي عن أبي اسحاق السبيعي مرسلا : «إذا أراد الله إسعاد أمّة جعل ملكها مقويّا لما فيها من الاستعداد للخير ، حتى يغلب خيرها على شرّها ، فتكون سعيدة . وإذا أراد إهلاك أمّة جعل ملكها مقويّا لدواعي الشر فيها ، حتى يغلب شرّها على خيرها ، فتكون شقيّة ذليلة ، وتعدو عليها أمّة قويّة . فلا تزال تنقصها من أطرافها ، وتفتات عليها في أمورها ، أو تناوشها الحرب ، حتى تزيل سلطانَها من الأرض .

يريد الله تعالى ذلك ، فيكون بمقتضى سنّته في نظام الاجتماع . فهو يؤتي المَلك من يشاء ، وينزعه ممّن يشاء بعدلٍ وحكمة ، لا بظلْم ولا عبث ... هذا معنى مشيئة الله في إتيان الملك . وأرى عامّة المسلمين يفهمون من مثل عبارة الآية «وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ» أن الملك يكون للملوك بقوّة إلهية ، هي وراء السُّنن

---

(1) الرعد : 8 .

والأسباب التي يجري عليها البشر في أعمالهم الكسبيّة . وهذا الاعتقاد قديم في الأمم الوثنية . وبه استعبَد الملوك الناس الذين يظنّون أنّ سلطتهم شعبة من السلطة الالهية ، وأنّ محاولة مقاومتهم ، هي كمحاولة مقاومة الباريء سبحانه وتعالى ، والخروج عن مشيئته » (1) .

ومن سنن الله في الأمم أنّه إذا استشرى فيها الفساد ، وانغمس حكّامها في الترف ، ولم يأبهوا لمصالح شعبهم ، ولم يأخذ العقلاء فيها على أيديهم ، كان مصيرها الفناء . قال تعالى :

« فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ إلاّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، واتَّبَعَ الذينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ » (2)

ولا يهمّ هذه السنن إلاّ السيرُ عليها لتؤدّي نتيجتها ، سواء أعَلم الناس أنهم يسيرون عليها ، أم لم يعلموا ، شأنَ من يتناول سُمّا ، فتكون له نتيجته المحتومة ، ولو لم يعلم أنّه سُمّ . فاذا تعاطى الدّواء الناجع شُفي ولو لم يعلم أنه دواء . وهكذا شأن القوانين الطبيعية (3) .

والدّارسون لقصص الأنبياء في القرآن – وهي أكثر قصصه – دراسة شاملة يلاحظون حرص القرآن على ربط الظواهر

---

(1) **المنار** ، ج : 2 / 471 – 472 .

(2) هود : 116 .

(3) احمد أمين : **فيض الخاطر** ج : 9 / 29 .

المتجانسة فيها ، والانتهاء بها إلى نتائج تخضع لسنن وقوانين ، هي ما نَستخلصه من عدل الله المطّرد . فإنّه تعالى لا يظلم أحدا بسَلْب نعمة ، أو تسليط نقمة . وإنما عقابه لهم أثَر طبيعي لكفرهم وفسادهم وبغيهم . فاذا انتشر الظلم في الحكّام وعمّ الجهل ، وانحطّت الأخلاق في الدّولة والأمة ، تسرّبت فيها الفوضى ، ودبّ إليها الانحلال . وهذا هو الشأن في كل عصر وأمّة . ظُلمُ الحكام يُرْديها ، وعدلُهم يحْييها . « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وأهْلُهَا مُصْلِحُونَ » . (1) « وحالة الامم في صفات أنفُسِها ، وهي : عقائدها ومعارفها وأخلاقها . إنّها الأصل في تغيّر ما بها من سيادة أو عبودية ، وثروة أو فقر، وقوة أو ضعف» (2)

كما أنّ تنقّلها في أطوار مختلفة من عزّ وتمكين ، إلى قهر وذلّ ، أثر طبيعي لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والملَكات وطرق العمل «ذَلِكَ بِأنّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَى يُغَيِّرُوا مَا بِأنْفُسِهِمْ» (3) .

وإنّ تطوّر التفكير والنفسيّة والشخصيّة في معظم مظاهره هو في الغالب نتيجة لتطوّر الحياة الاجتماعية ،لا سببٌ لهذا التطوّر.

---

(1) هود : 117 .

(2) **المنار** : ج : 2 / 472 .

(3) الانفال : 53 .

فالمجتمع الذي يقع فريسة للظلم والبغي والاستبداد ويستسْلم ، هو مجتمع ليس له كيان . وسرعان ما ينحدر في هاوية الفساد الخلُقي ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه والذود عن عن حياضه فينحطّ تفكيره .

«لذلك لم تنفع موعظة الرّجليْن للشّعب الإسرائيلي ، لأنّ المرض أقوى من الدواء ، فلا بد أن يتغلب عليه كما هي سنة الله تعالى في تنازع القويّ والضعيف ، فأكّدوا لموسى عليه السلام أنهم لن يدخلوا الارض المقدّسة ما دام فيها الجبابرة ، لأن دخولها يستلزم القتال ، وهم ليسُوا له أهلا» (1)

فقد لبثوا تحت حكم الفراعنة أحقابا طوالا يسومونّهم سوء العذاب . يذبّحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، واستبدّ بهم الخوف ، وألِفُوا الذّل والهوان ، واستكانوا الى المصانعة والملق والنّفاق .

ولمّا أوْحى الله إلى موسى أن يستعدّ هو وقومه لدخول الأرض المقدّسة ، ومقاتلة مَن فيها من العمالقة امتنعوا جُبنا وتَشَبّثُوا بالحياة ، فعاقبهم الله بحرمانهم منها ، وبالتّيه في صحراء سيناء أربعين سنة ، حتى يبيد ذلك الجيل الذى نشأ على الذلّ ، وتربّى على العبودية . والسرُّ في ذلك كما قال ابن خلدون : «فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذّل والقهر والقوّة ، وتخلّقوا به ،حتى ينشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز، لا يعرف الحُكّام والقهر ، فنشأت لهم بذلك عصبيّة أخرى اقتدروا بها على

(1) دعوة الرسل الى الله تعالى : 178 .

المطالبة والتغلّب . ويظهر من ذلك أنّ الأربعين سنة أقل ما يأتي لفناء جيل ، ونشأة جيل آخر» (1).

(والعلماء يقرّرون أنّ حضانة العلم خمس عشرة سنة . أمّا حضانة الاخلاق فمدّتها أربعون سنة على الأقلّ (2))

فلنستمع إلى القرآن الكريم يروي هذه الحادثة :

«وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ . يَا قَوْمِ : ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ التِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . قَالُوا : يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ . وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا . فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ . فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ . وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا : يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا . فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ ، فَقَاتِلاَ . إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ . قَالَ : رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ ؟

---

(1) **المقدمة** : 249 .

(2) **دعوة الرسل الى الله تعالى** : 179 .

قَالَ : فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ . فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ » (1) .

ومن السُّنن العامّة التي أثبتها القرآن وأخبار التاريخ ، عقاب كفّار الأمم الذين كذّبوا رسُلهم . فإنْ عاجزوهم بما اقترحوا عليهم من آيات كونيّة ، ثم لم يؤمنوا بها أهلكهم الله بعذاب من عنده ، كما أوْعدهم : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بالآيَاتِ إلاّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ » (2) .

وَإِنْ عادوهم وقاتلوهم عاقبهم الله بالخزي ونصر رسله عليهم : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ . وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) (3).

وهكذا يدعونا القرآن بإشاراته البارعة إلى الاعتبار بسُنن الله في الأمم السابقة ، والتدّبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله ، وعدلوا عن سبل العدل والايمان ، وخرجوا عن طريق الحكمة والاعتدال ، وكيف جعل الله بقاء الامم ونماءها في التحلّي بالفضائل ، وجعل اضمحلالها في التخلّي عنها سنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ، ولا تتبدّل بتبدّل الأجيال .

ومن هذه السنن ما يكشف عن طبيعة البشر الثابتة خلال الدّهور ، وعن مدى تأثير الرسالات السماوية في تغييرها

---

(1) المائدة : 20 ـ 26 .

(2) الاسراء : 59 .

(3) الأنفال : 38 .

وتوجيهها ، بحيث لا نجد حوادث التاريخ في القرآن متسلسلة بغير أسباب تربط بينها ، والى غير غاية تتّجه إليها .

ومن أهم هذه الظواهر العامة :

ـ أ ـ **وحدة البشر** : فهم من أصل واحد ، ولكنّهم اختلفوا ففرّق بينهم الخير والشرّ ، وجعلهم فئتين : أنصار الحق ، وأنصار الباطل . والعناية الالهية هي دوْما مع الحقّ وأهله ، فتكون العاقبة لهم في نهاية الصّراع . وهذا من أهمّ عناصر القوّة في الإيمان وأثره في الأخلاق من صدق وثبات وإخلاص . وبذلك يتّضح باطل العقيدة المجوسية في الكفاح التاريخي بين الخير والشرّ القائمة على فكرة أن الشرّ يسود في منتصف الزمان ، فلا ينتصر عليه الخير إلاّ يوم الدّيْنونة ، لأنّ المجوس يسلّمون بوجود آلهة باطلة (1)

« قَالُوا ؛ حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا : يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأخْسَرِينَ . وَنَجَيْنَاهُ وَلُوطًا إلىَ الأرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ....

« ونُوحًا إذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ . وَنَصَرْنَاه مِنَ القَوْمِ الذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِنَا . إنّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأغْرَقْنَاهُمْ أجْمَعِينَ » (2) .

---

(1) : **تجديد التفكير الدينى فى الاسلام** : 166 .
(2) **الانبياء** : 67 ـ 76 .

وعلى هذا الاعتبار يُوحِّد القرآن ميزان القيَم ، فترفّع هذه القيّم في شعور المؤمنين عن عصبية الجنس واللّون واللغة والوطن وحتى القرابة .

قال الملأ الذين كفروا من قوم نوح : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا » (1) .

ولمّا نادى نوح ربَّه : « رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ... » « قَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » (2)

ب) وحدة الرسالات في العقيدة : وهذه الوحدة يؤكدُها القرآن بتوحيده المقصودِ لحكاية العبارة التي يدعو بها كلُّ رسولٍ قومه . وهو الإيمان بالله وتقواه ، وطاعة الرسول المبلِّغ عنه . فهو يتّجه بالخطاب الى أمة الرسل ، وكأنهم اجتمعوا في صعيد واحد ، دون اعتبار للفوارق الزمانية والمكانية أمام وحدة الحقيقة التي تربط بينهم جميعا .

«يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا . إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (3) .

ج) اتفاق علل المعرضين وآثارها : لإعْراض المبطِلين عن دعوات الرسل في كل العصور عِللٌ نفسيّة واجتماعية ، ترجع

(1) هـود : 27 .
(2) هـود :45 ـ 46 .
(3) المؤمنون : 51 ـ 52 .

في جملتها إلى طغيان الهوى ، أو طغيان التعصّب للجنس أوْ للآباء على سائر ما في الانسان من طاقات ونوازع ، فيختلّ توازنة ، وتقسو طباعه وتتحجرّ ، فلم يعد متفتّحا للنّور ، ولا مُبصِرا لدلائل الهداية ، إذا فَتحْتَ له بابا أغلقه .

جاء على لسان أبي جهل ومن على شاكلته في القرآن :

«اللّهمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (1) .

أمّا طغيان الهوى : فمبعثه آفة هي جدٌ خطيرة في انعكاساتها النفسية والسلوكية . ولم يكد يسلم منها البشر منذ عهد نوح. ويكاد القرآن يجعل منها حدا فاصلا بين الهدى والضّلال ، وبين الصّلاح والفساد . لذلك لم يفتأ يحذّر منها في كثير من قصصه . وما تلك الآفة سوى الترف ! وطبيعة هذا المرض الذي يكون من أعراضه اللّهو وفراغ الحياة من الواجبات ، والإسراف في المتاع ، أنّه يُفقد القلوب تلك الحساسيّة التي تتلقّى وتتأثّر وتستجيب ، ويحمْلها على الضيق بحياة الجدّ والعمل . ويُحوّل النفوس الى أدوات تستهلك ولا تُنتج . لأن المترَف مريض بالنعمة لايستطيع أن يقابل الحياة كما هي عليه من شدّة ورخاء ، ولين وقسوة ، ومنافع وشرور، وظلّ وحَرور. والمال وحده لا يدفع ضرّا ولا يجلب سعادة . والحياة جهاد لا يحبّه المترَف . فأقلّ صدمة تصيبه يعتبرها عنيفة . في حين أنّ رجل الحياه لا بدّ أن يلابس الحياة كما هي في جميع أوضاعها وبجميع تقلّباتها(2).

---

(1) الأنفال : 32 .

(2) عبد المنعم خلاف : **المادية الاسلامية وأبعادها** : 171 .

وقد فطن المربّون في الأمم المتقدّمة إلى ضرورة مقاومة أمراض الترف لدى أبناء الأغنياء ، وعلاجه بالرياضات العنيفة ، والرّحلات الشاقّة في مجاهل الأرض ، وأعماق البحار ، وحياة الجنديّة .

ومن هنا كان الفقراء أقرب النّاس استجابة لدعوات الرّسل ، والمترفون أشدّهم بُعْدا عنها ، بل مقاوَمة لها ، لاغترارهم بثروتهم وقوّتهم المادّيّة ، واستكبارهم على الهدى ، وخوفهم من تغيير ما ألِفُوه في حياتهم : « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قَالَ مُتْرَفُوهَا : إنّا بِمَا أَرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » (1) .

وحسبُك في هذه السّنة أنّ هرقل سأل أبا سفيان عن محمد صلى الله عليه وسلم قائلا : فأشراف النّاس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم . فقال له هرقل : كذلك أتْباعُ الرّسل (2) .

قال فولتير (Voltaire) : استمرّت الديانة المسيحية مائة عام لا يدين بها إلاّ أخسّ النّاس (3) .

---

(1) سبأ : 34 – 35 .

(2) ابراهيم سلامة : **خلق ودين** : 152 .

(3) ق : لوبون : **روح الاجتماع** (ت) طه حسين : 143 .

ومن لوازم الترف ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق ، والعصيان ، والإسراف في الشهوات ، والتكبر ، والبطالة . وظلمُ الحكام يقتل فيها نوازع الكرامة والعزّة ، ويحملها على الانحراف .

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لاَ تَرْكُضُوا وارْجِعُوا إلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ . قَالُوا : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (1) .

ولمّا كان الرّسل يُبعثون في أهل القرى — وهم أهل الحضارة عادة — فإن خطر الكُبراء المترَفين في القرية أو المدينة يمتدّ إلى المجتمع بتأثير العدوى والاغراء . فإذا لم يُوجَدْ من يضرب على أيديهم عاثوا فسادا ، ونشروا الفاحشة وأذاعوها ، وأرخصوا القيَمَ العليا التي لا تعيش المجتمعات إلاّ بها ولها . ومن ثَمّ تتحلّل ، وتفقد أسباب قوّتها ومنَعتها ، فيكون مصيرها الفناء .

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا . وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ . وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (2) » .

---

(1) الانبياء : 11 — 15 .
(2) الاسراء : 16 — 17 .

وقد عقد ابن خلدون فصلا بيّن فيه أنّ من عوائق المُلك حصول الترف'(1) . وليس من شكّ في أنه مَدِين بالجانب الاكبر من مقدمته إلى القرآن ، فيما استوحاه من أصول علم الاجتماع وطبائع العمران .

وأما التعصب للجنس : فقد ظهرت آثاره في كيد بني إسرائيل للاسلام ، ومكرهم بصاحب الدعوة الإسلامية صلى الله عليه وسلم . وهم إنّما يجرون في ذلك على عرق استقرّت سجاياه بالوراثة ، وعجزتْ كلّ بيئة عن التأثير فيه ، حتى صار أهونَ عليه أن ينقرض من أن يتحوّل . ومنذ أن كان لهم مجتمع ودِين عزلوا أنفسهم عن المجتمع الإنساني ، في حين أن أتباع الإسلام والمسيحية من كل جنس .

قال ابن خلدون : « وأكثر ما رسخ وسواس العصبيّة لبني إسرائيل . فانّه كان لهم بيتٌ من أعظم بيوت العالم بالمنبت أوّلاً لما تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل من لدنْ إبراهيم إلى موسى صاحب ملّتهم وشريعتهم . ثم بالعصبيّة ثانيا ، وما آتاهم الله بها من المُلك الذي وعدهم به . ثمّ انسلخوا من ذلك أجمع ، وضُربت عليهم الذّلة والمسكنة ، وكُتب عليهم الجلاء في الأرض ، وانفردوا بالاستعباد والكفر آلافا من السنين . وما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم (2)

---

(1) **المقدمة** : 246 ـ 247 .

(2) **المقدمة** : 263 .

ومن تعصبهم السافر لجنسهم :

1) ادّعاؤهم بأنهم «شعب الله المختار» . فقد ورد في تعاليمهم اليهودية «إنّ الله منح السلطة على مقتنيات وحياة كلّ الشعوب»(1).

«كما يسمو الإنسان على الحيوان ، كذلك يسمو اليهوديّ على سائر أهل الأرض ذوي الطبيعة البهيميّة» (2) .

ونجد في القرآن ما يشير الى تفضيل بني إسرائيل على شعوب أخرى كانت في زمانهم ومن ذلك قوله تعالى :

«يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ» (3) .

ولكنه ليس تفضيل جنس على سائر أجناس البشر ، لأن التّفاضل بين الشعوب عند الله لا يكون من أجل العِرْق والعنصر، بل بما قدّموه من خير .

وما وَصف القرآن أمّة محمد بأنها خير الأمم إلاّ لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها بالله . فالتمييز مشروط بتلك الصفات .

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ (4) .

---

(1) **سفر حيكريم** ، 3 فصل 25 ـ نقلا عن **مجلة الشرق** : 18 ـ 770 .

(2) التلمود : **سفر سنهدرين** .

(3) البقرة : 47 .

(4) آل عمران : 11 .

ويؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى :

«يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأنْثَى وَجعلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقبائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ» (1) .

فيكون المراد من تفضيلهم على غيرهم من أهل زمانهم أنّ الله أرسل الرّسل منهم ، وأنزل الكتب عليهم ، وجعلهم ملوكا بعد أن كانوا عبيدا ، وآتاهم ما لم يؤت غيرهم من فلْق البحر ، ونزول المنّ والسلوى عليهم ، وتظليلهم بالغمام في التيه ، كما جاء في تذكيرهم بنعم الله عليهم :

«وَإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَعَلَ فِيكُمْ أنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أحَدًا مِنَ العَالَمِينَ» (2) .

ولم يقل القرآن : وجعل فيكم ملوكا . لان معنى المُلْك هنا أن يكون المرء حُرّا مالكا لزمام أمره . وفيه تنويهٌ بنعمة الحرية . وقد كان غيرهم من شعوب زمانهم مستعبَدين للملوك الطغاة مثل الأقباط والبابليين . لذلك حذّرهم الله من الغرور في الآية الموالية لآية التفضيل ؛ لأنّ كل نفس بما كسبت رهينة . فقال جلّ شأنه :

«واتّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ» (3) .

---

(1) الحجرات : 13 .
(2) المائدة : 20 .
(3) البقرة : 48 .

ولكنّهم اغترّوا فعدّوه تفضيلا على البشريّة قاطبة ، وادّعوا أنّ ثواب الآخرة خاصّ بهم ، لأنهم أبناء الله وأحبّاؤه ، وأن الجنّة لا يدخلها إلاّ اليهود والنصارى ، وكأنّهم اولياء الله من دون الناس ، وهو لا ينظر الى غيرهم ، ولا يشمل برحمته سواهم .

فجاء في ردّ القرآن على مزاعمهم الباطلة :

«قُلْ إنْ كَانَتْ لَكُمْ الدّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ . واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » (1) .

« وَقَالُو : لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُودًا أوْ نَصَارَى . تِلْكَ أمَانِيُّهُمْ . قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» (2) .

«وَقَالَتِ اليَهُودُ والنصّارَى : نَحْنُ أبْنَاءُ اللهِ وأحِبّاؤُهُ قُلْ : فَلِمَ يُعَذّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ» (3).

---

(1) البقرة : 94 – 95 .
(2) البقرة : 111 – 112 .
(3) المائدة : 18 .

« قُلْ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (1)

واذا كان اللهُ عند المسلمين هو ربّ العالمين ، فإنه عند اليهود إلهُ بني إسرائيل فقط .

ففي القرآن : «فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» (2) .

وفي التوراة : « دخل موسى وهارون وقالا لفرعوْن : كذا قال الله إله إسرائيل : أطلق قومي يحجّوا إليّ في البرّ . قال فرعون : مَنِ اللهُ ، حتى أقبل منه ، فأطلق بني اسرائيل ؟ قالا : إلهُ العبرانيين ...... الخ » (3) .

ولتعصّبهم لجنسهم خاطبهم القرآن متضامنين متكافلين ؛ فأسند المنكَرات التي وقعت من أسلافهم إلى اليهود المعاصرين للدّعوة الإسلامية ، رغم أنها حدثت قبل زمانهم بقرون :

« وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً » (4) .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ، وَهُوَ

---

(1) الجمعة : 6 .
(2) الشعراء : 16 ــ 17 .
(3) سفر الخروج : فصل 5 .
(4) البقرة : 55 .

الحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (1) .

ومثل هذا التعبير القرآني يدلّ على أنهم متفقون مع مَن سبقهم في علّة الجريمة ومبعثها من النفس ، واعتبار أنّ الأمّة في تكافلها واقتداء لاَحِقِها بسابقها كالشّخص الواحد .

إنّهم متفقون مع أسلافهم في الأخلاق والسجايا ينتسبون إليهم انتساب حسَب وشرف ، فكانوا على شاكلتهم ، وربّما كان المتأخرون منهم أضرى من المتقدمين لتمكُّن داعية الشرّ من نفوسهم بالوراثة والقدوة جميعا (2) .

وقد حاول غير واحد من اليهود قتل محمّد صلى الله عليه وسلم ، كما كان آباؤهم يفعلون بأنبياء الله . ومن بينهم اليهودية التي وضعت له السمّ في الشاة .

وفي البخاري : «روى عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان النبيء صلى عليه وسلم يقول في مرضه الذى مات فيه : يا عائشة : ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلتُ بخيْبر . فهذا أوانَ وجدتُ انقطاع أبهرى من ذلك السّمّ . »

وأمّا التعصب للتقاليد الموروثة : فقد ظهرت آثاره في شدّة تمسّك أقوام الانبياء – وخاصة العرب – بعقيدة الآباء ، كما

---

(1) البقرة : 90 .

(2) **المنار** . ج : 4 / 264 .

حكى عنهم القرآن ، وذلك تحت وطأة القوى الموروثة اللاّشعورية التي توجّه المشاعر ، ثم توجّه السلوك .

قال قوم إبراهيم : «بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» (1)

وقال قوم ثمود : «أتَنْهَانَا أنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا»(2)

وقال قوم مدين : «أصَلَوَاتُكَ تَأمُرُكَ أنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» (3)

وقال قوم موسى : « أجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا»(4)

وقال قوم محمد: (...بَلْ نَتَّبِعُ مَا ألْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) (5)

فلم يكن داء الإعراض عن رسالات السماء ، ودعوات الأنبياء ، سوى عِلل مزمِنة في نفوس البشر ، ترجع الى الترف أوالتعصّب أو هما معًا.

لذلك جاءت اعتراضاتهم واعتذاراتهم متماثلة . فكان مَثلها في ذلك كمثَل مرض معيّن تنشأ عنه أعراض واحدة أيّا كان المُصاب ، دون أن تختلف هذه الأعراض إلاّ من حيث القوّة والضعف، وبحسب ما في الجسم من حصانة .

---

(1) الشعراء : 74 .

(2) هود : 62 .

(3) هود : 87 .

(4) يونس : 78 .

(5) البقرة 170 .

ومن أعراض هذه العلل الاعتراضات والمواقف التي سجلها عليهم القرآن وتعقبها بالرد وهي :

1) استعجال أنبيائهم بما أنذروهم به من عذاب ، مبالغة في تكذيبهم واستخفافا بوعيد الله :

فقال لنوح قومه : « يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (1).

وقال لشعيب قومه : « وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (2) .

وقد بيّن الله لنبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم : أنّ قومه يستعجلونه بالعذاب ، وكأنّهم لم يعلموا عاقبة هذا التحدّي على الأمم الخالية ، وكان يجب أن يتّعظوا بمن سلف . «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ» (3).

2) استبعادهم أن يكون الرّسول بشرا : « وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً ؟ قُلْ : لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً » (4).

---

(1) هود : 32 ـ 33 .
(2) الشعراء : 186 ـ 187 .
(3) الرعد : 6 .
(4) الاسراء : 94 ـ 95 .

ومنشأ هذه الشبهة التى صدّتهم عن الإيمان برسُل الله ، جهلُهم لطبيعة الملائكة التي لو قُدّر لها أن تعيش في الأرض لصاغها الله في صورة آدميّة ، لأنها هي الصورة التي تتّفق وطبيعةَ الأرض ، كما قال جلّ شأنه : «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ» (1) .

ثم جهلهم لحقيقة إنسانيتهم وكرامتها على الله «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً» (2) .

ولو أن الله أرسل ملائكة في الوسط البشري ، لَمَا أمْهلوا أهل الضلال والفساد ، ولناجزوهم العذاب . فالله رحمةً منه بعباده ، لا يُنزِلُ ملائكة غيرَ الذين سخّرهم للأمُور المعتادة مثل الحفَظة ، وملَك الموت ، والملَك الذي يأتي بالوَحْي . ولا تنزل الملائكة بين القوم المغضوب عليهم إلاّ لإنزال العذاب بهم ، كما نزلت الملائكة فى قوم لوط . (3) .

قال بعضهم : ماأعجبَ شأن أهل الضّلال . لمْ يرضوْا للنبّوّة ببشَر ، ورضوا للألُوهية بحجَر . !

---

(1) الانعام : 9 .

(2) الاسراء : 70 .

(3) **التحرير والتنوير** ج : 7 ــ ق : 1 ــ 144 .

3) مُطالبتهم بالآيات الماديّة رغم إصرارهم على عدم الإيمان لو أرسل الله بها إليهم «وسنة الله في الأمم أنّ من اقترح منهم آية فأجيب اليها ، ثم لم يؤمنْ أن يعاجَل بعذاب الاستئصال » (1).

« وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا » (2).

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ . فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ . فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا » (3) .

وأهل الباطل تتشابه عقولهم في الأفن وسوء النظر، فيتّحدون في القول :

« وَقَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ : لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْتَأْتِينَا آيَةٌ . كَذَلِكَ قَالَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ . قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (4).

4) تهديدهم بإخراجهم من القرية . فالله يحكى عن الكفار من أقوام الرسل جميعا :

« وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا» (5) .

---

(1) **النسفى** : ج ٠ 2 / 319 ٠
(2) الاسراء : 59 ٠
(3) الاسراء : 101 ٠
(4) البقرة : 118 ٠
(5) ابراهيم : 13 ٠

فَقَـد قـال قوم لـوط :

« لَئِـنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُـوطُ لَتَـكُونَنَّ مِنَ المُخْـرَجِينَ » (1)

وقـال قـوم شعيب :

« لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ والذِينَ آمَنُـوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا » (2) .

وكـذلك كـان مـوقف المشـركيـن فـي مكـّة مـع الـرسـول صلـى الله عليـه وسلـم :

« وَإِنْ كَـادُوا لَيَسْتَفِـزُّونَكَ مِـنَ الأَرْضِ لِيُخْـرِجُـوكَ مِنْهَـا ، وَإِذًا لاَ يَلْبَثُـونَ خَلْفَـكَ إِلاَّ قَلِيـلاً . سُنَّـةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَـا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَـا تَحْوِيلاً » (3).

وكـان ورقـة ابـن نـوفـل يعـرف هـذه السنّـة من تـاريـخ جهـاد الأنبيـاء . فقـال فـي قصـّة بـدء الـوحـي بعـد أن أخبـره الـرّسـول بمـا رأى : «هـذا النـامـوس الـذى أنـزل اللهُ على مـوسى صلـى الله عليـه وسلـم . يَا لَيْتَنِـي فيهـا جُذَعًـا . يا ليتنـي أكـون حيًّا إذْ يُخْرِجك قـومك . فقـال رسـول الله صلـى الله عليـه وسلـم . أوَمُخْـرِجِيَّ هُـمْ ؟ قـال : نعـم . لم يـأتِ رجلٌ قـطّ بمثـل مـا جئتَ بـه إلاّ عـودِيَ . وإنْ يدركْني يومُـك أنصرْك نصـرا مؤزَّرا » (4) .

---

(1) الشعــراء : 167 .

(2) الأعـراف : 88 .

(3) الاســراء : 76 ـ 77 .

(4) **صحيح البخارى : ج : 1 / 4**

وكيف لا يلقى رسل الله مثل هذا التهديد من أقوامهم ، وهم يقتلعون من قلوبهم عقائد ، ليثبتوا بدلها عقائد أخرى ، وينزعون منهم حواسّ مريضة ، ليضعوا مكانها حواسّ أدقّ ملاحظة ، وأكثرَ انفعالا ، وأجدرَ أن تُعرِّف رسالةَ الإنسان في الأرض ؟ ؟

الصدق في أخبار القرآن :

ولا بدّ من الإشارة هنا الى أنّ عناية القرآن بالتّاريخ هي أكثر من مجرّد عرضه لأخبار مضت. فقد وضع لنا قاعدة من أهمّ قواعد النّقد التاريخي في رواية ما يكوّن مادة التاريخ : وهي التي تُقرّر أنّ ثقة الرّاوى عامل هامّ في الحُكم على الأخبار المنقولة وعلى المرويّات . قال تعالى :

« يَا أيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » (1) .

فكان تطبيق هذا الأصل على رواة الأحاديث النبويّة بالخصوص عنصرا هامّا في تطوّر النقد التاريخي . وكان من عمل المسلمين به أن ألّفُوا الكتب في تراجم الرّواة لتُعرفَ سيرتُهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتُعرَف الرواية المتّصلة والمنقطعة ، وبحثوا في الكتب المؤلّفة ، متى يوثق بنسبتها الى مؤلفيها ؟ وبيّنوا حقيقة التّواتر الذى يفيد اليقين ،

---

(1) الحجرات : 6 .

والفرق بينه وبين ما اشتهر من روايات الآحاد . ولم يقتصر ذلك على علوم الدين : أُصُولها وفروعها ، بل امتدّ الى كتب التّاريخ والأدب ؛ فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من الحوادث والوقائع التاريخيّة التي جرت في العالم بعد الإسلام . وما اختلف الرّواة والمصنِّفون في جزئيات من تاريخ الإسلام وغيره تَسْهُلُ تصفيتُهُ وأخذُ المصفّى منه لأجْل الاعتبار به، ومعرفة سنن الاجتماع عنه ، جريًا على هدْيِ القرآن فيه . (1) .

وإنّا لَنجد في مثل هذه الآيات :

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ . فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ » . (2) .

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضَ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (3) . ما يحفز على البحث والتنقيب عن آثار المدنيّات القديمة ، ودراستها،

---

(1) **تفسير المنار : ج** . 2 / 465 ـ 466 .

(2) آل عمران : 137 .

(3) الروم : 9 .

والفائدةُ الكبرى التي يعلّقها القرآن على السيْر في الأرض ، هي الاعتبار بمصارع الظالمين ، وما كانت لهم من حضارة وقوّة .

ومن المستشرقين من لا يعتبر القرآن فيما قصّه من أخبار مصدرا تاريخيّا يمكن الاعتماد عليه ، وذلك لخلوّ هذه الأخبار من التفاصيل ، وممّا يحدّدها في الزّمان والمكان ، وعدم اتّفاق بعضها مع ما جاء في كتب العهد القديم والجديد ، وكتب التاريخ القديمة . ولكن هذا لا ينافي صدقه ولا صحّة أخباره . فإنّ القرآن ليس تاريخا ولا قصصا ، وإنّما هو هداية وموعظة . فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكّه بها ، أو الإحاطة بتفاصيلها ، وإنّما لأجل العبرة : «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ» (1) ، وبيانِ سُنن الاجتماع : «سُنَّةَ اللهِ التِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ» (2) .

ومن المؤرخين النّابهين من لا يذكر من وقائع التاريخ إلاّ ما يَستنبط منه الأمور الكليّة ، والأصول العامّة ، ولا يحفل بالجزئيات لِمَا يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالثقة ، ولِما في قراءتها من الإسراف في الزمن . فلا يكون عمله عرضة للتكذيب والطعن ، كما هو الشأن في أكثر المصنّفات التي تستقصي الوقائع الجزئيّة .

---

(1) يوسف : 111 .

(2) غافر : 85 .

وإذا ورد في كتب التّاريخ القديمة ما يخالف بعض هذا القصص ، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيّة ، ونُقِل إلينا بالتواتر الصحيح ، هو الحقّ . وما خالفه هو الباطل ، وناقِلُهُ مخطىء أو كاذب ، فلا نعدّه شبهة على القرآن ؛ لأن حال التاريخ القديم لم يكن من الدقة والتحرّي والضبط بحيث يكون حجة تُعتمد في هذا المجال ، إذْ لا رواية يوثق بها للمعرفة التامّة بسيرة رجالِ سَنَدِها ، ولا تواتر يُعتدّ به (1) :

فليس لنا اذن أنْ نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد ، وليس لنا كذلك ان ننقضها بغير دليل . إذ ليس من المحقّق أن يوغِل التاريخ في القِدَم إلى تلك الألوف من السنين (2) .

وقد أثبتت بعض الكشوف الأثريّة صحّة ما جاء في القرآن من أخبار العرب البائدة وغيرها : مثل سَيْلِ العَرِم الذي أدّى إلى انهيار سدّ مأرب باليمَن ، والذي يرجع إليه الفضل في تحويل مدينة مأرْب الى جنّة يانعة . وما تزال آثار الجنّتيْن الواقعتيْن عن يمينه وشماله حتى اليوم تؤكّد ما جاء في القرآن (3)

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ . جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ...» (4)

---

(1) **تفسير المنار** : ج : 2 / 464 ـ 465 .
(2) العقاد : **الانسان في القرآن** : 73 .
(3) سيدة إسماعيل كاشف : **مصادر التاريخ** : 16 .
(4) سبأ : 15 .

وتمكّن بعض علماء الآثار حديثا من اكتشاف عدد من النقوش الثّمودية في أرض تبوك ، ومدائن صالح وتيماء ، وفي الطائف .

وقديما زار الاصطخري بيوت ثمود المنحوتة في الجبال ، وحولها البئر التي كانت تشرب منها الناقة بالحِجْر : وهي تقع بين الحجاز والشّام في وادي القرى الخصيب (1) ولم تزل هذه المعالم باقية الى اليوم يؤمّها كثير من السيّاح .

وفي التوراة ذِكرٌ لمدائن لوط ، وللنكبة التي حلّت بها (2) وذكرها استرابون حوالي سنة 90م فقال (3) : «انه يجب أن نصدّق ما يرويه أهل البلاد ، أنّه كانت هناك ثلاث عشرة مدينة آهلة بالسكان ، بقي جزء كبير من سور عاصمتها «سدوم» . وقد تهدّمت بزلزال ونيران وقطران حارّ ومياه كبريتيّة من البحيرة ، والتهمت النيران الأحجار وقلبت مدنا كثيرة ، فهلك معظم سكّانها

كما ذكر بطليموس نكبة هذه المدائن . (4) .

وممّا اكتشفوا حديثا جُثّة فرعون في أحد النواويس ، وكتب في شأنه الأثري الشهير أحمد نجيب ، مؤكّدا أنها جثة فرعون موسى ، وأيّده في ذلك عبد الوهاب النجّار في كتابه «قصص الأنبياء» ، وإنّ قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

---

(1) **مسالك الممالك** : 19 ــ 20 .

(2) **سفر التكوين** : 13 ــ 14 ــ 19 .

(3) فى كتابه السادس عشر : 764 .

(4) احمد محمد الحوفى : **مع القرآن الكريم** . ج : 1 / 268 .

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » (1) تحقق بالعثور على جثته . ومن غلاماته أنّ أرنبة أنفه مأكولة غير موجودة ، فعلّل ذلك بأنّ السّمك أكل ذلك المكان من جسمه ، وأنّه ألقي إلى الساحل ، فأخذه المصريّون وحنّطوه ودفنوه » (2)

وجاء في الحوار الذي دار بين موسى وفرعون :

« قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ؟ قَالَ : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » (3). ففي هذه الآية إشارة إلى ما كان شائعا في مصر من معتقدات أثبتها التاريخ .

فقد كان للسماء آلهة اسمها (نوت) (Nout) . وكان للأرض إله اسمه (غب) (Gheb) . وكان للفضاء الذي بين السماء والأرض اله اسمه : (شو) (Chou) .

وفي تهديد فرعون لموسى حين «قالَ : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ » (5) حقيقةٌ تاريخة . فقد كان المليك عند قدماء المصريين إلها . وكان

---

(1) يونس : 92 .

(2) **دعوة الرسل الى الله تعالى** : 181 .

(3) الشعراء : 23 ـ 24 .

(4) ول ديورانت : **قصة الحضارة** . ج : 2/268 .

(5) الشعراء : 29 .

بـ ن «أمـون ـ رع» لا يحـكـم مصـر بحقـه الالهـي فحسب ، بـل يحـكـمهـا أيضـا بحق مـولـده الالهـي . فهـو إلـه رَضِـيَ أن تـكـون الأرض موطنـا لـه إلى حيـن (1)

ويُثبت المـؤرخـون أنـه كـانت لهـم آلهـات بجـانب تـأليههم لمـلـوكهـم . والقـرآن يشيـر إلى ذلك بقـولـه فيمـا حـكـاه عن ملإ فـرعَـوْن : «وَقَـالَ المَـلأُ مِنْ قَـوْمِ فِـرْعَـوْنَ : أتَـذَرُ مُوسَى وَقَوْمَـهُ لِيُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ » (2) .

وفيمـا عـرض القـرآن من قصص إبـراهيم عليـه السـلام كثيـر من الـوقـائـع الـتـي أيّدتهـا الـدراسـات التـاريخيـة كـالمعبـودات التـي كـانت في عصره . وقـد حـكـى عنهـا القـرآن (3) . وهـي القمـر . وكـان يُطلـق عليه اسم «نـانـار» والشمس ويطلق عليها شمـاس»

كمـا وجـدت عبـادة الـكـواكـب وأشهـرهـا كـوكـب الـزهـرة التـي يطلـق عليهـا «عشتـار» ، وكوكب المـريخ «مردوخ» (4) .

ومن الوقائـع التاريخية التـي أشار اليها القرآن ، أنّ إبراهيم تطلّـع إلى السماء «فَنَظَـرَ نَظْرَةً فِـي النُّجُـومِ فَقَـالَ : إنّي سَقِيمٌ» (5) والمعنى انـه رأى فـي طـالـع النجـوم مـا يفيـد مـرضـه . وهدا دليـل على أن قـومـه كـانـوا يـشتغـلـون بـالتنجيم كـمـا جـاء فـي « قـصـة

(1) المصدر السابق : 161 .
(2) الاعـراف : 127 .
(3) فى سورة الأنعام : 75 ــ 79 .
(4) قصة الحضارة : ج : 2 / 214 .
(5) الصافات : 88 ــ 89 .

الحضارة» : «لَمْ يدرس البابليّون النجوم ليرسموا الخرائط التي تُعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتُعينهم على التنبّؤ بمستقبل الناس ، وبذلك كانوا منجّمين أكثر منهم فلكيين .....» (1) .

ويذكر القرآن عن إبراهيم أنّه حطّم الاصنام إلاّ كبيرها «فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاّ كَبِيرًا لَهُمْ» (2) . فيُفهم من ذلك أنّه كان لقومه آلهةٌ كثيرة وإلهٌ كبير ، هو الذى أبقى عليه إبراهيم ، فلم يحطّمه . ويذكر (ول ديورانت) في كتابه : « قصة الحضارة » : بأن (مزدك) كان يعتبر كبير الالهة عند أهل بابل ، وأنّه كان بجانب هذا الإله كثير من الآلهة . ومثل هذه الحقائق التاريخيّة خير نصير علميّ للقرآن يؤيّد بأنه وحي من الله . وإلاّ فمن أين لمحمّد صلى الله عليه وسلم هذه المعلومات التى ما كانت تُعرف في عصره ولا في بيئته ؟ إنها لم تُعرَف إلاّ منذ أمد قريب بعد قيام العلماء بالحفريّات في أرض مصر وبابل ، والوقوف على أسرار الآثار التي فكّوا رموزها ، وفهموا ما تدلّ عليه (3).

قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومتحدّيا مكذّبيه بأنه لم يكن شاهدَ عيان لهذه الوقائع التي حدثت لموسى عليه السلام ، حتى يُخبر عنها بهذه الدقّة . «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ

---

(1) ج 2 / 211 ـ 212 .

(2) الأنبياء : 58 .

(3) انظر : **اليهود في القرآن** : لطبارة : 112 و 274 .

مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (1)

وقال تعالى عقب قصة مريم :

« وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » (2) .

وأمّا عدم اتّفاق بعض القصص القرآني مع ما جاء في كتب العهديْن ، فإنّ القرآن – بوصفه كتابا سماويّا سَلِم من التبديل والتحريف بشهادة الباحثين المخلِصين للحقيقة من غير المسلمين –جاء مصدّقا لمّا في التوراة والانجيل المنزليْن من عند الله ، وكاشفا عن الحقّ فيهما بَعد أن ألْبسه التّحريف بِالباطل : «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (3) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية : أنّ اليهود سألوا النبّيء صلى الله عليه وسلم زمانا عن أمور من التوراة ، لايسألونه عن شيء من ذلك إلاّ أنزل الله عليهم ما سألوا عنه فيخصمهم (4) .

(1) القصص : 44 – 46 .
(2) آل عمران : 44 .
(3) النمل : 76 .
(4) السيوطي : **كتاب النقول في اسباب النزول** : 17 .

فمن ذلك مثلا قوله تعالى :

«...يَا أهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاّ الحَقَّ . إنّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ألْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ . فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا : ثَلاَثَةٌ . انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ . إنّمَا اللهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَهُ مَا فِي السّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً » . (1)

فوحدة المصدر لهذه الكتب السماوية هي التي تجمع بينها على طريق سواء في مبادىء الدّين وأصوله العامّة ، وتجعل اختلافها في ذلك محالا . وعلى هذا الاعتبار فإنّ تنزيه الله عن كلّ نقيصة ، والأنبياء عن كل معصية أصل لا يتغيرّ في جميع الأديان السماوية .

وكلمّا وجدنا في نصوص الكتاب المقدّس ما يعارض مبدأ تنزيه الله ، أو عصمة الانبياء ، أيقنّا بتحريفه ، كوصف الله في التوراة بالجهل ونسبة الندم إليه وتشبيهه بالمخلوق في صفات النقص المختصّة به ، والتي يجب تنزيهه عنها كقول من قال منهم : إنه فقير ، أو إنه بخيل ، أو إنه تعبَ لمّا خلق السماوات والأرض (2) .

---

(1) النساء : 171 .

(2) انظر : **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** : لتقى الدين أحمد بن تيمية . ج : 2/49 .

جاء في قصة الطوفان « فندم على عمله الإنسان على الأرض ، وتأسّف بقلبه داخلا وقال : أمْحُو البشر الذى خلقتُهُ ..... لأني نادم الخ ...» (1) . كما جاء في قصة طالوت «شاول» : «ندمت أني صيّرت شاول ملكا ، إنه رجع من ورائي ولم يعمل بما أمرتُه» (2)

فقد جعلوا الخالق سبحانه في موقف من يراجع نفسه فيما قضاه فيُبطله ، ويندم عليه ، مثلما يفعل الملوك في سياسة الرعايا المحكومين .

وجاء في قصص بعض الأنبياء وصف رسل الله بما عصمهم الله منه كالكذب والخداع والزنا وارتكاب كبائر المعاصي .

فزعموا أنّ لوطا زنى ببنتيْه وحملتا منه . فولدت الكبرى ابنا سمّته (مواب) وهو أبو الموابيين إلى اليوم . وولدت الصغرى ابنا أيضا ، وسمّته (عمون) وهو أبو العمونيين إلى اليوم (3) .

وزعموا : أنّ حاما بن نوح رأى أباه وهو سكران مكشوف العورة ، فسخر منه . فلمّا أفاق نوح من سكره ، وعلم ما كان من ابنه حام ، دعا على ذرّيته ، وهم الكنعانيون بأن يكونوا عبيدا لعبيد أبناء ولديْه الآخرين ، سام ويافث (4) .

---

(1) سفر صموئيل : 15 / 6 .

(2) سفر التكوين : 19 .

(3) سفر التكوين : 9 .

(4) سفر التكوين : 17 .

وافترَوا على إبراهيم أنّه باع زوجته «ساراي» في مصر لفرعون ، لقاءَ ما كان يرجوه من الاتّجار بجمالها ، وقال لها :

«قولي : إنّكِ أختي ، فأُخِذت إلى بيت فرعون فانجرّ إلى (ابرام) خير بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء ...» (1)

كما افتروا على سليمان : أنه عبد الاصنام إرضاء لنسائه اللاّئي أحبّهن وخاصة بنت فرعون « وتبع سليمان (عشتروت) آلهة الصيدانيين و(كاموش) إله الموابيين ، و(ملكوم) إله بني عمون ، فغضب الرَّبّ على سليمان ، اذ مال قلبه عن عبادة إله إسرائيل الذى ظهر له مرّتين ، ولم يكن قلبه سليما لله ربه ، مثلما كان قلب داود أبيه ...» (2) :

وما كان لنبيء ان يمكّن لميوله ويمهّد لهواه بما يخالف أمر ربّـــــــــه .

ونسبوا إلى غيرهم من الأنبياء كيعقوب وابنه يهوذا وهارون وداود ما تتبرّأ منه الكتب السماوية ، وما يجعل التلفيق واضحا ، والكذب مفضوحا . وحاشا لموسى عليه السلام أن يتلقّى مثل هذا عن ربّه ، أوْ يهتك أعراض الأنبياء ، وهم المُبَرَّءُون من كلّ نقيصة في أقوالهم وأفعالهم .

وفي قصص القرآن نجد من فضل الله وعدله وحكمة سننه في خَلْقه ، ومن كمالات أنبيائه وأخلاقهم الكريمة ، وسموّهم

---

(1) سفر التكوين : 12 .

(2) السفر الاول من أسفار الملوك : 11 .

عن الدّنايا ، وترفّعهم عن الأهواء ما جعل سلوكهم قدوة صالحة للإنسانية . وكلّ ذلك يسمو بالنفس ويزيدها هدى وإيمانا . قال تعالى :

«وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ . إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا . وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ .. وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّاءَ وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ (1) .

فهذه أمثلة تُثبت ما حرّفه اليهود في التوراة من قصص بعض الأنبياء التي عرضها القرآن .

كما أبطل القرآن ما حرّفه النّصارى في الإنجيل كقولهم

---

(1) الأنعام : 87 ـ 90 .

بالتثليث ، والأقانيم ، وحلول روح الله في جسد المسيح ، والاتّحاد بين اللاّهوت والناسوت ، وأنّ المسيح هو الله ، أو ابن الله .

«لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا : إنّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ . إنّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنّةَ وَمَأوَاهُ النّارُ . وَمَا لِلظّالِمِينَ مِنْ أنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إنّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ . وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاّ إلَهٌ وَاحِدٌ . وإنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ . أفَلاَ يَتُوبُونَ إلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؛ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؟ مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وأمُّهُ صِدّيقَةٌ كَانَا يَأكُلاَنِ الطّعَامَ . انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ، ثُمّ انْظُرْ أنّى يُؤْفَكُونَ قُلْ : أتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا . وَاللهُ هُوَ السّمِيعُ العَلِيمُ ؟» (1) .

ومن أبدع المشاهد التصويرية التي رسمها القرآن في أسلوب قصصي ينبض بالحياة ، مشهدُ خطاب الله لعيسى بن مريم يوم القيامة في ملإ ممّن ألّهوه ، وخاضوا في الأوهام حول ذاته ، ونشأته ، ومنتهاه ؛ لمواجهتهم بالحقيقة التي زاغوا عنها : «وإذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونِي

---

(1) المائدة : 72 ـ 76 .

وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنْ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ . فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ »(1).

والإنجيل الذي هو كلام الله المنزَّل على عيسَى واحدٌ ، لا أربعة . وليس واحداً منها لاختلافها الى حد التضّارب وبخاصّة في نسب المسيح، وفي قصّة صلبه ، وقيامته من قبره حسب زعمهم :

«وقد ابتدعوا شرعا لم يأت به المسيح ولا غيره ، مثل زعمهم أن جميع بني آدم من الأنبياء والرّسل وغيرهم كانوا في الجحيم في حبس الشيطان ، لأجل أنّ أباهم آدم أكل من الشّجرة ، وأنهم لم يتخلّصوا من ذلك إلاّ بعد صلب المسيح . فإنّ هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم . فكيف وهذا الكلام ليس منقولا عن واحد منهم ؟ » (2) .

ومن الغريب أنّ الأناجيل الأربعة التي يدين بها أتباع المسيح على اختلاف طوائفهم ، لم يتحدّث واحد منها على لسان المسيح

---

(1) المائدة : 116 ـ 118 .

(2) **الجواب الصحيح** ... ج : 1 / 377 .

ولا على لسان تلاميذه عن الأقانيم الثلاثة في التّثليث الذى حدّدته المسيحيّة : بالآب ، والابن ، وروح القدْس . ولم يرد في نصوصها ما يشير الى الجمع بين هذه الكلمات في ذات واحدة ، وأن المسيح هو أحد هذه الاقانيم ، وهو أقنوم الابن .

فالمسيح يقول :

« لا تظنوا أني جئت لأ نقض ناموس الأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمّل .... الحقّ أقول لكم : إنه إلى أن تزول السماوات والأرض ، لا يزول من الناموس بناء ولا نقطة ولا حرف حتى يتمّ الكلّ» (1) . ولكنّ بولس (2) في رسائله تحدّى الاقوال الصّريحة الواردة في الأناجيل على لسان المسيح ، وفتح للمسيحية الباب إلى القول بالتثليث ، والقول بفداء العالم ، والقول بألوهية المسيح . وفي هذا يقول « ول ديورانت » : «... وكان في وسع (بولس) فوق هذا أن يجيب على الأسئلة المركّبة ، أسئلة الذين قالوا : إنه اذا كان المسيح إلها حقّا ، فلِمَ رضي أن يُقتَل ؟ فقال : إنّ المسيح قد قُتِل ليفتدي بموته العالَم الذى استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم ، فكان لا بد أن يموت ليحطّم أغلال الموت ، ويفتح أبواب السماء لكلّ من نالوا رضوان الله» (3) .

---

(1) **انجيل متى** : 17/5

(2) ولد سنة 100 م بطرسوس فتعلم اللغة الرومانية ووضع كثيرا من المعتقدات السائدة فيها مثل الاعتقاد بان الاله الذى يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره.واعتنق بولس المسيحية فأصبح داعيتها والشارح لها . انظر : **قصة الحضارة** . ج : II/252 .

(3) **قصة الحضارة** . ج : II / 265 .

وكان (بولس) يناهضُ بدعوته حركة التحرّر التي بدأت تستيقظ في نفوس العبيد وتُزعج الرومانيين وتهزّ أركان أمبراطوريتهم. فهو يقول: «لِتخضعْ كلُّ نفس للسّلاطين، لأنه لا سلطان إلاّ من الله».

فكان قوله هذا ترديدا للأفكار السائدة في محيط الرّومانيين، والتي نادى بها أرسطو في كتابه «السّياسة» وهي أنّ الناس وُلدوا أحرارا وعبيدا، وسادة ومسُودين، وحاكمين ومحكومين (1).

يقول «ول ديورانت» في تعليقه على آراء بولس هذه: «لقد كان خليقا برومة أن تُبْقي على فيلسوف طيّع إلى هذا الحدّ» (2).

وكان لكلماته التي احتوتها رسائله ما للانجيل من قدّاسة وحرمة، فتناولها الدّارسون من علماء اللاّهوت ورجال الكنيسة بالبحث والتخريج، فكانت منها تلك الفلسفة اللاّهوتية التي شغلت الفكر المسيحي، وما تزال تُقلقه وتزعجه بمتناقضاتها، وإلاّ فكيف يقبل العقل عملية معقّدة كعملية التثليث الذي يعتبرونه: ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة؟ وكيف يجتمع الإنسان والإله في كيان واحد، مع ازدواج الشخصية وتردّدها بين الناسوت واللاّهوت: أي بين البشرية والألوهية؟

فالمسيحيّون لا يتنازعون في أنّ الإله حل بنفس المسيح وجسمه، وإنّما يتنازعون في اللاّهوت. مع أنّ النفس مفارقة للبدن بالموت، واللاّهوت عندهم لم يفارق النّاسوت بالموت،

---

(1) انظر: **المسيح فى القرآن**: للخطيب: 304 – 313.
(2) **قصة الحضارة**. ج: 12 / 216.

بل صعد إلى السّماء . وقد ضربوا للاتّحاد عدّة أمثلة . ولكن أيّ مَثَل ضربوه ظهر به فساد قولهم ، وكان حجة عليهم (1) .

والكنيسة كانت تحاول دوما أن نوفّق بين هذه الآراء المتعارضة التي أضحت عقيدة يجب التسليم بها عند المسيحيين في نهاية القرن الرابع الميلادى ، فيقبلونها على علاّتها ، دون أن توفّر لهم الإجابات الواضحة ، والخالية من التناقض .

وممّا يؤيّد القرآن في إبطاله لعقيدة المسيحيين في المسيح مصدرٌ ديني مسيحي لم تعترف به الكنيسة ، رغم أنّه في نشأته يمتدّ إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحي. ذلك هوإنجيل (برنابا) . وهو متداول بين علماء الأمم الأروبية ، رغم إنكار الكنيسة له .

وبرنابا كان من القدّيسين الذين أخلصوا الدّعوة إلى المسيحية . وقد أرسلته الكنيسة إلى أنطاكية للتبشير فى الوقت الذى أرسلت فيه بولس الى قبرص .

وهو خالُ مرقس صاحب الانجيل المعروف ، ولكنّ المسيحين رفضوا إنجيله ، لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم في أربع مسائل جوهرية في العقيدة . وهي :

(1) إنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره إلها . كما جاء في مقدمته : «أيّها الأعزاء إنّ الله العظيم العجيب قد افتقدّنا في هذه الايام نبيّه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات التي اتّخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ،

---

(1) **انظر : الجواب الصحيح** ... لابن تيمية . ج . 3 / 123 .

مبشّرين بتعليمٍ شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائما ، مجوِّزين كل لحم نجس ، وقد ظلّ في عدادهم أيضا بولس الذي لا أتكلم عنه إلاّ مع الأسى . وهو السبب الذي لأجله أسطّر ذلك الحقّ الذي رأيتُه » .

ويقول في نفي ألوهيّة المسيح وبنوّته لله : «أجاب الكاهن : إنّ اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك ، حتى أنهم يجاهرون بأنّك أنت الله ، فاضطُررتُ بسبب الشغَب إلى أنْ آتي إلى هنا مع الوالي الروماني والملك (هيرودس) ، فنرجوك من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك ، لأن فريقا يقول : إنك الله. وآخر يقول : إنك ابن الله . ويقول فريق : إنّك نبيّ .

أجاب يسوع : وأنت يا رئيس الكهنة ! لماذا لم تخمد الفتنة ، وهل جُننت أنت أيضا ؟ وهل أمست النبّوات وشريعة الله نِسيًّا منسيّا، أيّتها اليهودية الشقية التي ضلّلها الشيطان ؟

ولمّا قال يسوع هذا ، عاد فقال : إني أشهد أمام السماء ، وأشهد كلّ ساكن على الأرض أنّي بريء من كل ما قال الناس عنّي من أنّي أعظم من بشر ، لأني بشر مولود من امرأة ، وعُرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر عرضةً للشقاء العام» (1) .

(2) أنّ الذي فداه الله بذبح عظيم لمّا أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه في المنام هو إسماعيل لا إسحاق كما ذكرت التوراة ، وكما يعتقد المسيحيّون . فقد جاء في إنجيل برنابا أيضا على لسان المسيح عليه السلام : «... إنّ الملاك قال : يا إبراهيم

---

(1) **إنجيل برنابا** : الفصل : 73 .

سيعلم العالَم كلّه كيف يحبّك الله ؟ ولكن كيف يعلم العالَم محبتك الله ؟ حقّا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم : ها هو ذا عبد اللّه مستعدّ أن يفعل كلّ ما يريد الله . فكلّم الله حينئذ إبراهيم قائلا : «خذ ابنك بِكرك ، واصعد الجبل لتقدّمه ذبيحة » .

فكيف يكون إسحق البكر ، وهو لمّا وُلد كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟ .

(3) أنّ (مسيا) أو المسيح المنتظر ، ليس هو يسوع ، بل هو محمد : كما جاء في إنجيل برنابا على لسان المسيح : « إنّ الآيات التي يُجريها الله على يديّ تُظهر أنيّ أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسي نظيرَ الذى تقولون عنه ، لانيّ لست أهلا لأن أحلّ رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمّونه (مسيا) الذي خُلق قبلي ، وسيأتِي بعدي بكلام الحقّ ، ولا يكون لدينه نهاية » .

وفي الفصلين 34 و44 كلام واف في التبشير بمحمّد صلى الله عليه وسلم ، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أنْ يصرّح لهم به ، فذكر ما يُعرِّف بحقيقته (1) :

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : يَابَنِي إِسرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِيَ اسْمُهُ أَحْمَدُ » (2)

---

(1) انظر : **الجواب الصحيح** ... ج : 4 / 5 : 11 .
(2) الصف : 6 .

(4) إن هذا الإنجيل ينفي صلب المسيح، ويُثبت أن الله ألقى شبهه على يهو ذا الاسخريوطى الذى كان رأس الفتنة فى تآمره مع اليهود على قتله . وهو الذى دلّهم عليه . كما تقول الاناجيل عنه :

«الحق أقول : إنّ صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشّبه يسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به أنه يسوع . كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أنه كان نبيّا كاذبا . وإنّما الآيات التى فعلها كانت بصناعة السّحر ؛ لأنّ يسوع قال : إنّه لايموت إلى وشك انقضاء العالم ، لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم » .

وفى القرآن رداً على زعم اليهود .

« .... وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وَإِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ . مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ . وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ . وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (1) .

وهكذا فإن إنجيل برنابا خالف المسيحية القائمة في جوهر خصائصها : وهي التثليث وبنوّة المسيح وألوهيّته وصلبه (2).

كما انفرد القرآن عن سائر الأناجيل فيما قصّ من أخبار المسيح بذكر خبر نزول المائدة من السماء ، وتكلّم عيسى في المهد . ولم تذكر الأناجيل شيئا من ذلك .

---

(1) النساء : 57 / 158 .

(2) محمد ابو زهرة : **محاضرات فى النصرانية** : 70 / 72 .

فقد أورد القرآن في خبر المائدة الذى قال عنه مجاهد : هو مَثَلٌ ضربه الله ولم ينزل شيء .

« ... إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ : اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ونَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ، ونَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُون لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللهُ : إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ . فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاأُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ » (1) .

وفي خبر تكلُّم المسيح في المهد حين برّأ أمّه :

« فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا : يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . قَالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيّاً ؟ قَالَ : إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ، وبَرّاً بِوَالِدَتِي

---

(1) المائدة : 112 ـ 115 .

وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) (1) .

وقد اعترض النّصارى على القرآن فيما أخبر به من كلام المسيح في المهد ، كما يستفاد من كتب التفسير القديمة مثل «مفاتيح الغيب» . ودعواهم في ذلك أنّ هذا لو كان حقّا لَعَلِمه خاصّتُه وتلاميذه ، ولأثْبتوه في عداد المعجزات .

ولعلّ الجاحظ بلغتْه هذه الاعتراضات والمساجلات التي كانت تدور بين المسلمين والمسيحيين في الفترة التي ازدهر فيها علم الكلام ، فكتب رسالة «في الردّ على النصارى» جاء فيها :

«فأما مسألتهم في كلام عيسى في المهد فهي أنّ النّصارى مع حبّهم لتقوية أمره لا يُثبتونه . وقولهم : إنّا تقوّلناه ، أورويناه عن غير الثّقات ، وأنّ الدليل على أنّ عيسى لم يتكلم في المهد أنّ اليهود لا يعرفونه ، وكذلك المجوس وكذلك الهند والخزر والدّيْلم ؛

فنقول في جواب مسألتهم : «لَعمرى لو كانت اليهود تُقرّ لكم بإحياء الأربعة الذين تزعمون ، وَإِقامة المقعد الذى تدّعون ، وإطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة ، والمشي على الماء . ثمّ أنكرتم الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه لكان لكم في ذلك مَقال ، وإلى الطعن سبيل . فأمّا وهم يجحدون ذلك أجمع . فمرّة يضحكون ، ومرة يغتاظون ويقولون : إنه مداوي مجانين ، ومتطبب وصاحب حيَل ، فكيف تستشهدون قوما

---

(1) مريم : 27 – 33 .

هذا قولهم في صاحبكم حين قلتم : كيف يجوز أن يتكلّم صبي في العهد مولودا ، فيجهله الأولياء والأعداء . ؟

ويقول في الرّد على النصارى :

« فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : مالنا لا نعرف ذلك ، ولم يبلغنا من أحد ؟ فجوابنا أنهم إنّما قبلوا دينهم عن أربعة أنفُس : اثنان من الحواريين بزعمهم : يوحنا ومتى ، واثنان من المستجيبة (1) وهما مارقش ، ولوقش (لوقا) . وهؤلاء الأربعة لا يؤمَن عليهم الغلط ولا النسيان ، ولا تعمّد الكذب ولا التواطؤ على الأمور ....

فإن قالوا : إنّهم كانوا أفضل من أن يتعمّدوا كذبا ، وأحفظ من أن ينسوا شيئا ، وأعلى من أن يغلطوا في دين الله تعالى ، أو يُضيعوا عهدا ، قلنا : إنّ اختلاف روايتهم في الإنجيل ، وتضادّ معاني كُتبهم ، واختلافهم في كتبهم ، واختلافهم في المسيح مع اختلاف شرائعهم دليلٌ على صحّة قولنا فيهم ، وغفلتكم عنهم » (2) .

لكن قول الجاحظ في الحواريين مردود ، لأنّهم أبعد من أن يكونوا موضع تهمة ، حتى لا يؤمَن عليهم الكذب والتواطؤ على الأمور ، «إذْ كان الله سبحانه وتعالى هو الذى اختارهم للمسيح أعوانا وأنصارا ، كما يصرّح بذلك القرآن الكريم (3) في قوله تعالى : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا : آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (4) » .

---

(1) الذين استجابوا ودخلوا فى الدعوة المسيحية .

(2) انظر : رسالة الجاحظ فى « **الرد على النصارى** » : 22 ـ 26 .

(3) الخطيب : **المسيح فى القرآن** : 521 ـ 522 .

(4) المائدة : 111 .

وقد أجاب الرّازي على هذه الشبهة بما نقله عن المتكلّمين فيها قالوا : «إنّ كلام عيسى عليه السلام في المهد إنّما كان للدّلالة على براءة حال مريم عليها السلام من الفاحشة «ولم يتكرر منه» وكان الحاضرون جميعا قليلين ، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء . ولو قدّرنا أنّهم ذكروا ذلك ، فإنّ اليهود كانوا يكذّبونهم وينسبونهم إلى البهت . فهم أيضا سكتوا لهذه العلّة . ولأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوما مخفيّا ، إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك .

وأيضا فليس كلّ النصارى ينكرون ذلك . فإنّه نُقل عن جعفر ابن أبي طالب لمّا قرأ على النجاشي سورة مريم قال النجاشي : لا تفاوت بين واقعة عيسى وبين المذكور في هذا الكلام . (1)

وهكذا فإنّ القصص التاريخيّ في القرآن وإن لم يكن عرْضا تاريخيّا بالمعنى المعروف ، لكنّه حجّة لا تقبل الطعن في إثبات ما قصّ من وقائع تاريخية . وقد أبان وجهَ الحق فيما دخل على بعض القصص من زيف أو تحريف ، سواء في كتب العهدين ، أو في كتب التاريخ القديمة .

وفي القرآن إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته .

فعلى الدّارس لقصصه ألاّ يقتصر على معرفة الوقائع ، بل عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها وسننها ، ليتعمّق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله وهي على أكمل نظام ، وأتقن ترتيب .

---

(1) «مفاتيح الغيب» ج : 7 / 55 – 56 .

إن القرآن لم يقتصر على عرض لوْحات مجرّدة لماضي الإنسانية في صراع قوى الخير والشر ، وإنمّا كان يهدف إلى بعث المثال من التّاريخ ، لإثارة الانفعالات الموحيَة بالهداية والإيمان ، واستغلال الأحداث التاريخيّة في التربية ومعالجة النزعات النفسيّة في الانسان ، وأمراض المجتمع الذى يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوّة مفروضة على النفس تُحدث فيها انصهارا ووعيا ويقظةَ إحساس .

ومن هنا كان هذا القصص التاريخي أشدّ تأثيرا وأسمى طموحا من التاريخ ، لأنه يمدّ الإنسان بسلاح الإيمان والثّبات ، ويعرّفه بمالله من نواميس قارّة في نظام الخَلْق والإبداع ، ومن سُنن مطّردة في نظام الأقوام والأمم ، سنن خاضعة لإرادة الله وليست مقيِّدة لها ، تتّصل فيها الأسباب بالمسبّبات ، فلا تتغيّر أو تتحوّل محاباة لأحد من الناس ، لانها محور عدل الله وحكمته في تدبير الأمور :

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولِي الألْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى . وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (1) .

---

(1) يوسف : 111 .

القصص التمثيلي

سبق في مقدمة هذا الفصل أنّ الصدق فيما قصّه القرآن أمر حتميّ لا يجوز أن يتصوّر المؤمن خلافه، سواء أكان مصدر هذا القصص أحداث التاريخ، أم واقع الحياة، على معنى أنها تمثّل أنموذجا للحياة، وأنّ الإنسان يصادف دوما تجدّد تلك الأحداث ولو في أشكال مختلفة. فالصّدق الواقعي يتّصف به القصص التاريخي، وهو أكثر قصص القرآن. والصدق الموضوعي يتّصف به القصص التمثيليّ، وهو قليل في القرآن. بل إنّ بعضهم نفى وجوده على اعتبار أنّه ضرب من الخيال، والخيال يختلف عن الحقيقة، لانّه يُفسَح فيه المجال لانتحال أشياءَ غريبة عنها.

وإذا جوّزنا أن نحمل ما في قصص القرآن من أشياء غريبة على أنه تمثيل، أدّى بنا ذلك إلى إنكار الكثير من الحقائق التي تضمّنتها الآيات الدالّة على قدرة الله في هذا القصص.

ولئن كان المعتزلة هم أوّل من نادى بهذا التمثيل وفسّروا بعض الآيات على هدى منه – وتفسير الزمخشري مليء بهذا اللّون من التفسير – (1) فلا ينبغي أن يحملنا ذلك على رفض هذا المنهج رفضا

---

(1) انظر مثلا تفسيره لقوله تعالى: « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على أنفسهم الست بربكم ؟ قالوا : بلى » (الأعراف : 172).

مطلقا . فإنْ من التمثيل البياني في القرآن ما يقرّب الحقائق إلى الأذهان ، ويضفي عليها لونا من البيان فيجليها . وما ابتدع التمثيل لرسم الأشكال والألوان فقط . وإنّما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس ، ولتقوية الشعور وعمقه ونفاذه . ويدخل في ذلك ما ورد في القرآن من أمثال أشار إليها بقوله : «وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ» (1) .

ومن أغراضها : تقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسيْن من الآخر ، واستخلاص سنن الله في خلقه ، وعدله بينهم فيما تجلّى من نتائج الحكم الواحد لأمرين متماثلين ، وإنْ تباعدا في الزمان والمكان .

يقول ابن قيم الجوزيّة : «لو جاز التفريق بين المتماثليْن لانسدّت طرق الاستدلال ، وأغلقت أبوابه . والأمثال كلّها أقيسة عقليّة ينبّه الله بها عباده على أنّ حكم الشيء حكم مثله.... فالقياس في ضرب الأمثال من خاصّة العقل . وقد ركّز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثليْن ، وإنكار التفريق بينهما ؛ والفرق بين المختلفيْن ، وإنكار الجمع بينهما . قالوا : ومدار الاستدلال جمعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين .... ومن ضروبه الاستدلالُ بالمعيّن على العامّ .

ومن هذا أدلة القرآن بتعذيب المعيّنين الذين عذّبهم على تكذيب رسله . وعصيان أمره . على أنّ هذا الحكم عامّ شامل

(1) العنكبوت : 43 .

على كلّ من سلك سبيلهم ، واتّصف بصفتهم وقد نبّه سبحانه وتعالى عباده على نفس هذا الاستدلال وتعدية هذا الخصوص الى العموم ..... كقوله تعالى عقب إخباره عن عقوبة قوم عاد : «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وأفْئِدَةً . فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (1)

فتأمّلْ قوله : «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ » كيف تجد المعنى : أنّ حكمكم كحكمهم ، وأنّا إذا كنّا قد أهلكناهم بمعصية رسُلنا ، ولم يَدْفع عنهم مَا مُكّنوا فيه من أسباب العيش ، فأنتم كذلك ، تسويةٌ بين المتماثلين ، وأنّ هذا محض عدل الله بين عباده» (2) .

ثم إنّ الصّدق في القصص التمثيلي يلاحَظ من وجهتين : موضوعيّة وفنيّة .

أمّا الوجهة الموضوعيّة ففي تمثيله بأشخاص غير معيّنين لم يكن لهم وجود بأسمائهم في واقع التاريخ ، ولكن وجود أمثالهم في واقع الحياة ممكن ، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم التي تمليها نوازع نفسيّة راسبة في شعور الانسان لأنها من طباعه وفي غرائزه .

---

(1) الأحقاف : 26 .

(2) **اعلام الموقعين عن رب العالمين** . ج : 1 / 130 ـ 132 .

وأمّا الوجهة الفنيّة ، ففي تصويره للشخصية من خلال الحوار تصويرا حيّا ، وفي دقة نقله لمشاعرها وتعبيره عن مواجيدها وأحاسيسها . وهذه وظيفة الفنّ .

أمّا حقيقة الفن فهي كما قال « تولستوى » : «ليست في وصف ما هو كائن ، بل في ما يجب أن يكون . فكَم من كتب تصِف ما حدث ، ولكنها كاذبة من الوجهة الفنية ! وكم من قصص تمثيلي كلّه حقيقة ، لأن الحق طريقه ، ولأنّه يكشف عن ملكوت الله ! » (1) .

فتأثير هذا القصص إذنْ إنّما هو في صدقه الموضوعي والفني ، وفي تشخيص المعاني المجرّدة والتوجيهات التربويّة التى تضمّنها في شكل عملي تطبيقي يمكّن من تصوُّرها وإدراكها . ذلك أنّ من المدارك ما يقف عند الأمور الحسيّة ، فلا يقوى على فهم المعاني الكليّة فضلا عن التأثّر بها ، إلاّ إذا كان لها وجود واقعي مفترَض يجسّمه الحوار ، ويحدّد إطارَه جوُّ القصة وأحداثها . ومن هنا استعمل القرآن القصة التمثيليّة لغرس القيم الدينيّة وإيقاظ الوجدان للإيمان بها .

فقد يكشف السّياق القرآني فيما يَعرض بأسلوب يُشبه أسلوب القصة عن حقيقة في الإنسان لم تتغير فيه منذ بدء الخليقة ، مهما تغيّرت مظاهر حياته . وهي أنه سريع النسيان . لا يذكر الله إلاّ في الشدائد ، ولا يثوب إلى رشده ، وينزع عن

---

(1) **مجلة الآداب** : 1954 ، س 2 ، ع : 11 / 41 .

غيّه إلاّ في ساعة العُسْرة . فاذا استقرّ وأمِن ، فإمّا النسيان ، وإمّا الطغيان . قال تعالى :

«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا . قُلِ : اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا . إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ . هُوَ الذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ : لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا . ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (1) .

وهذا نموذج بشري لطائفة كبيرة من الناس في كل جيل ، مثلُهُ ما صنع قوم فرعون مع موسى . فكلّما أخذوا بعذاب استغاثوا ، ووعدوا بالعدول عمّا هم فيه . فاذا ذاقوا الرحمة مكروا في آيات الله ، وعادوا إلى ما كانوا فيه .

«فَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا : يَا مُوسَى ! ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ : لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ

---

(1) يونس : 20 ـ 22 .

وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » (1) وكذلك صنعتْ قريش مع محمّد صلى الله عليه وسلم لمّا أجدبتْ وخافت الهلاك . فهي ظاهرة مطّردة في الإنسان ، ما لم يعصمه الإيمان . (2)

ومن أبدع القصص التمثيلي في القرآن قصة صاحب الجنّتيْن ، لِمَا فيها من تشخيص حيّ للمشاهد يقصُر عنه التّعبير في أي أسلوب آخر غير الأسلوب القصصي . وفي هذه القصة ضَرب الله مثلا برجليْن : أحدهما كافر بسط الله له في رزقه ، وجعل له حديقتين من أعناب حولهما نخيل يثمر ، لكنّه لم يشكر ربّه على ما أنعم عليه ، بل كفر بنعمه اعتزازا بما يَملك . وأمّا الآخر فهو مؤمن ، لكنّه فقير لم يفسد فطرتَه التّرفُ الذي يقطع الصّلة بين قلوب المترَفين وبين تلك النّفحة العُلوية التي تصل الإنسان بخالقه الكريم .

« وقد ضرب الله القصّة مثلا للكفار من قريش الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين . فبيّن الله تعالى أنّ ذلك ممّا لا يوجب الافتخار ، لاحتمال أن يصير الفقير غنيّا ،والغنيّ فقيرا . أمّا ما تحقّ المفاخرة به ، فطاعةُ الله وعبادته ، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين . وبيّن ذلك بضرب هذا المثل الذي كانت فيه العاقبة المحمودة للمؤمن (3) .

---

(1) الأعراف : 134 ـ 135 .

(2) انظر : **في ظلال القرآن** ، ج : 11 / 66 ـ 67 .

(3) **مفاتيح الغيب** ، ج : 21 / 123 .

وذكر الطبرى في تفسيره : « أن عُيَيْنة والأقرع قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن سادات العرب وأرباب الأموال . فنحِّ عنا سلْمان وخبّابًا وصهيبْا ، احتقارا لهم وتكبّرا عليهم» (1) .

واختلف المفسّرون في اسم هذين الرجلين وتعيينهما . فقيل : هما أخوان من بني إسرائيل (2) وقيل : « إنّ هذا مَثَل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة » (3) وضرب المثَل لا يقتضي وجود المُمَثَّل به . وإلى هذا القول أميل ، لأنه لو كان الرجلان معيّنين لورد ذكرهما بالتعريف فتنكيرهما « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ » يؤيّد هذا الرأي . وسواء أكان الرجلان موجودَيْن في واقع التاريخ ، أم موجودَيْن في واقع الحياة افتراضا ، فإنّ قصتهما رسمت في الحالَيْن نموذجين واضحين للنفس المعتزّة بزينة الحياه ، والنفس المعتزّة بالله التي ترى النعمة موجبة لِحَمْدِهِ وذكره ، لا لجحوده وكفره ؛

إنّها قصّة كلّ من آتاه الله مالا ، فغرّه وأنساه ربّه ؛ وهو إن لم يقل مثلَ مقاله نصّا ، فإنّ حاله تنبيء عنه . وكثيرا ما يكون لسان الحال أفصح من المقال :

«وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ

---

(1) الطبرى : **جامع البيان** • ج : 15/246 •
(2) الطبرسى : **مجمع البيان** • ج : 15/156 •
(3) القرطبى **الجامع لأحكام القرآن** • ج : 10/401 •

شَيْئًا . وفَجّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا وكَانَ لَهُ ثُمُرٌ ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهْوَ يُحَاوِرُهُ : أنَا أكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأعَزُّ نَفَرًا . ودَخَلَ جَنّتَهُ وَهْوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، قَالَ : مَا أظُنُّ أنْ تَبِيدَ هَذِهِ أبَدًا ، وَمَا أظُنُّ السّاعَةَ قَائمَةً . ولَئِنْ رُدِدْتُ إلَى رَبّي لأجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهْوَ يُحَاوِرُهُ : أكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ سوّاكَ رَجُلاً ؟ لَكِنّا هُوَ اللهُ رَبّي ، وَلاَ أشْرِكُ بِرَبّيَ أحَدًا . ولَوْلاَ إذْ دَخَلْتَ جَنّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ اللهُ ، لاَ قُوّةَ إلاّ بِاللهِ . إنْ تَرَنِي أنَا أقَلّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا فَعَسَى رَبّي أنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِن جَنّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ، أوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأحِيطَ بِثُمُرِهِ فَأصْبَحَ يُقَلّبُ كَفّيْهِ عَلَى مَا أنْفَقَ فِيهَا وهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أشْرِكْ بِرَبّيَ أحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الوَلاَيَةُ لِلّهِ الحَقّ . هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وخَيْرٌ عُقْبًا » (1) .

فهذه القصة تمثّل صورة لرجل ثريّ غرّه نجاحه في إنشاء جنّتين ، كلتاهما أثمرَتْ وآتت أكْلها ، وأصبح لها

---

(1) سورة الكهف : 32 ـ 43 .

منظر بهيج ، يتدفّق قوّة ونضارة . فامتلأت نفسه زهوا واختيالا ، وأبطرته النعمة ، فنسي شكر المنعم ، وتعالى على صاحبه الفقير وهو يحاوره ، وظنّ أنّ جنّتيه تستعصيان على عوامل الفناء ، فلن تخذله القوة والجاه . واستبعد أن تقوم السّاعة ، وخُيّل إليه أنه سيجد الرّعاية والإيثار عند ربّه بعد الموت ، كما وجد في الدنيا ، وأنّ المكانة التي يحظى بها أهل الثراء في هذه الحياة ، ستظلّ محفوظة لهم حتّى في الملإ الأعلى .

أمّا صاحبه الفقير المؤمن الذى لا مال له ولا نفَر ، ولا جنّة عنده ولا ثمَر ، فإنه معتزّ بما هو أسمى وأبقى . فهو يُنكر على صاحبه المَغرور كبرَه ، ويذكّره بمَنشئه المهين ، وبمَن خلَقه وسوّاه ، ويحذّره أن يصيبه سخط الله . وكان ما توقّعه هذا المؤمن .

وفجأة ينقلب السّياق من مشهد النّماء والإزدهار ، إلى مشهد الفناء والدّمار . فاذا بالثمر والجنّتين أثر بعد عين . وعندئذ تعظم حسرته لِتلَف ماله ، وضياع جهده ، ويندم على إشراكه بالله ، ولكن الله لم يقبل توحيده ، لأنه ما رغب فيه إلا لأجل طلب الدنيا (1) .

وهكذا جسّمت هذه القصة ما تضمّنه الحوار فيها من المعاني الكلّية المجرّدة ، فقرّبت حقائقها إلى الأذهان ، بل

---

(1) انظر : **فى ظلال القرآن** . ج : 15 / 93 – 95 .
ومفاتيح الغيب . ج : 21 / 183 .

قـرّرتها فيهـا ونقشتهـا . بمـا ضربت من مثـل بليـغ مـؤثّـر ، أبـان أنّ القـيـم الحقيقيّـة ليست فـي اللّذّائذ الماديّة . ورغم أنّ الإ سـلام لـم يحـرّم الطيّب منهـا ، لـكنّه لـم يجعـل منهـا غـايـة لحيـاة الإنسـان . فمن شـاء أن يتمتّـعَ بهـا فليتمتّـع ، لـكن في غير إسراف أو ترف . بـل عليـه أن يَذكـر دومـا ربّه الذى أنعـم عليـه ، وأن يشـكـره علـى ما أنعـم بـه ، وذلك بِطـاعتـه ، والتـواضـع لـه ، والانفـاق في سبيلـه وإعـانـة ذوي الحـاجـات ، عمـلا بقـولـه صلـى الله عليـه وسلـم :

«الخَلـق كلُّهم عيـال الله ، فـأحبّهم إلى الله أنفعهـم لعيـالـه (1) .

وعنـدئذ فقـط يـأمن من أن يستحـوذ عليـه الخـوف اللاّشعـوري المتـأصّل فـي أعمـاق الإنسـان من غـرور النجـاح المطّـر د . والحظّ السعيد المُـلازِم ، ومـا ينتج عن ذلك من تحوّل السعادة الى شقاء ، والغنى إلى إفـلاس ، والـرّفعـة الى ضَعـة ، حتـى لـكـأنّ السعـادة المتـواصلـة بدون منغّصات نذيـر خفيّ بالشرّ يتحسّسه الـكثيرون ، ويتطيّرون منه .

ألسنّا نقـول عندمـا نفـرح كثيـرا ، ونضحك كثيـرا : اللّهمّ اجعـل العـاقبة خيـرا ؟ ومعنـى ذلك أنّ فـي أعمـاقنـا خوفـا لا شعوريّا من أنّ السعـادة المسترسَلـة قد يعقبهـا ألـم ومعـانـاة . وقد سمّى التحليـل النفسي هـذا الخـوف باسم (مـر كب بوليـكـرانس) (Complex polycrotes)

وإنّنـا لنجد أثـر هـذا الخـوف والقلق فـي كـل عهـود الإنسـانيّة .

---

(1) رواه السيوطى فى : **الجامع الصغير** .

فقد كان الإغريق يسمّون الغلوّ في النجاح (Hubris) ومعناه في اللغة الاغريقية : شدّة أو عنف ناشيء عن العتوّ في القوّة ، والتّباهي بها ، لاعتقادهم أنّ ذلك يثير غضب آلهة الانتقام (Némésis) إذْ كأنّ الانسان بنجاحه المتواصل يتحدّى الآلهة ، فتُسلِّط عليه العقاب حسب اعتقادهم (1) .

ونجد في جميع الأديان السماوية ما يُشعِر الإنسان على الدّوام بأنّه ضعيف أمام قوّة الاله ، وأنّه لا ملجأ من الله إلا إليه .

ففي إنجيل لوقا قال المسيح لتلاميذه :

«متى صلّيتم فقولوا : أبانا الذى في السموات . ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك في السماء وفي الارض . خبزُنا كفافنا . أعطنا كلّ يوم ، اغفر لنا خطايانا » (2) .

فيتبيّن من كلّ ذلك أنّه من اليسير إثبات وجود الله بالأدلّة النفسيّة من خلال شعور الإنسان بوجود إله خالق عظيم . وأكثرُ الذين يُنكرون هذه الحقيقة يشعرون في أعماقهم بخوف لا يعرفون مصدره ، سيما إذا نُكبوا أوحلّت بهم كارثة ، وربّما أحسّوا باطنيّا بأنّها عقاب لهم على إنكارهم لوجود الخالق .

---

(1) انظر : **سيكولوجية الضمير** : لمحمد كامل النحاس : 76 ـ 81 .

(2) الاصحاح : 11 .

وهكذا فإن التجبّر والتعاظم والبغي في الإنسان الذي يحالفه الحظ في جميع أعماله وتصرّفاته ومشروعاته ، فيزداد عتوّاً ، ينتهي به الى الظلم والمروق ، ولكنه يلقى بسبب ذلك الألم والحسرة والأسى عند زوال ما كان يعتزّ به من عرَض زائل .

كلُّ ذلك قد تمثّل في قصّة صاحب الجنتين . وكان من الحكمة والتبصّر ألاّ ينسى القوّة المطلقة التي تسيطر على حظوظ الناس في الحياة ، وأنه مهما بلغ من سَعة الرزق والقوّة والسلطان ، فليس بخارج عن مشيئة الله وملكوته ، لأن قوّته إذا لم تساندها قوّة الله تحطّمت وانهارت ، كما جاء على لسان الفقير المؤمن وهو ينصحه : « وَلَوْلاَ إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ » .

ونظير هذا ما حكاه القرآن عن قوم هود :

«فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ» (1) .

---

(1) فصلت : 14 : 15 .

الفصل الخامس

جوانب المعرفة في قصص القرآن

إنّ الآراء العلمية المجرّدة التي تُقدَّم لبثّ الدعوة ، ونشر العقيدة ، كثيرا ما تكون خالية من القوّة النفسية الدافعة ، واللّمسات الفنيّة المؤثّرة ، فلا تفتح الطريق للوجدان كي يتدبّر ويعتبر .

لذلك فإنّ القرآن الحكيم في منهجه عامة ، وفي قصصه خاصة ، لم يقدّم العقيدة الإسلامية كنظريّات للبحث ، أو أثر للدّراسة ؛ فإنّ هذا لا يستوعب كلّ جوانب النّفس ، ولا يمثّل الحياة في شتّى مظاهرها ، ولا ينشىء شيئا في عالَم النفس ، ولا في عالم الحياة . كما أنه لم يقدّمها كشعور مجرّد يثير العواطف الدينية في سذاجة ، لأن الشعور إن لم يستند إلى مبدإ يقوده ، أو فكرة تَدعمه ، لا يكون له وضوح ولا قرار .

وإنّما قَدّم العقيدة ، وفيها مادّة للمعرفة التي استعمل في تبليغها للفكر والوجدان ألوانا من أساليب البيان ، وطرق التأثير ، وفنّ القول . وكان أبرزَها وأبلغها أثرا ، فنُّ القصّة التي سلك فيها القرآن منهجا قويما لإيقاظ الفكر عن طريق الملاحظة الموحِية بالفكرة ، المهيِّئة للتجربة ؛ وأثار المشاعر بما عَرَض

فيها من آيات الله في أخبار الأولين وفي عظمة الكون ، وفي أسرار النّفس البشريّة .

فلم تقتصر فيه المعرفة الدينيّة على الحسّ ، كما تُقرِّر العلوم التجريبية : أن الموجود وحده هو المحسوس ، وأنّ ما لا يناله الحسّ بجوهره فَفرضُ وجوده محال . بل تناولت — فيما تناولت — ثلاثة جوانب هامّة تمدّ الفكر والعاطفة — على تفاوت مراتب الناس في دقّة فهمهم وعمق إحساسهم — بغذاء لا ينقطع ، وهي : الكون ، والنّفس ، والتاريخ .

قال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ . أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (1)

ولا ريب أنّ ما في الآفاق هو ما ينظرون إليه ، ثمّ ينظرون فيه ، أو ما يُشاهدونه بعين البصر ، ثمّ بعين الذهن المعتمد على الحسّ ، أو هو عالم الشهادة ، أو ملك السماوات والأرض ، وأنّ ما في أنفسهم هو المدرَك بالشعور الباطني ، أو بالعقل المجرّد من كل غواشي الحسّ ، وعلائق المادّة ، حتى يتبيّن لأولئك وهؤلاء أنّه الحقّ . وهنا نصل إلى إدراك المنزلة الآلهيّة الحقيقية التي هو

---

(1) فصلت : 53 .

فيها دليلُ كلّ كائن ، وبرهان كلّ موجود ، فنهتف بعقولنا وقلوبنا : أنّهُ على كُلّ شيْءٍ شَهِيدٌ (1)

وقال تعالى : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ . فَسِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (2) »

فإنّ سنن الله في الأفراد والأمم إنّما نستخلصها من أحداث التاريخ . لذلك كان التّاريخ بهذا الاعتبار من أهمّ جوانب المعرفة التي بثّها الله في كتابه ، والتي تصوّر قيام النظام الاجتماعي المترابط ، إلى جانب النظام الكوني العامّ على السُّنن الالهية .

وقد دعانا الله في هذه الآية إلى السّير في الأرض لمعرفة هذه السّنن ، سواء أكان السَّير الحسّي بالسّفر ، أم السَّير المعنويّ بالتفكّير والاعتبار . كما دعانا إلى النّظر في آثار من سبقونا ليحصل منه تحقُّق ما بلغ من أخبارهم ، أو السؤال عن أسباب هلاكهم ، وكيف كانوا أولي قوّة ، وكيف طغوا على المستضعَفين ، فاستأصلهم الله . أو لِتطمئنّ نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبَر عنهم مشاهدة عيان ، فإنّ للعيان بديع معنى ، لأن المؤمنين بلغتهم أخبار المكذّبينَ : عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرّس ؛ وكلّهم في بلاد العرب ، يستطيعون مشاهدة آثارهم . وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم .

---

(1) محمد غلاب : **المعرفة عند مفكري المسلمين** : 139 .

(2) آل عمران : 137 .

«وفي الآية دلالة أيضا على أهمّية علم التاريخ، لأنّ فيه فائدة السّير في الأرض، وهي: معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها» (1).

(1) الكـون:

ففي القصص القرآني ما يستهدف الملاحظة التأمّليّة لِما خلق الله في السماوات والأرض. وتفتّح الحسّ يحمل على الإيمان بمَن يُعدّ هذا الكون آيةً على وجوده، ودليلا على قدرته، وينقل المتأمِّل البصير من عالم الشهادة إلى عالم الغيب. مِن ترتيب الكون وفقا لنظام، إلى ضرورة وجود خالق سَنّ له هذا النظام.

قال تعالى في معرض الامتنان على خليله إبراهيم عليه السلام: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» (2).

فإنّ هذا الكون الذي نشاهده يستحقّ منّا أن نتدبّره. وقد جعل الله لنا السمع والبصر والفؤاد لنسمع ونُبصر ونتأمل. وكلّما دقّ نظرنا وأرهف حسّنا ازدادت معرفتنا، وسَمت نفوسنا، وتطلّعت للخير والحق والجمال. لذلك أنكر الله على المكذّبين للرسول وبآيات الله، ودلائلُ الايمانِ ناطقةٌ، فقال: «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ» (3).

(1) التحرير والتنوير. ج: 4 / 97.
(2) الانعام: 75.
(3) الأعراف: 185.

وكم في الكون من أشياء تدهش الحسّ ، وتحيّر الفكر ، وتدعو إلى البحث ! ان النظر بالقلب المبصر ، والعين المفتوحة في هذا الملكوت طريق لإدراك الحقّ الكامن فيه . والإبداعُ يشهد به ، ويدل عليه ، وينفي الفوضى التي تعتمد المصادفات العمياء .

فالمنزع التعليمي في القرآن أن يُحيي في الإنسان شعورا عميقا متجدّدا بما بينه وبين الكون من وشائج ، ومن علاقات سامية « وإنّه لأمرٌ عظيم حقّا أن يوقظ القرآن تلك الرّوح التجريبية في عصر كان يرفض عالَم المرئيات بوصفه قليل الغناء في بحث الإنسان وراء الخالق » (1)

فنوح عليه السلام يوجّه قومه في جهاده المرير إلى حقيقة يدركونها بأدنى فكر . يوجّههم إلى آيات الله في الكون المحيط بهم ، لينشىء في قلوبهم إيمانا يقوم على المشاهدة الحسّيّة ، وما تتركه في القلب من شعور حيّ ، فيقول لهم : «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا » (2) .

---

(1) **تجديد التفكير الديني في الاسلام** : 21 .

(2) نوح : 13 ـ 20 .

وكذلك أجاب موسى فرعون لمّا سأله عن ربّه :

« قَالَ : رَبُّنَا الذي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . قَالَ : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأولَى ؟ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لايَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى . الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مِهَادًا ، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ، وَأنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأخْرَجْنَا بِهِ أزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وَارْعَوْا أنْعَامَكُمْ . إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأولِي النُّهَى . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخْرَى » (1) .

فهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخّص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبِّرة لهذا الوجود . هبةُ الوجود لكلِ موجود ، وهبة تَيْسِيرهِ للوظيفة التي خُلق لها....من الذرّةِ إلَى أضخم الأجْسام ، ومن الخليّة الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان . فهذا الترابط المحكَم بين عوالم الكائنات علويّها وسفليِّها ، وهذا التلاؤم الذي يبدو في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكوني ، وهذا الاتّساق في إيصال كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر ، هو الإطار الذي يصوّر سنن الله الكونية التي دبّر بها الكون . وهذا الاتّساق أو هذا التّوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض . وهو الحقّ

---

(1) طه : 48 – 54 .

الذي خُلقت به الحياة (1) كما قال جلّ شأنه :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاّ بِالْحَقّ » (2)

ويستطرد موسى فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون ، وآلائه على بني الانسان ، إذ جعل لهم الأرض مهْدا يتقلّبون عليها ؛ وسوّى لهم فيها مسالك يتردّدون فيها ، وأنبت فيها أصناف النّبات لأقواتهم ، ورعي أنعامهم . فمِن مادّتها خُلقوا ، وإليها يعودون ، ومنها يُبعثون

وقد عدل عن ضمير الغيبة الذي يقتضيه ظاهر السياق إلى ضمير التكلّم " فأخرجْنا " للاشارة إلى كمال قدرته سبحانه ، وأنّ كلّ شيء في الكون ينقاد لمشيئته العليا .

وإذا نظرنا إلى تاريخ الفكر البشريّ وجدنا "انكساغوارس" الفيلسوف الإغريقي أوّل من اكتشف هذا المنهج الفكريّ للاستدلال على وجود العقل العامّ أو (القوة المدبِّرة) ، وذلك بالتفكير في الكون تفكيرا طويلا ، والتأمّل في ملكوت السماوات والارض تأمُّلا دقيقا ينتهي إلى نتيجة ، كما انتهى التأمل بأنكساغوراس إلى ما يلي :

« لو نظر الإنسان إلى سير الكواكب في أفلاكها ، ورأى إلى أيّ حدّ هي تامّة الإحكام ، دقيقة التنظيم ، بحيث لا يدخل كوكب في فلَك ، ولا يغادره قبل موعده المحدّد له ،

---

(1) محمد الصادق عرجون : **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن** : 16 ـ 17

(2) الحجر : 85 .

أو بعده بدقيقة واحدة ، بل بثانية . ولو فعل لاصطدمت الكواكب ، ولتهوى العالم كله في مكان سحيق ، وإذن فهذا التدبير الذي انتهى إلى حد الكمال ، هو أقطع دليل ، وأنصع برهان على وجود العقل العام المدبر » (1)

وقد وضعت الحكمة السماوية في القرآن وقصصه هذه المرحلة في المعرفة . وهي مرحلة لا غنى عنها لطائفة من الناس اقتصرت معرفتهم على مدركات الحواس وحدها ، ولم تقو على الخروج من دائرة المرئيات ، أو لطائفة أخرى اتسع ادراكها وتصورها ، فهيأت لها هذه المرحلة مرحلة ثانية ، وهي النظر إلى الموجودات بعين الذهن ، وذلك باجتياز طور الحس والمحسوس إلى دور العقل والمعقول ، لبلوغ مرتبة أسمى ، وهي التأمل في المعنويات الخالصة من شوائب الحس وعلائق المادة ، وهو ما نجده في القرآن أيضا كمنهج من مناهج المعرفة فيه .

وهكذا رسم مبدع الأكوان في الكتاب العزيز طرقا مختلفة تلتئم مع مختلف الملكات والتصورات ، وتتماشى مع مراتب الإنسانية ودرجاتها ، وتتجاوب مع حاجاتها وضروراتها ، وتوجه إلى تجديد النظر في الكون المحيط بنا في آفاقه الواسعة ، ومخلوقاته المختلفة ، وحوادثه المتوالية ، وسننه المطردة .

(2) النفس :

واما النفس كمصدر للمعرفة ، فهي : منبع القوى الباطنية في الإنسان ، ومناط سموه وترقيه ، أو انحطاطه وترديه

---

(1) **المعرفة عند مفكري المسلمين** : 129 .

وقد كان سقراط يقصر بحثه على عالَم الإنسان ، ويرى أنّ المعرفة العميقة ، إنّما تكُون بنظر الإنسان في نفسه .

فمِن أقواله المأثورة : « اعرف نفسك بنفسك » . وقديما قيل : من عرف نفسه فقد عرف ربه . فالنّفس هي التي تجعلَ الإنسان يستعذب العذاب في سبيل المثُل العليا التي يؤمن بها . وتدفعه إلى البحث الدائم عن آفاق جديدة يفصح فيها عنها . والإنسان — على ما فيه من نقائص — أسمى من الطبيعة ، لأنه إذا استهوته القوى التي تحيط به ، فبنفْسه يقدر على تكييفها . أمّا إذا غلبته على أمره ، فإنّه يقدر أن ينشيء في أعماق نفسه عالَما أكبر ، يَجد فيه منابع من السعادة والإلهام لا حدّ لها ولا نهاية .

ومع أن حياة الانسان في هذا الوجود شاقّة ، فليس لعالَمِ نفسِه نظيرٌ في القّوة والإلهام والإبداع .

فالانسان في صميم كيانه كما صوّره القرآن قوّة مبدِعة ، وروح متصاعِدة ، تسمو قُدما من حالة وجودّية إلى حالة أخرى (1)

ومن هنا كانت دعوة القرآن للإنسان أن ينظر في نفسه كمُنطلَق إلى الإيمان بخالق النفوس الذي يعلم سرّها ونجواها .

قال تعالى : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟ » (2)

فإنّ طريق النفس للمعرفة يتمثّل في ذلك الشعور العميق المتأصِّل في نفس كلّ إنسان ، مهما كان حظّه من العلم والثقافة ،

---

(1) انظر : **تجديد التفكير الديني** ... 19 .

(2) الذاريات : 21

وهو ميله الذي لا يُغالَب ، وانعطافه الذي لا يُقاوَم نحو السمّو والجمال والخير . ولا ريب أن كلمة (تُبصرون) في الآية تتضمّن معنى الإبصار لا بالبصر ، ولكن بالعقل المجرّد الذي استقرّ في النّفس ليدبّرها ويسيّرها ، أو بالبصيرة النُّورانية التي تكشف الحقائق متى وصلت إلى مرتبة معيّنة . ذلك أنّ الظرفية المستفادة من حرف (في) قرينة مانعة من الإبصار بالعين . وتعبير الآية بصيغة الاستفهام الإنكاري « أفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟ » تأنيبٌ على التقصير في التأمُّل الذي يتأتّى لكل انسان ، لأنه من خصائصه كما قال شاعر :

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تشعُرُ وَداؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُبصِرُ
وَتَزْعَمُ أنَّكَ جِرمٌ صغيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى العالَمَ الأكبرُ

لقد منح الله الإنسان القدرة على فهم أسرار هذا الكون ، ولكن ذلك شغله عن الوصول إلى أسرار نفسه ، تلك النفس التي وضعها القرآن الكريم في كفّة واحدة مع الكون كلّه بما فيه من عوالم . واذا نجح الإنسان في اكتشاف الكون ، فإنه عجز عن اكتشاف النّفس بما فيها من أبعاد ، وبما لها من قوى دافعة ، واتّجاهات في دروب الحياة المتشعّبة .

ومن آيات روعة القرآن وجلاله أنّ الخالق يحدّثنا فيه بنفسه عن همسات الضمائر ، وخواطر القلوب ، وما في خبايا النفوس ، وهو أدرى بما أودع فيها من أسرار : « ألاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (1) ، لكن المجال هنا لا يسمح باستقصاء

(1) الملك : 14 .

هذا الجانب كمصدر من مصادر المعرفة في القرآن . فلنقتصر إذن على القصة القرآنية بعرض نماذج قصيرة منها تكشف عن مطاوي النفس .

إذ أنّنا نجد في هذا القصص ما يتقصّى أبعد الجوانب فيها بما تضمّنه من إشارات تلمس أرقّ العواطف والمشاعر ، كما في قصة زَواج موسى من بنت شعيب :

« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ . وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ . قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ : لاَ تَخَفْ . نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ . إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ . قَالَ : إِنِّيَ أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ . فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ . وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ . سَتَجِدُنِيَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ : ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ . وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (1) .

---

(1) القصص : 23 ـ 27 .

فهذه القصة القصيرة تسلّط الأضواء على بعض الجوانب النفسيّة لشخصية موسى عليه السلام ، حين انتهى به المطاف إلى ماءٍ لمدين . فلم يكد يجلس ليُريح جسمه المكدود ، حتى يرى مشهداً لا تستريح إليه نفس كنفسه النبيلة . فقد رأى الرُّعاة يزدحمون على الموردِ ليوردوا أنعامهم ، ورأى امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . وكان من المروءة والشّهامة أن يُفسح الرجال لهما ، ويعينوهما . فسقى لهما ثمّ عاد إلى الظّل يُناجي ربّه ، وهو الطّريد الغريب المحروم في موطن قد تذهل فيه النفوس .

ثمّ تعود إليه إحدى البنتين لتُبلِغه دعوة أبيها الشيخ في حياء لا يشوبه عيٌّ أو ارتباك ، مع قصد في الكلام ، وإبانة عن المراد . ولكنّها على قلّة كلماتها تشير في وضوح إلى معان كثيرة منها :

أنّ موسى فَهِم أن هذه المرأة ذهبت إلى أبيها وحدّثته عما فعله ، وطلبت منه أن يجزيه . إنّها بلا شك أثنت عليه ثناءً جعل والدها يثِق في هذا الرجل المجهول ، فيرسلها إليه وحيدةً دون أختها لتستدعيه . ولعلّ الأخت الأخرى أدركت بذكائها الفطريّ ألاّ مكان لها في هذه العاطفة ، فآثرت البقاء إلى جوار أبيها (1) ، حتى تعود أختها بالرجل الذي رأت من قوّته التي هابها الرعاة ، ففسحوا له المورد ، ومن أمانته التي جعلتها تطمئنّ إليه وهي ترافقه إلى بيت أبيها ما دفعها إلى القول :
« يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ » .

ولعله أحسّ من نفس الفتاةِ ونفس موسى ثقة متبادلة وميلا

---

(1) محمد كامل حسن : **القرآن والقصة الحديثة** : 54 .

فطريّا – وهو الرجل الذي أذكت التجربة من حسّه – فحاول أن يترجم عن رغبتها الكامنة بعَرضِ الزّواج عليه . ولا شك أنّ القوة والأمانة حين يجتمعان في رجل ، تهفو إليه طبيعة الفتاة البريئة التي لم تنحرف عن فطرة الله (1) .

ويظهر في القصة جانب آخر من نفسيّة المرأة التي تُعجَب برجل ما . والمثَل الفرنسي يقول : المرأة هي التي تختار زَوجها في الوقت الذي يُحسّ فيه الرجل أنه هو الذي يختار . فإنّ موسى لمَّا وقع من قلب تلك الفتاة زيّنت لأبيها أن يستدعيه ليشكره ويستأجره ، فيستجيب الأب ، ويأتي موسى ، ويقبل شروط الزواج بها ، فيتمّ لها تحقيق حلمها ، واختيار زوجها .

وفي قصّة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك التي قادها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بنفسه ، يتحدّث القرآن في بساطة عن بعض نظريات علم النفس الحديث ، وهو عذاب الضمير ، ومعاناة الشعور بالذّنب .

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أميّة . فقد تخلّفوا رغم الإعلان عن الغزوة والتجهيز لها ... فلمّا مضت الغزوة أحسّوا الإثم ، وبأزمة نفسية كادت تعصف بهم ، إلى أن نزل فيهم حكم الله :

« وَعَلَى الثَّلاثَةِ الذينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

---

(1) انظر شرح القصة : **في ظلال القرآن** .

الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلاّ إِلَيْهِ . ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ...... » (1)

فلو تصوّرنا ذلك الإنسان المذنب ، وقد ضاقت عليه الأرض ، ثمّ ضاقت عليه نفسه ، وكأنها تابوت يضغطه داخلَه ، لوجدنا أروع صورة رَسمَت دقة الشعور بالخزي ، والإحساس بالإثم ، كما تُصوّرها أحدث كتابات علم النفس (2) .

والآية التي تصوّر مشهد أهل الكهف الذين تعاقبت عليهم السّنون ، فتحوّلوا إلى صورة تُفزِع القلب وتُروّع النفس فتقول : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ، وَلَمُلِّئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » (3) تتّفق مع نظريات علم النفس التي تقول : إنّ الإنسان قد يفزع من خطر ، فإذا غريزة حبّ البقاء تدفعه بعيدا عن مصدر الخطر ، لأن مجرد إحساسه بالخطر يحشد فيه قوّة غير عاديّة لا يُمكن ان يحصل عليها في حالة الاطمئنان . فالآية تشير إلى الحالة التي تتملّك الانسان عندما تثور فيه غريزة حبّ البقاء ، فيلوذ بالفرار ، ويزداد إحساس القارىء بعمقها في ضوء علم النفس . وهذه الغريزة هي التي استولت على موسى عليه السلام ، فولّى مدبِرا حين رأى عصاه تتاوّى وتهتزّ صاعدة هابطة ، وهرول بعيدا عن مكان الخطر الذي يخشى منه على نفسه . « فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرا وَلَمْ يُعَقِّبْ » لولا نداء ربه له :

---

(1) التوبة : 118 .
(2) **القرآن نظرية عصرية جديدة** : 222 .
(3) الكهف : 18 .

« يَا مُوسَى أقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ »

ونجد في القصص القرآني نَوْعا آخر في تحليل النّفس ، وما يعتريها من آفات وانحرافات ، كالتعصّب والهوى والترف والركون إلى الظلم والتقليد .

وما استعمله القرآن من عوامل التأثير النفسي لمقاومة هذه الآفات النفسية والوقاية منها ، هو ما سندرسه في الباب الثاني من هذا الكتاب (قسم البحث التحليلي) .

(3) التاريخ :

إذا اتّجه قصص القرآن نحو ماضي الانسانية فإنّما ليكشف عن الحقائق من وراء الأحداث التارخيّة ، ويستخلص منها سُنن الله الحكيمة في النّعمة والنقمة ، وفي قيام الأمم وسقوطها ، وضعفها وقوّتها ، وإلى عدله تعالى في بقاء الأصلح ، وحكمته في نظام خلقه . وذلك باعتبار أنّ التاريخ مصدر من مصادر المعرفة القرآنية . وقد سبق الحديث عن سنن الله في الفصل السابق ، ولكن سننظر في هذا الموضوع من زاوية أخرى لبيان أنّ التاريخ مصدر من مصادر المعرفة في القصص القرآني خاصّة ، وذلك بما يكشف عنه بعض أحداث هذا القصص من نتائج تتجلّى فيها نهاية الصراع بين الحقّ والباطل ، بين الإيمان والكفر ، بين الخير والشر ، كما في هذا المشهد من قصة موسى وفرعون :

« وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ، قَالَ : يَا قَوْمِ ألَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ؟ وَهَذِهِ الأنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِيَ أفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟

« أمْ أنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذي هُوَ مَهِينٌ ، وَلاَ يَكَادُ يبِينُ . فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأطَاعُوهُ . إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأغْرَقْنَاهُمْ أجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ »

ففي سياق تسلية الرسول صلّى الله عليه وسلم عن مقاومة كبراء قومه له ، واعتراضهم على اختياره للرسالة ، واعتزازهم بالمظاهر المُغرية ، والأعراض الزائلة ، يُقدّم القرآن حلقة تاريخية تقصّ ما كان يلقاه موسى من فرعون وملئه ، وتُشبه ما يلاقيه الرسول من رؤوس الشّرك في قومه . قَالَ كُبراء قريش في معرض الاعتزاز بعظمة الغنى والرّئاسة :

« ...لَوْلاَ نُزِّل هَذَا الْقُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(2).

وقال قبلهم فرعون في معرض الاعتزاز بالمال والسلطان أيضا :

« فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ » ، « ألَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ؟ » .

وكلا الاعتراضين يُبين عن نفسيّة التّعالي عن دعوة الحق ، والتّباهي بالجاه والمال . فلا يملأ عينَ الكبراء ، ولا يعظُمُ في نفوسهم غير بريق الذهب ، وأبّهة السلطان .

---

(1) الزخرف : 50 ـ 56 .
(2) الزخرف : 30 .

وبعرض هذه اللّمحة التارخيّة الخاطفة في تناسق بين الحلقة المعروضة ، والحال القائمة ، يتجلّى الهدف الديني بارزًا : ألا وهو : تثبيت الرّسول والمؤمنين في الدعوة إلى الله ، وانذار المعرضين مصيرا كمصير فرعون وملئه . على أن القصص القرآني إذ يعتمد هذه المصادر التي يعتمدها القرآن عامّة ، لا يُلغي العقل ولا يعطّله عن التفكر . لأنه كثيرا ما ينتهي إلى نتائج إيجابية شاملة ، وإلى نواميس ينسّقها في منطق عامّ ، ويعلّلها تعليلا منطقيا يقتنع به العقل :

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً . وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » (1)

ومن النّواميس الثابتة التي يجب التّسليم بها في مقدّمات البراهين ، أن منهج الأفراد والأمم ، وطريقتهم في التفكير والاعتقاد والسلوك ، تخضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثّرات والاستجابات . فالأمة التي تغلق قلوبها دون دواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس وأحداث التاريخ أمّة ضالة ، تزداد ضلالا كلّما ازدادت إعراضا عن الهدى ودواعيه ، فيحلّ عليها غضب الله . ومن يحلّ عليه غضبه لا يأمن عذابه .

---

(1) الأنعام : 76 .

« وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ . فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا . وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (1) .

---

(1) العنكبوت : 38 ـ 40 .

الفصل السادس
عرض ونقد لمنازع المفسرين

الاسرائليات والقصص :

الإنسان بطبعه توّاق إلى معرفة أخبار الماضين واستقصاء قصصهم ، سيما إذا كانت كأكثر قصص القرآن تتصّل بحياة الإنسان وسنن الكون وأسرار الوجود ، وفيها ما يُفسِح المجال للفكر والعاطفة . فكان تطلّع الصحابة إلى هذا اللّون من القصص الديني الذي لم يألفوه ، وكان لمّا يجدون في نفوسهم من ميل إلى استقصاء أخباره ، والوقوف على تفاصيله ، ممّا دفعهم إلى استيضاح أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود عمّا أجمله القرآن

قال ابن خلدون : « إنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأميّة . وإذا تشوّقوا إلى معرفة شيء ممّا تتشوّق إليه النّفوس البشرية في أسباب المكوّنات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنّما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبِع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين هم بين العرب يومئذ باديةٌ مثلهم . ولا يعرفون من ذلك إلاّ ما عرفه العامّة من أهل الكتاب . ومعظمهم من حمْيَر الذين أخذوا بدين اليهودية . فلما أسلموا ،

بقوا على ما كان عندهم ممّا لا تعلّق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها . فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم . ولا تحقيق عندهم بمعرفة بما ينقلون . لكنها تُلُقِّيت بالقبول لِمّا كانوا عليه من المقامات في الدّين والمِلّة » (1) .

وفي المرحلة الأولى للدّعوة الإسلامية خشيَ الرّسول صلّى الله عليه وسلم أن يختلط على المسلمين مبادىء هذا الدّين وأصوله بغيرها ممّا يتلقّونه من اليهود من ثقافتهم الدينية . فنهى عن سؤالهم في حديث رواه جابر بن عبدالله : « أنّ عمر بن الخطاب أتى النّبيء صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : أمُتَهَوِّكون (2) فيها يا ابن الخطّاب ؟ والذي نفسي بيده . لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة . لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقّ فتكذّبوا به ، أو بباطل فتصدّقوا به . والذي نفسي بيده لو أنّ موسى صلّى الله عليه وسلم حيّا ما وسعه إلاّ أن يتّبعني (3) .

وعملا بهذا الحديث رُوِيَ أنّ ابن عباس قال يوما لجماعة من أصحابه كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلّم أحدثُ ؛ تقرأونه محضا لم يُشَب . وقد حدّثكم أنّ أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا : « هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً » .

---

(1) **المقدمة : 786 .**

(2) المتهوك : المتحير . والمعنى : أمتحيرون ، شاكون في الاسلام ؟

(3) رواه أحمد .

ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ . لا والله : ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أُنزِل إليكم » (1) .

ويبدو أنه لمّا زال خوف الالتباس والخلط باستقرار العقيدة ، الإسلامية ، واستقرار الدّين الحنيف ، أذن الرسول في السّماع عنهم ، وروايةِ ما لا يتّضح كذبه ، فقال : « بلّغوا عنّي ولو آية ، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » (2) . ومن واجبنا أن نكذّبهم فيما يُحدّثون به ، أو يخبرون عنه ، إذا كان منكرًا في ديننا ، كإخبارهم عن الله بما ينافي تنزيهه ، وعن أنبيائه بمّا لا يتّفق وعصمتهم .

أمّا ما يحتمل الصّدق والكذب ، فلا نحكم عليه بشيء ، حتى لا نقع في الحرج عملا بقوله صلّى الله عليه وسلم :

« لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم ، وقولوا : آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ..... الآية » (3) .

ومن هنا يتبيّن كيف دخلت الإسرائيليات (4) بعد عصر الصحابة وصدر التابعين في تفسير القصص ، حتى غدت على توالي القرون مرجعا لأكثر المفسّرين بالمأثور . وقد سوّغ لهم أن يزجّوا بهذه المنقولات على ما هي عليه في تفاسيرهم أنّها ليست ممّا يرجع

---

(1) رواه البخارى .

(2) رواه البخارى .

(3) رواه البخارى .

(4) الاسرائيليات : الثقافتان اليهودية والنصرانية . وإنما أطلق عليها هذا الاسم من باب التغليب ، إذ أن الجانب الاسرائيلى هو الذى اشتهر وكثر النقل عنه .

إلى الأحكام التي يجب العمل بها ، وأنّ العامّة يتلهّفون على هذا القصص الدّيني ، ويروقهم أن يجدوا فيه من التبسّط والاستقصاء ما يشبع رغبتهم ويشفي غليلهم . فقد كانوا يجلسون حول القاصّ في المسجد ، فيروي لهم من أخبار الأمم السالفة ما يعتمد الترهيب والترغيب ، وإثارة العجب والإعجاب ، أكثر ممّا يعتمد صدق الرواية .

آفات القصص :

لذلك كره الصحابة هذه الطريقة في التذكير والوعظ ، لأنها رغم تأثيرها في العامّة لا تخلو من تزييف ومبالغة ، ومن استغلال للعواطف الساذجة .

وأوّل من قصّ في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تميم الدّاري في خلافة عثمان . وكان استأذن قبل ذلك عمر أن يذكّر الناس ، فأبى عليه ، لأنّه يعرف ولعه بالقصص ، وهو الذي ذكر للنبيء صلى الله عليه وسلم قصة الجسّاسة والدجّال (1)

ويروى أنّ عليّا مرّ برجل يقصّ على النّاس . فقال له : أتعرف النّاسخ من المنسوخ ؟ قال : لا . فقال له : أتعرف المحكَم من المتشابَه ؟ قال : لا . فأخذ عليٌّ بيده وقال : إنّ هذا يقول : اعرفوني (2)

---

(1) القصتان في : **صحيح مسلم** .

(2) أبو طاهر اسماعيل النفوسي : **قناطر الخيرات** : 233

وقد عقد الطرطوشي فصلا تحدّث فيه عن بدعة القصص في المساجد (1) .

ولا تخلو بعض التفاسير القديمة ممّا لا يفيد العلم به ، ولا يضرُّ الجهل به في الدّين والدنيا . ولا جدوى في تكهّنات المفسّر التي لا يعضدها نقل موثوق به ، إذ ليس من شأنه أن يتسمّع صوت العشب وهو ينبت كما يقال .

ومن ذلك مثلا : خوض بعضهم في لون كلب أصحاب الكهف ، واسم الغلام الذي قتله العبد الصالح في قصّته مع موسى ، وأنواع الطّعام الذي نزلت به مائدة السماء استجابة لدعوة عيسى ، وأنواع الطيور التي أحياها الله لابراهيم ، وما أهدته بلقيس إلى سليمان ، وعدد الدراهم التي بيع بها يوسف ، ونحو ذلك من الجزئيات التّافهة .

على أنّ هذا ليس بالأمر الخطير . وإنّما الخطير حقا أن نجد في بعض التفاسير القديمة ــ التي اكتسبت لتقادم عهدها نوعا من القداسة عند الناس ــ أخبارا غريبة يرويها المفسّر ولا يعقّب عليها بالتجريح أو التضعيف ، في حين أنها من نسج خيال سخيف ، لأنّ همّه أن يستوعب الأخبار عمّن سلف ، ويحشد النّقول ، ويجمع الرّوايات أيّا كان مصدرها وإن كانت غريبة .

ومن ذلك مثلا ما ذكره الألوسي نقلا عن "معالم التنزيل" عند تفسيره لقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » (2) . من قصة « عوج بن عنق » العجيبة

---

(1) انظر هذا الفصل في : كتاب **الحوادث والبدع** : 99 ــ 103 .

(2) المائدة : 12 .

وزعمهم أنّه كان في عهد نوح عليه السلامْ . وبعْد الفراغ من عرضها قال : لقد شاع أمر "عوج" عند العامّة ونقلوا فيه (حكايات شنيعة) . وكما قال ابن القيّم : « ليس العجَب من جُرأة مَنْ وضع القصّة ، وكذَب على الله ، وإنّما العجب ممّن يُدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ، ولا يُبين أمره . ولا ريب أنّ هذا وأمثاله من صنع زَنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسّخرية بالرسل الكرام عليهم الصّلاة والسّلام » (1)

ومنه أيضا ما أورده الخطيب الشّربيني – وهو من المولعين برواية غريب القصص – عند تفسيره لقوله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ . وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » (2).

نراه يروي خبرا طويلا عن كعب فيه : أنه صاح طاوس عند سليمان عليه السلام . فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال : فإنّهُ يقول : لَيْتَ هؤلاء الخلق لم يُخلَقوا . وصاح ديك فقال : اذكروا الله يا غافلون ، إلى آخر ما ذكره من المعاني لصيْحات حيوانات مختلفة هو في منتهى الغرابة .

منشأ اختلاف المفسرين :

وفي قصّة المائدة التي أنزلها الله من السّماء استجابة لدعوة عيسى عليه السلام (3) ، لم يكن الاختلاف بين المفسِّرين فيما

---

(1) الآلوسى : **روح المعانى** . ج : 6 / 86 – 87 .
(2) النمل : 16 .
(3) المائدة : 114 – 117 .

نزلت بـه المائـدة من طعـام فحسب ، وإنّمـا الخـلاف بينهـم في نزول المائـدة ، أو عـدم نـزولهـا ، وفيمـا يـراد بـالمـائـدة .

فقد روي عن مجاهد قال : هو مثَلٌ ضربه الله ، ولم ينزل شيء (1) .

وعن وهب : نزلـت مائدة منـكوسة تطيـر بهـا الملائـكة ، عليها كلّ طعام إلاّ اللّحم . وقيـل كـانـوا يجدون عليها مـا شـاءوا

وقيـل : كـانت تنـزل حيث كانـوا بـكرة وعشيّاً (2) .

وروي انهـا سفـرة حمـراء نزلت بين غمـامتين.....عليهـا سمـكة مشويـة بلاشـوك تسيـل دمـا ، وعنـد رأسهـا ملح ، وعند ذنَبهـا خلّ ، وحولهـا من ألـوان البقـول مـا خلا الـكراث ، وإذا خمسـة أرغفـة : على واحـد منهـا زَيتـون ، وعلى الثانـي عسـل ، وعلى الثالث سمـن ، وعلى الرابـع جبـن ، وعلى الخامـس قدّيـد . فقـال شمعـون رأس الحوارييـن : يـا روح الله ! أمِن طعـام الدنيـا ، أمْ من طعـام الآخـرة ؟ فقـال : ليـس منهمـا ، ولـكنـه شيء إخترعه الله تعالى بالقـدرة العاليـة (3) وقـال قتـادة كان عليهـا ثمـر من الجنـة (4)

وعن بعـض الصوفية : المائدة هنا : عبـارة عن حقائـق المعارف . فإنّهـا غـذاء الروح ، كمـا أنّ الأطعمـة غـذاء البـدن . وعلى هـذا فلعلّ الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدّوا للوقوف عليهـا.......الخ (5)

---

(1) **عمدة التفسير** . عن ابن كثير : اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر . ج 4 / 262 .

(2) **تفسير النسفى** . ج : 1 / 310 .

(3) البيضاوى : **أنوار التنزيل** . ج : 2 / 176 .

(4) أبو السعود : **ارشاد العقل السليم** . ج : 2 / 74 .

(5) الزمخشرى : **الكشاف** . ج : 1 / 158

والجدير بالملاحظة هنا أن هؤلاء المفسرين الذين اختلفوا اختلافا كبيرا في قصّة المائدة، لم يدعم واحد منهم رأيه بدليل يطمئن إليه الدّارس. وبذلك سدّوا عليه منافذ الاختيار والترجيح.

والحقّ أنّنا إذا نظرنا بعين النّاقد البصير في ما اعتُمِد من مصادرَ لتفسير قصص القرآن، تمثّلت المعضلة في انعدام المراجع الموثوق بها في ظروف القصة وتفاصيل أحداثها، ثمّ في تعدّد الروايات المتباينة التي كثيرا ما تختلط فيها المعلومات التاريخية بالأساطير الشائعة، ويشتبه فيها الصحيح بالموضوع، والأصيل بالدخيل.

وهذه الطريقة التي انتشرت في التفسير بالمأثور، وفي تدوين التاريخ القديم تفسّر قول ابن حنبل: (ثلاثة لا أصل لها: التفسير والملاحم والمغازي) (1).

وإنّما يعني بالتفسير ما كان ممزوجا بالأساطير وبالقصص الخيالي.

نعم لقد عرض القرآن بعض القصص في إيجاز واجمال يتعذّر معهما أحيانا فهم المراد من إشاراته التي تكاد تكون لمن لم يعرف القصّة من قبلُ ألغازًا، لا غنى فيها للمفسّر عن ثقافة تاريخية عامّة تمكّنه من الرجوع إلى بعض مصادر التاريخ القديم، لكن في إطار القصّة القرآنية، أعني التقيّد بما ورد فيها،

---

(1) السيوطى: **الاتقان فى علوم القرآن**. ج: 2 / 178.

وتجنّب التفاصيل والاستطرادات التي لم يتعرض إليها القرآن ولو بالإشارة والتلميح

ومن ذلك مثلا قصّة أيوب عليه السلام :

« وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ . إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » (1) .

فهذه القصة تروي ما عاناه أيوب عليه السلام عند ما ابتلاه اللهُ بفقد ماله وممتلكاته وكل ثروته ، وبهلاك أولاده جميعا ، وبإلحاح الدّاء والسّقم على جسده ، حتى هزل ونفرت منه شيعته ومن حولَه إلاّ زوجته التي كانت تحنو عليه، ثمّ انقلبتْ بعد ان عيلَ صبرها وملّت الحياة إلى جانبه وفي خدمته . فقالت له يوما : حتى متى يعذّبك ربك ؟ فهلاّ دعوتَ الله أن يكشف حزنك ويزيل بلواك ؟ أين الاولاد ؟ أين الصديق ؟ أين شبابك الذاهب ؟ أين عزّك القديم ؟ فقال : أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي ، وأنسى ما قضيت فيه مدة رخائي . ولكن يخيّل إليّ أن الشيطان سوّل لك أمرا ، وإنّه قد ابتدأ يضعف إيمانك ، ويضيق بقضاء الله قلبُك ! ولئن برئتُ وعادت إليّ قوّتي لأضربنّك مائة سوط . فاغربي عنّي ، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا . فأصبح أيوب وحيدا ، وقد اشتدّت

(1) ص : 41 ـ 42 .

أسقامه ، وتضاعفت آلامه . فالتجأ إلى الله بالدّعاء فأصاخ لشكواه وأوحى الله إليه : أنِ اضرب الأرض برجلك ينبع لك منها ماء بارد فاغتسل ، واشرب منه ، يذهبْ مرضك . فما شرب حتى صحّ جسمه ، وزَال سقمه ، وكانت زَوجته قد رقّ قلبها له ، وحدبتْ عليه ، ولم تطاوعها نفسها أن تتركه وشأنه ، فرجعت إليه لتقوم بأمره فأوحى إليه الله : أنْ خذْ حزمة من القش ، واضربْها بها ضربا رقيقا رخصة لك في يمينك حتى لا تحنث ، ورحمة بهذه المخلصة المؤمنة التي شاركتك في آلامك واحتملتك في مرضك

وقد أثنى الله على أيوب الذي أصبح مثالا عاليا في الصبر. فقد احتمل هموما تنوء بها الجبال ، وما افترّ لسانه عن ذكر الله ، ولا تزعزع قلبه عن الإيمان ، بل ادّرع بصبر عجيب ، وفزع إلى الله لا متسخّطا ولا متبرّما ، بل داعيا متضرّعا (1) .

إن قصة أيوب لم ترد في القرآن إلاّ في هذا الموطن من سورة (ص) أو إشارة منها في سورة (الانبياء)

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ » (2) .

---

(1) انظر : **قصص القرآن** : لمحمد أحمد جاد المولى وزملائه : 231 ـ 239 .

(2) الأنبياء : 82 ـ 84 .

فمن لم يكن له إلمام بهذه القصّة من قبل ، عجز عن فهمها من القرآن : لأنه لا يستطيع ان يتكهّن بما تدلّ عليه إشاراته . ولا مجال في مثل هذا للاجتهاد والتأويل .

ولا يُستبعد أن يكون في القرآن من القصص ما للعرب معرفة به ، ولو إجمالا . فالرّازي يقرّر أنّ أخبار عاد وثمود وفرعون كانت معلومة عند العرب بالتواتر

ونجد في الشعر الجاهلي ذكرا لبعض هؤلاء الأقوام والأنبياء . ولكن الشعراء لا يتداولون الأخبار إلاّ إذا كانت ذائعة معلومة في بيئاتهم ، وان امتزجت في كثير منَ الأحيان بالأساطير .

يقول الجاحظ : « وتزعم الأعراب أنّ الله تعالى حين أهلك الأمّة التي كانت تسمى (وبار) كما أهلك طسما وجد يسا وعملاق وثمودا وعادا ، سكنت الجنّ في منازلهم ، وحمتها من كل مَن أرادها ، وأنّها أخصب بلاد الله وأكثرها شجرا ، وأطيبها ثمرا ، وأكثرها حبّا وعنبا ، وأكثرها نخلا وموزًا . فإن دنا اليومَ إنسان من تلك البلاد متعمّدا ، أو غالطا ، حثوا في وجهه التراب ، فإن أبى الرجوع خبلوه ، وربّما قتلوه » (1)

فمن الأخبار الواردة في أشعار العرب الجاهلية قول عمرو بن قميئة :

لا تحسَبنّ الدهرَ مُخلِدَكم أدائمًا لَكمُ ولم يَدُمِ ؟
لَوْ دام دَام لتُبَّعٍ وذَوي الأصقاعِ من عادٍ وَمَنْ إرَم (2) .

---

(1) **البيان والتبيين** . ج : 6 / 66 .
(2) **ديوان الحماسة** : 182 .

ولا سبيل إلى الشكّ في أنّ الشعراء الجاهليين قد عرَفوا سليمان وتسخيره الحيوان والجنّ والرياح ، كما كانوا على علم ببعض الأحداث التي وردَت في العهدين : القديم والحديث ، كحديث التكوين ، وأخبار الطوفان .

فقد جاء ذكر سليمان في قول الأعشى بعد وصفه لبنات الدهر :

فذاك سليمان الذي سخّرت له مع الإنس والجن الرياح المذاكيا
فلو كان شيءٌ خالد غير ربنا لكان لها من سائر الناس وآليَا

ولكنهم قد يخلطون في التاريخ ، فينقلون أخبارا خاطئة : كما في قول زهير بن أبي سلمى يحذّر من شرور الحرب وآفاتها :

فتُنْتِجْ لكم غلمانَ أشْأمَ كلّهمْ كأحمرِ عادٍ ، ثم ترضع فتفطمِ

أراد به عاقر الناقة الذي كان شؤما على أهله ، ولكن عاقر الناقة – كما لاحظ الأصمعي – هو من ثمود لا من عاد . (1)

فاختلاف المصادر التي اعتمدها المفسِّرون القدامى في تفسير القصّة القرآنية ، وقلّة المصادر الموثوق بها ، ثمّ تأثّر القصص القرآني في شرحه وتحليله بالآراء الشخصيّة ، والنزعات المذهبية ، والاتجاهاتِ الفلسفية ، والمدارس الأدبية ؛ كل ذلك نشأ عنه اختلاف المفسِّرين والدّارسين لهذا القصص . والاختلاف والتنويع هنا كلاهما من سِمات التحرّر الفكري ، لكن على ألاّ ينتهي الخلاف إلى التضارب والتضادّ ، أو إلى العدول عن المعنى الحقيقي للقصّة – بلا

---

(1) فؤاد أفرام البستاني · **الروائع** · (زهير) : 283

مبرّر سوى تأييد مذهب أو نزعة – إلى المجاز ، أو الكناية ، أوالتمثيل ، أو التخييل ، وذلك بصرف الألفاظ عن مدلولها الظاهر في تعسّف وتكلّف ينبو عنهما المنطق ، كما عُرف عن بعض غلاة الشيعة الذين يعمدون إلى التأويلات البعيدة لتأييد مذهبهم بحمل النصوص القرآنية عليها ، مدعين أنّ للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأنّ فيه علم الأولين والآخرين ، وأنْباءَ ما كان وما سيكون ، وأنّ ذلك محجوب إلاّ عن جماعة أخذت العلم وراثة عن النبوّة إلهاما من الله (1)

ومنهم من تأثّر بالذّوق الصوفي فاستعمل التفسير الإشاري الذي يفتح الله به على أهل الحقيقة من العارفين

بل ومن الدارسين للقرآن وقصصه ، من جاء تفسيره لبعض القصص متأثّرا بخواطر في السياسة والعلوم الحديثة ، كما ورد في عرض الأفغاني لقصّة سليمان وبلقيس والهدهد .....

« قَالَتْ: يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُو عَلَيَّ وَائْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَتْ : يَا أَيُّهَا المَلأُ افْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ . قَالُوا : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وأولُوا بأسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ . قَالَتْ : إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ

---

(1) عبد الكريم الخطيب : **التعريف بالاسلام** : 64 .

إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ : فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ : أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ؟ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ . بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ . قَالَ : يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ : عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ.....» (1)

يقول الأفغاني في تفسير القصة :

« نعم ... إنّ تدبير الممالك وصونها ـ من سلطان أو ملك يطغى بقوّته ـ بالحكمة وحسن الرأي والمشاورة ، ودعوة الأمة للتداول ، وأعمال بعض الملوك ومساويهم ، وما يُحدثونه من المفاسد إذا دخلوا بعساكرهم للمدن والقرى ، وإذلالهم أعزّة القوم ..... كلّ ذلك مسطور في القرآن في سورة النمل ، بأصرح عبارة ، وبآيات وجيزة . وإليك البيان :

غضب سليمان عليه السلام على الهدهد إذ تفقّده ولم يجده . فلمّا حضر قال : « جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » غير ملفّق ولا مشوب بكذب ، كما تفعل أكثر الجواسيس مع الملوك والحكّام ....

---

(1) النمل : 29 ـ 40 .

فلم يتسرّع سليمان في قبول نبإ الهدهد هذا ، بل أعطاه كتابا ليُوصله ، وأوصاه أن يترقّب عن بُعدما يعلّقون . فلمّا جاء الكتاب إلى ملِـكة سبإ ، جمعت فورا مجلس الأمة وقالت :

«يَا أَيُّهَا المَلَأُ افْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ»

وبعد أن تداول مجلس الأمة " الوزراء اليوم مثلا " واستخرجوا إحصاء من سجلاّتهم بما عندهم من المعدّات الحربية ، أعلموا الملكة أنّ بإمكانهم محاربة سليمان بما توفّر لديهم من القوة ، إذا هي وافقت على إعلان الحرب « قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ »

فقالت ما معناه : إنّ للحرب ويلات ، فلا ينبغي أن نتسرّع بإعلانها ، بل نحاول درْأها بما أمكن من التدابير والوسائل السلميّة والتودّد واللين ، إلى غير ذلك عسى أن نتخلص ، ونخلّص البلاد من رزايا دخول الملوك بعساكرهم ، وما يُحدثه ذلك : « قَالَتْ : إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ؟ »

فردّ سليمان الهديّة ، وتحفّز لإخراج الملكة وقومها أذلة بالحرب ، وأراد أن يريها مالدَيْهِ من القوى ، وما تسخّر له من رياح يمتطيها وتجري بأمره (طيارات مثلا) وسرعة نقل الاخبار والأشياء بأسرع من البرق (التلغراف اللاّسلكي مثلا)

فقد وجدنا بهذه القصّة أنّ تلك الوسيلة التي توفوت لسليمان وبها نقل عرش بلقيس من سبإ إلى القدس قبل أن يرتدّ إليه طرفه ، جاءت صريحة بالعمل ، مبهمَة عن الآلة العاملة ، إذ لم يكن بالإمكان للقرآن أن يصرّح بشكلها أو باسمها لِبُعد ذلك عن الأذهان في ذلك الحين

وكذلك لوجاءنا القرآن بنقل الأخبار بالفضاء ، وشرح لنا ما فهمناه اليوم ، لما صدّقنا ذلك لو لم نره باللاّسلكي

وهكذا العلم لا يعجز عن إحداث ما نظنّه اليوم مستحيلا وابرازه مرئيا . فالبشر في الهيكل الترابي قد تحدّد له ما يستطيع عمله به ، وانّما هو في قوّة روحه وعقله لا ندري إلى أين يصل.... ؟

ثمّ يقول : « وفي قصة الهدهد إشارة دقيقة جدا ، وهي : عندما أراد سليمان استحضار عرش بلقيس استعرض ما عنده من وسائل النقل السريعة وأربابها ، واستبرزَهم ما عندهم من ذلك (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) فرأى سليمان عليه السلام ذلك بطيئا ، فلم يرُق له ، فتقدّم عند ذلك غيرُه ، (وَقَالَ الذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) ، فعلمنا من تلك الإشارة أو الصّراحة أن وسيلة نقل الأشياء بسرعة لا يتخيّلها وهمُنا اليوم ، كانت علما مدوّنا بكتاب ، وله أرباب وذووا رسوخ فيه ، وتمكّنٍ وقدرة عليه على طريقة الأرواح ....» (1)

---

(1) الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : 267 ـ 268 .

وما ذكره الأفغاني من هذا الشرح لا يعدو أن يكون تقريبا لبعض الأمور العجيبة من الأذهان ، لأنّه ليس تفسيرا بالمعنى العلمي المعروف . وإلاّ فانّ الفرق بعيد بين صنع الخالق وصنع المخلوق . وقد أرشد الله عباده إلى القياس في غير موضوع من كتابه ، فقاس النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان ، وقاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الأرض بعد موتها بالنّبات ، وقاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم .... (1)

من أمثلة الاختلاف :

ولعلّ من القصص التي تباينت فيها اتّجاهات المفسّرين سواء في فهمها أو في تفسيرها ، وظهرت من خلال تفاسيرهم شتّى النزعات المذهبيّة والشّخصيّة ، كما تجلّت فيها تحكّمات أهل الرأي على اختلاف مشاربهم : (قصّة البقرة) التي كشفت عن طباع بني إسرائيل وأخلاقهم ، كاللّجاجة ، والمشاكسة ، والتلدّد في الاستجابة ، وكثرة السؤال ، والتمرّد ، والقسوة .

وقد أخبر القرآن في هذه القصّة عن معجزة أقامها حجّة لهم على المَعاد ، لأنهم ينكرون قيام الأموات ، ولا يؤمنون باليوم الآخر ، رغم أنّ ديانتهم في أصلها تقرِّر البعث والحساب ، ولكن أسفار العهد القديم لم تذكر شيئا من ذلك . وهذا دليل على أنها من صنع أيديهم ، وليست التوراةَ الصحيحةَ التي أنزلها الله على موسى نورا وهدى للناس .

---

(1) **اعلام الموقعين** . ج : 1 / 130 .

وتتمثّل هذه المعجزة التي أشارت إليها القصّة في إحياء ميّت قيل : إنّه كان موسرا ، فقتله بنو عمه ليرثوه ، وطرحوه على باب المدينة ، ثم جاءوا موسى يطالبون بديّته . ولمّا استحالت معرفة القاتل ، وراح كلٌّ يتّهم الآخر ، وبات النّاس مهدّدين بفتن خطيرة ، أمَر الله بني إسرائيل على لسان نبيّهم أن يذبحوا بقرة ، ويضربوا القتيل ببعضها ليحيا ، فيخبرَهم بقاتله .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . قَالُوا : أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ؟ قَالَ : أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ؟ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ ، مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا . قَالُوا : الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ . فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا : اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا . كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً .

وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ . وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟»(1)

فلو أنّنا حللّنا الفكرة الأساسية للقصّة ، والمغزى الذي تضمّنته ، والغرض الذي سيقت له ، لاستخلصنا ما يلي :

1) الفكرة الأساسية : وتُمثِّل هنا حلقة في سلسلة طويلة من أخبار بني اسرائيل . وتصوّر هذه الحلقة مدى انحراف فطرتهم ، والتواء طبعهم ، وتُبيّن كيف كانوا يتلكّأون في الاستجابة لما يدعوهم إليه الله ، بل يُسيئون الأدب معه بمثل قولهم : « ادْعُ لَنَا رَبَّكَ » ويتّهمون رسوله بالهزء والسخريّة ، ويُعقّدون الأمور ، ثمّ يفتعلون الحيْرة ، ويرتكبون جريمة القتل ، ثمّ يَرمُون بها الأبرياء .

2) الغرض الذي سيقت له القصّة : وهو هنا تعريف الرسول والمؤمنين بنفسيّة بني إسرائيل وأخلاقهم ، حتى لا يغرّهم نفاقُهم ، وبأنه لا طمع في إيمانهم ، لأنّهم يعلمون الحقّ ويُصرّون على الباطل ، ويعرفون الهدى وينحرفون عنه . وقسوةُ قلوبهم تمنعهم من التأثّر والتدبّر . فقد جعلوا من الدّين عصبيّة عمياء تقوم بينهم على الجنس . وكان محمّد صلّى الله عليه

(1) البقرة : 65 — 74 .

وسلم يحاول هو وأصحابه أن يبثّوا في قلوبهم الإيمان ، مؤمّلين هدايتهم ، باعتبار أنّهم أعرف النّاس بالكتب المنزّلة ، ورسالات الرسل ، وأنّ القرآن جاء مصدّقا لما جاء في التوراة . كما كان بعض المؤمنين ينخدعون لمراوغتهم ونفاقهم ، فيعاشرونهم ويتخذونهم بطانة . وقد نهاهم الله عن ذلك في قوله عزّ وجلّ :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً . وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ . قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ . وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا . وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ . إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا . وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضِرْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا . إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (1) . »

وفي القرآن آيات كثيرة ربطت بين أخلاق اليهود الذين احتكّ بهم النبيء والمسلمون ، وبين أخلاق آبائهم وأجدادهم ، باعتبار أنهم يتّفقون معهم في السجايا والطباع . فالقرآن عند ما يعرض أخبار أسلافهم ومنكراتهم في صيغة الخطاب لليهود

---

(1) آل عمران : 118 ـ 120 .

المعاصرين للدعوة الاسلامية ، فإنّما ليُثبت وحدة الشخصية اليهودية عَبْر التاريخ ، كما ورد في هذه القصة نفسها :

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ... »

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ.... »

تنبيها للرسول والمؤمنين على أنّ خلَفهم على شاكلة سلَفهم ، ولذلك نُزّلوا منزلتَهم .

3) المغزى : وهو ما يُستخلص من أحداث القصة للعظَة والاعتبار . وهو هنا : ذلك الانفعال الذي يستشعره القارىء بما يفاجَأ به في النهاية من ذلك الحدث العجيب الذي لم يكن يتوقّعه في بداية القصّة ، وهو إحياء القتيل بسرّ من أسرار القدرة الآلهية

فهولُ الموت عند البشر عظيم ، ولكن إعادة الرّوح إلى الجسد الذي أفسد الموت أجهزتَه ، وسلَبه كلّ أسباب الحياة أمرٌ عند الله يسير ، يدعو إلى الايمان بالبعث والجزاء . لأنّ مشاهدة هذه الآية العجيبة من شأنها أن تردّ العقول الضالّة إلى الحقّ ، والقلوبَ الحائرة إلى اليقين ، وكذلك التصديق بها بعد أن أصبحت حقيقة تاريخية

ولكن بني إسرائيل الذين رأوا تلك الآية عيانا ، سرعان ما تناسوْها ، وامّحى أثرُها من قلوبهم ، فعادت إلى الجفوة والجحود والقسوة ، لأنها كما وصفها القرآن أشدّ صلابةً من الصخر ، لطغيان هوى المادّة عليها ، وانقطاع صلتها بالله .

« وإنّما تعلقت إرادة الله بالكشف عن القتيل مع أنّ دمه ليس بأوّل دم طلّ في الأمم ، إكراما لموسى عليه السلام ، أن يضيع دمٌ في قومه ، وهو بين أظهرهم ، وبمرأى منهم ومسمع ، سيما وقد قصد القاتلون استغفاله ، ودبّروا المكيدة في إظهارهم المطالبةَ بدمه . فلو لم يُظهر الله هذا الدم في بني إسرائيل لضعف يقينهم برسولهم ، ولكان ذلك مما يزيدهم شكّا في صدقه ، فينقلبوا كافرين » (1) .

وهكذا فإنّ الباحث يستطيع ان يتوسّع أكثر من مجرّد شرح القصّة أوتحليلها ، بل يتعمّق في الوقوف على أبعادها ، دون أن يخرج عن الإطار القرآني الذي جاءت فيه . إذ المنهج السليم في تحليل القصّة القرآنية وإبراز أهدافها والجوانب المؤثّرة فيها ، إنّما يكون بالتزام النصّ ، وعدم الخروج عن منطوقه ومفهومه ، وتجنّب الخوض في المسائل الغيبية بدون نصّ أو دليل ، في تفاصيل لم ترد فيه إلاّ بالاعتماد على حديث صحيح ، أو رواية موثوق بها من الوجهة التّاريخيّة ، حتى لا يتسرّب شيء من الخرافات والأساطير إلى العقول والعقائد ، يخرج بالقصّة عن هدفها الأصلي ، وغرضها المرسوم .

فإنّ ممّا أخذوا على « طنطاوي جوهري » في تفسيره (الجواهر) كثرة الاستطراد، والتوّغل في قضايا لا تستفاد من الآيات التي تفسّرها ، وإنّما جعل فيها مداخل ينفذ منها إلى مباحث أخرى صارت لبُعدها كأنّها عناوين لمقالات هامشية .

---

(1) **التحرير والتنوير** : ج : 1 / 539 .

فهو في تفسيره لقصّة البقرة يعقد بحثا مستفيضا في علم استحضار الأرواح الذي ظهر أخيرا ، والمناسبة التي يستطرد منها إلى هذا البحث هي : إحياء الله لقتيل بني إسرائيل ، لمّا ضُرب بشيء من لحم البقرة التي أُمِروا بذبحها . فيقول :

«......وأمّا علم تحضير الأرواح فإنّه من هذه الآية استخراجه ....إنّ هذه الآية تُتلى ، والمسلمون يؤمنون بها ، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أوّلا ، ثمّ بسائر أوروبا ثانيا » .

ثمّ يقول في خاتمة بحثه :

« ولمّا كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته ، وكذلك حماره ، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ، ثمّ أحياهم ... ، وعَلِمَ اللهُ أنّنا نعجز عن ذلك ، فنجعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة . وكأنّه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك، فإنّي قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة ، وَٱسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . ولكن ليكن المُحضِر ذا قلب نقيّ خالص ، على قدم الأنبياء والمرسلين : كالعزيز وإبراهيم وموسى . فهؤلاء لعلُوّ نفوسهم أريهم بالمعاينة . وأنا أمرت نبيّكم أن يقتدي بهم ، فقلت : فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » (1) .

(1) الجواهر ، ج : 1 / 70 – 77 .

فكيف يسوغ القول بأنّ علم تحضير الأرواح يُستخرَج من هذه الآية ، وهذا العلم ذاته لم يكن مسلَّما به عند المسلمين على الأقلّ ؟ وكيف يجوز أن نُقوِّل القرآن مالم يقله ؟ ثمّ ما معنى : « ليكن المحضِر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء ؟

لا شكّ أنّ قصص القرآن إذا استقبلتْ دراسته على هذا النحو من الخلْط والادّعاء ، فقد اقتُحمت قدسيّته ، وزالت روعة الحقّ فيه ، وتزلزلت قضاياه في كلّ ما تناوله من قضايا ووقائع .

كما أنّ محاولة جعله ككتب التاريخ بإدخال كلّ ما يُروى فيه على أنّه بيان له ، صرفٌ للقلوب عن موعظته ، وإضاعة لمقصده وحكمته . فالواجب أنْ نفهم ما فيه ونُعمل أفكارنا في استخراج العبِّر منه (1) .

ويعجبني قول ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » : (هذا البعض أيّ شيء كان من أعضاء هذه البقرة ، فالمعجزة حاصلة به ، وخرق العادة به كائن ، وقد كان معيّنا في نفس الأمر . فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدّين والدّنيا لبيّنة الله تعالى لنا . ولكنه أبهمه ولم يجيء عن طريقٍ صحيح عن المعصوم بيانه ؛ فنحن نُبهمه كما أبهمه الله) (2) .

بينما نجد عكس ذلك في تفسير ابن جرير الطبري مثلا : فهو يورد كثيرا من الأخبار التي ليس لها سند صحيح ؛

(1) **المنار** . ج : 2 / 465 .
(2) **عمدة التفسير** . ج : 1 / 166 .

ومن ذلك ما رواه في هذه القصّة نفسها :

« كان رجل من بني إسرائيل من أبرّ الناس بأبيه . فمرّ به رجل معه لؤلؤ يبيعه . وكان أبوه نائما ، وتحت رأسه المفتاح فقال له الرجل : تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ؟ فقال له الفتى : كمَا أنت ، حتى يستيقظ أبي . فآخذه بثمانين ألفا . فقال له الآخر : أيقظْ أباك ، وهو لك بستين ألفا . فجعل التاجر يحطّ له حتى بلغ ثلاثين ألفا ، وزاد الآخر على أن ينتظر حتى يستيقظ أبوه ، حتّى بلغ مائة ألف . فلما أكثر عليه قال : لا والله ! لا أشتري منك بشيء أبدا . وأبَى أن يوقظ أباه ، فعوّضه الله عن ذلك اللّؤلؤ بأن جعل له تلك البقرة . فمرّتْ به بنو إسرائيل يطلبون البقرة ، فأبصروها عنده ، فسألوه أن يبيعهم إيّاها بقرة ببقرة ، فأبى . فزادوه حتى بلغوا عشرا فأبى . فقالوا : والله لا نتركك حتى نأخذها منك . فانطلقوا به إلى موسى فقالوا : يا نبيّ الله إنّا وجدنا البقرة عند هذا ، فأبى أن يعطينا إيّاها . وقد أعطيناه ثمنها . فقال له موسى : أعطهم بقرتك . فقال : يا رسول الله أنا أحقّ بمالي فقال : صدقت . وقال للقوم : أرْضُوا صاحبكم . فأعطوه وزْنها عشر مرات ، فباعهم إيّاها ، وأخذ ثمنها . فقال : اذبحوها فذبحوها . فقال : اضربوه ببعضها . فضربوه بالبعض الذي بين الكتفين فعاش ، فسألوه : مَن قتلك ؟ الخ ...... » (1)

ثمّ يضيف ابن جرير تعليقات على هذه القصّة : فيروي أنّ النبيء صلى الله عليه وسلّم قال في حديث مرفوع : « انظروا إلى البِرّ ما بلغ بأهله » .

(1) **جامع البيان** . ج : 1 / 290 .

ومثل هذا الشرح هو إلى هامش القصّة أقرب منه إلى صميمها . فهو قِصّة في قِصّة إن صحّ التعبير . لأنّ القرآن لم يذكر شيئا من ذلك ، ولو بإشارة عابرة ، ولم يجعل من الأغراض الدّينيّة لها (برّ الوالدين) رغم ما في هذا الموضوع من معنى خلُقي تربوي ، وذلك مما يرجّح وضع القصّة من أساسها .

وهكذا فإنّ كلّ التفاصيل والشّروح التي لم تعتمد على النّقل الصحيح للمرويّات من الأخبار ، ولم تستند على ما تتضمّنه القصة القرآنية من الإشارات ، خروجٌ بها عن هدفها .

ونجد صنفا آخر من المفسِّرين يحمّلون قصص القرآن مالا يحتمل ، بدافع التعصّب الشديد لأصول مذهبهم ، مثل بعض غلاة الشيعة الذين يكادون يجعلون من القرآن كتابا حزبيّا شيعيّا .

فهذا سلطان محمد الخراساني ، أحد متطرّفي الشيعة الإمامية الاثنى عشرية (1) يقول في شرحه لقصّة البقرة :

« إن موسى جمع أماثل القبيلة التي وُجِد القتيلُ فيها ، وألزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله القويّ الشديد إله بني إسرائيل بفضل محمّد وآله الطيبين على البرايا أجمعين : ما قتلناه ولا علمنا له قاتلا .... »

ثمّ يذكر أنهم طلبوا البقرة المذكورة بأوصافها في القرآن ، فلم يجدوها إلاّ عند شابّ من بني اسرائيل ، أراه الله في منامه محمّدا وعليا وطيّبي ذريّتهما ، فقالا : إنّك كنت لنا محبّا مفضّلا ، ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك في الدنيا ، فإذا راموا

---

(1) انظر : **التفسير والمفسرون** : محمد حسين الذهبي . ج : 2 / 199

شـراء بقرتـك فـلا تبعهـا إلاّ بـأمر أُمّك ، فـإنّ الله بلقّنهـا ما يُغنيـك وعَقِبَـك ....الخ ».

ويقول في إحياء القتيل : « كَمَا يُروى أنهم توسّلوا إلى الله تعالى بالنبيء محمّـد وآلـه عند ضربهم القتيـل ببعـض البقـرة ، لأجـل أن يُحييـه لهم . فـاستجـاب ، وإنّ القتيـل بعـد حياتـه توسّل إلى الله بمحمّد وآلـه أن يـبقيـه في الدنيـا ممتّعـا بابنة عمّه ، ويـجـزي عنـه أعـداءه ، ويرزقه رزقـا كثـيرا طيبـا . فوهب له سبعين سنة زيـادة على السنين التي عاشهـا قبل ذلك ، وعاش في الدّنيا صحيحـةً حـواسُّه ، قويّة شهواتُـه ، ممتَّعـا بحـلال الدنيـا ، وعـاش معهـا لم يفـارقها ولم تفارقـه إلـى أن ماتـا جميعـا معا ، وصارا إلى الجنّة ، وكانـا فيهـا زوجيـن ناعمين » (1) .

ولا شكّ أنّ إقحـام مثـل هـذه الخرافـات والأساطيـر في قصص القـرآن الذي لا يأتيـه الباطـل من بين يديـه ولا من خلفـه ، ممـا يسيء إلى جمـال القـرآن وجلالـه ، ويجرّئ الطاعنيـن عليـه .

وأخطـر من هـذا تفسير الباطنيـة من الشيعـة الذيـن يزعـم بعضهم : أنّ قـول الله : « إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُـمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَـرَةً » لا يمـكن أن يـراد منـه إلاّ عائشـة زوج النبيء صلّـى الله عليـه وسلـم وخصيمة عليّ (2) .

---

(1) **بيان السعادة في مقامات العبادة** . ج : 1 / 57 – 58 .

(2) انظر : **تأويل مختلف الحديث** : لابن قتيبة : 86 .

وهؤلاء أوّلوا جميع الخوارق والمعجزات التي أشار إليها قصص القرآن ، كما حكى ذلك عنهم الغزالي . فقالوا :

« الطوفان معناه : طوفان العلم أغرق به المتمسكون بالسنّة .

ونار إبراهيم : عبارة عن غضب نمرود ، لا النار الحقيقية

وعصا موسى : حجّته التي تلقّفت ما كانوا يأفكون من الشُّبَه ، لا الخشب .

والجنّ الذين ملَكهم سليمان ، باطنيّة ذلك الزمان ، والشّياطين هم الظاهرية .

وعيسى له أب من حيث الظاهر ، وإنّما أراد بالأب الإمام ، إذْ لم يكن له إمام ، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة . وزعموا أنّ أباه يوسف النجار .

وإبليس وآدم : عبارة عن أبي بكر وعلي ، إذ أمِر أبو بكر بالسجود لعليّ ، والطاعة له ، فأبى واستكبر .

ويأجوج ومأجوج : هُمْ أهل الظاهر

هذا من هذيانهم في التأويلات ، حكيناها ليُضحَك منها ونعوذ بالله من صرعة الغافل وكبوة الجاهل » (1)

وبعض المفسّرين من الصوفيّة يشرح القصة القرآنية بالطريقة العاديّة المألوفة على حسب ما يدلّ عليه ظاهر النصّ ، ثمّ يؤوّلها تأويلا باطنيا ، فيحملها على غير ظاهرها ، ويستخرج منها إشارات خفيّة ، يقال : إنّها تعنّ للمتصوّفين من أرباب السلوك . وهو ما

---

(1) انظر : **فضائح الباطنية** : 58 .

يسمّى بالتفسير (الفيضي) أو (الإشاري) . وليس الدليل بنافع في هذه الطريق ردّا وقبولا ، إذ هي من قبيل الوجدانيّات والمعاني الذّوقية (1)

ومن ذلك ما ذكره الآلوسي في قصة البقرة :

«ومن باب الإشارة : إنّ البقرة هي النّفس الحيوانية حين زال عنها شرَه الصِّبا ، ولم يلحقها ضعف الكِبَر ، وكانت معجبة رائقة المنظر ، لا تثير أرض الاستعداد بالاعمال الصالحة ، ولا تسقي حرث المعارف والحِكم التي فيها بمياه التوجّه إلى حضرة القدس ، والسَّير إلى رياض الأنس . وقد سلمتْ لتَرعى أزهار الشهوات ، ولم تتقيد بقيود الآداب والطاعات ، فلم يرسخ فيها مذهب واعتقاد ، ولم يظهر عليها ما أودع فيها من أنوار الاستعداد .

وذبحها قمع هواها ، ومنعها من أفعالها الخاصة بها بشفْرة سكّين الرياضة . فمنْ أراد أن يحيا قلبه حياة طيبة ، ويتحلّى بالمعارف الالهية ، والعلوم الحقيقية ، ستكشف له حال المُلك والملكوت ، وتظهر له أسرار اللاّهوت والجبروت ، ويرتفع ما بين عقله ووهمه من التدارؤ والنزاع الحاصل بسبب الإلف للمحسوسات . فليذبحها ، وليوصل أثره إلى قلبه الميت . فهنالك يخرج المكتوم ، وتفيض بحار العلوم . وهذا الذبح هو الجهاد الاكبر ، وعقباه الحياة الحقيقية ، والسّعادة الأبديّة .

ومن لم يمُت في حبّه لم يعِشْ به ِ ودون اجتناءِ النَّحل ِ ما جنَتِ النّحلُ (2)

---

(1) ابن خلدون : **المقدمة** : 868 .

(2) الآلوسى : **روح المعانى** . ج : 1 / 215

وعلى الرغم ممّا في هذه الطريقة الصوفيّة من غرابة في تفسير القصص القرآني ، لخروج ألفاظها عن مدلولاتها اللغوية ، فإنّ بعض العلماء القدماء والمحدّثين لم ينكروها ما دام الصوفيّ لا يرى أنّ إشاراته هي كل ما يراد من القصّة ، وإنّما يرى أنّ هناك معنى آخر تحتمله . ويُراد منها أوّلا وقبل كل شيء ، ذلك المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره .

يقول التفتزاني في تعليقه على قول النسفي في (العقائد) : (والنصوصُ على ظواهرها . فالعدول عنها إلى معانٍ يدّعيها أهل الباطن إلحاد) .

(وأمّا ما يذهب إليه بعض المحقّقين من أنّ النصوص محمولة على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها اشارات خفيّة إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المُرادة ، فهو من كمال الإيمان ، ومحض العرفان) (1) .

ويقول ابن الصلاح في فتاواه : « الظنّ بمن يوثق به من الصوفيّة أنّه إذا قال شيئا من أمثال ذلك لم يذكره تفسيرا ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم ، فإنّه لو كان كذلك لكانوا سلكوا مسلك الباطنية ، وإنّما ذُكِر ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن . فإنّ النّظير يذكّر بالنظير » (2)

ونقل السيوطي عن ابن عطاء الله أنّه قال في كتابه (لطائف المنن) : « لا يصُدّنّك عن تلقّي هذه المعاني من الصوفيّة أن يقول

(1) **العقائد النسفية** : 143 .

(2) **فتاوى ابن الصلاح** : 29 .

لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله......فليس هذا بإحالة ، وإنّما يكون إحالةً لو قالوا : لا معنى للآيَة إلاّ هذا وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرّون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتُها ، ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم » (1)

ويحلّل « محمّد إقبال » الرّياضة الصوفيّة تحليلا نفسيّا ، فيؤكد حسبما استخلصه من أدلّة الخبراء الدينيين في جميع العصور والأمصار أنَّه توجد إلى جانب شعورنا العادي (بالفعل) أنواع من الشعور (بالقوة) . فإذا كانت هذه الأنواع من الشعور تفتح المجال لإمكان وجود تجربة تفيد العلم ، فالدّين يمكن أن يكُون تجربة أسمى وأرفع (2)

ومن العلماء السُّنيين المتمسّكين بالمبادىء الأصلية ، المدركين ما في تلك الخروق من خطر اشتباهها بتأويل الباطنية ، مَن يعارض مثل إشارات الآلوسي ، وإن لم يجعلها مستفادة من ظاهر الآيات كما قال الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في الآلوسي نفسه : « قد فتح خرقا جديدا يقتضي أن هنالك طريقا لاستفادة المُراد غير الألفاظ ، وهو خروج عن قواعد أهل السنّة في أنّ الإلهام ليس من أسباب المعرفة . وبذلك صحّ له أن يسمّي الفقهاء والعلماء في كثير من المقامات بأهل الحجاب ، ممّا أثار على تفسيره الطّامّة الكبرى من العلماء » (3)

---

(1) **الاتقان فى علوم القرآن** . ج : 2 / 185 .

(2) **تجديد التفكير الدينى فى الاسلام** : 213 .

(3) **التفسير ورجاله** : 156 .



الباب الثانى

قسم البحث التحليلى



الفصل الأول
تحليل القصة القرآنية

القصّة الفنية ككلّ أثر فنّي يُترجم عن مشاعر وانفعالات امتزج صاحبها بظروفها ، ومارسها ، وعانى تجربة نقلها إلى مشاعر أخرى ، ليست في غنًى عن علم النفس الذي يرتاد مثل هذه المجالات بحثا وتحليلا . فيهتدي على ضوء ما يستخلصه من ذلك الأثر الفنّي إلى خفايا نفسيّة صانعه ، فيحلّلها ، ويدرسها . وهي طريقة مألوفة لدى نقّاد الأدب ، إذ يتوصّلون إلى درس نفسيّة الشّاعر ، وتوضيح معالمها من خلال شعره ، ونفسيّة القاصّ من إنتاجه القصصي ، باعتبار أنّ هذا الانتاج الأدبيّ تعبير مُوحٍ عن قيم حيّة ينفعل بها صاحب الانتاج ، وإن اختلفت هذه القيم من نفس إلى نفس ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن عصر إلى عصر....

قالت أديبة أنقليزية : أنا لا أقرأ كتابا من أجل القصة ، بل أطالعها كدراسة نفسيّة للمؤلِّف . فالقصص عندها لا تعني النّاس الذين هم في الكتب ، بل المعرفة الدقيقة لكلّ شيء عن المؤلِّف (1)

ولكن القصّة القرآنية – وإن كانت أثرا فنيّا – لا تخضع إلى هذه الطريقة من الوجهة النفسيّة إلاّ من أحد جانبيها ، وهو

---

(1) ليون ايدل (Léon Edel) القصة السيكولوجية : (ت) محمود السمرة : 231 .

تحليلها لمعرفة عوامل التأثير فيها ، ومدى استجابة القلوب لِمَا تدعو إليه . لأنّ مصدرها هو خالق النفوس الذي يعلم السّرّ وأخفى : « أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العَالَمِينَ » (1)

أمّا الجانب الثاني المتعلّق بذات مَنشئها سبحانه — وهو المنزّه عن كلّ ما يتأثّر به البشر من عواطف — فإنّما أُمرنا أن نَتفكّر في خلْقِه لا في ذاته . وهل يستطيع الفكر المحدود أن يتصوّر المطلَق ، أو يُحيط علما بمَن كلَّ يوم هو في شأن ؟

ولعلّ هذا أبرز العناصر التي يختلف فيها القصص الإلهي فى القرآن عن قصص البشر ، رغم أنه منظور إليه من خلال الإنسان ، ومقدِّر ما فيه من قوة وضعف ، وسموّ وإسفاف .

فهو يبدي لنا الأشياء ، ويعرض علينا الحقائق في صوَر تستسيغها عقولنا وأذواقنا ، وتهفو إليها عواطفنا . فيصف النّفوس كما هي ، وكما يجب أن تكون ، ليجعل من الواقع نقطة انطلاق نحو مِثاليّة لا يقدر على الاقتراب منها غيرُ المؤمن بالقيَم الدّينيّة ، الجادّ في بلوغ مراتبها

ثمّ إنه ليس بالأمر الهيّن تحليل أثر فنّي عميق الأثر ، كقصص القرآن دون أن ينال التكلّف — وما تقتضيه طبيعة التعليل — من جمال هذا الأثر الذي كثيرا ما يتسامى عن التعليل والضبط والتقويم . فإنّ مقوّمات الإبداع تُفلت من قبضة الذّهن . وفي طبيعته أنّه لا يثبت للمعرفة العلميّة

(1) العنكبوت : 10 .

ولعلّ أقرب المقاييس الفنيّة إلى المنهج العلمي ، ما قام على خبرة التذوّق ، إلى جانب الفَرْض والاستدلال .

لذلك فإنّ الإبداع في قصص القرآن إنّما يُقاس بجودة أسلوبه ، وقوّة تأثيره في البيئة التي نزل فيها ، وفي نفوس أصحاب الذّوق البيانيّ ممّن حذق العربية ، وسبر أغوارها ، ووقف على أسرارها

والقرآن لم يعرض قصصه هذا العرض الفنّي المثير ليشغل العقول بأحداثها كقضايا تاريخيّة تعيش لحساب العلم والمعرفة ، ولكن للتأثير بعِبَرها ، والهداية بتوجيهاتها ، وقد تضافر على تحقيق هذه الغاية كلٌّ من المضمون والشكل والجرَس .

أمّا خبرة التذوّق ، فقد دلّت التّجربة على أنّ المرء لا يستطيع أن يتذوّق العمل الفنيّ العظيم إلاّ إذا كان من أولئك الذين لا يقعدون عن بذل الجهد في سبيل الثقافة الشاملة العميقة : الثقافة الإنسانية بوجه عام ، والفنّية بوجه خاص .

فالثقافة الإنسانية الشاملة يظهر أثرها مثلاً في أننا لا نستطيع أن نتذوّق الأدب الإغريقي إلاّ إذا كنّا على علم بالحياة في المجتمع الإغريقي . ولن نستطيع أن نتذوّق الشّعر الجاهلي إلاّ إذا كنّا على علم بالحياة في المجتمع العربيّ الجاهليّ ......

فالعلم بشؤون الحياة الاجتماعية التي أحاطت بظهور عمل فنيّ مّا شرطٌ لابدّ منه لاكتمال تذوّقنا له . وكلّما بعدت الشقّة بيننا وبين موطن ظهور هذا العمل (في الزمان أو المكان أو الحضارة) ازداد شعورنا بهذه الحقيقة .

والثّقافة الفنيّة تمدّ المرء بما يمكن أن يسمّى (إطارا) يساعد على تنظيم التلقّي للعمل الفني . وكلّما ازدادت ثروتنا الفنيّة ازددنا قدرة على تذوّق الأعمال الفنّية بكل ما لكلمة التذوّق من معنى دقيق (1)

جوانب التحليل العامة :

فكان لابدّ إذنْ في تحليل القصّة القرآنية من ثقافة إنسانية دينيّة ، ومن ثروة فنيّة ، ومن نظرة عميقة تشمل ثلاثة جوانب على الخصوص ، وهي :

1) شخصية صاحب الدعوة صلّى الله عليه وسلم في هذا القصص ، وماله من دور إيجابي في تثبيت فؤاده ، وذلك لِمَا يعلم الله من أنّ الدعوة إلى الإصلاح محفوفة بالمخاطر ، محوطة بالأشواك . ومن شأن هذه المخاطر أن تكون ذريعة لتثبيط همّة الداعي ، وتسرّبِ اليأس إلى نفسه . فكان من الخير أن يُحال بين اليأس وبين قلب الرسول ، وأن يُريه ربّه أن هذه العقبات التي تعترض الداعي ، وتلك الشدائد التي يلاقيها المُصلِح ، لا مفرّ منها ، وأنّها سنّة الله في من سبقه من الرّسل : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا . وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ المُرْسَلِينَ » (2)

---

(1) مصطفى سويف : **الاسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر** : 44 – 45

(2) الانعام : 34 .

وكيف ينجو رسول من هذه الشدائد ، وهو يَحول بين النفوس وشهواتها ، ويَرسم لها طريقا يباعِد بينها وبين ما ألِفتْ ؟ وكثيرا ما تستحكم الشهوات ، ويتمكّن الفساد ، فيحتاج الرّسول إلى شيء كثير من التسلية ، وإلى نماذج كثيرة من سِيَر المصلحين في الأرض .

فإذا عرَف صلى الله عليه وسلم ممّا لاقاه الرّسل في سبيل الدّعوة إلى الله ، وقف على أخلاق البشر في بداوتهم وحضارتهم وطباعهم وعاداتهم . وبذلك يستطيع أن يسير في دعوته على هدى ، ويُعِدّلها من القوى النفسيّة والمادّية ما ينبغي أن يُعِدّ .

فلا عجب إذن أن تكون سِيرة الرّسل الماضين جزءا من دعوة خاتم الأنبياء ، وأن تكون دعوتهم لأقوامهم مُثلا صالحة لدعوة قومه.... ولا عجب أن تكون أنْباء الرّسل ممّا يقوّي عزمه على النّضال .... (1) ، بل إنّا لنجد من هذا القصص ما يقدّمه القرآن على أنه حُجّة له صلى الله عليه وسلّم ليثبِت بها صدق نبوّته ، أو يستخدمها في جداله مع المشركين وأهل الكتاب (2) .

والذي يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار هنا ، هذا التشابه الملحوظ بين موقف بعض الأقوام من أنبيائهم ، وموقف قريش من النبيء !

فإنّ فرعون لمّا قال لقومه : « ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى

(1) دعوة الرسل الى الله تعالى : المقدمة .

(2) سنبحث هذا الجانب بأكثر تفصيل وعمق فى الموضوع الآتى تحت عنوان : (القصص والرسول) .

وَلْيَدْعُ رَبَّهُ . إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ »

قال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ : «رَبِّيَ اللهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » (1).

وإذا جاز القول بأنّ أحداث التّاريخ قد تتجدّد ، فقد رُوي عن عروة بن الزبير ، قال : قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشدّ ما صنع المشركون برسول الله صلّى الله عليه وسلم . قال : بينما رسول الله يصلّي بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقا شديدا . فأقبل أبو بكر ، فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن رسول الله ، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » (2) .

وما أشدّ الشّبَه بين موقف بعض الكبراء من نوح عليه السلام ، وموقف بعض أشراف العرب من محمّد صلى الله عليه وسلم ! فقد كان كلٌّ من أولئك وهؤلاء ، يستنكف أن يجتمع بالرّسول وحوله مَن سبق إلى الإيمان به من الفقراء . لذلك لم يستجيبوا للدّعوة ، وطلبوا إلى الرّسول أن يطردهم ، حتّى لا يجمعهم عنده مجلس واحد

---

(1) غافر : 28

(2) رواه البخارى .

فجاء على لسان نوح رداً على قومه :

« وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الذِينَ آمَنُوا . إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ » (1) .

وجاء في توجيه الرسول رداً على عُيَيْنة بن حصن الفزاري الذي قال له : أطرد هؤلاء عنك حتى يجيء إليك أشراف قومك ويسمعوا كلامك :

« وَلاَ تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » (2) .

ومن هنا يتّضح مقصد القرآن من اختياره في قصصه لأحداث بعينها من تاريخ بعض الرسل « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » (3) .

ففي سورة يونس مثلاً ، عُرضت قصّة نوح مع قومه ، وهي شبيهة بحالة محمّد مع قومه . وكانت الفترة التي نزلت فيها السورة شديدةً عليه ، لموت المدافع عنه عمّه أبي طالب ، وفَقْدِ النصير له والمواسي في البيت زوجته خديجة ، وتألّب المشركين عليه ، وإمعانهم في إيذائه (4) فتنزلت عليه هذه الآيات :

(1) هود : 29 ـ 30 .

(2) الأنعام : 52 .

(3) هود : 17 .

(4) محمود شلتوت : **الى القرآن الكريم** : 72 .

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ»... (1) تسليةً له وارشادا إلى التمسك بموقف أخيه نوح ، وإن طال الأمد ، واشتدت شكيمة الأعداء . وكأنّ لسان الحال يخاطبه : ثق بأنّ عاقبتك هي عاقبته ، وعاقبة المكذّبين لك هي عاقبة المكذّبين له ، أولئك الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله : « فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ ، وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنْذَرِينَ » (2)

2) البيئة التي نزل فيها القصص :

القرآن مرآة صادقة للحياة الجاهلية ، فهو يصوّر الظواهر الدينيّة والعقلية والاجتماعية أبلغ تصوير .

وقد اقتضت حكمة الله أن يُبعث كلّ نبي في قومه ، وفي البيئة التي نشأ فيها ، حتى يَعرف ما لا يعرفه الغريب عنها ، فيكون تأثيره فيها قويّا . وقد جرَت هذه السنّة على خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وسلم ، رغم أنّه بُعث إلى الخلق كافّة ، إذ من الحكمة أن تمرّ دعوته إلى الإسلام بمرحلة يَعتمد فيها أوّلاً على عشريته وقومه ، حتى ينتشر أتباعها ، ويتكاثر أنصارها . فكان لا بدّ من تجاوب بين وسائل الدعوة وبين عناصر من البيئة

(1) يونس : 70 .

(2) يونس : 73 .

التي انبثقت فيها الدّعوة واحتضنتها ، وإلاّ انقطع ما بينها من سبب يصلها بها ، ويتفاعل معها . ولعلّ من أبلغ هذه الوسائل تأثيرا قصص القرآن . لأنّ العرب لم يعرفوا القصّة في معناها الفنّي ، ولكنهم يعرفونها حكايات تُسرد ، ووقائع تُروى ، وأخبارا تُعرض ، منها ما يتعلق بالتاريخ البعيد ، كخذيمة والزبّاء ، أو بقبائل العرب البائدة كعاد ، وطسم ، وجديس . ولكن جلّ قصصهم الذي كانوا يتسامرون به في أسواقهم وأنديتهم ، إنّما يدور حول (أيّام العرب) ، وهي معارك نشبت بين قبائل العرب في الجاهلية لأسباب اقتصادية كالتّسابق على موارد المياه ومنابت العشب ، أو لأسباب نفسيّة صادرة عن رغبة في الدّفاع عن الكرامة والشرف والعصبيّة، أو سياسيّة كحب السيطرة والاستئثار بالرئاسة . ومن هذه الحروب : حرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب الفجار .

وكثير من القصص الجاهلي لم يصل إلينا ، وقد طمست معالمه أميّةُ العرب وعدم تسجيلهم لذلك التراث . فلم يبق منها إلاّ ما يرمز إليها ، وهو : الأمثال ، التي هي في الحقيقة عناوين أو رموز لقصص شاعت في محيط العرب الأوائل . وربّما نشأ المثل من الأقصوصة ، وهي حكاية صغيرة ذات مغزى . وتحمل الأمثال في القرآن الكريم بعض الصّور التمثيلية ، كما هي تشبه الأسلوب القصصي . ومن ثمّ نستطيع أن نفسّر وجه الشبه بين أمثال القرآن وأمثال العرب.

ثمّ إنّ ما نجده في تاريخ الأدب العربي من خرافات كانت العرب تقصّها في جاهليتها ، يدلّ على أنهم كانوا لا يحسنون تعليل الأحداث ، ولا ربط الأسباب بمسبباتها . لذلك كانوا يلجأون في تعرُّف الحوادث الماضية والمستقبلة إلى الكهانة والعرافة

والعيافة وزجر الطير . وكان من الطبيعي ألاّ يتعمّقوا في معرفة حقائق الأشياء ، لأنهم أعرق الناس في البداوة ، وأبعدهم عن العلوم ذات الملَكات التي تحتاج إلى تعليم .

ومن ذلك مثلا : زَعمهم أنّ سبب خراب سدّ مأرب جرذانٌ حمر ، كانت تحفر السّد بأنيابها ، فتقتلع الحجَر الذي لا يستقلّ بحمْلِه مائة رجل ، ثمّ تدفعهُ بأظافرها ، حتى تسدّ الوادي من الناحية التي يجتمع فيها الماء . وقد عجزوا أن يفهموا أن السبب هو إهمال تعهّد السدّ ، حتى لم يعد يقوى على تحمّل السيل .

ومن ذلك أيضا قولهم : إنّ الذي بَنَى "الخورنق" هو النعمان ابن امرىء القيس. بناه له رجل من الرّوم يُدْعى "سنِمّار" فلمّا أتمّه قال له : أعلمُ موضع آجرة لو زّالت لسقط القصر . فقال النعمان : أيعرفها سواك ؟ قال لا : فأمر به ، فألقِيِ من أعلى القصر فمات ، فضُرِب به المثَل (1) .

وقد صدّقوا بهذه الخرافة مع استحالة تركيز القصر كله على آجرة واحدة . ومثلها أنّ السّعلاة ــ وهى في مخيلتهم مخلوق غريب الشكل بين الانسان والجنّ ــ كانت تسكن فيافي جزيرتهم . وقد زعموا أن عمرو بن يربوع تزوّج سعلاة ، فولدت له أولادا (2)

قال المسعودي : وللعرب في الغيلان والتغوّل أخبار طريفة ، لأنهم يزعمون أن الغول يتكوّن لهم عند الخلَوات ، وأنّها

(1) انظر : **المعجم** فى مادة مأرب والخورنق ، **وأمثال الميدانى** .
(2) انظر : **فجر الاسلام** : 39 ــ 40 .

تظهر لخواصّهم في أنواع من الصور فيخاطبونها... وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم (1) .

وهكذا كان العربيّ قبل الإسلام يتصوّر الأشياء كما يتوهّم عقله الساذج ، ولكنه لا يخترع الأساطير حولها ، مهما كانت عنده هذه الأشياء غامضة مجهولة . وإذا استثنينا بعض هذه الخرافات التي تتّصل بالجنّ أو بالسّعلاة ، فإنّ العربيّ لا يلعب به الخيال ، أو يخدعه ، حتى يحجب عنه الرؤية الواضحة لِمَا يحيط به ، وهو الذي لم يعش في أحلام اليقظة ، ولم يشأ أن يتصوّر الحياة على غير الحقيقة التي يعيشها ، أو في غير شكلها الطبيعي المجرّد عن كل تزويق أو صباغ

فلا غرو أن يكون قصصه بعيدا عن الخيالات والرؤى ، وأن يكون قصصه البطولي واقعيا يستمدّ من واقع الحياة ، ومن دنيا الناس ، دون أن ينقلب كالقصص اليوناني إلى ملاحم تلعب فيها الآلهة أدوارا في الهزيمة والانتصار .

ولا عجب أن يجد العربيّ في قصص القرآن صدى لواقعه ، وتلاؤما مع مزاجه ، وهداية لحيرته .

وأحسب أنّ صحو العقل العربي وعدم شروده كثيرا إلى عالم التهاويل والخرافات كان أكبر ميزة رشّحته لأنْ ينزل عليه القرآن بذلك النّسق الإثباتي الجميل ، الذي أثبت حقائق

---

(1) المسعودى : **مروج الذهب** : ج : 3 / 314 .

الكون ، ووضّح معالمه ، وجعل العقل البشري يرى كل شيء فيه بوضوح ، كما وضعه علم الله وتنظيمه .

ولئن كان بعض النقّاد المحدّثين يعيبون على العقل العربي في مجال الشعر والقصّة والفنّ أنه محدود الخيال ، ضعيف الجناح ، ضيّق التصوّر للأوهام الجميلة ، والأشباح المستحيلة التي تبدو في أكثر القصص "الميتولوجي" والأساطير الشعبيّة في الأمم الأخرى ، وأنه ليس له ما للاغريق من (الالياذة والأوديسية) ، ولا ما للرومان من (الانياد) ، ولا ما للفرس من (الشهنامة) ، ولا ما للهند من (المهابهارتا ،) ونحو ذلك مما يعدّ مادّة خصبة لنسج الآدب والفنون ، فإنّنا نرى أنّ تلك الظاهرة جعلت العقل العربي أقرب إلى أن يكون عقلا علميّا صالحا لأنْ يتلقى القرآن من لدُنْ حكيم عليم ، فيواجه به عصر العلم والرشد ، ويؤهّل الناس للعيش فيه ، والوصول بمنطقه وأسلوبه إلى إدراك أسرار الله في التكوين المادّي ، وإلى تأويل ما لم يحيطوا بعلمه .

ولكن مع الاسف ما يزال أكثر المسلمين المعاصرين يصدرون في تفكيرهم عن أفكار ليست من وحي القرآن ، وليست من طبيعة إيحاء هذا البناء المادّي للكون . ولذلك لم ينصرفوا – برغم طول العهد على بدء اتّصالهم بالعلوم العصريّة – عن تلك الأوهام التي قيّدت أنظارهم ، وحبستها على مقاطع نظر خادعة

ولو وفّر المسلمون ما أضاعوه من عمرهم في الاجترار والجمود ، وما أضاعوه في تلك الجدليّات الفرضية والأوهام ، لملكوا اليوم قياد الحضارة ، كما ملكوه بالأمس ، ولكان لهم

شأن وأي شأن ! في حين أنّ القرآن الكريم يوحي بهذا الاتّجاه ويدعو إليه . وهو الذي أقام التفكير الإنساني على سنن وقوانين بُنِي عليها نظام الطبيعة بجانب قيم غيبية بُنِي عليها ما وراء الطبيعة (1)

ويتجلّى فضل القرآن على العرب خاصّة بما أسّسوه من دولة ، وأنشأوه من حضارة ، وكوّنوه من عمران ، وبما أضحى عليه تفكيرهم بعدَ الإسلام ، وقد كان قبلَه بدائيّا وسطحيّا . وما ذاك إلاّ لأنّ الله نزّل إليهم أحسن الحديث ، وقصّ عليهم أحسن القصص :

روي عن عون بن عبدالله قال : حلّ أصحاب رسول الله عليه وسلم حلّة فقالوا : يا رسول الله حدّثنا . فأنزل الله : « اللهُ نَزّلَ أحْسَنَ الحَدِيثِ » (2) ، ثمّ حلّوا حلّة أخرى ، (3) . فقالوا : يا رسول الله حدّثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص . فأنزل الله عزّ وجلّ : « آلرَ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ إنّا أنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أوْحَيْنَا إلَيْكَ هذَا القُرْآنَ وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ » (4)

فأرادوا الحديث ، فدلّهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلّهم على أحسن القصص (5) .

---

(1) انظر : **المادية الاسلامية وأبعادها** : عبد المنعم محمد خلاف : 86 ـ 88 .
(2) الزمر : 33 .
(3) أي نزلوا بعض الامكنة ، وحلوا بها .
(4) يوسف : 1 ـ 3 .
(5) ابن كثير : **البداية والنهاية** . ج : 2 / 467 .

وروى انّ عمر ابن الخطاب . قال : « إنّما تنقض عُـرى الإسلام عُروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية » . والمراد أنّ من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال النّاس قبلّه ، يجهل تأثير هدايته ، وعنايةَ القرآن في إصلاحه لأحوال البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور . ومن جهل هذا ، يظنّ أنّ الإسلام أمر عاديّ ، كما يرى بعض الذين يتربّون في النظافة والنعيم ، فإنّهم يعدّون التشديد في الأمر بالنظافة والسّواك من قبيل اللّغو ، لأنّه من ضروريات الحياة عندهم . ولو اختبروا غيرهم من طبقات النّاس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء (1)

ومن ناحية أخرى ، فإنّ القرآن معجزة محمّد الخالدة ، وقد نزل بلسان عربي مبين . فمن يشهد بإعجازه غير العرب الذين كان من رُعاتهم من لا يسجد لله ، ولكنه يسجد لبلاغة القرآن ؟ ولا يتهيّأ لمن كان لسانه غير العربية أن يعرفوا هذا الإعجازَ إلاّ بشهادة هؤلاء .

ثمّ إنّ من قصص القرآن ما فيه ذكرٌ لبعض أخبار الشعوب العربيّة القديمة التي بادت مثل عاد ، وثمود ، وسبإ ، وأصحاب الفيل ، وأصحاب الأخدود . ولا يعني اعتبار هذا الجانب أنّ القرآن في قصصه وأخيلته صورة للحياة البدائيّة في البادية وجفاوتها وجدبها ، ولِمَا يدور في أخيلة القوم ، ويجري في تفكيرهم ، ويداعب

---

(1) المنار . ج : 1 / 23 ــ 24 .

أحلامهم ، كما يزعم بعض المستشرقين (1) ، أو ادّعاء أنّها خاطبت العرب بما يتخيّلون ويتوهّمون ، لأنّ مصلحة الجمهور أن يخاطَبوا بما يفهمون . وهؤلاء هم الذين قال فيهم ابن تيمية : « أهل الوهم والتخييل » فهم يقولون : إنّ الأنبياء أخبروا عن الله . واليوم الآخر ، وعن الجنّة والنار على قدر مدارك العامّة وبما يتخيّلون ويتوهّمون من أن الأبدان تُعاد ، وأن لهم نعيما محسوسا ، وعقابا محسوسا ، لأنهم لا يتصوّرون غير ذلك ، وأنّ هذه القصص مجرّد حكايات إصلاحية أدّت دوْرها في بيئة خاصّة ، ولفترة محدودة مرّت بها في حضانة الدّين الأولى ، ثمّ ظلّت حيث هي متجمّدة في زمانها ومكانها ، على حين انطلق المسلمون يأخذون في الحياة وجودهم ، ومن الحضارات الإنسانية مكانهم ، وإن بقيت مشاعرهم تحمل لهذه القصص ذكريات مقدّسة ، أو اعتبار أنها جاءت لأعراب البادية وأبناء الصّحراء . وهي تُعتبر الآن ثوبا فضفاضا لا يمكن أن تلبسه أرقى الشعوب حضارة ومدنيّة (2)

بل يجب أن يُنظر إلى هذه القصص أيضا ، على أنّها منهج تربية ، وأسلوب تعليم وتوجيه ، وغذاء للفكر والروح . ومن هنا كان منظورا إليها من خلال الإنسان باعتبار أنّ ما تضمنته من دعوة إلى الدّين الحنيف ، كان دعوة انسانية شاملة ، لا تعرف حدود الأوطان ، ولا تقسم الناس طوائف وألوانا وعناصر « وإنما

---

(1) ومنهم قولد تزيهر فى كتابه : **العقيدة والشريعة فى الاسلام** .

(2) عبد الكريم الخطيب : **التعريف بالاسلام** : 86 ـ 88 .

تنفذ إلى قلوبهم مباشرة ، حيث يكون الإنسان الجوهر الذي تتكوّن منه الإنسانيّة » (1) .

ولا شكّ أنّ هذا عنصر يبعث على الاهتمام في تحليل قصص القرآن ، ويدعو إلى اعتبار الجانب الثالث وهو :

3) الانسان :

فإنّ القصة القرآنية بكشفها عن سنن تجري عليها الأمور ، وبتجرّدها عن الزمان والمكان ، وخلوّها من التفاصيل ، والاسترسال في الوصف ، والإسهاب في القصّ ، إنّما تعرض حقيقة إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان ، وتعالج قضايا الإنسان ، وتداوي علله المتشابهة ، بما تروي من روائع الحِكَم التي قرعت آذان الأمم منذ أقدم العصور على لسان الرُّسل ، فيما سجّل القرآن من هديهم ووصاياهم لأقوامهم في شريط واحد (2) ، وكأنّهم بُعِثوا في فترة واحدة !

وكثيرا ما يصوّر القرآن مواقف الأمم المختلفة مع رسلها ليبين ما بينها من شبَه تامّ ، وليُحذِّر من آفات الطغيان والغرور التي لم تكد تسلم منها نفوس البشر في كل عصر ، ومن ذلك قوله تعالى : يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (3) .

(1) محمد قطب : **منهج التربية الاسلامية** : 14 ـ 15 .
(2) عرضت قصص قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب فى آيات متتالية فى سورة الاعراف (60 ـ 92) .
(3) يس : 30 .

وقوله سبحانه :

« كَذَلِكَ مَا أتَى الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُول إلاّ قَالُوا : سَاحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ . أتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (1) .

بل إنّا نجد في حوار بعض القصص من المعاني السّامية ما يتجاوز نطاق القصّة ذاتها ، ويتخطّى القرون ليبقى صداه عَبْر الزمان والمكان :

كما في دعوة مؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه ، ولكنّ الحقّ الذى تبيّن له وآمن به يُنطقه ، فيجهر به أمام فرعون وملئه – لمّا رآهم يأتمرون بموسى عليه السلام ليقتلوه – في كلمة مدوّية صريحة ، جاهدا أن يُثير حساسيّتهم بالاقتناع والتخويف ، ولكن في حذر ومَهارة وحذق . فكانت كلمةً خالدة في ضمير الزّمان ، يستمدّ منها دعاة الحقّ في كل عصر حرارة الإيمان ، وبراعة المنطق ، وقوّة الحجّة

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ : أتَقْتُلُونَ رَجُلاً أنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ . وَإنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ . وَإنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ . إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأسِ اللهِ إنْ جَاءَنَا ؟ قَال

(1) الذاريات : 52 – 53 .

فِـرْعَـوْنُ : مَا أُرِيـكُمْ إِلاَّ مَـا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيـكُـمْ إِلاَّ سَبِيـلَ الـرَّشَادِ . وَقَالَ الذِي آمَنَ : يَا قَـوْمِ إِنِّيَ أَخَـافُ عَلَيْـكُـمْ مِثْـلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالـذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ . وَمَـا اللهُ يُرِيـدُ ظُلْمـًا لِلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْـكُـمْ يَـوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ . مَالَـكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ . وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ (1) .

وكأنّ هـذه الدعـوة الصّادقـة يـوم نـزل الوحي بهـا تناشـد المشركيـن في مـكّة ، ـ وقـد اشتـدّ مـكرهـم بالرّسول صلى الله عليه وسلم ـ أن يثوبـوا للرشد ، ويخضعـوا للحـقّ ، كمـا هي تناشد المُبْطِليـن في أرجاء الدنيـا في كل مـكان وفي أيّ زمـان .

وهـكذا فـإنّ « الآيـات الفنيّة الخالـدة هي التي تطـوي الدّهور طيّا ، بـدون أن تفقـد روعتهـا ، بـل تـزداد جمـالا كلّمـا اتّسعت آفـاق الإنسـان الثقافيـة ، وأصبـح أوسـع فهمـا وأنفـذ بصرا » (2) .

وكمـا أنّ للقصص القـرآني جـوانب عامّة مشتركـة ينبغـي اعتبـارها عنـد تحليلهـا ، وهي التي سبقـت الإشـارة إليهـا في هـذا هـذا الفصل ، أو التـي سيأتي بيـانهـا في الفصـل المـوالـي » : « عناصر القصة القـرآنية » فـإنّ لها جـوانب خاصـة لا تشتـرك فيهـا كلّ القصص ، ولـكن تـنفـرد بـهـا أو ببعضهـا كلّ قصّة ، ولا يتسنّى تحديـد هـذه الجوانب أو ضبطهـا ، لأنّهـا تختلف باختـلاف نـوع القصة ، وبحسَب

---

(1) غافر : 28 ـ 33 .

(2) يوسف مراد : **مبادى علم النفس العام** : 243 .

موضوعها ، وأهدافها ، وطريقة عرضها ، فهي ليست مثلا من قبيل المحور ، أو الغرض العام ، أو الحوار ، أو الشخصية ، أو نحو ذلك مما يدخل في الإطار العام للقصّة .

ولعلّ من المفيد أن نعرض نموذجا لأهمّ العناصر الذي قد يستمدّ منها التحليل مادّته وموضوعاته ، وذلك لمعرفة ما تثيره القصّة من مباحث أو قضايا أو تساؤلات ترتبط بها ارتباطا وثيقا لا هامشيّا ، وتتعلق بالناحية التاريخية أو العقلية أو النفسيّة أو الدينيّة ، بل وحتى الفنيّة . ولْيكن هذا النموذج مثلا في :

قصة صالح وثمود :

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ . هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً . فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا . فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . قَالَ المَلأُ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلذِين اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا

بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ . وَقَالُوا يَا صَالِحُ : ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ : يَا قَوْمِ ! لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ »
(الأعراف : 72 — 78)

المضمون :

تكشف هذه القصّة عن أسباب مصرع ثمود الذين استخلفهم الله من بعد عاد ، ومكّنهم في الأرض ، فشيّدوا في السهول قصورا ، ونحتوا في الجبال بيوتا ، ولكنّهم أبطرتهم النعمة ، فعتوا وعاثوا في الأرض فسادا ، استطالةً بالقوّة والتمكين . فبعث الله منهم صالحا عليه السلام ، يدعوهم إلى عبادة الله ونبذ الأوثان ، وينهاهم عن البغي والفساد ، ويذكّرهم بنعم الله عليهم ، فما آمنَ له من قومه إلاّ الضعفاء ، وهم قلّة بالنسبة للكبراء الذين أصرّوا على الباطل ، وتصدّوا لمقاومة الدّعوة ، وصرفِ المؤمنين عنها بتشكيكهم في صدق صاحبها ، فأيّده الله بمعجزة الناقة ، وجعلها آية على قدرته المبدعة ، وعلى صدق رسوله الذي حذّرهم من أن يصيبوها بأذى ، ولكنهم تمادوا في عتوّهم ، واستخفّوا بوعيد الله وتحذير نبيّه ، فعقروا النّاقة ، وتحدّوه بتعجيل العذاب الذي نزل بساحتهم بعد ثلاثة أيّام كما أنذرهم . فأهلكتهم الرجفة .

من هـول الصاعقـة ، وتركتهـم على هيئاتهـم جاثميـن ، لم ينـج منهم الا الفئـة المؤمنـة . وهـكذا طُويت صفحتهـم ، فـأصبحـوا أثـرا بعد عيـن ، وتـركهـم صالح عليـه السلام للمصيـر الذي جلبـوه على أنفسهـم بـأيديهـم ، بعـد أن أفـرغ جهده في نصحهم ، وإبـلاغهم رسالـة ربّه

المحـور العـــام :

تـدور هـذه القصّة حـول محـور عـامّ وهو : دعـوة الرسـل إلى الله ، وإعـراض اقوامهم عنها وتحدّيهـم لهـا . وتتجسّم فيهـا سـوء عـاقبة الإعـراض والتحـدي للدعـوة إلى الايمـان . فهـي تمثّـل صراعـا بيـن الحق والبـاطـل . والايمـان والـكفر .

الغـرض العــام :

وأمّا الغـرض العـام الذي سيقـت من أجلـه ، فهـو تحذيـر المكذّبين للرّسـول صلّى الله عليـه وسلم والمتحـدّيـن لـدعـوتـه أن يصيبهـم عـذاب من السمـاء – إذا هـم أصرّوا على البـاطل – كما أصاب ثمود من قبلهـم ، وأمـرُهم مشهـور عنـد العـرب في الجاهليـة والاسـلام .

فقـد تحـدّوا نبيّهـم بـآيـة النـاقة التي طلبوهـا كبرهـان على صـدقـه : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَـةَ مُبْصِـرَةً فَظَلَمُوا بِهَـا » (1)

---

(1) الاسراء : 59 .

كما تحدّى المشركون من العرب محمّدا صلى الله عليه وسلّم بآيات حسيّة طلبوها منه لتصديق دعوته :

« وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً ، أَوْيَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ » (1)

وما أظلمَ مَن يعلم الحقّ واضحا ، ثمّ هو يُعرض عنه ، ويُدخل الشبهات على الناس ليوقعهم في الضلال والحيرة ! إنه لن ينجو من عقاب الله كما قال جلّ شأنه :

« وَمَنْ لاَيُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ (2) ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ . أولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ » (3)

وهذا حكم عام لا يقتصر على فترة الدعوة المحمّدية ، بل يمتدّ على مدى الأزمان ، ويشمل كلّ فئة أو أمة عرفت الحق وأنكرته ، أو هي لم تأخذ على أيدي المعتدين المكابرين ، كما فعلت ثمود .

---

(1) الاسراء : 90 — 93 .

(2) فليس بمعجز فى الارض : اى لا يفر من عقاب الله .

(3) الاحقاف : 32 .

وموطن العبرة هنا ، أنّ الذي عقر الناقة واحد منهم ، ولكن القوم كانوا راضين عن عمله ، فنُسب إليهم العقر ، وعمّهم الله بعذابه ، ليُرينا أنّ النّاس إذا لم يأخذوا على يد الظالم كانت مسؤوليتهم جماعية . كما قال تعالى :

« واتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » (1) .

ذلك أن كلّ مجتمع لابدّ أن يقوم بين أفراده الواجب العامّ ، والإحساس بالمسؤولية المشتركة .

وفي غزوة تبوك مرّ النبيء صلّى الله عليه وسلم ببئر صالح ، فلم يفته أن ينتفع وينفع بما فيها من عبرة ، فيشير إلى بقاياها ويقول : لا تَسْأَلُوا نبيكم الآيات كما سأل الناسُ قبلكم . هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم آية ....

عناصر التحليل :

ومن أهمّ عناصر التحليل في هذه القصّة ما تثيره في النفس من شعور بالخوف من عذاب الله ونقمته . وبالأمن في حمى الإيمان بالله وقوته ، ومن استمالة وجدانية بتعديد الله للكثير من نعمه على ثمود ، وإقامة الحجة عليهم عند تذكيرهم بهذه النّعم ، وانقطاع حجّتهم بما أراهم من آية الناقة ، واستنفاد نبيّهم صالح عليه السلام كل ما في جهده لإقناعهم ودعوتهم إلى الله ، وبذلك استحقّوا العذاب لتحدّيهم وإتيانهم ما حُذّروه ، وهو عقر الناقة .

---

(1) الانفال : 25 .

ويظهر الاستهواء الفني في التصوير الحيّ لهول الفاجعة بإيجار محكم ، واشارات سريعة حصل بها استجابة القصّة المغرض الديني الذي سيقت له : وهو الاعتبار بمصارع الظالمين ، بالإضافة إلى ما تركته القصّة من صدى في النفس ، وحيرة ممّا ينتظر الإنسان من مصير غيبي مجهول في الحياة وبعدها ، إذا طغى ، وتغلّبت فيه دوافع الشرّ ونوازع الباطل .

فالإنذار العامّ لا يدخل فيه من هو على صراط مستقيم ، كما أنّ الشعور بالتهديد لا يحسّ به إلاّ من يشمله حقيقةً لانحرافه وتنكّبه . والمتأمل في القصّة يجد فيها ما يثير الفكر للبحث عن هذا الوجود وخالقه . ولاشكّ أنّ كل عنصر من هذه العناصر التي ذكرتُها على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء ، يحتاج إلى تبسّط وتعمّق ، وإلى مزيد من الشرح والبيان .

وقد يقال هنا : أليس ممّا يبعث على التشاؤم من مصير الإنسان الذي أصبح محلّ ابتلاء إلهي خطير ، أن يُمحق قوم بعذاب السماء من أجل ناقة ؟

والجواب : أن هذه الناقة لا قيمة لها في ذاتها ، لو لم تكن آية من آيات الله ، أرسل بها استجابةً لرغبة ثمود لمّا طلبوا من نبيهم أن يأتيهم بما يقوم شاهدا على صدقه . فآتاه الله معجزة الناقة ، وجعلها من أعاجيب خلْقه .

وقد جرت سنة الله — كما سبق بيان ذلك — أن ينزل العذاب على كلّ من يعلّقون إيمانهم على أن يروا آية حسّيّة ، فيستجيب الله لهم ، ثمّ هم لا يؤمنون . وكذلك فعلت ثمود ! فلم يكن عقرهم للناقة

الا تحدّيا لنبيهم ، واستخفافا بآيات الله ، واستهتارا بوعيده . والواجب ألاّ يقتصر نظرنا على العمل في ذاته ، بل أن نتجاوزه إلى ما وراءه . قال تعالى :

«وأمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى» (1)

وهذه الهداية الإلهية هي هداية الدعوة والتعليم والإرشاد .

وقد ختم الله قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء بما في ذلك قصّة صالح وثمود بقوله سبحانه :

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ » (2)

« فإنّ ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزّ ورحمة . فوضع الرحمة في محلّها ، وانتقم من أعدائه بعزّته ، ونجّى رسله وأتباعهم برحمته » (3)

والحقّ أنّ كلّ قصة من قصص القرآن لا بدّ أن تدور حول فكرة معيّنة أي : لابدّ أن تحتوي على إجابة مقنعة للسّؤال الذي نوجّهه لأنفسنا دائما عقب قراءة كل قصّة ، وهو : لماذا جرت هذه الاحداث ؟ و ما هي القضيّة التي تريد أن تعرضها هذه القصّة ؟

وكثيرا ما تكمن قيمتها الفنيّة في قدرتها على الإيحاء والتأثير .

---

(1) فصلت : 16 .

(2) الشعراء : 159 .

(3) ابن القيم : **شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل** . 200 .

القَصَصُ والرَّسُول

للقصص القرآني – بما تضمّنه من توجيهات تربوية ، ومُثُل عليا ، وحِكَم ومواعظ ، وتعليم لأصول العقيدة ، وما ينبثق عنها من قيم أخلاقية ، وأعمال سلوكية – دورهُ الفعّال ، سواء في المجتمع المعاصر لفترة نزوله ، أو المجتمع الإسلامي عامّة .

ولكنّه كان قبل كلّ شيء دروسا حيّة لها بالغ الأثر في نفس صاحب الدعوة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلم، وقوة دافعة له على المُضِيّ في ما أمر أن يصدع به في فترات عسيرة بلغت فيها الشدّة أقصاها بتحدّي قريش له ، وتجرُّؤها على دعوته ، واستعمالها ضدّه كلّ وسائل المقاومة : من الهزء والسخريّة ، ومحاولة إغرائه بالمُلك والمال ، والإمعان في إيذائه ، والتآمر على قتله ، ومقاطعة القبائل له ، وبثّ البلبلة في صفوف أتباعه ، وارتداد بعض من أسلموا ، حتى كادت تتجمّد حركة الدعوة ، مع ما سبق هذه الفترة من موت عمّه أبي طالب ، وزوجته خديجة ...

كلّ ذلك يصوّر لنا مدى ما كان يعانيه صلّى الله عليه وسلم من ألم ووحشة ، وضيق وأزَمات نفسية مختلفة عبّر عنها القرآن بمثل قوله تعالى :

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ، وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا : لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ . إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ . وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » (1)

(1) هود : 12 .

وقوله سبحانه : « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيُحزِنُكَ الذي يقولونَ ، فإنَّهُمْ لا يُكَذِّبونَكَ ، ولكنَّ الظَّالمينَ بآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ . ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا حَتَّى أتَاهُمْ نَصْرُنَا . ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ . ولَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ المُرْسَلِينَ » (1) .

فكان خير ما يسلّيه في هذه الأزمة ، ويسرّي عنه الوحشة ، ويشحذ عزيمته لمواجهة معاقل الشرك والطغيان ، ما ينزل عليه تباعا من قصص الأنبياء خاصة ، وما يُعرض فيها من أثر رحمة الله بهم ، وما أغدق عليهم من نعمة وفضل ، ومنّ به من عزّ وتمكين ، ونصر وتأييد ، حتى لا يستولي عليه الحزن ، ويستبدّ به اليأس ، بل يدفع عن نفسه الأسى بالتأسّي ، والشك باليقين ، والجزع بالاطمئنان .

إنّه لم يكن فيما لقي من أذى قومه بِدْعًا من الرّسل . فهم جميعا كُذّبوا وعُذّبوا « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ » (2)

ولا ريب أنّ شعوره بتجاوب الوحي السّماوي مع أحاسيسه ونفسيّته مما يثبت فؤاده ، وينزل عليه السكينة بما يجد من عناية ربّه به ، ومن تربيته بما قصّ عليه من سيَر الماضين :

« وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ »

---

(1) الانعام : 34 — 35 .
(2) البقرة : 214 .

« وإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وعَادٌ وَثَمُودُ وقَوْمُ إبرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وأصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ، ثُمَّ أخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » (1) .

كما هو يرشده بهذا الوحي إلى سنّة الله في الأنبياء والأمم ، وهي أنّ نصر الله يجيء دائما في نهاية الطريق ، وبعد استنفاد كلّ وسائل الإقناع ، حتّى لا يكون لأحد على الله حجة :

« حَتَّى إذَا اسْتَيْأسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا . فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ . وَلاَ يُرَدُّ بَأسُنَا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ » (2)

فلا غرو أن نجد في هذا القصص ما يعكس نفسية الرسول صلّى الله عليه وسلم ، ونفسية المجتمع الذي يحيط به .

ويظهر هذا التجاوب في أجلى صوره فيما يختار الله من قصص تُلائم بيئته ، وتُشبه ظروفه . ولولا الوقائع الخاصّة التي يعرضها في قصص الأنبياء مع أقوامهم لكانت هي بنفسها قصّة الرسول مع قومه لتشابُه المواقف ، واتفاق التعلاّت والمبرّرات ، وحتّى الاتّهامات :

« كَذَلِكَ مَا أتَى الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ قَالُوا : سَاحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ . أتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » (3)

---

(1) الحج : 39 ـ 42 .

(2) يوسف : 110 .

(3) الذاريات : 53 .

فقد قال نوح لقومه :

« وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ » (1)

كما قال محمّد لقومه :

« وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ » (2)

ويجدر التنبيه إلى تلك اللّفتات البديعة التي كثيرا ما يتوجّه بها الخالق إلى رسوله في أوّل القصّة ، أو أثناءها ، أو عقبها . إنّها لَتفْصح عن مدى عنايته به ، وتكريمه وتربيته وتعليمه بما يقصّ عليه . فمن أمثلة ذلك في مفتتح القصّة :

« وَهَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إذْ رَأى نَاراً .... (3) .

« وهَلْ أتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ إذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ » (4) .

---

(1) هود 31 .

(2) الأنعام : 51 .

(3) طه : 8 .

(4) ص : 22 .

وقد تشير اللَّفتة إلى أنّ القصة نزلت ليُجيب بها الرسول على سؤال وُجِّه إليه مثل : « ويَسْألُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ . قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » (1)

فقد رويَ عن ابن عباس أن قريشا بعث النضربن الحارث وعقبة ابن أبي معيط وغيرهما إلى أحبار اليهود بالمدينة . فقالوا لهم : سلُوهم عن محمّد ، وصِفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله . فإنّهم أهل الكتاب الأوّل ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فلمّا سألوهم ، قالوا لهم : سلوه عن ثلاث فإنْ أخبركم بها فهو نبيّ مرسَل . وإن لم يفعل فالرّجل متقوّل . سلُوه عن فِتية ذهبوا في الدّهر الأول ؛ ما كان من أمرهم ؟ فإنّه كان لهم أمر عجيب . وسلوه عن طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الرّوح ما هو ؟ (2)

فنزلت هذه القصّة وقصّة أهل الكهف لتأييد رسوله ، وإقامة الدليل على أن ما يدعو إليه حقّ .

ومن لفتات السياق القرآني إلى الرسول أثناء القصّة :

وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ . وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ : عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » (3)

فقد وردت هذه الآية أثناء قصّة أهل الكهف .

---

(1) الكهف : 82 .

(2) انظر : **لباب النقول فى اسباب النزول** : للسيوطى : 144

(3) الكهف : 24 .

قيل : إنّه لمّا سُئل قال : أُخبركم غدا . ولم يقل : ان شاء الله . فنزلت الآية تعليما له وللمؤمنين أن يستعينوا بمشيئة الله على كل ما يعتزمون ، ويصلوا قلوبهم به في كل ما يهمّون . حتّى إذا كشف الغيب عن تدبيرٍ لله غير تدبيرهم تقبّلوه بالرضى لأنّ الأمر لله أوّلاً وآخرا . كما علّمه الله ألاّ يقبل النقاش في هذا القصص من المشركين وأهل الكتاب « فَلاَ تُمارِ فِيهِمْ إلاّ مِرَاءً ظَاهِرًا ، وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أحَدًا » (1) وحذّره أن يحاربهم في ما كانوا يعقدون له المجالس من لَغْو الكلام ولَهْو الحديث . فإذا قالوا في أهل الكهف بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، أو أربعة خامسهم كلبهم ، أو أكثر من ذلك أو أقلّ ، فقل : « اللهُ أعْلَمُ بِعِدّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إلاّ قَلِيلٌ » (2) .

وإذا سألوا : كم لبث أهل الكهف في كهفهم ؟ فقل :

« اللهُ أعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا . لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ » (3)

وممّا ورد من ذلك عقب القصّة :

تِلْكَ مِنْ أنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إلَيْكَ . مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أنْتَ ولاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا . فَاصْبِرْ إنّ العَاقِبَةَ لِلْمُتّقِينَ » (4)

---

(1) الكهف : 22 .

(2) الكهف : 22 .

(3) الكهف : 26 .

(4) هود : 49 .

فقد جاءت هذه الآية بعد نهاية قصّة نوح ، لتوجيهه صلى الله عليه وسلم إلى محاجّة الجاحدين بدلالة هذا القصص ذاته على الوحي والرسالة ، علاوة على الأدلّة الأخرى المتنوّعة .

ومن ذلك مثلا : أنّ الشّمس كسفت في اليوم الذي مات فيه إبراهيم بن محمّد صلّى الله عليه وسلم : فقال أحدهم : لقد كسفت لموت ابنه إبراهيم . ولكنّه لم يترك هذه الكلمة تسير بين الناس تؤيّد نبوّته وتعزّز مكانته ، لأنه يأبى أن يقول غير ما قال الله فيهما : « بأنّهما آيتان يخوّف الله بهما عباده ، فلا يكسفان لموت أحد ولا لحيّاته » (1)

وهكذا فإنّ القرآن ربط بين الرّسل والرسالات خلال العصور ، وجعل في الإمكان درْس الرسالة المحمّدية على ضوء ما سبقها من رسالات ، ودرْس هذه الرسالات على ضوء رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم . كما نجد في هذا القصص القرآني ما يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة ، ويساير مراحل الدعوة ، والظروف النفسية التي كان يعيشها صاحبها صلّى الله عليه وسلم ، حتى يكون ما فيه من منزع تعليمي تربوي قوّةً له مهذّبة مُحْيِيَة دافعة .

قال الله مخاطبا إيّاه :

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ولا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نَادى وَهْوَ مَكْظُومٌ . لَوْلاَ أنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهْوَ مَذْمُومٌ »

---

(1) الحديث ، رواه البخارى .
(2) القلم : 48 _ 50 .

أليس في هذا الخطاب تشخيص لتجربة حيّة مارسها الرسول وامتزج بها . فكانت له زَادًا يُعينه على عبئه الثقيل في ثبات وصبر ؟ فلن يستبطيء إيمان قومه ، أو ييأس منهم كما فعل يونس عليه السلام . ولن يطول عليه تلكُّؤهم ، فيكِلهم إلى أنفسهم ، أو يهجرهم ساخطا......

كل ذلك علاوة على ما كان يجد في هذا القصص من متاع روحي ، وشوق إلى المعرفة ، وتطلّع إلى أنباء الغيب .

فقد روي أنه قصّ على أصحابه قصّة موسى والخضر . فلمّا بلغ قوله : « هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » قال :

« وددنا ان موسى صبر حتّى يقصّ الله علينا من خبرهما » (1)

وكان يقصّ على أمته قصصا هادفا ذا نزعة تعليمية بنّاءة ، مثل قصص القرآن من هذه الوجهة ، وإن كان يختلف عنه شكلا وأسلوبا : كقصة أصحاب الغار الثلاثة ، وتوسّلهم إلى الله بما قدّموه من صالح الأعمال كي يفرج عنهم الصّخرة التي سدّت مدخل الغار (2) .

وقصّة الأقرع والأبرص والأعمى (3) التي توضّح معنى الاختبار ، وتكشف عن حقيقة الابتلاء ، وما ينجرّ عنه من جزاء ، إمّا بدوام النّعمة ، وإمّا بسلبها

---

(1) رواه البخارى .

(2) انظر القصة فى : **صحيح مسلم** . ج : 7 / 287 .

(3) المصدر السابق : ج : 7 / 289 .

وقصّة أصحاب الأخدود (1) التي فصّل فيها ما أجمله القرآن . وهي تضرب أروع الأمثال في الإخلاص لله ، والثبات على دينه ، والتّضحية في سبيله .

وهذه القصّة كما رواها صهيب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال :

« كان ملِك فيمن كان قبلَكم ، وكان له ساحر ، فلمّا كبر ، قال للملك : إني قد كبرت ، فابعث إليّ غلاما أعلّمه السّحر . فبعث إليه غلاما يعلّمه . فكان في طريقه – إذا سلك – راهبٌ . فقعد إليه ، وسمع كلامه فأعجبه . فكان إذا أتى السّاحر مرّ بالرّاهب وقعد إليه . فإذا أتى الساحر ضربه . فشكا ذلك إلى الراهب . فقال : إذا خشيتَ الساحر ، فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت أهلك ، فقل : حبسني السّاحر .

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابّة عظيمة قد حبَست النّاس . فقال : اليوم أعلَمُ : السّاحر أفضل ، أم الرّاهب أفضل ؟ فأخذ حجرا ، فقال : اللّهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر السّاحر ، فاقتل هذه الدّابة حتى يمضي النّاس . فرماها فقتلها ، ومضى الناس . فأتى الراهبَ ، فأخبره . فقال له الراهب : أي بنيّ ! أنت اليوم أفضل منّي، قد بلغ من أمرك ما أرى . وإنّك ستُبتلى فإن ابتُليت فلا تدلّ عليّ .

---

(1) المصدر السابق . ج : 7 / 289 .

وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوي الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس للمَلك كان قد عمي . فأتاه بهدايا كثيرة . فقال : ما ههنا هو لك أجمع إنْ أنت شفيتني . فقال إني لا أشفي أحدا ، إنّما يشفي الله . فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك . فآمن بالله ، فشفاه الله . فأتى الملكَ ، فجلس إليه كما كان يجلس . فقال له الملك : مَن ردّ عليك بصرك ؟ قال : ربي قال : ألك ربّ غيري ؟ قال : ربّي وربّك الله . فأخذه ، فلم يزل يعذّبه ، حتّى دلّ على الغلام . فجيء بالغلام . فقال له الملك : أيّ بني ! قد بلغ من سحرك ما تبرىء به الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل.... فقال : إنّي لا أشفي أحدا إنّما يشفي الله . فأخذه فلم يزل يعذّبه ، حتى دلّ على الراهب . فجيء بالراهب . فقيل له ارجع عن دينك . فأبى . فدعا بالمنشار ، فوَضع المنشار في مفرق رأسه فشقّه ، حتى وقع شقّاه . ثمّ جيء بجليس الملك . فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى . فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقّه به ، حتى وقع شقّاه . ثم جيء بالغلام . فقيل له : ارجع عن دينك فأبى . فدفعه إلى نفر من أصحابه . فقال . اذهبُوا به إلى جبل كذا ، فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته ، فإنْ رجع عن دينه ، وإلاّ فاطرحوه . فذهبوا به فصعدوا به الجبل . فقال : اللّهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا . وجاءَ يمشي إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله . فدفعه الى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقورة فتوسّطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه ، وإلاّ فاقذفوه . فذهبوا به . فقال : اللّهم اكفنيهم بما شئت . فانكفأتْ بهم السفينة ،

فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنّك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . قال وما هو ؟

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثمّ خذ سهما من كنانتي ثمّ ضع السهم في كبد القوس ، ثمّ قلْ : بسم الله رب الغلام ، ثمّ ارمني . فإنّك إذا فعلت ذلك قتلتني .

فجمع الناسَ في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثمّ أخذ سهما من كنانته . ثمّ وضع السهم في كبد القوس ، ثمّ قال : بسم الله رب الغلام . ثمّ رماه ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنّا برب الغلام . فأتى الملكُ ، فقيل له : أرأيت ما كنت تَحْذَرُ ؟ قد واللهِ نزل بك حذرك . لقد آمن الناس

فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُدّت ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم . ففعلوا . حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه اصبري ، فإنّك على الحق . » (1)

أمّا تأثّره عليه السّلام بقصص القرآن فقد أعربت عنه آثاره في أخلاقه ، وفيما رُوي عنه من أحاديثه :

---

(1) صحيح مسلم . ج : 7 / 306 ــ 307 .

روي أنه صلى الله عليه وسلّم قسم قسمة ، فقال رجل من الأنصار : والله إنَّها لَقسمة ما أريد بها وجه الله . فبلغ ذلك إليه ، فتغيّر وجهه وغضب ، ثمّ قال :

« لقد أوذيَ موسى بأكثر من هذا فصبر » (1) .

ورويَ أنّه قال :

« يرحم الله لوطا . لقد كان يأوي إلى ركن شديد » .

«ولوْ لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي . ونحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم إذْ قال له : أوَ لَمْ تؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى . ولَكِنْ لِيطْمَئِنّ قَلْبِي (2) .

وما قوله : « لأجبت الدّاعي » إلاّ توضعا منه صلّى الله عليه وسلّم .

ومعنى « نحن أحقّ بالشك من إبراهيم » : لو شكّ إبراهيم لكنّا أوْلى بالشكّ منه . ونحن لا نشكّ ، فإبراهيم أحرى الاّ يشكّ . فالحديث مبنيّ على نفي الشكّ عن إبراهيم . والرسول إنّما يحدّث عن المجموع ، لا عن الجميع ، ولا عن نفسه . وإنّما أراد إبراهيم زّيادة إيمان ، عندما يرى كيفية الإحياء . وهو إيمان عن مشاهدة ، يعبَّر عنه بحقّ اليقين (3) .

وقال صلّى الله عليه وسلّم بعد أن فتح مكّة وحطّم أصنامها ، وأقبلت قريش : « إنّي أقول كما قال أخي يوسف : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ . وَهْوَ أرْحَمُ الرّاحِمِينَ » (4)

---

(1) رواه مسلم .

(2) رواه البخاري .

(3) انظر : **المنتخب من السنة** . م : 1 / 326 .

(4) رواه البخاري .

فهـذا يبرهـن على مـدى تأثّره بقصص الأنبيـاء ، وتأسّيـه بأخلاقهم ، واقتدائـه بهم .

كمـا نجـد في أحاديثـه ما يـدلّ أيضا على تأثّره العميق بأحـداث القصص القـرآني ، والاعتبـار بهـا في خشيـة وجلال.....

قالت عائشـة : كان رسـول الله صلّى الله عليـه وسلّم إذا رأى غيْمـا أو ريحا عُرف في وجهـه . فقلت : يا رسول الله ! إنّ النـاس إذا رأوا الغيـم فرحـوا ، رجـاء أن يـكون فيـه المطـر . وأراك إذا رأيتـه عُرفتْ في وجهـك الـكراهيَّـة . فقال : يا عائشة ! ما يؤمنني ان يـكون فيـه عـذاب . عُذّب قـومٌ بالرّيـح . وراى قـوم العـذاب ، فقالوا : « هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا » (1)

وروى ابن عمـر قال : لمّا مـرّ النبـيء صلى الله عليـه وسلـم بالحِـجر ، مساكن ثمـود قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلمـوا أنفسهم إلاّ أن تـكونوا باكيـن ، حـذرًا أن يصيبـكم مثـل ما أصابهـم . ثـمّ قنّع رأسـه ، وأسـرع السّيـر ، وأجـازَ الـوادي » .

ولمّا نـزل الجيـش الذي سار معـه إلى غـزوة تبـوك بهـذه المساكن استقـوا من آبارهم ، وعجنوا به العجيـن . فـأمرهم رسول الله صلّى الله عليـه وسلـم أن يـريقـوا ما استقـوا ، ويعلفـوا الإبـل العجيـن ، وأمـرهم أن يستقـوا من البئـر التي كانت تـردُها الناقـة (2)

فهـذه الحالات النفسيّة كانت ولا شـكّ تنتقـل منـه صلّى الله عليـه وسلّم إلى أصحابه عن طريـق الإيحـاء تـارة ، والتلقيـن أخـرى

---

(1) رواه البخارى .

(2) رواه البخارى ومسلم .

وذلك لمّا عُرف به من قوّة التأثير بحسن الإشارة وإشراق البيان ، وتعبير الملامح . فإنّ أصحابه أسرعوا كما أسرع هو بالمرور (ببطن محسِّر) ، إذْ به هلك أصحاب الفيل ، ولأنّ الرسول علّمهم ذلك ، وبيّن لهم بالقول والسلوك أنّ منازل الظالمين لا تُدخل إلاّ للتذكّر والاعتبار .

٥

الفصل الثاني

عناصر القصة في القرآن

أهمّ ما يشترك فيه القصص القرآني مع سائر القصص من عناصر : هو الشخص ، والحدث ، والحوار .

أمّا الشخص في هذا القصص فقد يكتفي القرآن بذكر بعض صفاته ، كما جاء في قصة موسى وفتاهُ والخضر :

« فَوَجدا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، وعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » (1) . فاستغنى القرآن بوصفه عَنْ ذكر اسمه وهو « الخضر » على ما يذكر المفسرون ، لأنّ النّاس لا يعرفونه . وكما ورد في قصّة ثمود : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا » (2) . فهذا الذي انبعث لعقر الناقة واسمه على ما يذكره المفسّرون (3) . « قدار بن سالف » . لم يرَ القرآن فائدة من التّصريح باسمه ، ولكنه اكتفى بذكر أهمّ صفة من صفاته النفسيّة ، وهي أنّه أشقى رجل في ثمود

وأمّا الحدَث فكثيرا ما يُعرض مجرّدا عن ذكر الزمان والمكان اللّذيْن وقع فيهما ، لكن قد يكون لهما أو لأحدهما مجال في سير الحادثة ، فيتعلّق الغرض بذكره ، كما في قوله تعالى عن إخوة يوسف : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » (4)

---

(1) الكهف : 9 ـ 29 .

(2) الشمس : 17 .

(3) تفسير النووى . ج : 2/448 .

(4) يوسف : 16 .

فقد حرص القرآن على ذكر الزّمن الذي دُبِّرت فيه الجريمة وهو العِشاء ، هذا الجزء من اللّيل الذي تستّر إخوة يوسف بظلامه لحبْك مؤامرتهم ، وإنجاز مكيدتهم .

وكما جاء في قصّة موسى : « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ .... » (1) فإنّ لهذا المكان شأنا وأي شأن !

وأمّا الحوار فأخصّ ميزاته أنّه يصوّر الأحداث في أسلوب الحكاية تصويرا يكشف عن خبايا الصدور ، ويسجّل الإشارات والاهتزازات على نمط رفيع لا ينزل ، أيًّا كان الأطراف المتحاورون .

الأحداث

قد ينصرف الاهتمام في القصّة القرآنية إلى الأحداث دون الشخصيّات ، فيختار القرآن منها أو من عناصر الحادثة ما يخدم الفكرة الرئيسية ، ويخلق الجوّ النفسي الملائم ، من إجلال أو رهبة أو خوف ، ونفور أو رغبة . وهذه الحوادث إنّما أثارت الانفعال ، وتركت آثارها في النفس ، لا لمجرّد أنها أحداث فخمة رائعة فيها فِعلُ الله ، وآثارُ قدرته الباهرة ، ولكن أيضا بتصويرها الفنّي الذي يعتمد على عنصر أساسي تكون بدونه قصّة الحادثة جامدةً لا حياة فيها ولا حركة ، ماديّة كانت : كالانتقال المادّي في المواقف والزمان والمكان ، أو داخليّة نفسية : كتحرّكات الخواطر والأفكار والعواطف .

---

(1) القصص : 30 .

فهذه الحركة في معناها الشّامل هي التي تجعل المشاهد في القصّة حيّة ، والأحداث نابضة ، والمواقف المختلفة متفاعلة ، والسياق ديناميكيا . وكثيرا ما يستعين القرآن على إبرازها :

أ) : بالوصف الدقيق المصوّر : كوصف نوح لإعراض قومه عن دعوته :

« وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ، وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » (1) .

ب) : بالمعاني المعبِّرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية، كما جاء في القرآن على لسان مريم – وقد تمثّل لها الملَك رجلا يفجؤها في خلوتها – « قَالَتْ : إِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » (2) ، وكقولها وهي تعاني ألم المخاض : « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ، وَكُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا » (3)

ج) : بإبراز الصّراع منسجما مع المغزى العامّ للقصّة : صراع الخير والشرّ ، والحقّ والباطل ، والإيمان والضلال ، ويكون حينا صراعا مادّيا : كموقف موسى عليه السلام مع السّحرة لمّا رمَى عصاه ورمَوا عصيّتهم ، وحينًا صراعا نفسيًّا كموقف إبراهيم من الكواكب والقمر والشمس ، وما أبان له عقله الباطن من خطإ ما كان يتوهّم ، ثمّ يعتقد بذلك ، فيرى أنه على خطإ (4) وقد قيل : من يبحثْ يجدْ ، ومن يجد يعرف ، ومن يعرف يستقر .

(1) نوح : 7 .
(2) مريم : 18 .
(3) مريم : 23 .
(4) بكرى أمين : التعبير الفنى في القرآن : 228 .

وهكذا فإنّ التعبير الفنّي للقرآن في قصصه لا يخرج في جملته عن كونه تعبيرا عن النفس، هو كتعبير النّفس بالسلوك العمليّ في واقع الحياة .

جاء في وصف ميثاق بني إسرائيل الذي أخذ عليهم، وأقرّوا به، ثمّ أعرضوا عنه قوله تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » (1) .

ففي الآية : « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » لا يصحّ تفسير التولّي بالإعراض، وإلاّ عُدّ ذلك تكرارا بالمعنى . لأنّ معنى التّولّي : الانصراف والبعد بالجسم . ومعنى الإعراض : الانصراف والبعد بالقلب . فالقرآن جمع بين المظهر الحسّي والمعنى النفسي . فقوله تعالى : « وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » جملة حاليّة، وفيه معنى أن الإعراض النفسي عن الحقّ وجحوده حال مستمرّة من أحوالهم . فالحقّ لا يصل قلوبهم (2) .

فكان في دعم المعنى النفسيّ بالمظهر الحسّي تعبير مشخّص وتصويرٌ لحركة مادّية ونفسيّة .

---

(1) البقرة : 83 .
(2) **المعجزة الكبرى : القرآن** : محمد أبو زهرة : 337 .

أمّا هذه الحوادث من حيث طبيعتها وجوهرها فتكمن فيها قيَم روحية تكشف عن العناية الآلهية بما تُفْضي إليه من نتائج، هي من تدبير الله المحْكم، وعدله المطلق، وإن كانت تبدو أحيانا وكأنّها تسير سيرا عاديّا مألوفا

فالأحداث التي جرت فيها قصّة مولد موسى عليه السلام، تنكشف إرادة الله فيها، وتحدّي القدر لفرعون رغم شدّة حرصه على قتل أيّ طفلٍ ذكَر يولَد، حذرا من أن يكون هلاكه على يديه؛ كما أخبره بذلك الكهنة. ولكن يد القدر تقتحم بالوليد على فرعون قلبَ امرأته، بعد ما اقتحمت به عليه حصنَه (2)

فكان للغيب حساب، وكان لفرعون وشيعته حساب؛ إذْ أرادوه لشيء، وأراده الله لشيء آخر.

وليس من شكّ في أنّ ذلك ممّا يزيد المؤمنين إيمانا بأنّ الله يتولّى برعايته عباده الصالحين، فلا تمتدّ إليهم يد أثيمة، وأنّه سبحانه يحول بين المرء وقلبه. فيصرّف القلوب كما يشاء، تنفيذا لمشيئته

فلْنتأملْ معا هذه الحلقة الأولى من القصّة كما وردت في القرآن الكريم:

« إنّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا. يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ. إنّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ. ونُرِيدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ، وَنَجْعَلَهُمْ

---

(2) **في ظلال القرآن**. ج: 20 / 44.

أيِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرْضِ ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . وَأَوْحَيْنَا إلَى أمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيهِ . فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَألْقِيهِ فِي اليَمِّ ، وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي . إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا . إنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وجُنودَهمَا كَانُوا خَاطِئِينَ . وقَالَتِ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ . لاَ تَقْتُلُوهُ ، عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . وأصْبَحَ فُؤَادُ أمِّ مُوسَى فَارِغًا إنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لأخْتِهِ قُصِّيهِ . فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ . فَقَالَتْ : هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى أهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟ فَرَدَدْنَاهُ إلَى أمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ولاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » (1)

فقد كان تدخّل القدَر في هذه الأحداث خفيًا ، لأنّ نتائجها لمْ تنكشف إلاّ بعد وقوعها بمدّة .

وقد يبرز هذا التدخّل سافرا في الأحداث التي يراد فيها التحدّي بالخوارق ، فتأتي نتائجها سريعة لاتقبل التريُّث ولا الإمهال ؛

---

(1) القصص : 3 ــ 12 .

وأحداثها خارجة عن الطبيعي المألوف ، توجّهُها قوة غيبية
ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى :

« فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ . وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (1)

وقوله تعالى : « قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا : يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ » (2)

ومِثلُ هذا التدخّل الغيْبي السّافر يقوّي ثقة المؤمنين بربّهم وبعدله وقدرته وإرادته . وليس من شأنه أن يدعو إلى الاستسلام للقدَر ، أو يحمل على الاعتقاد بأنّ الإنسان ألعوبة في يده تتدحرج مع التيّار ، أو قطرة متلاشية في محيط الكون الأبديّ ، لأنّ مثل هذه الأحداث التي عرضها القرآن في قصصه لم تخضع للقدَر على هذا المفهوم ، ولكن على معنى أنّ هذه القوّة الخفيّة في كيان الوجود ، إنّما تحرّكها إرادة حكيمة مبدعة حسب نواميس خاصّة تختلف عن نواميس عالَم المادة . وكلّ خطوة فيها مقدورة بحساب . وذلك ممّا يجعل الإنسان في تعليله للأحداث أنفذ بصرا وأشدّ عمقا .

---

(1) الشعراء : 63 ـ 66 .
(2) الانبياء : 67 ـ 69 .

يقول وليام جيمس (W. James) : «النّفس محتاجة إلى الاعتقاد في أنّ العالَم المشاهد وراءه عالَم أدبيّ أكثر منه روحانية . ولهذه الحاجة النفسيّة من قوّة وسلطان على نفوس الذين يشعرون بها ، مثل احتياج النّفس إلى الاعتقاد في اطّراد القوانين السببيّة ، وما لهذه الحاجة من قوّة وسلطان على نفوس العلماء التّقنيين » (1)

كما أنّ الغيب الذي تطالعنا به بعض أحداث القصص القرآني — وقد دُعينا إلى الإيمان به — لا يناقض العقل ولا يعطّله ، لأنّه ليس ضدّه ، بل هو فوقه . والفرق عظيم .

فما هو ضدّ العقل يُلغيه ويعطّله ويمنعه أن يفكّر فيه وفي سواه . وما هو فوق العقل يُطلق له المدى إلى غاية ذَرعه ، ثمّ يقف حيث ينبغي له الوقوف ، وهو يفكّر ويتدبّر (2)

ذلك أنّ القوانين المعروفة في عالَم الخليقة قد استُخرجت ممّا نعهده ونشاهده ، وليست قوانين عقلية قامت البراهين على استحالة ما عداها .

فمن كمال العقل . أن يُدرِك أنّ وراء المحسوسات موجودات يجب أن يصدّق بها رغم أنّ الحسّ لا يأتي عليها ، ولكنّه وإن خفيت عنه حقائقها ، فإنه يحسّ بآثارها . كالوجود الآلهي ، فهو من عالم الغيب ، ولكنّ آثاره في خلْقِه من عالم الشهادة .

ولا شكّ أنّ الإيمان بذلك يحتاج إلى قصد وملاحظة وحساسيّة .

---

(1) ارادة الاعتقاد : (ت) محمود حب الله : 131 ـ 132 .

(2) العقاد : التفكير فريضة اسلامية : 127 ـ 128 .

وليس من الإيمان بالغيب ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من نفوس بعض العامّة إلاّ ما أخذ اللفظ من اللّسان ، وليس له أثر في الأفعال ، لأنّه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم . فمِثْلُ هذا الذي يسمُّونه إيمانا لا يفيد في إعداد القلب للاهتداء بالقرآن (1)

ولقد أرشد القرآن فيما عرض من أحداث غريبة ، أنّ وراء الظواهر حقائق ، وأنّ الحقيقة لا تنقض الشريعة ، بل تتمّمُها وتكشف عمّا خفي من حكمتها ، وأنّ الظّواهر وحدها قد تُبعد عن منطق الأشياء التي لم تستطع رؤية العقل أن تدرِك أبعادها ، وذلك لقصور طبيعي ، أو لعوارض داخلية .

وقد صوّر الشاعر الفارسي (عرفي) هذه الناحية من الإدراك الإنساني تصويرا جميلا حين قال :

« إذا كان قلْبك لم يخدعه السراب ، فلا تكن معجبًا بحدّة ذكائك . لأنّ خلاصك من هذا الخداع البصريّ مردُّه إلى ضعف ظمئك »

يريد الشّاعر بهذا أن يقول : « إذا اشتدّ ظمؤك بعثتْ رمال الصحراء في نفسك صورةَ البُحيْرة . وخلاصُك من هذا الوهم يرجع إلى فقدان الحاجة الشديدة إلى الماء . وقد أدركتَ الشيء على حقيقته ، لأنّه لم تكن لك مصلحة في أن تدركه على غير حقيقته » .

وعلى هذا فإنّ الغايات والأهداف سواء أُوجدت في الميول الشعورية ، أم فيما تحت الشعور ، هي لُحمة التجربة الشعورية وسَداها (2) .

---

(1) **المنار** ـ ج : 2 / 128 .

(2) إقبال : **تجديد التفكير الدينى فى الاسلام** : 64 .

فهذه قصّة موسى والعبد الصالح يرويها القرآن :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ ...الخ » (1)

فتكشف عن حقيقة من الغيب ، يبدو فيها سيْر الأحداث غريبا . بل إنّ حركاتها تصادم منطق العقل . لذلك لم يستطع موسى عليه السلام أن يتمالك وهو يرى السفينة تُخرق ، والغلام يُقتل ، والشُّحُّ يقابَل بما يُشبه التّبذير ، ثمّ يُراد منه ألاّ يتحرّك ، وأن يضع أعصابه في ثلاّجة كما يقال (2) :

ولو لمْ يتضح ماوراء تلك الأحداث من حكمة مغيّبة لظلّت غامضة تثير العجَب وتدعو إلى الاستنكار .

ولعلّ من الطّريف في هذه القصّة مفاجآتها المتعاقبة التي تثيرها الأحداث بقدْر ما يثيرها اكتشاف السِّرّ في البواعث على تلك الأحداث .

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه القصّة تَظهر فيها الناحية التعليميّة بصورة جليّة ، كما يدّل على ذلك مضمونها ، وكما يدّل الحديث الوارد في شأنها . وهو : ما رواه أبيّ بن كعب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنّه قال :

« إنّ موسى قام خطيبا في بني إسرائيل : فسُئل : أيّ الناس أعْلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه ، إذ لم يردّ العلم إليه . فأوحى الله إليه : إنّ لي عبدا بمجمع البحريْن هو أعلم منك . قال موسى :

---

(1) القصة في سورة الكهف : 59 ـ 81 .

(2) محمد المجذوب : قصص وعبر : 194 .

يا رب! فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل . فحيثُما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّ .

فأخذ حُوتا فجعله في مكتل ، ثمّ انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون » .... الخ » (1)

فهي ترشد إلى أنّ من الأحداث ما تسيطر عليه قوى غيبيّة من البداية إلى النهاية . ولم تكن فيها تصرّفات البشر والظواهر الطبيعيّة إلاّ وسائل تنفيذ ، وأنّ الاتصال الرّوحي بالحقيقة لا تقوم دونه حواجز الحسّ ، إذا كان للطّاقة الرّوحية في الإنسان مددٌ من الإيمان بخالق الوجود .

ومن المحاولات الفاشلة أنّ يتطلّع الإنسان إلى ما وراء الحسّ بالعقل وحده .

ولا شكّ أنّ تفتُّح الوجدان لهذه الأسرار الآلهيّة ممّا يفتح آفاقا جديدة في الإحساس بما للقوى الغيبيّة من تأثير في مجرى الأحداث ، والشعور بأنّ لتلك الاحداث عِلَلا خفية ، وغايات مرسومة عن قصْد وتدبير .

ومن هنا كانت عناية القرآن بالنّفس البشرية أثناء عرضه للأحداث تفوق عنايته بأيّ شيء آخر . فهو يختار من الأحداث ما كان أقواها تأثيرا في النفس ، وأكثر استجابة للغرض الديني . ويتّضح ذلك من قَصِّه لجملة من الأحداث تفصِل بينها قرون وبيئات مختلفة ، ولكن تجمع بينها وحدة الهدف ، إذ هي تخدم غرضا دينيّا موحّدا .

---

(1) انظر الحديث في **صحيح البخاري** . ج : 6 / 110 ـ 111 (دار مطابع الشعب بمصر) .

والقصص القرآني لا يقنعنا بوقوع تلك الأحداث وأسبابها بالمحاكمات والبراهين والوثائق فقط ، وإنّما يقنعنا أيضا بشيء آخر من التلقين المفاجيء الذي يكشف لنا عن الأشياء ويحملنا على التصديق بها ، لأنّ الاقتناع العقلي يكون غير مُلزم دائما ، بينما الاقتناع الوجداني له أثر حتميّ في معظم الحالات ، إن لم نقل في جميعها .

وترهيب القرآن بقوّة الله وجبروته من خلال رَوعة الأحداث التي يعرضها لا تثير في النفوس خوفا غامضا من المجهول ، لأنها ليست قوّة غاشمة تخبط خبط عشواء كما يقال ، ولكنها قوة مُبصرة يقودها الحقّ والعدالة . لذلك نرى القرآن يتعقّب تلك الأحداث بما يبرّرها ، أو يفسّر أسبابها ، أو يبرز موطن العبرة فيها ، حتى يكون لها وقعها في النفوس ، بما يستخدم في التعقيب عليها من أساليب التذكير والوعظ والحثّ والزجر والاعتبار والتقرير . ومن ذلك مثلا ما جاء في آخر قصّة عاد :

« وتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ واتَّبَعُوا أمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ويَوْمَ القِيَامَةِ . ألاَ إنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ . ألاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » (1) .

وما جاء في آخر قصّة قارون :

« تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرْضِ ولاَ فَسَاداً . والعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » (2)

(1) هود : 58 — 59 .
(2) القصص : 83 .

الشخصيّة

تردُ الشخصيّة في بعض القصص القرآني مِحورا تدور حوله الأحداث فتؤثِّر فيها وتتأثّر بها .

والقرآن لم يُبرز هذا العنصر لذاته ، ولكن للتأسّي بالشخصيّة الخيِّرة ، والتّنفير من الشخصية الشرِّيرة ، مثل أسماء الأنبياء وأعدائهم ممّن تحدّوا دعوات السماء : كموسى وهارون ، وفرعون وقارون .

لذلك لم يُعْنَ برسم الخطوط الشكليّة للشخصيّة ، وإبراز ملامحها الخارجيّة ؛ كما يفعل بعض المولَعين بالقصّ ، فيذكرون مثلاً لون الشعَر والعينين ، ووصف الفم والأنف والجبين ، وتشبيه نبرات الصوت والمشية ، وتفسير نظرات الفرح ، والحزن والغضب ، وابتسامات البراءة والمكر والسخريّة ، ونحو ذلك من الأوصاف الفيزيولوجية التي تجعل الشخصيّة كأنها ماثلة للعيان ، لأن ذلك كلّه لا يخدم أيّ غرض ديني من أغراض القصّة القرآنية . وإنّما يكشف القرآن عن مزاج الشخصية ، وعن دوافعها وانفعالاتها وسلوكها من خلال الوصف ، أو حكاية الأقوال أو الأحداث بصورة عرَضية لم تُقصد لذاتها بالأصالة

ومن ناحية أخرى فإنّ الشخصيّة القرآنية تتمثّل في :

1) : فرد مُعيّن باسمه : كإبراهيم وموسى وفرعون .

2) : جنس مُعيّن وحّدت بين عناصره العصبيّة ، ومجموعة من سجايا العِرق : مثل بني إسرائيل

3) : الإنسان أيّا كان ، بما جُبل عليه من غرائز ، وما رُكّب فيه من طباع ثابتة ، تكشفها الأحداث من حين لآخر

وفي القرآن شخصيّات من غير البشر ، صدرت عنها عبارات وأفكار ، وقامت بأدوار إيجابيّة في القصة : كالملائكة في قصّة إبراهيم ولوط ، والجنّ في قصّة سليمان ، وإبليس في قصة آدم .

وأبرز ما يلاحظ في التصوير القرآني للشخصيّة بصفة عامّة : أمانة النقل في حكاية أقوالها ، ودقة التعبير عن مشاعرها ، وصدق الترجمة الباطنيّة عن خواطرها . فهي رغم تعدّد مواقفها وتنوّعها في مواطن متفرقة من القرآن لا يتناسق جمعها في موضع أو سورة ، لانعدام الوحدة الموضوعية بينها ، لكنّا نجد في تلك الشخصيّة من توافق العناصر ، وائتلاف الصفات ، وتفاعل السّمات المزاجيّة والخلُقية على الخصوص ما يُلقي الأضواء على جوانبها النفسيّة .

فهذه شخصيّة إبراهيم عليه السلام كانت في القرآن محورا لأحداث مختلفة كشفت عن ملامحها . فمن ذلك مثلا :

قصة ايمانه بالله :

« وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ : هَذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ ، قَالَ : لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغًا قَالَ : هَذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ ، قَالَ : لَئِنْ

لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ : هَذَا رَبِّي ، هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَا قَوْمِ ! إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا . وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (1)

وقصّة إيمانه بالبعث :

« وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى . وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا . واعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (2)

وقصّة فداء ابنه بعد ابتلائه :

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ . قَالَ : يَا بُنَيَّ ! إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ : يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ . سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ : أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ

---

(1) الانعام : 76 ـ 84 .
(2) البقرة : 260 .

فِي الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَى إبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ . إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ » (1)

وقصّة دعوة أبيه إلى عبادة الله ونبذ الأوثان :

« واذْكُرْ فِي الكِتَابِ إبْرَاهِيمَ . إنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إذْ قَالَ لأبِيهِ : يَا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ولاَ يُبْصِرُ ولاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ؟ يَا أبَتِ إنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ . إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أبَتِ إنِّي أخَافُ أنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ : أرَاغِبٌ أنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبْرَاهِيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ : سَلاَمٌ عَلَيْكَ ! سَأسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي . إنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَأعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ . وأدْعُو رَبِّي . عَسَى ألاَّ أكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا » (2)

وقصّة زيارة الملائكة له ، لتبشيره بغلام ، وتعريفه بهلاك قوم لوط :

« ولَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى . قَالُوا : سَلاَمًا . قَالَ : سَلاَمٌ . فَمَا لَبِثَ أنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

---

(1) الصافات : 102 ـ 111 .

(2) مريم : 40 ـ 48 .

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا : لاَ تَخَفْ . إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ، وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ . فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب . قَالَتْ : يَا وَيْلَتَا آأَلِدُ ، وأنَا عَجُوزٌ ، وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ! قَالُوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ؟ رَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ . إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا . إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (1)

فمن خلال هذا القصص برزت شخصيّة إبراهيم المثالية . فكان مثلا في حصافة الرأي ، وحبّ التطلع إلى اليقين ، والامتثال لأمر الله في تفان وإخلاص ، والرفق والحلم ، والرأفة والحنان . وقد تجمّع في شخصه من جليل الخصال ما تفرّق في غيره من النّاس على مدى الأجيال . فكان أمّة برأسه كما أثنى الله عليْه :

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ من المُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (2) .

---

(1) هود : 68 ـ 75 .

(2) النحل : 120 ـ 122 .

فما عرفَ به عليه السلام من أناة وبُعْد نظر ورجاحة عقل ، دلّ عليه تأمّلُه في ملكوت السماوات، والأرض ، وهو يبحث عن خالق هذه الأكوان ، مستعينا بفطرته السليمة وتجربته القويمة ، حتى هداه الله إليه فوجده . ولكنّه لم يجده في كوكب يلمع ، ولا في قمر يطلع ، ولا في شمس تسطع ، ولا فيما تُبصره عيناه ، وتُدركه حواسُّه . وإنَّما وجده في كيانه وفي الوجود كلّه ، (1) فكان إيمانه عن معرفة . وهو لفرط رغبته الوصول إلى مرتبة المعاينة ، ويقين المشاهدة في دليل البعث ، سأل ربّه أن يُريه إحياء الموتى بالمحسوس ، لينتقل من البرهان النّظري ، إلى العلم الضّروريّ الذي يدفع كلّ الشُّبه عن العقل .

وما غُرس في قلبه من إيمان بالله بلغ به أسمى مراتب الطاعة والامتثال ، كَشف عنه إقدامه على ذبح ابنه ، ولكن الله افتداه بكبش رحمة به وبأبيه الذي ابتلاه ومحّصه ، فوجده من الصابرين المخلصين

وما اتّصف به من أدب وحياء ورفق حَمله على ملاطفة أبيه رغم إساءته إليه بالتهديد والوعيد ، ولكنه لم يَفقد أدبه معه ، ولا احترامه له ، ولا بِرّه به ، بل كان يحاول أن يقنع أباه بالحُسنى ، ويُفهمه أن لا غضاضة في أن يتبع الوالد ولده ، إذا كان الابن يعلم من الله ما لا يعلمه أبوه .

ولا عجَب ! فإبراهيم صاحب القلب الكبير الذي وسِع النّاس بمحبّته ولينه ، يحنو على قومه رغم إيذائهم له . فهو لا يطلب العذاب والهلاك لِمَن عصاه ، وإنّما يكلُهم إلى رحمة الله وغفرانه .

---

(1) في ظلال القرآن : 7 / 81 ـ 82 .

« رَبِّ ، إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ . فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (1)

كما أنّ ما جُبل عليه من سخاء ورأفة أبان عنه احتفاؤه بضيوفه ، وإكرامهم ، وسؤالُ ربّه أن يعفو عن قوم ابن أخيه لوط ، وقد أبلغه ضيوفه من الملائكة أنهّم مرسَلون إلى لوط ليأمروه بالخروج من القرية مع أهله قبيل الصبح ، موعد هلاك قومه . فكان يجادل ربّه في شأنهم رجاءَ أن ينظر إليهم بعين الرحمة .

وبينما يرسم بعض القصص القرآني لشخصيّة إبراهيم هذه السِّمات ، نراه يرسم لشخصيّة موسى مثلا سِمات أخرى ، منها ما يلتقي معها ، وفيها ما يقابلها . فيجعل منه نموذجا للزعيم القويّ المندفع بحدّة الطبع والمزاج وسرعة الانفعال ، وحساسيّة الوجدان . ولعلّ هذه السّمات هي التي جعلت حظوظ نجاحه أقوى في قيادة شعب صلْب المِراس ، معقّد النفسيّة ، وهو شعب بني إسرائيل الذي كان من طبعه التلكّؤ في الطّاعة ، والجمود في المشاعر ، والمراوغة ، والسخريّة في المواقف الجدّيّة ، ومقاومة شيَع الفراعنة الذين كان من أخلاقهم البغي والكبر ، واحتقار الفقراء والضعفاء ، وتقديس الكبراء وذوي الثراء و « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ » (2) .

وممّا تجلّت فيه تلك السِّمات موقفه عندما فوجيء بارتكاس قومه ، واتّخاذهم عجلا يعبدونه أثناء غيابه في مناجاة ربه ،

---

(1) ابراهيم : 36 .
(2) الانعام : 124 .

فيُفقده الغضب هدوءه ، ويُلقي بالألواح التي تحمل كلمات الله ؛ وسرعان ما يسكن غضبه ، فيعود إليها ليأخذها . كما يثور ثورة عنيفة على أخيه هارون ؛ وكان قد استخلفه على قومه ، فغلبوه على أمره في عبادة العجل ؛ فيأخذ بشعر رأسه ولحيته ، ويجذبه إليه ؛ ولكن هارون يستثير عاطفة الأخوّة في قلبه ، ويعتذر له عمّا جرى ؛ فيهدأ غضبه ، وتسكن ثورته ، ويتحوّل انفعاله من غضب عليه إلى شفقة . والإنسان العصبيّ يكون تراجعُه على قدر اندفاعه ؛

ويُشخّص التعبير القرآني هذا الغضب في حركته ودفعه فيقول :

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ....

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ : بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي . أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ : ابْنَ أُمَّ ! إِنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي . فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَ : رَبِّ اغْفِرْلِي وَلأَخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . .....

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ .... الخ» (1)

---

(1) الاعراف : 148 — 154 .

وتظهر هذه الطبيعة الانفعالية الدّفاعيّة لشخصيّة موسى عليه السلام من تصرّفاته في كل أدوار حياته منذ أن وكز الرجل المصريّ الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي ، فمات ، ثمّ أناب إلى ربّه مستغفرا معتذرا ، حتى إذا كان اليوم الثّاني ، ورأى الاسرائيلي يقتتل مع مصريّ آخر ، همّ بالمصريّ مرّة أخرى (1).

فكان هذا المزاج العصبيّ ملازما له في كلّ مواقفه .

« وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ . هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ . فَاسْتَغَاثَهُ الذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ . قَالَ : هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ . إنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ . قَالَ : رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغْفِرْلِي . فَغَفَرَ لَهُ . إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ : رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ . فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، فَإذَا الذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ . قَالَ لَهُ مُوسَى : إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ، قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ ؟ إنْ تُرِيدُ إلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ » (2)

ومن هذه الحادثة يُبرز القرآن ما في طبع موسى من صفات العصبيّن : كسرعة اندفاعه لنجدة الإسرائيلي ، وعُنفه

(1) فى **ظلال القرآن** . ج : 15 / 105 .
(2) القصص : 14 .

مع القبطي ، وسرعة رجوعه على نفسه باللآئمة ، وإلى الله بالإقرار بالذّنب وطلب الغفران . فهو طيّب القلب سريع النّدم .

وهكذا نلاحظ أنّ إبراز سِمات الشخصيّة في القرآن يقوم على مبدإ عامّ يسمّى في علم النفس « اتّساق شخصيّة الفرد » بحيث إنّ سلوكه يتناغم بصفة مستمرّة مع الظروف الدّاخليّة والخارجيّة التي يتعرّض لها ، وذلك بما يحمل من خصائص معيّنة تلازمه من موقف لآخر ، وتؤثّر في سلوكه ، وتحدّد وجهته ونمطه » (1)

وما ذلك إلاّ لأنّ القرآن يعبّر بأمانة عن تصرّف الأفراد في مواقفهم

وإنّه لمن المفيد أن نأخذ نموذجا آخر من الشخصيّات القرآنية غير الأنبياء الذين تلتقي قلوبهم وتتّفق سرائرهم في الصفاء والإخلاص لله ، والإنابة إليه في السّرّاء والضرّاء والرّضى والغضب ، وإن اختلفتْ أمزجتهم ومواقفهم من أقوامهم .

ولْتَكُن هذه الشخصيّة مثلا : فرعون الذي كانت له معَ موسى مواقف برزَتْ من خلالها أخصّ صفاته ؛ وهي الطغيان ، والتكبر ، والغرور ، والمكابرة في الحقّ .

فيَرجع طغيانه إلى اعتزازه بالقوة الغاشمة التي بين يديه ، والثروة الطائلة التي ينعم بها في ترف وإسراف ، والسلطان المادّي الذي يرتكز إليه . وكلّ طاغية متجبّر، يسترهب الناس بالقوّة والبأس . فيتسلّط على الرّقاب بالبطش والإرهاب ، ويستذلّ القلوب بالظلم والاستبداد .

---

(1) مصطفى فهمي : **الصحة النفسية : 66 .**

فقد قال فرعون للسّحرة لمّا سجدوا وآمنوا بربّ العالمين ، ربّ موسى وهارون : « أآمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ . إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » (1)

« وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ : سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » (2) .

ويرجع كبرياؤه إلى ادّعائه الربوبيّة ، وإعراضه عن الحق رغم ما أراه موسى من آيات الله .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ . فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا » (3)

« فَأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى ، فَكَذَّبَ وَعَصَى . ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى : فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى » (4)

---

(1) الأعراف : 122 ـ 123 .

(2) الأعراف : 126 .

(3) الاسراء : 101 .

(4) النازعات : 20 ـ 24 .

ومن كبريائه أنّه يستنكف من أن يجعل نفسه داخلا في دعوة موسى أو مقصودا بها ، فيعمد إلى تحويل خطاب موسى له إلى جلسائه :

« قَالَ : إنَّ رَسُولَكُمْ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » (1)

ثمّ يرفض أن يقبل الهدى ، ويقول لرسول ربّ العالمين في استعلاء :

«لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ» (2)

ويرجع غروره إلى سلطته المطلقة على بني إسرائيل الذين كانوا يتبعون خطواته الضّالّة بلا تدبرّ ولا تفكير ، وينقادون إليه في ذلّة وخوف ، وقد خلب البريق الخادع عقولهم الساذجة :

« وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تَبْصِرونَ ؟ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ » (3)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا » (4)

---

(1) الشعراء : 29 .
(2) الشعراء : 25 .
(3) غافر : 36 ـ 37 .
(4) الزخرف : 50 ـ 52 .

وإذا كانت شخصية الانسان تتميّز على حسب العواطف التي تدور عليها حياتُه ، وخاصَّة السائد منها ، فإنّ لكلّ من موسى وفرعون عاطفة سائدة تسيطر على ما لديهما من عواطف أخرى ، وتوجّه سلوكهما .

وهي في موسى كما في سائر الأنبياء : حبّ الله ، والإخلاص له في السرّ والعلانية ، والتّفاني في تبليغ رسالته .

وهي في فرعون : حبّ الذات الذي يسيطر فيه الزهو والغرور على النفس ، فيطغى عليها الكبرياء حتى يجرّها إلى عدم الاكتراث بالغير ، واحتقار البشر ، وعدم الإذعان للحقّ رغم ظهور آياته ، والعناد الأعمى رغم ما يؤدّي إليه من الهلاك .

النوع الثاني :

شخصيّة جنس وحّدت بين طباعه وأخلاقه عوامل العرق والوارثة حتى صار الفرد مرآة للجنس كلّه ، والجنس يتمثّل في أيّ فرد من أفراده .

ويكاد ينحصر ذلك في بني إسرائيل الذين لهم تاريخ طويل ، ولكنهم جنس واحد في سجايا العِرق ، متضامنو الأجيال ، متّحدو الجِبلّة في جميع العصور . لذلك نرى القرآن في عرضه لأخبار بني إسرائيل يحوّل السياق من الحكاية إلى الخطاب ، ليذكّرهم بما أنعم الله على آبائهم من نعم جليلة قابلوها بالجحود والانحرافات كالعناد ، والتمرّد ، واختلاق المعاذير الواهية في التخلّي عن الواجبات ، والاستخفاف بأنبيائهم ، والاعتداء على بعضهم بالقتل ، ونكث العهود ، ونقض المواثيق ، والادّعاءات العريضة الباطلة ؛ وكأنه بذلك يخاطب جيلا واحدا ، لا أجيالا عديدة فرّقت بينها القرون .

لأن ما في طبيعتهم من تعصّب شديد ، جعل تصرّفات الأحفاد ، متساوقة مع تصرّفات الأجداد (1) .

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ، قَالُوا : لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ! أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ قَالُوا : سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا . وَقَالُوا : إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ » (2)

فهم يُحسّون أن كلّ خير يُصيب غيرهم كأنّما انتزع منهم ؛ والأثرة الضيّقة في نطاق عصبيّة الجنس جعلتهم لا يشعرون بالوشائج الإنسانية التي تربط بين البشر جميعا .

ولقد كانت حجتهم في إعراضهم عن الإسلام أنّهم على شريعتهم ، وأنّهم في غنى بتعاليم أنبيائهم عن كل داعية جديد ؛ « وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ » (3) . وعندئذ يَكْشِفُ القُرْآن عن نفسيّتهم ، وعن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم . وكان الذي حملهم على هذا كلّه حسدهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلم أن يختاره الله للرِّسالة التي انتظروها فيهم ، ثمّ طبيعة هذا الدّين الذي بُنِيَ على الوحدة الإنسانيّة ، والقضاء على التفرقة العنصريّة بين الأجناس ، إذ جميع البشر من جوهر واحد ، كما جاء في الحديث : «كُلُّكُمْ من آدم ، وآدمُ من تراب» (4)

---

(1) تحدثنا فى الفصل الرابع من قسم البحث النظرى عن موضوع التعصب للجنس فارجع اليه بصفحة : 208 ـ 213 .

(2) القصص : 48 .

(3) البقرة : 88 .

(4) رواه البخارى .

وإذا كان الـرّبّ « يهـوه » إلهـا لليهـود فقـط « شعب الله المختار » كما يـزعـمون ، فـإنّ القـرآن يقـرّر أنّ الله لم يلتـزم بـأيّ عهد مع أيّ شعب .

وقَالُوا : « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاّ أيَّامًا مَعْدُودَةً . قُلْ أتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ؟ » (1)

فإذا أخذنا الواحد المطلق كمركز للإيمان افترضت الشهادة « لااله الا الله » وحدة الإله ووحدة الطبيعة ، وكذلك وحدة العِرق ووحدة الإنسان (2)

وينتج عن ذلك « أنّ شرف أيّ إنسان مكتسب بصفة فردية بفضل ما يقوم به من أعمال الصّلاح والخير ، لا بالانتساب إلى قبيلة أو جنس أو موطن » (3) . وهذا مخالف تمامًا لِما عليه بنو إسرائيل ، ولِمّا كان عليه العرب قبل الإسلام .

فالإسلام يعتبر « أنا » شعورا ووعيا . والوعي قبس من نور الله . وعلى العكس من هذا ، لم يكن « الأنا » في العصر الجاهلي مركزا في داخله ، بل مُشتّتا على الخارج ، منعدم الذاتيّة الخاصة ، حسْبُه المشاركة في ذاتيّة قبَليّة مشاعة . فكيف يستطيع أن يصل إلى

---

(1) البقرة : 79 .

(2) انظر : **الشخصانية الاسلامية : محمد عزيز الحبابي** : 30 .

(3) المصدر السابق : 26 .

درجة الوعي ما دام شعوره يذوب في شعور جماعي غير محدّد قانونُه العصبية الضّيقة التي يعبّر عنها دُريْد بن الصّمة بقوله (1) :

وهل أنَا إلاّ من غزيّةَ إنْ غوتْ غويتُ وإن ترشد غُزيّةُ أرشدِ

وبفضل الدّين الجديد لم يعد العربي فردا يذوب في القبيلة داخل اتّصال أفقي ، بل صار شخصا يشعر بشخصيته في ذاتها ، ويتّصل بكائن مطلَق ، هو الخالق المتعالي الذي سوّى بين العربي والأعجمي : « يَـأيُّهَـا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ » (2) .

وهكذا فإن الاسلام حقّر العصبية التي تستند إلى الجنس ، والعصبيّة التي تلتحم بالدّم والقرابة . فتلك عصبية جاهليّة قد يجتمع الناس باسمها على الحقّ والباطل ، وعلى البرّ والفجور ، وعلى العدل والظلم . وقد أحلّ الإسلام محلّها عصبيّة العقيدة وعصبيّة الفكر . التي تجعل من المؤمن رجلا يتعصّب للحقّ في ذاته ، ولو كان عليه ، أو على أهله (3)

النوع الثالث : الانسان

هذا الذي أودع الله فيه مزاجا يرتبط فيه الجسد بالرّوح ، لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر ما دامت تسري فيه الحياة (4) .

---

(1) المصدر السابق : 17 .
(2) الحجرات : 13 .
(3) **خلق ودين** : 84 ـ 85 .
(4) انظر : مدلول الانسان لابن حزم : **الفصل في الملل والاهواء والنحل** ج : 5 / 66 .

والقيمة في كيانه لم تنشأ من قبضة الطّين التي خُلق منها الجسد الأوّل ، وإنّما نشأت حين تلبّست بها نفخة الرّوح العُلوية ، وهي التي بها استحقّ التكريم ، ومن أجلها أمر الله الملائكة أن يسجدوا له :

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » (1) .

وبهذه الطبيعة المزدَوجة التي رُكّبت فيه ، كان قادرا على السّموّ بروحه إلى الملكوت ، أو على الهبوط بحيوانيتة إلى الحضيض .

فإذا ارتكس إلى أسفل ، فإنه حينئذ تصدُق عليه التفاسير المخطئة التي تصوّر الإنسان من جانب واحد في صورة حيوانيّة : كالتفسير المادّي للتاريخ الذي يقول : « إنّ تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام » ، والتفسير الجنسي الذي يقول : « إن الفرد محكوم بغرائزه ، وبغريزة الجنس بصفة خاصة في نظر "فرايد" . وإن هذه الغريزة تسعى دوما إلى الحصول على اللّذّة ، والهروب من الألم . أمّا الأخلاق والتقاليد وجميع القيم فإنّها ليست نابعة من ذات الانسان ، وإنّما هي مفروضة عليه من الخارج : من المجتمع ، ومن سلطة القانون ، ومن سلطة الأقوياء ، ومن سلطان الدين » (2) .

---

(1) ص : 70 – 71 .

(2) محمد قطب : دراسات فى النفس الانسانية : 323 .

والحقُّ أنَّ في كيان الإنسان استعدادا للهُدى والاستقامة ، إذا جعل القياد لروحه ، واستعدادا مماثلا للضلال والانحراف ، إذا جعل القياد لغرائزه . لذلك لمْ تتخلَّ عنه السّماء ، ولم يتركه الله سدى ؛ بل أرسل الرسل يرشدونه إلى المنهج القويم ، ويردُّونه إليه ، حتى يكون أهلا لما أعدَّه الله من الخلافة في الأرض ، وتَحمّل الأمانة .

« ...... فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . والذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (1) »

وقد ورد لفظ "الإنسان" في القرآن في خمسة وستين موضعا أبرزَ فيها ما لَه من طاقات، وكشف عن دقائق ملامحه النفسية ، ونوازعه الخفيّة (2) .

فهو مزوّد بوسائل المعرفة والإدراك والتمييز والقدرة على مجابهة المشاقّ والصراع ، والاستعداد للتلقّي والاستجابة ، والتصرّف بإرادته ليُبتلى ويُجزى . فهو مخلوق لغاية ، ومشدود إلى محور

« عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (3)

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي كَبَدٍ » (4)

---

(1) البقرة : 37 ـ 38 .

(2) انظر : **مقال فى الانسان** : للدكتورة بنت الشاطى : 15 ـ 19 .

(3) العلق : 5 .

(4) البلد : 4 .

« إنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِرًا وإمَّا كَفُورًا » (1) .

« وأنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ ، إلاَّ مَا سَعَى . وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى » (2)

وهو ضعيف في التغلّب على دوافع غرائزه ، والتحكّم في نزواته . وقد علِم الله ضعفه ، فنفى عنه الحرج والمشقّة والضّرر ، وفتحَ له باب التوبة :

« يُرِيدُ اللهُ أنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ . وخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا » (3) .

وهو أنانيّ جحود : يجأر إلى ربّه في الشدّة ، ويفزع إليه في البأس . فإذا استجاب الله دعاءه ، ورفع عنه الضّرّ ، أعرض عنه ، وعاد إلى ما كان فيه :

« وإذَا مَسَّ الإنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أوْ قَاعِدًا أوْ قَائِمًا . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأنْ لَمْ يَدْعُنَا إلَى ضُرٍّ مَسَّهُ » (4)

---

(1) الانسان : 2 ـ 3 .
(2) النجم : 39 ـ 41 .
(3) النساء : 28 .
(4) يونس : 12 .

« وإذَا أنْعَمْنَا عَلَى الإنْسَانِ أعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ . وإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » (1) .

« إنَّ الإنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وإنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ » (2)

« وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا . إنَّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (3)

وهو متقلّب يُبطره الغنى فيطغى :

« كَلاَّ إنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى . أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » (4)

وهو سريع النّسيان ، لا يثبت أمام الإغواء والإغراء :

« ولَقَدْ عَهِدْنَا إلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » (5) .

وهو عنيد مكابر ، يحبّ المراء والجدل في الله وآياته :

« ولَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ . وكَانَ الإنْسَانُ أكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً » (6) .

« خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ » (7)

---

(1) فصلت : 50 .
(2) العاديات : 6 ـ 8 .
(3) ابراهيم : 36 .
(4) العلق : 6 ـ 7 .
(5) طه : 115 .
(6) الكهف : 53 .
(7) النحل : 4 .

وهو عَجول بطبعه ، يمدّ بصره دائما إلى غيب المستقبل ، فيستعجل أحداثه ، وإن كان في ذلك ضررُهُ :

« خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » (1)

« ويَدْعُو الإنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ . وكَانَ الإنْسَانُ عَجُولاً » (2) .

فنستنتج من هذا العرض السريع أنّ ما وَصف به القرآن الإنسان من ضعف وكفر وعجَلة ومكابرة ونسيان وطغيان ، وذهول عن الله وجحود لنعمه ، ظاهرةٌ عامّة في تاريخ الإنسانية وما تزال فيها . لأنّ في طرق الانسان مزالق وأشواكا ومعوّقات ، وأنّه بغير الإيمان الراسخ ، والعقيدة الصحيحة ، لا يأمن من غوائل الشرّ المُتسرِّب إلى نفسه بفعل الجواذب والدوافع ، وهي عنيفة ومتنوّعة .

« أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وأَنُ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . ولَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا . أفَلَمْ تَكُونُوا تعْقِلُونَ ؟ »(3)

ولعلاج هذه الأدواء المزمنة في الإنسان ، وضمان صحّته الرّوحية ، استعمل القرآن مختلف المؤثّرات النفسيّة .

وكان من أبرزها :

---

(1) الأنبياء : 36 .
(2) الاسراء : 11
(3) يس : 59 — 61 .

1) : قصّ أنباء الأمم السالفة ، وما حلّ عليهم من عذاب الله وبأسه الشديد ، لكفرهم وبغيهم بعد الإنذار الطويل

« ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ، فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ . فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ » (1)

« وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (2)

2) : تذكيره في عدّة مناسبات بنعم الله عليه : كتكريمه على سائر المخلوقات ، وتمكينه في الأرض للخلافة والتعمير ، وتسخير كلّ ما في السماوات والأرض له :

« هُوَ الذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ ، مِنْهُ شَرَابٌ ومِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ والأَعْنَابَ ومِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . ومَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وهُوَ الذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ، وتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ

---

(1) الأنبياء : 44 .

(2) الأنبياء : 11 .

حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وألْقَى فِي الأرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تَمِيدَ بِكُمْ وأنْهَارًا وسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وعَلامَاتٍ وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟ وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (1)

3) : تكرّرُ إشاراته إلى هوان الإنسان وضعفه في أصل نشأته وخَلْقه كبْحا لجماح غروره وطغيانه وكفره :

« أوَ لَمْ يرَ الإنْسَانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ) (2)

« ألَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ؟ » (3)

« قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أكْفَرَهُ ! مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ » (4)

« فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ . إنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ» (5)

---

(1) النحل : 10 ـ 18 .
(2) يس : 77 ـ 78 .
(3) المرسلات : 20 .
(4) عبس : 17 ـ 20 .
(5) الطارق : 5 ـ 8 .

4) : تذكيره بحتميّة الموت وهوان الدّنيا ، لا لِتزهيده فيها ، أو في العمل لها ، ولكن ليحذر مُغْرِياتها ، وغفلة النّفس عن الله في نشوة الحياة المتدفّقة ، ويتّقي شرّ الأثرة والشّحّ ، والتّهالُك على عرضها الزائل ، وتذكيره في الآن نفسه بما بعد الموت من بعث وحساب ، لدفعه إلى العمل الصّالح في معركة الصّراع بين الخير والشر ، وإلى مجاهدة هواه لتحقيق وجوده الأسمى ، وإلى الإيمان بحياة أخرى خالدة "يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدّم في دنياه ، وتعصمه من محنة العدّم ومن فكرة الفناء الأبديّ ، التي روّعت البشريّة منذ بدأت حياتها على الأرض" (1)

« اعْلَمُوا أنَّمَا الحَيَاةُ الدّنْيَا لَعِبٌ ولَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وتَكَاثُرٌ فِي الأمْوَالِ والأوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمّ يَكُونُ حُطَامًا ، وفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ . ومَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ ورِضْوَانٌ . ومَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ مَتَاعُ الغُرُورِ » (2)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ . وإنَّمَا تُوَفَّوْنَ أجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ . فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وأدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ . ومَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ مَتَاعُ الغُرُورِ » (3)

« لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، ثُمّ مَأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهَادُ . لَكِنِ الذِينَ

(1) **مقال في الانسان** : 137
(2) الحديد : 19 ·
(3) آل عمران : 185 ·

اتَّقَوْا ربَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ . ومَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ » (1)

وقد وَفّق القرآن في قصّة قارون (2) بين الأمور الدّنيويّة والأمور الأخرويّة ، وخرج من ذلك بمذهب معتدل . فليس الزّاهد من لا يملك شيئا ، بل الزّاهد من لا يملكه شيء . فهو مالك الدنيا ، غير مملوك لها . ومن ملكَته الدنيا استحوذت على قلبه فصدّته عن الهدى ، وحجبته عن النور ، وألقت به في متاهات الهوى والبغي ، كما حدث لقارون .

هكذا وجّه القرآن الإنسان ، فدعاه إلى تحرير وجدانه من عبادة سواه ، والخنوع لمخلوق . لذلك نراه يعرض لعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر من خلال القضايا الكبرى للإنسان ، وفي مقدمتها تحريره من العبوديّة في المجالات الدينيّة والسياسيّة والاقتصادية

ففي المجال الدّيني نفَى كلّ وساطة بين الإنسان وربّه ، ونَعى على أهل الكتاب الذين « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » (3)

وفي المجالين السّياسي والاقتصادي وردت سورة القصص تدور حول محوريْن ، وهما : التحرّر من سلطان التّألّه السياسي في الحُكم ،

---

(1) آل عمران : 196 ـ 198 .

(2) القصص : 75 ـ 83 .

(3) التوبة : 31 .

والتحرّر من سلطان التألّه المالي في المعاملة . وقد برزت في هذه السورة شخصيّة فرعون القائل : « يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » (1) وقارون الذي « كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ » (2) بكنوزه العظيمة وثروته الطائلة ، وكان الهلاك مآلهما.

وبهذه الفكرة تُنهي سورة القصص قصّة المتألّهين على الناس، السالبين نحريّاتهم ، لترجع بنا في خاتمتها إلى الإيمان بالله ، والخضوع إليه دون سواه

وقد صوّر القرآن أدقّ تصوير صاحبَ الحريّة الفرديّة الذي يأمر بالعدل ، بعد أن باشره بقوله وحكمه وتصرّفاته ، وهو مستقيم في سلوكه ، متهيّيء للتعاون والتوادّ مع غيره في المجتمع دون عُقَد أو مركّبات ، وفاقدَ هذه الحرية الذي لا يستطيع إبداء الرأي بالنقد أو المعارضة ، لأنه كالأبكم . ولا يستطيع الحركة ؛ لأنّه خارج الدائرة التي يعمل فيها تحت إمرة السيّد ، أو كابوس الحكم كالمشلول . ولا يقدر على الانتاج الا بمقدار ما يدفعه الخوف ، وتحيط به الرّهبة (3) .

قال تعالى :

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ . أَيْنَمَا يُوجِّهْهُ لاَ يَأْتِ

(1) القصص : 38 .
(2) القصص : 75 .
(3) **الدين والدولة** : 22 .

بِخَيْـرٍ . هَـلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ ، وهْو عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيـمٍ ؟ » (1) .

لذلـك دعا القـرآن الانسـان إلى تنظيـم دوافـع الحيـاة وضروراتهـا ، وحاجات الجسـد ومتطلّباتـه ، وبيـّن له في جـلاء استعـداده للـكمـال والنقـص ، والخير والشر . فهـو ليس ابن الخطيئة الأولى ، وبـذرة الشجـرة المحرّمـة التي أكـل منهـا آدم كمـا تعتقـد الـكنيسـة ، ولم تُلعـن الأرض من أجلـه كما جـاء في التـوراة (2) ، وإنَّـمـا يولـد على الفطـرة كصفحة نقيّة بيضاء لا يلاحقـه ذنب ، ولا تتبعه لعنـة ، حتى إذا رشد تولّى امـر نفسه في العقيـدة . فيديـن بعقلـه فيمـا رأى وسمـع ، ويديـن بوجـدانـه فيمـا طـواه الغيب (3) .

ويـتحمـّـل مسـؤوليـة عملــه فـردا ، جمـاعـة بـحيـث لا يؤاخـذ واحـد بـوزر واحـد ولا أمّة بـوزر أمّـــة

« ومَنْ يَـكْسِـبْ إِثْمـًا فَإِنَّما يَـكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِـهِ » (4)

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ . لَهَا مَا كَسَبَتْ ولَـكُمْ مَا كَسَبْتُمْ . وَلا تُسْأَلُـونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُـونَ » (5) .

---

(1) النحـل : 76 .

(2) سفر الخليقة : فصل : 3 . فقرة : 19 .

(3) عباس محمود العقاد : **الانسان في القرآن** : 12 .

(4) النسـاء : 111 .

(5) البقـرة : 140 .

وإنّا لنجد في القرآن تحليلا جذريّا لنفسيّة الإنسان بطريقة مباشرة كما تقدّم ، أو غير مباشرة : كما في القصّة التمثيليّة التي يروق الإنسان أن يرى فيها نفسه ممثّلة في غيره (1) .

وقد ذكر النفس الإنسانيّة بكلّ أبعادها وقواها المختلفة التي يدرسها اليوم علم النفس التحليليّ . وهي أنواع :

1) : النّفس السفلى : وهي التي استقرّت في أعماقها مجموعة النزعات، والرغبات والميول البدائية المكبوتة في اللاّشعور ال« هو » . وتبقى هنالك دائمة التأثير على سلوك الفرد في حياته اليوميّة من حين لآخر ، محاولة التعبير بالحيَل اللاّشعورية كالأحلام ، وفلتات اللسان ، والتبرير ، والإسقاط (2) ... الخ .

ويقابلها في القرآن : (النّفس الأمّارة بالسّوء) .

« ومَا أبَرِّىءُ نَفْسِيَ . إنّ النَّفْسَ لأمّارةٌ بِالسُّوءِ » (3)

2) : النفس الواعية : وهي التي تُواجه العالم الخارجي وتتأثّر به . وتكاد تكون صورة للواقع الذي تُقرّه البيئة والتقاليد الاجتماعية ال« أنا » . فكل ما يصدر عنها من سلوك عادي ، أو ميول مهذّبة هو نابع من الشعور . وهذه يمكن أن تقابلها في القرآن : (النّفس الملهَمة)

« ونَفْسٍ ومَا سَوّاهَا فَألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا » (4)

---

(1) راجع : القصة التمثيلية فى الفصل 4 منقسم البحث النظرى: صفحة: 245

2) انظر : **الدوافع النفسية** لمصطفى فهمى : 145 .

(3) يوسف : 53 .

(4) الشمس ـ 7 ـ 8 .

3) : النّفس العليا : وهي الرقيب الدّاخلي الذي يقف حائلا دون اندفاع الرّغبات والميول ، سواء أكانت شعورية أم لا شعورية ، أي : سواء أكانت صادرة عن ال« أنا » ، أم عن ال« هو » . إذا كانت تلك الرغبات والميول تصادم القيم الاخلاقية والتعاليم الدينية التي تلقّاها الفرد وتأثّر بها "الأنا الأعلى". ويتكوّن هذا الرقيب الدّاخلي تكوينا لا شعوريًا (1) وتقابلها في القرآن "النفس اللوّامة" .

« لاَ أقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ . ولا أقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » (2)

وكما بيّن القرآن ما هو ثابت في طبع الانسان ، فقد بيّن أيضا أنّ النّاس لم يُخلقوا على طبيعة واحدة ، ولم يخرجوا على نسق واحد في النزعات والرّغبات ، والأفكار والتصوّرات ، بل إنّ كلّ فرد من أفراد الإنسان شخصية مستقلّة ، له وجهته وتطلّعاته ، وعالم بذاته ، له منازعه ورغباته ، وأفكاره وخطراته .

والفرق بين إنسان وإنسان ليس فرقا نوعيًا ، ولكنه فرق كيفيّ

« فكل شخص نسخة من صنع الله ، ولكنه نسخة فريدة »

« ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ » (3)

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ . فَرَبُّكُمْ أعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أهْدَى سَبِيلاً » (4)

---

1) **الدوافع النفسية** : 148 .

(2) القيامة : 21 .

(3) البقرة : 147 .

(4) الاسراء : 84 .

وتبتدىء الشّخْصانيّة عندما يرفض الانسان الطّاعة العمياء : طاعة الاشخاص وطاعة الاشياء ، ويعترف بالقيمة العليا للعقل والفكر (1) .

لذلك نعى القرآن على الإنسان تبعيّته الذّليلة الناشئة عن فقدان الذاتيّة ، وتحجُّر الفكر ، وغباوة الأُلفة والغفلة ، لأنه يريد أن يستقبل مشاهد الكون بحسّ متجدّد ، ونظرة فاحصة مُستطلِعة .

« إذْ تبَرّأَ الذين اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا ، ورَأَوُا العَذابَ وتَقَطّعَتْ بِهِمُ الأسْبَابُ . وقَالَ الذين اتّبَعُوا لَوْ أنّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبرَّأوا مِنّا . كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ . ومَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » (2)

وندّد بتصامم أقوام الأنبياء ، وتعطيل عقولهم وحواسّهم عن التدبّر في ما جاء به أنبياؤهم بتقليد آبائهم ، واقتدائهم بهم في المعتقدَات ، فرسم لجمودهم صورة زريّة ، لا تليق بإنسان له شخصيّة تنبثق خصائصها من أعماق ذاته ، فيتحدّى بها كلّ عائق ، وكلّ ضغط خارجي .

« وإذا قِيلَ لَهُمُ اتّبِعُوا مَا أنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : بَلْ نَتّبِعُ مَا ألْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولاَ يَهْتَدُونَ ؟ ومَثَلُ الذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذي يَنْعِق

---

(1) **الشخصانية الاسلامية** : 11 ـ 12 .

(2) البقرة : 164 ـ 166 .

بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً ونِدَاءً . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ » 1)

كما ندّد القرآن بطاعة الجماهير العمياء لفرعون الطاغية ، وعلّل استجابتهم له ، فقال : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأطَاعُوهُ . إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأغْرَقْنَاهُمْ أجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا ومَثَلاً لِلآخِرِينَ » (2)

والنُّظم الحديثة تنظر إلى الإنسان في المجتمع نظرتين متقابلتين : نظرة ترى أنَّه ذاتيّة مستقلّة ، ولكن لها علاقات بالغير تحدّدها القوانين والسلوك الأخلاقي والعادات

والنظرة الثانية ترى أنَّه جزء في كلّ ، يذوب وينصهر فيه ، ولا تُعرف معالمه وحدوده ، ألاّ أنَّه يُسهِم في نشاط « الكلّ العام »

والنظرة الأولى هي التي يراها الإسلام ، لأنّه لا يُلغي ذاتيّة فرد لمنفعة فرد آخر ، ولا يُذيب شخصيّة إنسان في شخصيّة آخر مهما كان بينهما من علاقات الصّلة والقربى والمودّة ، فضلا عن المجتمع . فهو مع حرصه على نموّ علاقة الانسجام والودّ والاستقرار بين الزَّوج والزوجة يحرص في الوقت نفسه على استقلال الزّوجة في التصرّف في الشؤون الماليّة الخاصّة بها . كما يمنعه من حملها على الإسلام إذا كانت غير مسلمة .

---

(1) البقرة : 169 ــ 170 .

(2) الزخرف : 54 ــ 56 .

فذاتيّة الفرد وشخصيّته إذن شيء ، وعلاقته بفرد آخر في المجتمع شيء آخر (1)

سؤال وجواب :

وقد يقال في معرض الحديث عن شخصيّة الإنسان كما جاءت في القرآن وقصصه :

عندما نستعرض الآيات القرآنية الواردة في الإنسان فانّا لا نكاد نجد فيها إلاّ وصفه بأخسّ الصفات وأفدح العيوب : كالغرور والكبْر والطغيان والكفر والجهل والظلم .

أفلا يكون ذلك مما يبعث على التشاؤم من مصير هذا الانسان الحقير التعس ، ويحمل على القول بأنه أقرب إلى الشّرّ منه إلى الخير ، بل كأنه مجبول على الشرّ ، مفطور عليه ؟

ولا شكّ أن هذا من أعظم ما يدعو إلى اليأس من إصلاحه .

وممّا يؤكد هذه الحقيقة أنّ القرآن يقصّ علينا ما عاناه الأنبياء من أقوامهم ، وجهادهم المرير من أجل هدايتهم ، ولكن بدون جدوى ؛ فإنّ معظم أولئك الأقوام كانت نهايتهم إلى البوار .

وهل إنّ المعرّي في فلسفة تشاؤمه من البشر وحكمه عليهم جميعا بأنهم لا يستحقون الحياة ، كان متأثرا بما ورد في القرآن من هذا القصص . فهو يقول مثلا :

---

(1) **الدين والدولة** : 351 .

مَضى الزمان ونفسُ الحيِّ مُولعة بِالشَّرّ من قبلِ هابيلٍ وقابيلِ
لَوْ غُربِل الناس كيما يعدموا سقَطا لمَا تحصَّل شيءٌ في الغرابيلِ
هل ينظرون سوى الطوفان يُهلكهم كما يقال أوِ الطيرِ الأبابيلِ (1)

فالجواب :

أنّ الذي فهم مشكلة الإنسان هو مفكر مثل أبي العلاء حين يقول :

« إلىَ الله أشكو مهجة لا تطعيني »

أو مثل قوت (Goethe) إذ يقول : « إنّ روحين تسكنان في صدري » ،

أو مثل فخرالدين الرازي إذ يقول : « وأرواحنا في وحشة من جسومنا »

إن الإنسان أرقى الكائنات الحادثة ، وجمالُه في إشكال طبيعته ، وفضلُه في السّعي المتغلّب على ضروب المحن والإغراء ، وما يلحق بذلك من الآلام ، وفي قبوله عبء طبيعته وعبء هذه الحياة ، راضيا بنفسه ، محاولا إيجاد الانسجام بينه وبين نفسه ، وبين الإرادة العليا . وهنا فقط يملك نفسه كلّها ، ويراها في حالة من الوجود الحقّ ، والخلود الذي ليس له حدود .

ثمّ إن تاريخ الانسانية الطويل يؤكّد ما وصف به القرآن الإنسان من صفات لم يقصد بها الحطّ من كرامته ، وإنّما لتذكيره

---

(1) **مناهل الادب العربي** : اللزوميات .

بما هو فيه ، حتى يكون خيرا ممّا هو عليه ، وفي مستوى المنزلة الرفيعة التي أعدّها الله له إذا استقام ، باعتباره خليفة له في الأرض .

وهو لم يأمر ملائكته الكرام بالسجود لآدم إلاّ تكريما للإنسان وتشريفا له :

« ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ والبَحْرِ ورزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » (1)

وفي القرآن آيات عديدة تذكّر الإنسان بنعم الله عليه « وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا » (2) .

ولكن الإنسان لم يقابل هذه النّعم بالشكر ، كما قال جل شأنه : « وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » (3)

وإذا استعرضنا مواقف الأنبياء مع أقوامهم من خلال القصص القرآني ، أدركنا حقيقة جهادهم ، وما تحمّلوه من أذى أقوامهم في سبيل إنقاذهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان .

فإنّ نوحا عليه السلام لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلاّ خمسين عاما . ولكنّه لم يؤمن به طيلة هذه القرون سوى فئة قليلة هم الذين نجّاهم الله معه في السفينة : « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلا قَلِيلٌ » (4)

---

(1) الاسراء : 70 .
(2) ابراهيم : 36 .
(3) سبا : 13 .
(4) هود : 10 .

قال تعالى .

« ومَا أكثَرُ النَّاسِ ولَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » (1) .

وقال : « وإنَّ كَثِيرًا مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض إلاَّ الذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقَلِيلٌ مَا هُمْ » (2)

وليس معنى ذلك أنّ الانسان مجبول على الشرّ ، كما قد يتبادر إلى الأذهان ، ولكن آفة الشرّ طارئة عليه من داخل نفسه الأمّارة بالسّوء ، ومن الخارج .

يقول ابن خلدون : « كان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشرّ بأصل فطرته وقوّته الناطقة العاقلة ، لأنّ الشرّ إنّما جاء من قِبَلِ القوى الحيوانية فيه . وأمّا من حيث هو إنسان ، فهو إلى الخير وخلاله أقرب » (3) .

ففي النفس غضب وشهوة يزيّنان لها الضلال والهوى والجوْر ، وجهل يطمس عليها الطُّرق ، ويساوي عندها بين السّبل ، ويهجم بها على إحدى الطرق المتنكّبة عن الحق تهوّرا ، أو جُبْنا ، أو إلفا وتقليدا ، أوْ سوء اختيار .

وأما الآفات الخارجية فمتأتّية من فتنة الدّنيا ، إذ يغترّ الإنسان بما أوتي من مال أو سلطة أو جاه ، فيبغى ويطغى ويعيث في الأرض فسادا .

---

1) يوسف : 103 .

2) ص : 22 .

(3) المقدمة : 250 .

ومن هنا كان أكثر أتباع الأنبياء من الضعفاء والفقراء ، لأنّهم أبعد الناس عن الكبر وتيه الغواية :

« وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا : أهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا ؟ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ؟ » (1)

يقول فولتير (Voltaire) : استمرّت الديانة المسيحية لا يدين بها إلاّ أخسّ النّاس مدة مائة عام (2)

فكان إعراض الإنسان عن الحق ، وغفلته ، وإيثار حريته في إشباع غرائزه وشهواته على التقيّد بالتعاليم السماوية ، والحدّ من حريته الشخصيّة ، وكبره على الهدى ، وغيّه وظلمه وقسوة قلبه ؛ كل ذلك كان مدعاة لتبصيره بحقيقة وجوده ، وتذكيره بضعفه وعيوبه ؛ لأنّه بحكم استعداده الفطري قادر على رفض ما يقود إليه الجهل والشهوة والغضب والغرور .

فقد خلق الله فيه قوّة التّمييز التي جعل له بها سبيلا إلى فهم خطابه ، وما دعا إليه رسلُه ، وإلى معرفة الخير والشر ، وإيثار ما دلّ عليه الفهم ، وأنار سبيلَه العقل (3) .

بالإضافة إلى أنّ الإيمان بالله من فطرة الله التي فطر النّاس عليها ، وملأ بها الكون بالآيات والشواهد الدّالّة على وجوده وعظمته وقدرته . فكانت هذه الفطرة بمثابة عقد جرى بين الله والإنسان في أن ينظر ويفكّر ويستدلّ ، حتى يؤمن بالله ولا يشرك به

---

(1) الانعام 54 .

(2) لوبون (Le Bon) : **روح الاجتماع** : 143 .

(3) انظر : **الاحكام في أصول الاحكام** : ابن حزم . ج : 5/4 .

« وإذْ أخَذَ رَبكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأشْهَدَهُمْ عَلَى أنْفُسِهِمْ : ألَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى » (1)

وأشنعُ العيوب ما تلبَّس بمَن يقدر على التخلّص منه ، ثمّ هو لم يفعل ، كما قال المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقْص القادرين على التمَام (2)

ورغم ذلك فإنّ القرآن لم يَبعث على اليأس من إصلاح الإنسان وتقويمه ، حتّى يصحّ القول بأنّ المعرّي كان في فلسفته المتشائمة من البشر جميعا متأثّرا بنظرة القرآن للانسان . بل إنّ القرآن فتح للانسان باب التوبة ليحيي في قلبه الأمل ، ويجتثّ من شعوره عقدة الإحساس بخزي خطاياه وآثامه :

« قُلْ : يَا عِبَادِيَ الذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ . إنّ اللهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا . إنّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » (3)

وجاء في القرآن على لسان يعقوب عليه السّلام :

« يَا بَنِيّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخِيهِ ، ولا تَيْأسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ . إنّهُ لاَ يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاّ القَوْمُ الكَافِرُونَ » (4)

---

(1) الأعراف : 172 .
(2) **التبيان فى شرح الديوان** : ج : 4 – 145 .
(3) الزمر : 50 .
(4) يوسف : 87 .

كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام :

« قَالَ : ومَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلاّ الضَّالُّونَ » (1)

وأمّا هلاك الأقوام السّابقين فلم يكن إلاّ بَعد البيان الذي اتّضح به الحقّ عندهم : « يَا مَعْشَرَ الجِنّ والإنْسِ ! ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ويُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا . قَالُوا : شَهِدْنَا عَلَى أنْفُسِنَا . وغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وشَهِدُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ أنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . ذلِكَ أنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وأهْلُهَا غافِلُونَ » (2)

بقيت نقطة أخرى قد تُثار تعقيبا على ما جاء في تعليل قلّة عدد المؤمنين في مختلف عصور التاريخ . وقد قيل :

إنّ الذين آمنوا بنوح ونجّاهم الله معه في السفينة لم يتجاوز عددهم اثني عشر بين رجال ونساء .

والذين آمنوا بمحمد طيلة المرحلة المكيّة التي نزل فيها أكثر القصص القرآني ومدتها ثلاث عشرة سنة . لم يتجاوز عددهم السبعين . وقد يقال : أمن أجل هذه القلة الضئيلة العدد ، تُبذل مثل هذه الجهود المضنية ، والتضحيات الموصولة من الرّسل وأتباعهم من عهد نوح إلى عهد محمّد عليهما السّلام ؟

---

(1) الحجر : 56 .

(2) الانعام : 131 ـ 132 .

وهل تعادل هذه الحصيلة من المؤمنين تلك العناية الإلهية الكريمة بارسال الرُّسل تترى رغم العناد والإعراض والكفر ؟

نعم إنّ استقرار هذه الحقيقة في قلبٍ ، معناه : أن ينطوي هذا القلب على قبس من نور الله ، وأنْ يكون مستودَعا لسرّ من أسراره ، وأن يكون أداة من أدوات قدَره النافذ في هذا الوجود . وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ، وأكبر من أرضه وسمائه ومن كلّ هذا الكون الكبير .

وقد أثبت الواقع التّاريخيّ أنّ البشريّة لا يمكن لها أن ترتفع ولا أن ترقى عن طريق فلسفة أو علم أو فنّ أو نظام إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوّراتهم وقيمهم . وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل ، سواء أجاءت مجملة ، كما في الرّسالات الأولى ، أم مفصّلة شاملة ، كما في الرسالة الأخيرة (1)

يقول ق . لوبون (G. Le Bon) : يظهر أحيانا أنّ الأمم تُدفع بقوى خفيّة ، على أنه لا بسَعنا أن نعرف إلاّ قليلا عن تلك القوى ، وذلك بالبحث عنها في حركة تطوّر الأمة ، لا في الحوادث الفردية التي يُخال أنّها سبب ذلك التطوّر . إذ لو قصّرنا النّظر على هذه الحوادث ، لظهر أنّ التاريخ يتكوّن من مصادفات غير معقولة بالمرّة . فلقد كان ممّا لا يصدّقه العقل أن عصابات من العرب تندلع من صحاريها ، وتبسط فتوحها على القسم الأكبر من

---

(1) انظر : **في ظلال القرآن** . ج : 29 / 118 ـ 122 .

الدنيا القديمة التي عرفها اليونان والرومان ، وتختطّ مملكة فاقت ضخامتها مملكة الإسكندر (1)

شخصية المرأة

ومما يجدر اعتباره في تسوية القرآن بين أفراد الإنسان . أنه لم يفرّق في الحقوق الأدبية ، والحياة الرّوحية بين الرجل والمرأة ؛ لأنّهما خلقا من نفس واحدة . فكانت مثْلَه مناط التكليف والمسؤولية ، وأهلا للتشّريف بخطابات السماء ، بل بالوحي الإلهي ، كمريم وأم موسى .

وبذلك رفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرّيّة آدم وحواء ، ورفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية (2) التي استولت على الناس قرونا طويلة ، وحرّرها من العبوديّة ، وأنقذها من الأحكام الجائرة عليها .

فليست المرأة في القرآن هي السبب الأصليّ في آلام العالم وأحزانه ، كما جاء في الأسطورة الافريقية القديمة "بندور" ، وليست (بليّة العالم) كما كان يسمّيها اليونانيون ، ولا "الشيطان الجميل" ولا "ينبوع المسرّات السامّة" ، كما كان يسمّيها اللاّتينيّون .

ولم تكن هي التي بدأت بالخطيئة الأولى وأغوت آدم ، كما جاء في العهد القديم (3) ، بل كلاهما شرّفه الله بخطابه ، وتحدّث

---

(1) **روح الاجتماع** : 192 .
(2) عباس محمود العقاد : **المرأة في القرآن** : 80 .
(3) سفر التكوين : الاصحاح الثالث .

عنهما وكأنّه يتحدّث عن شيء واحد : « فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ »

وكلاهما وسوس له الشيطان وأغراه :

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا »

وكلاهما عاتبه ربّه على نسيانه العهد واتّباعه الشيطان :

« وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا : أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ، وَأَقُلْ لَكُمَا : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ »

وكلاهما أعلن توبته لله وطلب منه المغفرة :

« قَالاَ : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا . وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (1)

كما تظهر المساواة بينهما في الشخصيّة عند تكرار قصّة إبراهيم وتبشيره بغلام . فقد كانت البشارة مرّة له : « وَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ » (2) ، ومرّة لزوجه : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ » (3)

وذلك لا يدلّ على أنّ في القصّة واقعتين مختلفتين ، أو أنّ القرآن يتناول مسائل التّاريخ في حرّية فنّية . كما يرى الدكتور

---

(1) الذاريات : 26 .

(2) الاعراف : 18 ـ 22 .

(3) هود : 70 .

"خلف الله" (1) ، ولكنه يدل على نظرة القرآن إلى الزوجين ، وكأنّهما شيء واحد في الشعور الإنساني . فإسحاق ابنهما معا ، فهما شريكان في هذه المنّة .

وقد أخذت المرأة مكانها في القصص القرآني ، كإنسان لها شخصيّتها التي تُعبِّر عنها بالقبول والرفض ، والفكر المستقلّ ، والإرادة المتحرّرة ؛ وكامرأة لها خصائص أنوثتها

فقد استطاعت امرأة فرعون أن تحرّر فكرها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثّرات والقيود ، فترفض أن تسير في ركاب زوجها ، وأن تنساق في تيّار المجتمع الذي تعيش فيه ، بل تُعلن عن موقفها في ثبات وإيمان ، بعد أن اتّضح لها ضلال فرعون وقومه ، وتبيّن لها الحقّ في دعوة موسى ، رغم ضغط المجتمع وشدّة وطأته ، ورغم مغريات الحياة الرخيّة الناعمة في قصر أعظم ملوك الأرض ، ورغم آصرة الزوجيّة التي تربطها بفرعون : فكانت مثلا للشخصيّة الإنسانيّة المستقلّة في الإيمان بالمبادىء والقيم .

« وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إذْ قَالَتْ : رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ ، ونَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ، ونَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ » (2)

وكانت على نقيض ذلك امرأة لوط ، فكلتاهما لم تهتد بنور النبوّة المشرق في بيتها . بل تحوّلت عن زوجها النبيء إلى الجبهة

---

(1) **الفن القصصي فى القرآن الكريم** : 248 .

(2) **التحريم** : 11 .

المعادية ، وخانت دعوته ، وكانت حربا عليه مع الكافرين . فأصابهما ما أصابهم من عذاب الله .

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلذينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ، فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وقِيلَ : ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ » (1)

وفي إشارة القرآن هنا ما يؤكّد المسؤوليّة الفرديّة . فكلّ إنسان رجل أو امرأة مسؤول عن ذاته ، ولن يعفيه من هذه المسؤولية شيء .

وهو لم يعيّن في هذه الإشارة أسماء النسوة اللاّئي ضَرب بهن المثل في الإيمان والكُفر ، « لأن إشارته تعني حقيقة دائمة مستقلّة عن الأشخاص ، وإنّما الأشخاص مجرّد أمثلة لهذه الحقيقة » (2)

وفي سورة مريم يظهر جانب من خصائص الأنوثة متمثّلا في عذراء طاهرة متبتّلة يمتلكها الرعب والهلع ، إذ تجد نفسها في خلوة مع الملك الذي تمثّل لها رجلا ، فتستثير فيه مشاعرَ التّقوى والخوف من الله ، ثمّ تدركها شجاعة الأنثى المهدّدة في عرضها وشرفها ، لمّا صارحها بما يخدش سمعَ العذراء الخجول .

« واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ : إِنِّي أعُوذ

---

(1) التحريم : 10 .

(2) **في ظلال القرآن** : ج : 28/173 .

بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَال : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ... ؟ » (1)

ويظهر للمرأة في قصص القرآن جانب آخر تتمثّل فيه عاطفة الأمومة في أمّ موسى :

« وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ . وقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ..... » (2)

وفي قصّة يوسف تظهر في امرأة العزيز جوانب أخرى للمرأة : وهي عاشقة ، وهي منتقمة لكبريائها ، وهي نادمة .

فإنّها لم تكد تُعجَب بحسنه وجمال طلعته حتى تُفتن ، فتطغى عاطفتها على الواجب ، ويستبدّ بها الغرام ، فتراوده عن نفسه في مخدعها ، فيأبى ويستعصم ، فتكيد له وتتّهمه باطلا أمام زَوجها . ولكنها عاشقة ! فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون إبقاءً على حبّها . وما هذا العقاب إلاّ انتقاما لكبريائها ، وهي التي شذّت عن طبيعة المرأة في التمنّع ، وبذلت نفسها في ذلّ لمن أعرض عنها في عزّ .

---

(1) مريم : 15 ـ 20 .

(2) القصص : 10 ـ 11 .

« واسْتَبَقَا البَابَ وقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ . قَالَتْ : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً إلاَّ أنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ » (1)

ولمَّا ذاع خبرها بين نساء المدينة ، وبخاصّة في الوسط الارستقراطي الذي لاهَمّ لنسائه إلا الحديث عمَّا يجري في محيطهن ، عيل صبرُها . فجمعتْهن في قصرها ، وأمرته بالخروج عليهنّ ، كي يلقين من طلْعته ما لقيتْ من الدهش والإعجاب ، فيكون لافتتانها به ما يبرّره . وفعلا فقد تواطأن معها على كيْدها :

« وقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ : امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا . إنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وأعْتَدَتْ لَهُنْ مُتَّكَئًا . وآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ، وقَالَت : اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ . فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ وقُلْنَ : حَاشَ للهِ . مَا هَذَا بَشَرًا ، إنْ هَذا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ . ولَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ . ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ » (2)

ويدلّ تهديدها إياه على ثقتها بسلطانها على زوجها رغم علمه بأمرها ، واستعظامه لكيدها ، شأنه في ذلك شأن المترفين العاجزين

---

(1) يوسف : 25 .

(2) يوسف : 30 ـ 32 .

عن صدّ زوجاتهم . وإن لنساء الأكابر في الأمصار التي أفسدتها الحضارة كيدا وخداعا (1)

كما أنّ هذه المشاهد تُلقي الأضواء على نفسيّة المرأة المترَفة ذات المنصب الرفيع ، وما لجمالها من سلطان تفرضه على زوجها ؛ حتى لَتملك منه القياد في المواطن التي تتأجّج في مثلها قلوبُ الرجال غيرة وحميّة . فقد كان جواب العزيز بعد أن تبيّن له حسب شهادة شاهد من أهلها ، أنّها هي التي راودته « يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هَذَا ، واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ . إنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ » (2)

وبعد شهادة النسوة ببراءة يوسف من كلّ ما اتُّهِم به ، تتقدّم امرأة العزيز ، فتشهد أيضا ببراءته وصدقه ، وتعترف بما صدر عنها من مراودته ، حرصا منها على أن يحترمها الرجل المؤمن بتقديره لإيمانها ولصدقها في حقّه عند غيبته ، بعد أن تبيّن لها أنّه لا يقدّرها من أجل جمالها الجسدي .

قَالَ : « مَا خَطْبُكُنَّ إذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ . قُلْنَ : حَاشَ للهِ . مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ . قَالَتِ امْرَأةُ العَزِيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ . أنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . ذلِكَ لِيَعْلَمَ أنِّي لَمْ أخُنْهُ بِالغَيْبِ ،

---

(1) **المنار** : ج : 12 / 299 .

(2) يوسف : 29 .

وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ . ومَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي . إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلاّ مَا رَحِمَ رَبِّي . إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » (1)

وهكذا نلاحظ أنّ وجود المرأة في بعض القصص القرآني لم يقصد به الاستثارة أو الترفيه ، أو إشباع بعض الميول ، كما نجد ذلك في القصص الإنساني العاطفي ، وإنّما لأنّ الحدث استدعى وجودها بصورة تلقائية ؛ فتؤدي دورها في القصّة كامرأة لها عواطفها ومشاعرها الخاصّة ، أو كإنسان لها شخصيّتها المتميّزة ، وذاتيّتها المستقلّة . فلا يُطفي القرآن على وجودها ألوانا زاهية جذّابة ، ولا يسلّط عليها أضواء أكثر ممّا تقتضيه طبيعة المشهد .

سؤال وجواب :

ولعلّ من المفيد أن أذكر بهذه المناسبة ما كان وُجّه إليّ من أسئلة عند تحليلي لشخصيتيْ يوسف وامرأة العزيز من خلال سورة يوسف ، في برنامج دراسي حول "قصص القرآن" .

وهذا معنى السؤال كما ورد عليّ : (2)

إنّ ما في قصة يوسف عليه السلام من احتدام الصّراع بين العاطفة والواجب، قد استفيد عرَضا من بعض المواقف في القصّة . فلا أرى فيه تشخيصا كما عوّدنا القرآن في كثير من المشاهد التي يعرضها !

---

(1) يوسف : 51 ــ 53 .

(2) ادخلت تحويرا على صيغة السؤال واسلوب التعبير فيه مع الاحتفاظ بالمعنى لأسباب لغوية فنية .

وقد يقال :

أفلا يكون تصورُنا أعمق ، وإكبارنا أجلّ لعفّة يوسف ، وتماسكه أمام الإغراء الصارخ ، لو استوقفَنا القرآنُ قليلا ، ووَصَف لنا جمالَ امرأة العزيز . كما يكون إدراكنا لشغف امرأة العزيز بيوسف أدقّ وأوضح ، لو وَصف لنا يوسفَ بأكثر ممّا وصفه به في حسنه وفتوّته أو نحو ذلك مما يستهوي المرأة في الرجل ، حتّى يكشف لنا عن هذا الصراع داخل نفسها بين صوت الضمير وداعي الهوى والحبّ ، ولعلّ بعض كتب التفسير والتاريخ والقصص هي التي عرّفتنا بهذا الصراع ، وأوقفتنا على نقاط قوّته وضعفه . بينما القرآن الكريم يجري بنا في القصّة من مشهد لآخر ، دون أن يدعنا نستريح لنردّ أنفاسنا إلاّ في نهايتها . ولست بهذا التساؤل أعترض على أسلوب القرآن الحكيم ، ولكن أريد أن أدفع هذا الاعتراض بما فيه مقنع لكلّ من تساوره مثل هذه الفكرة ، وبما فيه بيان للمنطق القرآني في مثل هذه المواقف .

الجواب :

القول بأنّ تشخيص الصّراع في مثل هذه المواقف إنمّا يتمثّل في وصف جمال المرأة ومفاتنها ، هو ضرب من الوهم . بل إنّ ذلك طريق لا شعوري لإشباع الغرائز بأطياف اللذائذ الجنسيّة ، يفسّره إقبال الجمهور على الروايات والأقاصيص الغراميّة في الكتب والسينما بحثا عن التسلية ، وصرفا للفكر عن مشكلاته الأساسية ، ولكنّها تسلية غير بنّاءة تستنزف جهدا ووقتا ، وتنتهي إلى إفلاس وجدانيّ

ومرض خلقي ، وقلق نفسي ؛ أعراضه إدمانٌ في طلب التسلية ، وقلّة حماس عند القيام بالأعمال الجدّيّة ، وخيالٌ يعزل عن الواقعيّة .

فالقرآن لم يصف لنا هذه الفتنة التي تحدّث عنها المؤرخون والقصّاص حتى لا يفتن النّاس ، أو يشغلهم عمّا يجب أن يصرفهم إليه . ولكنه صوّر لنا الصراع وشخصية يوسف بمثل قوله :

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ . قَالَ : مَعَاذَ اللهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .... » (1)

وبمثل قوله : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (2)

ألاّ يعبّر كلّ ذلك عن صراع عنيف بين داعية الفتنة وصوت الحقّ ؟

ثمّ إنّ ما يصوّره بعض القصّاصين من جموح العواطف ، ومغامرات الغرام ، ويعدّونه بطولات ، يعدّه القرآن ضعفا وانحلالا . فهو لا يحفل بتصوير لحظات الضعف ، ولا يتوسّع في عرضها بحجّة أنه يرينا الواقع ، كما نجد ذلك في بعض القصص السينمائي مثلا عندما يزيّن القبيح ، ويبرّر المنكرات بأسلوب

(1) يوسف : 23 .
(2) يوسف : 33 .

العرض السّاحر الجذّاب ، رغم ما يهدف إليه في النهاية من تقويم الانحراف ، وإصلاح الفساد ، ولكن ما انطبع في الذّهن أوّلاً هو الذي يبقى ، فتحصل الفتنة والإغراء ، وتضيع معاني العبرة ، ومغزى القصّة في ثنايا المشاهد الفاتنة ، وعرض الواقع المُغري.

ثمّ أيّ وصف لجمال يوسف أبلغ من وصف القرآن له ضمنيّا فيما حكاه عن النسوة اللاّئي دعتهن امرأة العزيز إلى بيتها ، وآتت كلّ واحدة منهن فاكهة وسكينا وقالت ليوسف : « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ؟ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ : حَاشَ لله . مَا هَذَا بَشَرًا ، إنْ هَذَا إلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ » (1)

نَعَمْ ! لقد أسرع القرآن في عرضه للَحظة الضعف البشري ليسلّط الأضواء على لحظة الافاقة من سكرة الهوى ، ولأنه لم يشأ أن يجعل من ذلك معرضا للجمال والإغراء حتى لا يوسّع دائرة الشّوق الجنسيّ ، أو يحصر أشواق الانسان في تلك اللحظة العابرة . وللانسان من الأشواق العليا ما يتّصل بصميم الكون والحياة .....

إنّ القرآن لا يهتف لنقص الإنسان وهبوطه ، ولكن يهتف له بأشواق السموّ والاستعلاء ، فهو لا يزوِّر الشخصية الإنسانية ، فيبرزّها في صورة مثالية لا وجود لها في دنيا الناس ، أو يجعلها سافلة ملتصقة بالأرض ، بل إنّ صدقه في تصوير أهداف الحياة اللاّئقة بعالَم من البشر ، لا بعالم من الملائكة ، ولا بقطيع من الذئاب (2).

---

(1) يوسف : 32 .

(2) سيد قطب : **العدالة الاجتماعية** : 280 .

ويقابل هذا التطرّف في وصف الواقع وتصوير الصراع تطرّف آخر لا يقلّ عنه غرابة ، وهو تجاهل هذا الواقع البشري

فقد رُوي أنّ فرقة من الخوارج تسمّى (الميمونية) من اتباع (ميمون العجردي) أنكرت سورة يوسف ، ولم تعدّها من القرآن ، لأنها قصّة غرام في زَعمها (1)

وأمّا القول بأنّ القرآن في قصصه يُسرع بنا الخطى في عرض المشاهد ، ولا يستوقفنا لنتأمّل ونستريح . فإن طريقة القرآن في إشارته البعيدة ، وايجازه المحكم ، تستدعي التوقّف الطويل ، والتأمّل العميق .

وهل يستعجلك القرآن فينقلك من مشهد إلى مشهد آخر على الرغم منك ، دون أن تكون لك رغبة وشوق وتطلّع ؟ وكم في مشاهد قصصه من آيات وعبر يمرّ بها القرّاء وهم لا يشعرون !



إذا نظرنا في قصص القرآن بحسب ترتيب النزول لاحظنا أنّه بدأ غالبًا باشارات خاطفة خالية من الحوار ، كما في سورة الفجر : (6 — 14) ، وسورة الفرقان : (35 — 40) ؛ وذلك لأنّ الغرض هو إثارة الوجدان ، وإيقاظ الفكر .

ثمّ تدرّج نحو الطول والتفصيل بتدرّج أسلوب الدعوة ، وتهيّؤ النفوس للاطّلاع والمعرفة ، واستعداد العقول للجدل ،

---

(1) محمد ابو زهرة : **تاريخ المذاهب الاسلامية** • ج • 1 / 92 •

والخوض في القضايا الغيبيّة التي كانت محور هذا القصص وهي : التوحيد ، والرسالة ، والبعث .

فكان لابدّ لتقرير هذه الحقائق من تريّث وأناة وتأمّل ، وكان لابدّ بعد الإصداع بالدعوة المحمّدية من الدخول في الجدل والمناظرة سواء مع من يبغون المعرفة للهداية والإرشاد ، أو مع المكابرين والمعاندين لدحض حججهم وقطع مبرّراتهم ومعاذيرهم

ومن هنا كان دخول عنصر الحوار الذي تدرّج بالقصّة من الإشارة إلى التفصيل ، ومن العامّ إلى الخاص ، وممّا تغني فيه العاطفة إلى ما يحتاج إلى الفكر والنظر ، كما سبق بيان ذلك في الفصل الثاني لقسم البحث النظري (1)

ولم يسلك الحوار بالقصّة القرآنية مسلك التبسّط فحسب ، بل رسم فيها معالم الشخصيّات الإنسانية ، بالتعبير عن خواطرهم النفسيّة وآرائهم ومواقفهم ، وما شجر بينهم من صراع ، على طريقة الحكاية عنهم ، ونقل أقوالهم نقلا أمينا لا مبالغة فيه ولا افتعال ، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه ، لا على الصيغة التي صدرت فيها ، ولو كان المنقول عنهم من العرب ، حتى يكون الاعجاز البياني للأقوال المحكيّة إعجازا للقرآن ، لا لتلك الأقوال (2)

وهو لاينقل كلّ ما دار بينهم، وإنما يختار اللّقطات المُوحية، والعناصر الحيّة التي تحقق الغرض ، وتفي بالحاجة ، وتكون أكثر دلالة ومغزى .

---

(1) انظر : صفحة : 91 ـ 93 .

(2) انظر : **التحرير والتنوير** . ج : 1 /107 .

فإن نوحا عليه السلام لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلاّ خمسين عاما . ولكن القرآن لم ينقل من محاوراته في هذه القرون الطويلة سوى عيّنات هي خلاصة دعوته وجوهرها ، ممّا يخدم الدعوة الاسلامية ، وينسجم مع بيئتها ، ومع الظروف النفسيّة التي كانت تحيط بالنبيء صلّى الله عليه وسلم

والميزة الأخرى لهذا الحوار القرآني أنه لم يكن مصدره دائما هو الإنسان ، كما هو المألوف ، بل اشتركت فيه عناصر متباينة.

فنجد في القصص القرآني حوارا :

بين الله والملائكة :

« وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ : إني جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا، وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ..... الخ (1) » .

وبين الله والانسان :

« أوْ كَالذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وهْيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا . قَال : أنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ

---

(1) البقرة : 29 ـ 32 .

ثُمَّ بعَثَهُ . قَال : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَال : لَبِثْتُ يَوْمًا أوْ بَعْضِ يَوْمٍ ...... الخ » (1) .

وبين الله وابليس :

« قَال مَا مَنَعَكَ ألاّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ . قَال : أنَا خَيْرٌ مِنْهُ . خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَال : فَاهْبِطْ مِنْهَا. فَمَا يَكُونُ لَكَ أنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَال : أنْظِرْنِي إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » (1) .

وبين الانسان والملائكة :

« وهَلْ أتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المِحْرابَ ، إذْ دخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا : لا تَخَفْ. خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ..... الخ » (2)

وبين الانسان والحيوان :

« وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَالِي لا أرَى الهُدْهُدَ أمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ ؟ لأعَذِّبَنَّهُ عَذابًا شَدِيدًا أوْ لأذْبَحَنَّهُ ، أوْ لَيَأتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَمَكُثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَال : أحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ....الخ » (3) .

---

(1) الأعراف : 10 ـ 17 .

(2) ص : 20 ـ 23 .

(3) النمل : 20 ـ 28 .

والخوض في الطَّريقة التي جرى بها الحوار بين هذه العناصر المتباينة لا يُجدي . وقد استشكل بعض المفسِّرين ولا سيما علماء الكلام منهم خطاب الربّ سبحانه للشيطان في هذا التحاور الطويل ، واختلفوا فيه : هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسل البشر ؟ أم بغير واسطة وكيف ، وهو يقتضي التكريم ؟ (1) وهل إنّ ما حكاه القرآن على لسان الهدهد تخييل أو تمثيل ، أو تعبير بلسان الحال ؟

إن محاولة الإجابة على مثل هذه التساؤلات تُفضي إلى التحكّم . والإيمان يدعونا إلى التسليم بأنّ ما جاء في هذا الحوار حقّ ، دون البحث في كيفيته .

لكن الذي يجدر اعتباره هنا أنّ محتوى هذا الحوار مهما كان مصدره لم يخرج عن منطق البشر ، بل تطمئن إليه العقول وتستجيب له المشاعر .

وللحوار دورهام في القصص القرآني فهو الذي يبعث الحياة والحركة في الحدث ، ويؤدّي إلى الهدف ، ويُظهر المغزى ، ويكشف عن مدى الصّراع في المواقف المتغايرة ، كالصّراع القائم بين يوسف وامرأة العزيز . كما أنّه يترجم عن الشخصيّة ، ويستبطن انفعالاتها وأزّماتها ، ويضعها في إطار نفسي معيّن ، ويزجّ بالقارىء في تجربة القصّة ليعيشها ، وتنقله من عالمه إلى عالمها ، كما نجد ذلك في قصّة يوسف على الخصوص.

وقد يكشف القرآن عن حديث المرء لنفسه في صورة حوار ، أو مناجاته لربّه.

فمن الأوّل ما جاء على لسان إبراهيم وهو يحاور قومه :

« وتَاللهِ لأكِيدَنَّ أصْنَامَكُمْ بَعْدَ أنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ »(2)

---

(1) المنار . ج : 7 / 339 .

(2) الأنبياء : 57 .

فقد أضمر إبراهيم في نفسه ذلك وتحرّكت كلماته من وراء شفتيه ، دون أن يسمعه أحد من شهود هذا الموقف ، ولكن القرآن يصرح به بعد أن أصبح الحديث تاريخا (1)

ومن الثاني : ما جاء على لسان موسى في مدين وقد تولّى إلى الظّل بعد أن سقى لابنتي شعيب :

« رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » (2)

وما جاء على لسان يوسف وهو يواجه إغراء النسوة في ظلّ التهديد :

« رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (3)

ولا شكّ أنّ الحوار الذي يُديره القرآن في دقّة وحساسيّة لإحياء المشاهد ، أو تصوير الانفعالات ، أو الإقناع والتأثير ، يقتضي تنوّع أساليبه وطرقه باختلاف الأشخاص وبحسب المواقف ، حتى يكون أبعد أثرا في نفوس سامعيه وهدايتهم وتوجيههم .

ومن أبرز هذه الأساليب :

التقرير :

وذلك بعرض الحقائق على الخصم ، وكأنّها من المسلّمات البديهية التي لا تقبل الإنكار أو الجدال :

---

(1) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : 147 .
(2) القصص : 24 .
(3) يوسف : 33 .

« وإلى ثمودَ أخاهُمْ صالِحاً قالَ : يا قَوْمِ اعبدوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلهٍ غيْرُهُ ، قدْ جاءتكُمْ بيِّنةٌ مِنْ ربِّكُمْ. هذِهِ ناقةُ اللهِ لكُمْ آيةً ...... » .

« واذْكُرُوا إذْ جعلكُمْ خُلفاءَ مِنْ بعْدِ عادٍ وبوَّأكُمْ فِي الأرْضِ ، تتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وتنْحِتُونَ الجِبالَ بُيُوتاً ، فاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ ولا تعْثوْا فِي الأرْضِ مُفْسِدِينَ » (1)

التلقين :

وذلك بتوجيه دُعاة الحقّ إلى ما يواجهون به خصومهم في دعوتهم ، أو في دفع شُبهاتهم لإظهار العناية برسُله ، والأهميّة التي يرشد إليها أمرُه سبحانه بعبارة "قُلْ" أونحوها .

كما ورد في أمر الله لموسى وأخيه هارون إلى فرعون لإنقاذ بني اسرائيل من سطوته وجبروته :

« ....فأْتِياهُ فقُولا : إنَّا رسُولا ربِّكَ . فأرْسِلْ معَنا بنِي إسْرائِيلَ ولا تُعذِّبْهُمْ . قدْ جِئْناكَ بِآيةٍ مِنْ ربِّكَ والسَّلامُ على منِ اتَّبعَ الهُدَى . إنَّا قدْ أُوحِيَ إليْنا أنَّ العذابَ على منْ كذَّبَ وتولَّى » (2)

---

(1) الاعــراف : 72 – 73 .

(2) طـه : 45 – 47 .

وقد جمع هذا الأسلوب من الدّعوة الالهية بين الترغيب والاستمالة ، وبين التهديد والتحذير .

المحاجّة :

وذلك بإقامة البرهان عن طريق التحاكم إلى العقل ، أو إلى القضايا التي لا تكلّف الإنسان في إدراكها سوى الرجوع إلى الحسّ والتجربة :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ..... » (1) .

التذكير بالنعم والتخويف بالعذاب :

مسايرةً لطبيعة الإنسان التي قضت أن تكتنفه عاطفة الرغبة فيما يحبّ ، وعاطفة الخوف ممّا يكره :

« وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ، وآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ . يَا قَوْمِ : ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ التِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، ولاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » (2)

(1) الشعراء : 69 ـ 82 .
(2) المائدة : 22 ـ 23 .

كمـا نجـد في ما يُجريه القـرآن من حـوار على لسـان خصوم الأنبيـاء ، وأعـداء الأديـان السماويّـة نماذج أخـرى يتمثّل فيهـا على الخصـوص :

محاولـة التبـريـر :

وذلـك بالتمـاس الأعـذار إبقـاءً على وضعهـم ، وتخلّصـا من الدعـوة الجديـدة وقيودهـا التي تصادم أهـواءهـم :

« وقَالَ الذِينَ أشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ ولا آبَاؤُنَا ، ولا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ . كَذَلِكَ فَعَلَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلاّ البَلاَغُ المُبِينُ » (1) .

الازدراء والاستخفـاف :

وذلك بالتّصامم عن دعوة الرسول للتحقير من شأنه في قومه والحطّ من منزلته عندهم : كمـا قال فرعـون لموسى :

« ألَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ، ولَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ، وفَعَلْتَ فِعْلَتَكَ التِي فَعَلْتَ وأنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ؟ » (2)
وكمـا قال قـوم شعيب لرسولهـم :

(1) النحـل : 35 .
(2) الشعـراء : 17 ـ 18 .

« قَالُـوا : يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ . وإنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا . ولَـوْلاَ رهْطُـكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » (1)

الوعيد والتهديد :

قصدَ بثّ الرّعب في قلب الرسول وأتباعه ، وصرفهم عن الدّعوة : كما قال آزر لابنه إبراهيم :

« أرَاغِبٌ أنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبْرَاهِيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِي مَلِيًّا » (2)

وكما قال قوم شعيب لنبيّهم :

« قَالَ المَلأُ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ والذِين آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا » (3)

فنستخلص من هذا العرض الموجز لمختلف أساليب الحوار القرآني ومحتواه ، ما في دعوات الرّسل إلى الله من استحضار خشيته وجلاله ، بالتوجّه إليه في طلب العون والتأييد ، كما ورد على لسان شعيب وهو يحاور قومه :

---

(1) هود : 91 .
(2) مريم : 46 .
(3) الاعراف : 87 .

« رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وأنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ » (1)

أو الحديث عنه بضمير الغائب عن الحسّ ، الحاضر في القلب ، كما جاء على لسانه أيضا :

« ويَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أوْ قَوْمَ هُودٍ أوْ قَوْمَ صَالِحٍ . ومَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ . واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ . إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ » (2)

كما نستخلص كيف يجنح الأنبياء في تحاورهم مع أقوامهم الى الترفّق في الخطاب الذي تسري فيه معاني الرّحمة والمحبّة والإخلاص ، وتساميهم عن العبارات النابية التي تحمل الشّتم أو التجهيل أو نحو ذلك ممّا يمسّ بالكرامة الإنسانيّة ، أو يحمل على استمراء الكفر والفسوق . بل إنّ عباراتهم لتنبثق من قلوبهم حانية مترفّقة مشفقة ، مهما كانت المواجهة عنيفة أحيانا في الإنذار والتخويف من عذاب الله .

في حين أنّنا نُحسّ من عبارات خصومهم أنّها شديدة عنيفة ، تُفجّرها النّقمة والغضب ، ويقذف بها العناد والمكر .

---

1) الأعراف : 88 .

2) هود : 89 ـ 90 .

الفصل الثالث
عوامل التأثير في قصص القرآن

اختلاف المؤثرات في الناس

جاء القصص القرآني ليبني عقيدة على أنقاض ما هدّمه من خرافات وأباطيل رَانت على القلوب ، وتمكّنت من العقول ، واجتالت الإنسانية عن فطرتها ، وعن الأديان السماوية السابقة أجيالا . وقد ارتبطت دعوة القصص إلى هذه العقيدة بثلاثة محاور وهي :

1) التعريف بالله وبصفاته وأفعاله تعريفا مفصّلا ، حتى كأنّ العباد يحسّون به في أعماقهم وهو على عرشه يكلّم ملائكته ، ويدبّر الأكوان ، ويسمع أصوات خلْقه ، ويرى أفعالهم وحركاتهم ، ويعلم ما تُكنّه صدورهم ، وتُخفيه سرائرهم . يأمر وينهى ، ويرضى ويسخط ويرحم ، ويجيب دعوة المضطرّ ، ويفكّ العاني ، وينصر المظلوم ، ويأخذ الظالم ، ويسوق الأقدار الى مواقيتها ، ويُجريها على نظامها .

2) التعريف بالطّريق الموصّل إلى صراطه المستقيم ، والإيمان برسله الدّالين على هذا الطريق ، المعرّفين بمسالك الحقّ والخير

3) التعريف بالمآل بعد الموت وهو اليوم الآخر ، وما يتضمّنه من بعث وحساب وعقاب وثواب وجنّة ونار (1) .

---

(1) انظر : **مدارج السالكين** ... ابن قيم الجوزية . ج : 3 / 223 .

والمدعوّون إلى معرفة هذه الحقائق والإيمان بها ليسوا سواء في ملكاتهم العقليّة واستعداداتهم الفطريّة ، ولا في تصوّراتهم وأخلاقهم وطباعهم . ذلك أنّ النتيجة التي تحصل ، إنما هي من تأثير عامل معيّن فيهم . وهذا العامل المؤثّر يختلف باختلاف الأشخاص والأقوام ، بل يختلف في الشخص الواحد من وقت لآخر . فمنهم من يتأثّر بتوْعية وجدانه ، واستهواء عاطفته ، وإيقاظ شعوره ، فتلْتقي مشاهداته في الخارج مع تأمُّلاته الباطنيّة ويهتدي إلى المعرفة ، وكأنّ وحيا أشرق عليه ، وهو ما يسميّه علماء النفس « حدسا» ويسميه الشّعراء «إلهاما» ويسميه الصوفية «كشفا وإشراقا »

ومنهم الجدَليّون الذي لا يُذعنون لغير البرهان ، ولا يقتنعون بغير الحجج العقليّة ، وما يُستخدم فيها من قياس واستقراء وتمثيل .

ومنهم أهل الذوق البياني الذين ينجذِبون لفنون القول ، والكلمات التي أُتقن تنظيمها وسبكها ، ودُعمت بالصّور التشخيصيّة، والرسوم البيانيّة ، والتعبيرات التمثيليّة وغيرها من الأساليب التي تنقل الحقائق إلى الآخرين في إطار فنّيّ جذّاب .

كما أنّ فيهم المتعصّب لنظُم موروثة تعزّزها عدة عوامل ، من معتقدات وخرافات وعادات نمت على مدى السنين ، حتى رسخت وكادت تستعصي على كل معالجة منطقيّة ، وهي التي يسمّيها علم النفس ، بالنّواحي التي يعجز حيالَها المنطق (1) .

---

(1) انظر : **علم النفس التربوي** ، ج : 3 / 67 .

وهؤلاء لا يُجدي معهم البرهان ، وإنّما الإقناع المبنّي على العاطفة ، لأن غاية البرهان ذيوع الحقيقة فقط بصورة مستقلّة عن الشخص ، أمّا غاية الإقناع فتسخير عقل المخاطَب ، وتعجيزه ، حتى لا يقدر على الاعتراض ، لأنّه لم يبق عنده ما يعترض به .

وفيهم العنيد الذي يحاول أن يستر ضعفه بالعناد الأعمى الخالي من النّقد العقلي والتفكير لمجرّد المخالفة والمعارضة ، أو حبّا للظهور . وهؤلاء قد يؤثّر فيهم التخويف والتهديد .

وفيهم السّطحيّون الذين لهم فاعليّة الإرادة رغم سذاجتهم ، فيصدّقون المستحيل ، ويثبتون أو ينفون كلّ شيء بحسَب الدوافع المؤقّتة فيهم ، دون أن يهتمّوا بالتناقض في معتقداتهم التي يعتبرون الخروج عنها – رغم تكذيب الواقع لها – ضربا من النّزق والمغامرة (1) .

وهؤلاء قد تُسخَّر عقولهم لقلوبهم عن طريق الكشف الانفعالي الذي يُهيّئهم لتقبّل العقيدة الجديدة ، أو عن طريق التأثير على متبوعيهم .

لذلك نرى الأنبياء في قصص القرآن يفتنّون في أساليب الدعوة بين الترغيب والترهيب . فمرّة يخوّفون أقوامهم ، وأخرى يبشّرونهم ، وأحيانا يذكّرونهم بنعَم الله عليهم ، وآونة يُنذرونهم عذاب الله وبطشه ، وحينا آخر يُعرضون عليهم الخوارق الحسيّة .

---

1) انظر : 117 – 118 : Janet Pierre : La Médecine Psychologique

وفي القصص الذي يروي أخبار الإنسانيّة الأولى من الأمم الخالية ، كعاد وثمود ، نجد الأنبياء يعتمدون في ترهيب أقوامهم على الإنذار بالعقاب العاجل في الدنيا ، أكثر من إنذارهم بالعقاب الآجل في الآخرة . كما كانوا يقتصرون في ترغيبهم على التذكير بما منّ الله عليهم في الدّنيا من أنعام وبنين وجنات وعيون .

ولعل مَردّ ذلك : أنّ رؤية عقولهم لا تمتدّ إلى ما بعدَ الحياة التي يحيَونها . فقد نفَى قوم هود أن يكون بعد الموت بعث أوحساب ، وكان جوابهم لنبيّهم لمّا أنذرهم بعذاب يوم القيامة ، أنّ هذا من اختلاق الأوّلين :

وَاتّقُوا الذي أمَدّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أمَدّكُمْ بِأنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنّاتٍ وَعُيُونٍ . إنّيَ أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا : سَوَاءٌ عَلَيْنَا أوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ . إنْ هَذَا إلاّ خُلُقُ الأوّلِينَ ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذّبِينَ (1)

ومن هنا يتّضح لنا السرّ في تنوّع عوامل التأثير في قصصه تَبعا لتنوّع الاستجابات في الإنسان .

فهو يخاطب العاطفة عن طريق الشعور ، ويقنع العقل عن طريق الحسّ ، ويجلب الأسماع والقلوب بالتعبير الفنيّ البديع .

وهكذا يمكن جمع هذه العوامل وحصرها في ثلاثة عناصر عامّة . وهي :

1) التأثير النفسي . 2) الإقناع العقلي – 3) الإبداع الفني

---

(1) الشعراء : 132 – 138 .

التأثير النفسي

لقد أغفلت كتب علم النفس حتّى نهاية القرن الماضي البحث عن الشعور الديني إلاّ لمامًا ، حتى يشكّ القارىء في وجود شيء لدى الإنسان اسمه «ظواهر دينية» ومن بحث فيها من علماء النفس أمثال : لوبا (Luba) وجيمس (James) وستاربك (Starbuk) وثاولس (Thouless) وبوفاين (Bovet) ، اقتصروا على الوقوف على الظواهر النفسية الدينية ، وتفسيرها بمقتضى العلل والمعلولات الداخليّة ، مع الإعراض عن تعريف الظاهرة الدينيّة ، والاقتصار على القول بأنّها نتيجة لحالات انفعالية ، وعواطف ورغبات لها أصالتها الخاصة (1) .

كما اقتصر دوركهايم (Durkheim) في بحوثه على الظواهر الاجتماعية الخارجية للدّين (2) .

أمّا البحث في علم النفس الدّيني على الجانب الفردي ، وتفسير الدّين بلغة الشعور الشخصي ، فإنّه لم يستوف حظّه موضوعيًّا ومنهجيًّا . ذلك أن البحوث التي تُعتبر بحوثا سيكولوجية تُهمل مسألة القيمة الموضوعية للدّين ، ولا تعرف هل إنّ الخبرات الدينيّة تقابلها موضوعات خارجيَّة ذات وجود فعلي ، أم إنهّا مجرَّد حالات نفسيّة لايقابلها وجود موضوعي ؟

---

(1) عبد المنعم عبد العزيز المليجى : **تطور الشعور الدينى عند الطفل والمراهق** : 20 ــ 21 .

(2) انظر كتابه : Les formes élémentaires de la vie religieuse

وقد انتقد (جيمس) علماء النفس وفلاسفة الأديان الذين يتحدّثون عن العاطفة الدينيّة باعتبارها حقيقة نفسيّة مستقلّة عن غيرها من العواطف الأخرى. فبعضهم يعتبرها الشعور بالمطلق أو باللاّمتناهي، وبعضهم يربطها بالشعور بالتبعيّة، وآخرون يعتبرونها من مشتقّات الخوف، بل منهم من يردّها الى الحياة الجنسيّة. ولم تزل في بعض المعابد من الرسوم والتّماثيل ما يرمز إلى ارتباط الشعور الديني بالشعور الجنسي.

في حين أن الدّين في حياة الفرد ليس هذا ولا ذاك، وليس عاطفة قائمة بذاتها، ولا انفعالات خاصّة فريدة من نوعها. وإنّما هو انفعالات وعواطف تتبلْور حول موضوعات الدّين. فالحبّ الدّيني ليس إلاّ الحب العاديّ موجّها إلى موضوع دينيّ هو الله. وما الخوف الدينيّ سوى الخوف الطبيعيّ بجميع مظاهره الخارجيّة، وكلُّ ما هنالك أنّ ممّا يثيره ليس موضوعا طبيعيّا كالذي يثيره شخص مخيف، أو حيوان مفترس، وأنّ ما يثيره العقاب الالهي. والرّجفة الدينية لا يختلف في شيء عن الرّجفة العاديّة التي تعرُونا عندما نضلُّ الطّريق في غابة موحشة مثلا. بيْدَ أنّها رجفة نتجت عن التفكير في علاقتنا بما هو إلهي. وما يقال عن الانفعالات الدينية، يقال كذلك عن الموضوع الديني والفعل الديني (1)

وقد قام فلورنوا (Flournoy) بدراسات نفسيّة في الظواهر الدينية، أطلق عليها «علم النفس الدّينيّ» مشيرا إلى أنّ هذا العِلم هو كفء للاندماج في علم النفس العامّ كفرع من فروعه. ومقرِّرا بذلك مبدأ منهجيّا:

---

(1) تطور الشعور الديني ... 17 ـ 18.

وهو أن المبادىء الموجّهة في أيّ علم من العلوم ينبغي أن تُشتق من المادّة العلمية القائمة . فذلك خير من وضعها سلفا على نحو تجريديّ دون سنَد من الواقع (1) .

وممّن تناول هذا الموضوع بالدرس الدكتور عبد المنعم المليجي في كتابه : «تطور الشعور الديني عند الطفل والمراهق» واعتمد المنهج السّيكولوجي الأول وهو : الاستبطان (Introspection) ، في تحليله لشعوره الديني الخاص ، وما طرأ عليه من تغيير وتطوّر عبّر السنين ، ثم المنهج التجريبي باستفتاء عدد من الأطفال والمراهقين المسلمين والمسيحيين حول : فكرة (الله) وفكرة (كائنات غير أرضية : (الملائكة والشياطين) ، وفكرة (الجنة والنار) وفكرة (الموت والخلود) ، وتحديد فترة الاتّجاهات الدينية ، والانقلاب الديني

ولعلّ درس المؤثرات النفسية الدينيّة في القصص القرآني يكشف عن حقائق هامّة في علاقة الشعور الدّيني بالعاطفة ، وارتباط الجانب الالهي بالنفس ، لِمَا في هذا القصص من إشارات متنوّعة ، ومن تجارب دينيّة ، كان الإنسان محورها ، ومن دعوات سماويّة استفزّت مشاعر الدّاعين والمدعوّين ، وتولّد عنها صراع طويل المدى بين أهل الحق وأهل الأهواء .

ولا شك أنّ مؤسّسي الأديان لا يباشرون أعمالهم بتقديم نظريّات أو بيانات أو لوائح يعرضون فيها مبادئهم مؤتلِفا

---

(1) Les principes de la psychologie religieuse. Archives Psychologie. T : 2 P : 33.

بعضها مع بعض ، كالفلاسفة ، أو رجال السياسة . ولكنّهم يبلّغون رسالةً من شأنها أن تكون بسيطة في متناول الجميع ، موجَّهة أوّلا إلى القلب الذي لا بدّ أن تؤثّر فيه (1) ، كما نرى ذلك في دعوات الأنبياء الواردة في قصص القرآن .

ثمّ إنّ التحليل النفسيّ لبعض ما ورد في هذا القصص لا تخلو منه بحوث السّابقين وتفاسيرهم فيما يذكُرونه أحيانا من خطرات القلوب ، ومدلولات الأقوال ومبعثها من النفس ، وإن خلَت من مصطلحات علم النفس الحديث ومناهجه وموضوعاته ؛ أمثال ابن قتيبة في : (مشكل القرآن) ، والقشيري في : (لطائف الاشارات) والرّازي في : (مفاتيح الغيب)

ومن ذلك مثلا قول القشيري عند تفسيره لقوله تعالى :

وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ . فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ : ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ : مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ ؟ إنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (2)

«أراد يوسف ألاّ يلاحظه الملك بعين الخيانة ، فيُسقطه عيْبُه من قلبه ، فلا يؤثّر فيه قولُه . فلذلك توقّف حتى يَظهر أمرُه للملك وتنكشف براءتُه » (3)

وقوله في تفسيره لِمَا جاء على لسان امرأة العزيز :

---

(1) **فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية** : ج : 1 / 246 .

(2) يوسف : 50 .

(3) القشيري : **لطائف الاشارات** . ج : 8 / 188 .

«قَالَتِ امْرَأةُ العَزِيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ . أنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» (1) .

«لمّا كان حُبّ امرأة العزيز ليوسف غير تامّ ، ألقت ذنبها عليه ، وقالت لزوجها : «مَا جَزَاءُ مَنْ أرَادَ بِأهْلِكَ سُوءً إلاّ أنْ يُسْجَنَ أوْ عَذَابٌ ألِيمٌ » (2) .

ثمّ لمّا تناهتْ في محبّته ، أقرّت بالذنب على نفسها فقالت : الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ . فالتناهي في الحبّ يوجب هتك السّتر ، وقلة المبالاة بظهور السرّ . وقد قيل :

لِيَقُلْ مَنْ شَاءَ ما شَاءَ فإنّني لاَ أُبَالِي (3)

وقول الرازي عند تفسيره لقوله تعالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ (4) .

«هذا سؤال . والسؤال إنّما يكون لطلب العِلم ، وهو على الله مُحال . فما الفائدة فيه ؟

والجواب أنّ من أراد أن يُظهر من الشيء الحقير شيئا شريفا فإنّه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم : ما هذا ؟ فيقولون هو كذا . ثمّ إنّه بعد إظهار صفته البارزة فيه ، يقول لهم :

---

(1) يوسف : 51 .

(2) يوسف : 25 .

(3) **لطائف الاشارات** . ج : 3 / 189 .

(4) طه : 17 .

خذوا منه كذا وكذا . فالله تعالى ، لمّا أراد أن يُظهر من العصا تلك الآيات الشريفة ، كانقلابها حيّة ، وضربه بها البحر حتّى انفلق ، والحَجَرَ حتى انفجرَ منه الماء ، عَرَضه أولاً على موسى : فكأنّه قال له : يا موسى هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك ؟ فهو خشبة لا تضرّ ولا تنفع ، ولكنّها تنقلب ثعبانا عظيما . فيكون بهذا الطريق قد نبّه العقول الى كمال قدرته ، ونهاية عظمته ، حيث أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده

ومن ناحية أخرى ، فإنّه لمّا تكلم معه أوّلاً بكلام الألوهيّة ، وتحيّر موسى ، تكلّم معه بكلام البشر إزالةً لتلك الحيرة . والنّكتة فيه : أنّه لمّا غلبت الدهشة على موسى أراد ربّ العزّة إزالتها ، فسأله عن العصا (1) »

وقوله عند تفسيره لقوله تعالى :

« قَالَ : خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولَى » (2) .

«لَمّا نودي موسى وخُصّ بتلك الكرامات العظيمة ، وعَلِم أنّه مبعوث من عند الله تعالى إلى الخلق ، فَلِمَ خاف ؟

والجواب من وجوه : أحدها : أنّ ذلك الخوف كان من نُفرة الطّبع ، لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط . وأيضا فهذه الأشياء معلومة بدلائل العقول . وعند الفزع الشديد ، قد يذهل الإنسان عنها . قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري رحمه الله تعالى :

---

(1) **مفاتيح الغيب** . ج : 22 / 25 .
(2) طه : 21 .

وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبّوة ، لأنّ السّاحر يعلم أنّ الذي أتى به تمويه ، فلا يخافه ألبتّة » (1) .

كما نجد مثل هذه الإشارات النفسيّة في تفسير أبي السعود : (إرشاد العقل السليم ....) ومن ذلك مثلا قوله في تفسير هذه الآية :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ . فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً) (2) .

(.... وفيه من تقرير ما سبق من أن الكلّ لله سبحانه ، واختصاص العزّة به تعالى ، وانتفاء الحزن والخوف عن أوليائه قاطبة ، وتشجيع النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم .

«ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » ..... أي مستور ، من : غمّه : إذا ستره ، بلْ مكشوفا مشهورا تجاهرونني به . فإنّ السرّ إنمّا يُصار إليه لسدّ باب تدارك الخلاص بالهرب أو نحوه . فحيث استحال ذلك في حقّي لم يكن للسرّ وجه .
وإنما خاطبهم عليه السلام ، بذلك إظهارا لعدم المبالاة بهم ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا وثقة بالله سبحانه ، وبما وعده من عصمته و كلاءته (3)

---

(1) **مفاتيح الغيب** . ج : 22 / 29 .
(2) يونس : 71 .
(3) محمد أبو السعود : **إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم** . ج : 2/341 .

وأكثرُ ما يظهر الجانب النفسي من القرآن في قصصه ، لأنّ حظ القلب فيه عظيم . والقلب هو الذي تُشرق عليه الحقيقة . قال تعالى : « وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ . إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ . وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ (1) »

قَالَ ابن القيم : «وهَذَا الإسمَاع أخصُّ من إسماع الحجَّة والتبليغ . فإنّ ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجّة عليهم . لكن ذلك اسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب . فإن الكلام له لفظ ومعنى . وله نسبة إلى الأذن والقلب . وتعلّق بهما . فسماعُ لفظه حظُّ الأذن ، وسماع حقيقة معناه حظّ القلب . فإنّه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود الذي هو حظّ القلب . وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله :

« مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ (2)»

وَهَذَا السَّمَاع لاَ يفيد السّامع إلاّ قيام الحجة عليه . وأمّا مقصود السّماع وثمرته والمطلوب منه ، فلا يحصل مع لهْو القلب وغفلته وإعراضه ، بل يخرج السّامع قائلا للحاضر معه : «مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ أُولَئِكَ الذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» (3)

فمرتبة السماع مَدارها على إيصال المقصود إلى القلب ، ويترتّب على هذا السّماع القبول والإجابة (4)

(1) فاطر : 53 .
(2) الأنبياء : 2 .
(3) محمد : 16 .
(4) **التفسير القيم** : 43 – 44 .

قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ . أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ ؟) (1) .

ومن هنا قسّم الغزالي علوم القرآن الى قسمين : علم الصدف والقشر ، وجعل من مشمولاته علم التفسير الظاهر وعلم اللّباب ، وجعل من مشمولاته علم قصص الأولين (2) .

ولا شك أنّه يشير بذلك إلى ما للقصص من أهميّة في إيقاظ الشعور ، وإحياء القلب بالتدبّر والاعتبار .

وعند المتصوّفة يكاد يطغى الجانب النفسي في تفسير القصّة القرآنيّة على سائر الجوانب الأخرى ، ولكن من هذه التفاسير ما يُستساغ ، كلطائف الاشارات للقشيري ؛ وقد سبق ذكر أمثلة منه . وتفسير القرآن العظيم للتستري ، الذي كثيرا ما تأتي معانيه الباطنيّة مقبولة لا يعارضها شرع أو عقل . ومن ذلك مثلا قوله في تفسير آية من قصة رؤيا إبراهيم «وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » (3)

« إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمّا أحبّ ولده بطبع البشرية تداركه من الله فضله وعصمته ، حتى أمره بذبحه ، اذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح ، وانما كان المقصود تخليص السرّ من حبّ غيره بأبلغ الأسباب . فلمّا خلص السرّ له ورجع عن عادة الطّبع فداه بذبح عظيم » (4)

---

(1) يونس : 42 .
(2) **جواهر القرآن** : 21 ـ 31 .
(3) الصافات : 107 .
(4) **تفسير القرآن العظيم** : 120 .

وقد أنكر ابن تيمية - فيما نقل عنه ابن القيِّم - النزعات الصوفية الباطنية فقال :

(..... وأمّا ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : «حدثني قلبي عن ربّي » فصحيح أنّ قلبه حدّثه ، ولكن عن شيْطانه أوْ عن ربّه ؟

ومحدَّث هذه الأمة (1) - الذي قال فيه النبيء صلى الله عليه وسلم : «إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون . فإن يكن في هذه الأمّةُ فعُمَر ابن الخطاب» (2) - لم يكن يقول ذلك .

فقد كتب كاتبُه يوما : (هذا ما أرى اللهُ أميرَ المؤمنين عمر ابن الخطاب فقال : لا . امحُه ، واكتب : هذا ما رأى عمر الخطاب . فان كان صوابا فمِنَ الله . وإن كان خطأً فمِن عمر ، وَالله منه بريء) فهذا قول المحدَّث بشهادة الرسول . وأنت ترى الاتّحادي والحلولي والإباحيّ الشّطّاح مجاهرٌ بالقحة والفِرية يقول : حدثنّي قلبي عن ربّي . فانظر الى ما بين القائليْن والمرتبتين والقوليْنِ والحالين !

فلم يُحوِج الله الأمّةَ بعد النبيء صلى الله عليه وسلم بكمال رسالته إلى محدَّث ولا مُلهَم ، ولا صاحب كشف ولا منام) (3)

---

1) المحدث بفتح الدال : من يحدث فى سره وقلبه بالشىء فيكون كما يحدث به .

2) رواه البخارى ومسلم .

(3) ابن القيم الجوزية : **التفسير القيم** : 39 - 40 .

ومن النّاحية النفسيّة فإنّ التجربة الباطنيّة للصوفيّة وإن كانت شعوريّة وجدانية إلاّ أنّ الشعور فيها لا يرتبط بالإدراك الحسي ، و لا يخضع للقوانين النفسيّة المتعارفة . لذلك فإنّه ليس من الموضوعية الاعتماد على ما زخرت به تفاسير المتصوفة لقصص القرآن من نواح سيكولوجية ناشئة عن مشاعر خاصّة لا تتجاوز أصحابها .

وإذا نحن استقصينا عوامل التأثير النفسي في القصص القرآني ، أدركنا ما فيها من تنوّع اقتضاه تفاوت الناس في أخلاقهم وإرادتهم وأعمالهم ، وما بين بعض العوامل من تقابل اقتضته الطبيعة الازدواجية في النّفس مَنْ حبّ وبغض ، وأمن وخوف ، ورجاء ويأس ، وخيال وحسّ ، وميل ونفور ، وقوّة وضعف .

يقول ابن القيم في تفسيره لقوله تعالى : «وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إنّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ» (1)

«ولمّا كانت هذه الآية مشتملة على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهي الحبّ والخوف والرجاء عقبها بقوله : «إنّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ» لانّ مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة ، كما قال النبييء صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الإحسان : (أنْ تعبُد الله كأنّك تراه) (2)

وأعجبُ ما في هذه الازدواجية المتقابلة في الاتّجاه ، هو التّرابط القائم بينها في الكيان البشري ، وكأنها أوتاد تشدّه وتحفظ توازنه (3)

---

(1) الاعراف : 56 .

(2) **التفسير القيم** : 256 .

(3) **دراسات فى النفس الانسانية** : 72 .

ومن أشدّ هذه العوامل ظهورا وتأثيرا :

1) الحضور الالهي :

يمتاز القرآن عن سائر الكتب السماوية بقدسيّة فريدة ، وهي أنّه إلهي في لفظه ومعناه ، بمعنى أنّ الله سبحانه هو المتكلّم به والمُنشيء له دون سواه كما سبق بيان ذلك في الفصل الأول من قسم البحث النظري (1) . لذلك فإنّا نجد في القصص القرآني قداسة الحضور الإلهي بهذا الاعتبار .

كما نجد في هذا القصص مظهرا آخر تتجلّى فيه قدسيّة الحضور ، وهو ما يرِد فيه من خفايا الأسرار التي لا يتسنّى لأحد أن يعلمها سوى الله الذي يحيط علما بما تُخفي الصدور ، وتهمس الشفاه .

فمَن يسمع غيرُ الله صوتَ يونس وهو ينادي في ظلمة الليل وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ؟

«لاَ إلَـهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (2) وصوت زكرياء .

«إذْ نَادَى رَبَّهُ : رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ» (3)

---

(1) انظر صفحة : 80
(2) الانبياء : 87 .
(3) : الانبياء : 89 .

وقول مريم لمّا جاءها المخاض إلى جِذْع النخلة :

«يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا» (1)

وقول فرعون وهو يصارع لجج الأمواج الصّاخبة :

«آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ» (2)

وما أرْوع أن يكشف لنا الخالق بنفسه عن حجب الأسرار ، فيُسمعنا أحاديث النفوس وخطرات الضمائر في مواقف تثير الشعور بالجلال والرهبة ، والإحساس الجليّ بأنّ كلّ الخلائق في قبضته ، وتحت سلطانه .

ومِن صُور الحضور الالهي في القصص تدخّل الخالق في حداثه بإسناد الفعل فيها إليه مباشرة سواء في مقام الامتنان بنعمه ، كقوله تعالى في معرض التّذكير بما أنعم على بني إسرائيل :

«وإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (3) .

وقوله في نجاة إبراهيم من كيد المشركين :

«قَالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ » (4)

أم فِي مَقَام التحذير من غضبه ، كقوله تعالى في عَذَاب عاد :

---

(1) مريم : 23 .

(2) يونس : 90 .

(3) البقرة : 50 .

(4) الصافات : 97 ـ 98 .

«إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» (1).

وفي عذاب ثمود :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ» (2)

ثم انظر كيف يتحوّل السياق فجأة أثناء العرض لقصّة ثمود من حكاية تكذيبهم لنبيّهم في غابر التاريخ إلى تهديد الخالق لهم بما سينكشف من حقيقة أمرهم يوم القيامة ، وكأنما الأحداث جارية تُعرض على الأنظار.

«كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوا : أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذَنْ لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . آأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ ؟» (3)

وهكذا فإنّ من المؤثّرات التى تثير أعظم الأحاسيس الدينية في قلب المؤمن شعورَه بأنّ الله ذا السلطان الأعلى هو الذي يقصّ هذه الأنباء ، ويكشف عما خفيَ من أسرارها .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ (4)

---

(1) القمر : 12 ـ 20 .
(2) القمر : 31 .
(3) القمر : 23 ـ 26 .
(4) يوسف : 3 .

2) القـــــدر :

ثُمّ إنّ شعور الإنسان بقوّة غيبيّة تتدخّل في توجيه الأحداث نحو وجهة معيّنة ، وتؤثّر على نتائجها التي كثيرا ما تأتي على خلاف ما حسب الناس وقدّروا ، أو على غير ما عرفوا ، هُو عنصر هامّ من عناصر التأثير في هذا القصص الذي يملأ الإحساس رهبة ورغبة ، باعتبار أنّ مصدره هو مصدر القدرة المطلقَة ، والإرادة النّافذة في مجرى تلك الأحداث .

ولهذا الإحساس صداه البعيد في النفس . ذلك أنّ القدَر الخفيّ الذي يُسيّر الأحداث الواردة فيه هو قوة عظيمة كامنة في أسرار الغيب ، ولكنّها واعية عادلة لِمَا تنْجلي عنه في عالَم الشهادة من عناية الله بالمخلصين الأخيار وان كانوا ضعفاء ، ونقمته ومكره بالمُبطلين الأشرار وإن كانوا أشدّاء أقوياء .

ولا ريب أن هذه النتائج والعواقب يطمئنّ إليها المؤمنون ، فيزدادون بالله وبحكمته وعدله إيمانا ، ويفزع لها الجاحدون ، والمُعرضون ، فيزدادون حيرة ، ويستحوذ عليهم الخوف والهلع :

فأهل الكهف — وهم فتية تبيّن لهم الحق في بيئة يسودها الظلم والكفر — آمنوا بالله وعبدوه ، وهجروا الشرك وأهله . ولمّا انكشف أمرهم لم يروا سبيلا للنّجاة إلاّ أن يفرّوا إلى الله بدينهم ، ويهجروا أهلهم وديارهم ، ويلجأوا إلى كهف يستروْحون فيه رحمة الله ، عسى أن يهيّء لهم من أمرهم رشَدا . فيضرب الله على آذانهم في الكهف عدّة سنين ، وينامون نومة طويلة ، تحرسهم

عين الله التي لا تنام ، وتكلؤهم عنايته التي لا تتخلّى عن المستضعفين المستجيرين (1) .

ويوسف عليه السلام يكيد له إخوته ، ولكن القدَر يسير بالأحداث في اتجاه معاكس ، فتحفظه العناية من التردّي في الجُبّ ، ومن الفتنة بالإغراء ، ومن الهلاك في السجن ، لتبوّئه عرش المُلك ، وتكشف نوايا إخوته ، وغلبة القدَر فيما كادوا له .

« وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (2) .

وأصحاب الجنة (البستان) يضيقون ذرعا بحقّ المساكين في ثمارها ، فيعقدون النيّة على جنْيها في وقت مبكّر لا يأتي المساكين في مثله ، فيتعقّبهم القدَر . ويجري من ورائهم ليلاً . فلما أصبحوا وجدوها قد احترقت (3)

وفرعون الطاغية الذي كان يذبّح أبناء بني إسرائيل ، يلاقي الموت على يد موسى ، فيقوده اليه غرقا ، وهو الذي حملته الأقدار إليه رضيعا ، فصرف الله عنه شرّه وبأسه (4)

ألم يكن القدَر في مثل هذه الأحداث قوّة روحيّة للمؤمنين تثبّتهم أما م قوى الشرّ والظلم مهما كان الصّراع عنيفا ، لاعتقادهم بفوز الخير ، وانتصار الحق في النهاية ؟

---

(1) الكهف : 65 .
(2) يوسف : 21 .
(3) القلم : 17 ـ 23 .
(4) القصص : 3 ـ 42 .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا » (1)
«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ» (2) .

وهذا الصّراع بين قوى الخير والشر هو مصدر ألم الدنيا بما يشيع في النفوس من نور وظلمة ، وصلاح وفساد ، وفزع وأمن ، وتفاؤل وتشاؤم .

والقصص القرآني يفيد أنّ كل قوّة على الأرض إمّا أن تكون مهتدية بهدي الله ، مستمدّة من نهجه وهداه ، وإذَن فهي حق ينبغي أن تساند . وإمّا أن تكون ضالّة منحرفة عن الله ، خارجة عن نهجه ، مستكبرة على هداه ، فهي باطل ينبغي أن تجاهد (3).

ومن شأن أهل الباطل والأهواء أن يتصامموا عن دعوات الحقّ الواضحة ، ملتمسين لعنادهم حيلا دفاعية كالتّبرير والاسقاط والتعويض ....

وواجبُ أهل الحقّ أن يعرفوا أنّ عدواتهم للحقّ ناشئة من نفوسهم . وليست ناشئة من انعدام الحجج المقنعة التي تبيّن الحق وتميّزه من الباطل بأدلّته وشواهده ، بحيث يصير مشهودا للقلب كشهود العين للمرئيّات .

---

(1) غافر : 51 .
(2) الصافات : 171 ـ 173 .
(3) التوبة : 115 .

قال ابن القيم : (وهذه المرتبة هي حجّة الله على خلْقه . فلا يُضِل أحدا أو يعذّبه إلاّ بعد وصوله إليها .

قال الله تعالى : «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» (1) .

فهذا الاضلال عقوبة منه لهم حين بيّن لهم ، فلم يقبلوا ما بيّنه لهم ، ولم يعملوا به . فعاقبهم بأنْ أضلّهم عن الهدى . وما أضَلّ الله سبحانه أحدا قط إلاّ بعد هذا البيان .

وإذا عرفتَ هذا عرفتَ سرّ القدَر ، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبُهات في هذا الباب، وعلِمت حكمة الله في إضلاله من يُضلّه من عباده

والقرآن يصرِّح بهذا في غير موضع ، كقوله تعالى : «فَلَمَّا زَاغُوا أزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» (2) فالأوّل : كفرُ عناد ، والثاني : كفر طَبع .

وقوله : «وَنُقَلِّبُ أفئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنوا بِهِ أوّلَ مَرّةٍ ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (3)

فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقّنوه وتحقّقوه بأنْ قلّب أفئدتهم وأبصارهم ، فلم يهتدوا له .

فتأمّلْ هذا الموضع حقّ التأمّل ، فإنه موضع عظيم . قال تعالى : «وَأمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُم فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى» (4).

---

(1) التوبة : 115

(2) الصف : 5 .

(3) الأنعام : 110 .

(4) فصلت : 17 .

فهذا هُدًى بعد البيان والدّلالة . وهو شرط لا موجِب . فإن لم يقترن به هُدى آخر بعدَه ، لم يحصل به كمال الاهتداء ، وهو هُدى التوفيق والإلهام) (1) .

قال الله تعالى :

« وَقَالَ مُوسَى : رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا . رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ . رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ » (2) .

فهذا الشّدُّ على القلب هو الصدُّ والمنع . كما قال ابن عبّاس : والمعنى : اطبعْ عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان . وهو مطابق لما في التوراة ، أن الله قال لموسى : « اذْهب إلى فرعون فإنّي سأقسي قلبه ، فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر » .

وهذا الشدُّ من كمال عدل الربّ سبحانه في أعدائه ، جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم ، كعقوبته لهم بالمصائب . وهل جزاء السيئة إلاّ السيئة ؟ . ولهذا فهو حَسن منه وقبيح منهم . فإنّه عدلٌ منه وحكمة ، وهْو ظُلم منهم وسفَه . فالقضاء والقدر فعلُ عادلٍ حكيم ، يضع الخير والشرّ في أليق المواضع (3) .

---

(1) التفسير القيم : 42 .

(2) يونس : 88 .

(3) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : 97 .

وهكذا فإنّ القدَر الذي يسيطر على أحداث القصص القرآني يثير الدّهشة والرّوعة بخوارقِ تدخّله السريع أحيانا ، ويبعث على التّأمل والاعتبار بحكمة تدبيره للأمور ، وتصريفه للأحداث والانتهاء بها إلى نتيجة حاسمة تتجلّى فيها قوّة الحقّ وعدل السماء .

3) الترهيب والترغيب

لاتكاد تخلو قصّة في القرآن من ترهيب يثير الخوف، أو ترغيب يبعث على الرجاء . فهما قوّتان في الإنسان ، لا يستقيم أمره إلاّ بهما معا .

قال الغزالي : «لا يقود الى قرب الرحمن إلاّ أزّمة الرجاء ، ولا يصدّ عن نار الجحيم إلاّ سياط التخويف» (1) .

فإنّ الإنسان بطبعه يخاف أن يُصاب بمكروه يتوقّعه ، أو يُحرَم ممّا يتمتّع به أو يطالبه . وهو في الآن نفسه يرجو الأمن والنعيم ، وكلّ ما فيه راحته وسعادته . فيسعى جاهدا ليدفع عن نفسه الألَم ، ويجعلب لها اللّذّة .

فالخوف والرجاء يرسمان أهدافه واتّجاهه في الحياة ، ويحدّدان سلوكه ومشاعره وأفكاره . فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف ، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو ، يتّخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفّق بين سلوكه وبين ما يرجو ويخاف (2)

(1) محمد جمال الدين القاسمي : **موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين :** ص330 .

(2) **منهج التربية الاسلامية :** 156 .

وفي كليهما ناحية إيجابية وأخرى سلبيّة . أو بالأحرى : جانب نفع ، وجانب ضرّ . فإذا انقلب الخوف الى هواجس وأوهام . ومن حذر وحيْطة إلى هلع ورعب ، دون أن يكون له مُثير صحيح ، أو سبب حقيقيّ ، آل إلى عقدة نفسيّة تستدعي العلاج . وإذا التزم الحدود السويّة وسيطر عليه العقل ، أصبح من أعظم القُوى للإبقاء على النّفس ، وتوجيه السلوك وجهة مرْضيّة .

ومن هنا يصحّ القول بأنّ الخوف إحدى القوى النفسيّة التي تعمل على البناء أو الهدم في تكوين الشخصية (1) .

وكذلك يقال في الرجاء ، قال تعالى : « وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ، وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، (2)

وقال صلى الله عليه وسلم : «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الجنّة» (3) .

وفي قصّة آدم يعطي الله الاطمئنان الكامل له ولذريّته في مقابل ما تُحدِثه كلمة «اهبطوا» من خوف سوء المنقلّب ، وما تثيره من رُعب .

فالمهتدون بهداية الله لا يخافون ممّا هو آت ، ولا يجزعون على مافات . لأنّ اتباع الهدى يسهّل عليهم طريق

---

(1) انظر : **مجالات علم النفس** : مصطفى فهمي . مجلد : 1 / 318 ـ 319 **والعقل الباطن وعلاقته بالامراض النفسية** : (ت) عباس حافظ : 153 ـ 160 .

(2) الأعراف : 56 .

(3) رواه مسلم .

اكتساب الخير ، ويُعدّهم لسعادة الداريين (1)

«قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا . فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» (2) .

ويؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى :

«الذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» (3)

ذلك لأنّ سَنَدَ المؤمن قويّ. والقوة التي يلجأ إليها لا يعزب عنها شيء في الأرض ولا في السماء . فهو إذا ابتُلي بما يُخيف فإنّما ليكمّل نفسه ويصلحها بمزيد اليقظة والحذر والمراقبة . إذْ من ثمرات خوف الله تقواه .

وما أخذ الله آلَ فرعون بالجدب وضيق المعيشة الا ليتذكّروا ضعفهم أمام قوة الله ، وعجز مَلِكهم أمام الجبّار ، ولعلّهُم إذا تذكّروا اعتبروا واتّعظوا فرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل ، وأجابوا دعوة موسى عليه السلام . فإنّ الخوف شدّة . والشدائد من شأنها أن تُرقّق القلوب ، وتهذّب الطباع ، وتوجّه الأنفس إلى رضى الله والتضرّع له دون غيره ، إذ المعهود أن يكون الناس في الشدائد ألْين نفوسا ، وأشدّ لله خضوعا . لذلك ابتلاهم الله

---

(1) **المنار** : ج : 1 / 285 .

(2) البقرة : 38 .

(3) الأنعام : 82 .

بالجدب والقحط حتى غاض النيل ، فقلت ثمراتهم :

«وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (1) .

وأشدّ النّاس حيرة واضطرابا في الحياة غيرُ المؤمنين . فهم في خوف دائم ممّا لا يُخيف ، لانهم يعلّقون حياتهم وكلّ ما يجري عليهم فيها بالظروف والصُّدف .

يقول جيمس في كتابه (الكون الغامض) :

(ونحن إذْ نقف على أرضنا نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن ، وعن الغرض من وجوده ، نحسّ بما يشبه الذّعر والهلع . وكيف لا يكون الكون مخيفا مرعبا ، وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا إدراك مداها ، ويتضاءل إلى جانبها تاريخ الإنسان ......؟ وأخوف مافيه أنّه لا يُعنى – كما يبدو – بحياةٍ مثل حياتنا . كأن عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطّته . وقد يكون من الحق أن نقول : بينه وبين حياتنا عداء قويّ .... هذا هو الكون الذي ألقت بِنَا فيه الظروف .

واذا لم يكن ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت فيه ، فلا أقلّ من أن يكون نتيجة لِمَا يصح أن يوصف بحقّ أنّه مصادفة) (2) .

---

(1) الأعراف : 130 .

(2) انظر : **في ظلال القرآن** . ج : 8 / 148 .

أمّا المؤمن فانه لَيدرك ما بين الكون والإنسان من صلات ووشائج ، ويحسّ يد الله في كلّ ما حوله . فلايشعر بالخوف والضّياع ، ولكن بالطمأنينة والأنس إلى هذا الكون البديع ، وبالرّهبة والجلال لخالقه المبدع . فيلتقي الفنّ بالعقيدة ، والمتعة الحسيّة بالمتعة الرّوحيّة .

وكذلك تبدو آثار الايمان في التصوّرات والمشاعر :

فالمؤمن يخاف الله وحده ، ولا يخاف سواه من مخلوقاته ، وإن راعتْه عظمتها أو قوتّها . لأنّ التدبير والتقدير بيده سبحانه.

وقد يقال : إنّ الخوف حاصل على كل حال وان اختلف مصدره . فلما ذا لا يسُود الأمن والإطمئنان أرجاء النفس ، ويختفي الإرهاب والتّرويع ، فيتحرّر الإنسان من الخوف مهما كان المصدر الذي يأتي منه ؟

والجواب أنّ الخوف من الله فريد من نوعه . فأخوف النّاس لربّهم أعرفهم بجلاله وقوّته . ولذلك قال صلّى الله عليه وسلم: «أنا أخوفكم لله» (1) .

وروي عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط . فقال : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (2)

---

(1) رواه مسلم .

(2) رواه البخارى ومسلم .

فمخافة الله بهذا الاعتبار فضيلة ، لانّها ثمرة العلم والمعرفة ؛ وكلّ من تخافه تتحاماه وتفرّ منه إلاّ الله ، فان خوفه فرار إليه واحتماء به . ولذلك قال الله لموسى لمّا فرّ هاربا من عصاه وقد رآها تهتزّ كأنها جانّ :

«يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُونَ» (1)

وقال له : «يَا مُوسَى أقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إنّكَ مِنَ الآمِنِينَ»(2)

بينما هو سبحانه يحذّر أهل القرى السّادرين في الغفلة ؛ أولئك الذين يعيشون في دَعة وأمن ، ولا تذكّرهم آياتُه بخشيته :

«أفَأمِنَ أهْلُ القُرَى أنْ يَأتِيَهُمْ بَأسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أوْ أمِنَ أهْلُ القُرَى أنْ يَأتِيَهُمْ بَأسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أفَأمِنُوا مَكْرَ اللهِ ، ؟ فَلاَ يَأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ » (3) .

وقديما قيل : «من قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار ، فسبيله أن يعالَج بسماع الأخبار والآثار» (4)

وإذا نحن استعرضنا ما قصّه القرآن من أخبار الأوّلين ، لاحظنا انه يحمل في جملته بواعث الخوف أكثر من بواعث

---

(1) النمل : 10 .

(2) القصص : 31 .

(3) الاعراف : 97 ـ 98 .

(4) موعظة المؤمنين : 333 .

الأمن ، بحيث إنّ الترهيب أكثر من الترغيب . فنجد فيه البلاء المعجَّل ، والإبادة الجماعية لبعض أقوام الرّسل بالطوفان ، والعواصف ، والصواعق ، والخسف ، والأخذ بالسِّنين ، ونحو ذلك مما يبثّ الرّعب في القلوب ، والاعتقاد بفساد معظم البشر. وهي نظرة قد تدعو الى التشاؤم أكثر مما تبعث على التفاؤل .

فما السّرّ في ذلك ؟

لقد اقتضت حكمة الله أن يُبتلى البشر بالشهوة والغضب ، والحبّ والبغض ولوازمها : كالفسق والعصيان والغفلة والنسيان ، والإعراض والظلم والتقليد ؛ وأن يبتلى بعدوّه الذي لا يألوه خبَالاً ولا يغفل عنه ، وبزينة الحياة الدنيا ؛ وبالهوى . فأرسل الله إليه رسله ، وأنزل كتبه ، وبيّن له مواقع رضاه وغضبه ، وأنّ النعيم لا يُدرك بالنعيم ، وأنّ أعظم اللّذات محجوب بأنواع المَكاره . فلم تقو عقول الكثيرين على إيثار الآجل المنتظَر بعد فناء الدنيا على هذا العاجل الملموس ، بل لم يتّسع خيالهم الى تصوّر نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد ، وأنّنا سنموت كما ننام ، ونُبعث كما نستيقظ ..

قال شدّاد بن الأسْود الليثي من قصيد يرثي به مشركي قريش يوم بدر ، وكان أسلم ثم ارتدّ :

يُخَبِّرنَا الرّسولُ بأنْ سَنَحيَا فكَيْفَ حياةُ أصْدَاءٍ وَهَامِ(1)

---

(1) ابن هشام : **السيرة** : 530 ـ 531 .

وفي هذا المعنى يقول شاعر جاهلي :

حياةٌ ثُم مَوْتٌ ثمَّ بَعْثٌ حديثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرٍو (1)

وقالوا بلسان الحال والمقال :

«لا نبيع ذَرَّة منقودة بدُرّة موعودة»

«خذْ ما تراه ودع شيئا سمعتَ به» .

« أناس يقضّون عيش النعيم ونحن نحال على الآخرة

فإن لم يكن مثلما يزعمون فتلك اذنْ كَرَّة خاسرة ».

وليس من شك في أن توقّف إيمان سحَرة فرعون على رؤيتهم لعصا موسى تتلقّف عِصيّهم ، صريح في الدلالة على غلبة منطق الحسّ على منطق العقل ، والتصوّر المادّي على التصوّر الرّوحي (2) وإذنْ فليس من الميسور أن يتغلّب كلّ البشر أو معظمهم على مثل تلك المثبِّطات والمغريات ، ويستجيبون لنداءات السماء ، ولرسالات الأنبياء ، دون أن تُثار فيهم غريزة الخوف والرهبة، أكثر من غريزة الرّجاء والرغبة . لأنّ غريزة الخوف تكاد تكون (لا شعورية) لاتّصالها بغرائز الدّفاع عن الذّات ، وحبّ البقاء ، وتجنّب المكروه . فهي أبلغ اثرا في النفس ، وخاصّة عند توقّع بلاء عاجل

---

(1) بطرس البستاني : **دائرة المعارف** : ج : 7 / 357 .

(2) محمد حسين هيكل : **حياة محمد** : 570 .

بخلاف غريزة الرّجاء ، فإنّما تُثار غالبا لدفع اليأس ، وتجديد الأمل ، وإثارة التطّلع لغد مشرق ، ومستقبل سعيد

قال تعالى مخاطبا نبيّه صلى الله عليه وسلم :

«وإنْ تُطِعْ أكْثَرَ مَنْ فِي الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ» (1) .

وقال : « أرَأيْتَ مَنِ اتّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ ؟ أفَأنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ؟ أمْ تَحْسِبُ أنّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أوْ يَعْقِلُونَ ؟ إنْ هُمْ إلاّ كَالأنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلاً»(2)

فلقد كانت حياة الأقوام والأمم التي سبقت إبراهيم عليه السلام أشبه بحياة الإنسان في طفولته أو صباه ، غير قادرة على أن تستدلّ على وجود الله من النّظر في ملكوت السموات والأرض ، لأنّ عقولهم أضعف من ان تنفذ إلى ما وراء القريب الواضح من المحسوسات . ومن هنا نجد في قصص الرّسل السابقين وعدا بثواب الدّنيا لمن آمن واستغفر ، ووعيدا بالعقاب في الدنيا لمن كفر واستكبر

لذلك وعَد نوح قومه بخيرات شتّى يُغدقها الله تعالى عليهم من الأموال والبنين والأمطار الغزيرة التي تخصب بها أرضهم ، وتنبت حدائقهم ، وتجري أنهارهم اذا هم آمنوا به واستغفروه.

---

(1) الأنعام : 116 .

(2) الفرقان : 43 ـ 44 .

«فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (1) »

كما جاء الوعد بالخيرات في الدنيا على لسان هود لقومه :

« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ» (2)

فقد وعدهم الله بالجزاء على الإيمان والاستغفار والتّوبة أن يرزقهم الغيث لأنهم أصحاب زروع وبساتين ، وهم في أشدّ الحاجة إلى الماء . ووعدهم أن يزيدهم قوة الى قوتهم ، لأنهم كانوا مدلّين بشدتهم وبأسهم ، وكان لهذه الدعوة والوعد أثرهما في نفوس المؤمنين في كل زمان ومكان .

روي عن الحسن بن علي أنّه وفد على معاوية ، فلما خرج تبعه أحد الحجّاب فقال له : إنّي رجل ذو مال ولا يولد لي . فعلّمني شيئا لعلّ الله يرزقني . فقال له : عليك بالاستغفار . فكان يكثر الاستغفار . فوُلد له بنون . فلمّا علِمَ بذلك معاوية قال للحاجب : هلاّ سألتَ الحسَن دليلَه على ما أشار عليك به ؟ ثم لقي الحاجبُ الحسنَ ثانية ، فسأله . فقال له الحسن : ألم تسمع قول هود عليه السلام :

---

(1) نوح : 9 ـ 12 .

(2) هود : 52 .

« .... ويَزِدْكُمْ قُوَّةً إلىَ قُوَّتِكُمْ .. "وقول نوح عليه السلام :" وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ"" (1) !

وسلّط الله عذابه في الدنيا على سبإ ، وهم طائفة يعيشون في أرض خصبة باليمن بين واديين ، بكلّ منهما جنّة ، احداهما عن يمين البلاد ، وهي مأرب . والأخرى عن شمالها . ولكنّهم كفروا ربّهم وبطروا نعمته ، وضلّوا عن سواء السبيل . فأرسل الله على سدّ مأرب سَيْلاً دمّره ، فأجدبت بلادهم ، وارتحلوا عنها، حتى صاروا مضرب الأمثال في التّشتت . فقيل : تفرّقوا أيدي سبإ (2)

قال تعالى : "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ؛ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ . بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ ، وبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا . وَهَلْ يُجَازَى إلاَّ الكَفُورُ ؟ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التِي بَارَكْنَا فِيهَا، قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيها السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ . فَقَالُوا : رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا . وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ . إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (3) .

---

(1) محمد أحمد الحوفي : مع **القرآن الكريم** : 215 .

(2) المصدر السابق : 280 .

(3) سبا : 15 ــ 19 .

وإذا كانت الدعوات السّماوية تخلّت عن الإبادة الجماعيّة للمكذّبين من أقوام الأنبياء فإنّها ما تخلّت عن التأديب العاجل لمن انتهكوا الحرمات ، وزاغوا وانحرفوا ، وعاثوا فسادا في الأرض .

لذلك فإن الإنذار والتخويف في قصص القرآن لسبإ ليسْتا مقصوريْن على المعاصرين للدّعوة المحمّدية ، بل إن آثارهما باقية خالدة على مدى الأزمان والأجيال ، لا في جزاء مؤجّل في الآخرة فقط ، بل وفي جزاء دنيويّ ينال الأفراد أو المجتمعات وفقا لسنن الله الحكيمة التي لا تتبدّل . وهذا الجزاء يختلف ويتنوّع ، وقد يكون ظاهرا وقد يكون خفيّا .

قال تعالى : «فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى . وَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى » (1)

فلا معنى إذَن لقول من يحادّ الله ورسوله في هذا العصر فيزعم مثلا : أن الشرك بالله موجود ، وتأليه الطبيعة والمادّة منتشر ، والإعراض التامّ عن الأديان السماوية عامّ ، ومع ذلك فلا عذاب في الدنيا ولا نكال ولا استئصال . فعلى هؤلاء أن يبحثوا عن أسباب التحوّل في حياة الأفراد والمجتمعات : من عزّ إلى ذلّ ، ومن غنى إلى فقر ، ومن أمن إلى خوف ، أو العكس ، ليدركوا أنّ الله لم يترك الكون سدى ، ولم يتخلّ في الدنيا بعد انتهاء الرسالات السماويّة عن مثوبة المحسنين ، وعقوبة المسيئين.

---

(1) طه : 124 .

قال تعالى : «كَذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ فأتاهُمُ العَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ . فأذاقَهُمُ اللهُ الخِزْيَ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا . ولَعَذابُ الآخِرَةِ أكبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» (1)

4) معرفة السياق والمناسبة

ومما يُعين على فهم القصّة القرآنية فهما دقيقا ، ويجعل تأثيرها في النفس أعمق :

1) معرفة السياق الذي عُرضت فيه ، سواء في السورة ، أو في الآيات التي سبقت القصّة ومهّدت لها ، أو الآيات اللاّحقة التي أعقبتها

فقصّة أصحاب الجنّة (2) (البستان) عُرضت في سياق تكذيب المشركين للرّسول ، واتّهامهم إياه بالجنون ، ولا سيما كبراء قريش ، المعتزّون بأموالهم وأولادهم ، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة الذي كان إذا تُلِيَ القرآن قال : أساطير الأوّلين ! وقد وصفه القرآن بعيوب لم يوصف بمثلها أحد ؛ فألحقَ به عارا لا يُمحَى . فقال فيه :

«وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ، مُعْتَدٍ أثِيمٍ ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ : أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرْطُومِ» (3)

---

(1) الزمر : 25 ـ 26 .
(2) القلم : 17 ـ 33 .
(3) القلم : 10 ـ 16 .

فأشعرهم القرآن بأنّ ما بين أيديهم من أموال وبنين إنّما هو ابتلاء لهم من الله . وقد يسلبهم ما وهب ، كما سلب أصحاب هذه الجنّة.

ويبدو أنّ هذه القصة المنتزَعة من واقع بيئتهم ، كانت ذائعة بينهم مشهورة ، ولكن الجديد في سياقها أن تكشف عن فعل الله وقدرته ، وسخريّة القدَر بالكيد البشري . وقد جاء في التعقيب عليها تحذير المشركين مما هو أكبر من ابتلاء الدنيا بحقّ المال ، وهو عذاب الآخرة :

«كَذَلِكَ العَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (1)

ومن خلال هذه السورة عموما وقصتها خصوصا نلاحظ ملامح البيئة التي كانت تواجهها الدعوة الإسلامية ، والتي لا تخلو من سذاجة وبدائية في التصوّر والتفكير والمشاعر، كما تُبيّن ملامح تلك الفترة ، وهي الضّعف والقلّة والمعاناة والشدّة .

فنستروح من إيراد هذه القصّة مواساة الرسول صلّى الله عليه وسلم وتثبيته (2)

فإدراكُنا لمثل هذه الحقائق يضعنا في إطار القصّة ، وينقلنا إلى جوّها ، ويجعل عباراتها أكثر شفافيّة عمّا تهدف إليه .

2) : معرفة المناسبة التي عُرضت فيها القصّة ، وتشمل أسباب القصّة ذاتها ، أو النّاحية التاريخية المرتبطة بنزول القرآن ، وهي التي يعبَّر عنها بأسباب النّزول .

---

(1) القلم : 33 .
(2) **في ظلال القرآن** . ج : 29 / 43 .

فإنّ قصّة موسى والعبد الصالح ما كانت لِتُفهم على حقيقتها لولا الحديث النبوي الذي أوضح السبب الداعي لحمل موسى على أن يلتقي بهذا الرجل الذي كان يَعْلم من الغيب ما لا يعلمه هو، رغم أنه لم يُعرَف بالنّبوّة.

وقد أقحم العامّةُ في هذه القصّة أشياءَ غريبة، وربما كان بعضها من موحيات سبب اللّقاء الذي بيّنه الحديث النبويّ.

ونحن عندما نتلو هذه الآيات فإنّ آفاق فهمنا تتّسع ولا شكّ، متى عرفنا سبب نزولها.

قالَ تعالَى: «إنّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ. خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ. ثُمّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ. الحَقُّ مِنْ ربِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ المُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ، فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أبْنَاءَنَا وأبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأنْفُسَنَا وأنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ. إنّ هَذا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ. ومَا مِنْ إلَهٍ إلاّ اللهُ. وإنّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ» (1)

وسبب نزولها ما أخرجه ابن سعد في الطبقات، قال:

«قدم على النّبيء صلّى الله عليه وسلم أسقف نجران والعاقب. فعرض عليهما الإسلام. فقالا: إنّا كنّا مسلميْن قبلك. قال: كذبتما. إنّه منع منكما الإسلامَ ثلاث: قولُكما. اتّخذ الله ولدا،

---

(1) آل عمران: 59 ـ 62.

وأكلكما لحم الخنزير ، وسجودكما للصنم . قالا : فمن أبو عيسى ؟ فما درى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما يردّ عليهما ، حتى أنزل اللهُ : « إنّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ....إلى قوله : « وإنّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ »

فدعاهما إلى الملاعنة ، فأبيا ، وأقرّا بالجزية ورجعا (1)

واذا كانت معرفة جوّ القصيدة مثلا ، والظروف التي نظمت خلالها تُعين على الفهم ، وتُسعف بالذّوق ، وتواكب الشرح الأدبي ، فإن معرفة قصّة الآية ، والأسباب التي اقتضت نزولها أعون على دقّة الفهم ، وأدنى إلى استلهام أرجح التأويل ، وأصحّ التفسير (2)

فالمناسبة إذنْ تعين على فهم الآية ، وهي قرينة لبيان الحكم ، اذ ليس الدّين تعليما فحسب ، بل هو تربية أيضا . واعتماد المناسبة من أفضل الطرق التربوية . لذلك كان الصحابة حريصين على معرفة مناسبة النّزول في معناها العامّ .

فقد رُوِي أنّ عمر قال يوما لأصحاب النبيء صلّى الله عليه وسلم : فيمَ هُمْ يَرَوْن هذه الآية نزلت ؟ :

« أيَوَدُّ أحَدُكُمْ أنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وأعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وأصَابَهُ الكِبَرُ ولَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأصَابَهَا إعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ . كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » (3)

---

(1) السيوطى : **لباب النقول فى أسباب النزول** : 46 .
(2) صبحى صالح : **مباحث فى علوم القرآن** : 129 .
(3) البقرة : 266 .

« قالوا : الله أعلم . فغضب عمر . وقال : قولوا نعلمُ أوْلاَ نعلمُ . فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك . قال ابن عياس : ضُرِبت مثلا لعمل . قال عمر : أيّ عمل ؟ قال : لعمل رجل عمل بطاعة الله ، ثمّ بعث الله له الشّيطان ، فعمل بالمعاصي حتّى أحرق أعماله (1)

الجانب الانفعالي والعاطفي

الانفعال : تجربة عابرة يمرّ بها الإنسان عند ما يكون الدّافع قويّا ، والاستجابات منفعلة . أمّا العاطفة فهي : عبارة عن اتّجاه وجداني نحو موضوع معيّن . وتُكتسب بالخبرة والتّعلّم ، وتتكوّن تدريجيا بعد أن مرّت خلال تجارب وأعمال عدّة . فهي إذن استعداد نفسي ينشأ عن تركيز مجموعة من الانفعالات حول موضوع ما .

ومن أهمّ العوامل التي تساعد على تكوين العواطف : التّكرار والإيحاء ، الإقتران (2)

ولقصص القرآن أثر بليغ في توجيه العقيدة والسلوك منشؤة شعور انفعالي دافع ، أو عامل وجدانيّ مؤثّر .

فتأثير بعض القصص الذي يصف ما نزل بالمكذّبين لرسلهم من أهوال العذاب أنّه يُحدث شعورا بالخوف من عاقبة العصيان

---

(1) رواه البخارى .

(2) مصطفى فهمى : **الصحة النفسية** : 279 ـ 282 .

وهـذا الشعـور الانفعـالـي بـالخـوف هـو الـذي دفـع إلى الإسـلام « جبيـر بن مطعـم » لمـّا سمع الرسول صلّى الله عليـه وسلّم يقـرأ فى صـلاة الفجر قولـه تعالى : « إنّ عـَذابَ ربِّكَ لَواقِـعٌ مـَا لَـهُ مـِنْ دَافِـعٍ » (1) وقد قال في ذلــك : خشيت أن يدركنـي العذاب فأسلمـت (2)

وهو الذي دفع بعتبة بن ربيعةَ أيضا لمـّا سمـع الرسـول صلّى الله عليه وسلّم يقـرأ : « فَإنْ أعـْرَضُوا فـَقـُلْ : أنْذَرْتـُكـُمْ صَاعِـقـَةً مِثْلَ صَاعـِقـَـةِ عـَادٍ وثـَمـُودَ » (3) إلى أن يمسك على فمه ويناشده أن يسكت مخافـة أنّ ينـزل عليـه العـذاب (4)

وهذا الشعور بالخوف من العقاب الالهـي يتجدّد في نفس المؤمن كلـّمـا أثارت انفعالـَه قصّة من قصـص القـرآن أوآيـة من آيات الله

فالثـريّ المسرف على نفسـه ، الذي أطغـاه المـال فنسـيَ ربـّه واحتقـر الفقـراء ، وبـغـى ، وقادتـه الشهـوات إلى الفسـوق والعصيـان ، قد يُحسّ الرجفة والخوف عندمـا يسمـع قصّـة قـارون مثـلا أو قصـة صاحب الجنتيـن ، وذلك لِمـَا يجـد من بعـض وجـوه الشَّبـه بينـه وبينهمـا . وقـد يـكون خوفـه مدعـاة لتوبتـه واستقامتـه ، ورجوعـه إلى الجادّة ، وتـكوين عاطفـة حبّ الخيـر والبـرّ في نفسـه ، وإيمانـه بأن الترّف ظاهـرة سيئة ، تنمـو معه جراثيـم العفن الخلقـي ، ومفاسد الحيـاة .

---

(1) الطــور : 6 ــ 7 .
(2) الباقـلانـى : **اعجاز القرآن** : 38 .
(3) السجدة : 12
(4) **النسفـى** : ج . 4 / 90 .

هذه بعض أمثلة لانعكاسات القصص القرآني وتأثيرها على النّفس ، وإثارة نوع من الانفعال فيها . وهنالك ناحية أخرى فيه تتمثّل في تصويره للانفعالات النفسيّة بالتعبير أو بالحوار .

كما في خوف موسى من عصاه لمّا رآها تهتزّ كأنها جانّ ، فولّى مدبرا ولم يعقّب . وقد سكّن الله روعه فقال له : « يَا مُوسَى لا تَخَفْ إنِّي لا يَخَافُ لَدَيّ المُرْسَلُونَ » (1) .

وكما في غضب موسى لمّا عاد من المناجاة ووجد بني اسرائيل عاكفين على عبادة العجل .

قَال : « بِئْسَمَا خَلَفْتموني مِنْ بَعْدِي ، أَعَجِلْتُمْ أمرَ ربِّكُمْ ؟ وألْقَى الألْواحَ وأخَذَ بِرَأسِ أخِيهِ يَجُرُّهُ إلَيْهِ » (2)

وفي غضب فرعون لمّا قال السَّحرة : « آمَنَّا بِربِّ العَالَمين رَبِّ مَوُسَى وهَرُونَ : قَال : أآمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ . إنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْف تَعْلَمُونَ . لأقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ وأرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، ولأصَلِّبَنَّكُمْ أجْمَعِينَ » (3)

وقصص القرآن مليء بما يُذكي العواطف ويزكّي النفوس ، ويذكّر الانسان بفقره وحاجته وضعفه وعجزه أمام عظمة الله

---

(1) النمل : 10 .
(2) الأعراف : 150 .
(3) الشعراء : 46 ـ 47 .

المحيط بكل شيء ، فيمتلىءُ قلبه بوجَل الهيبة والجلال والخشية ، سواء تذكّر معصية يخشى عقابها ، أو طاعة يرجو ثوابها .

ومن هذه المشاعر تتولّد العواطف الدينيّة بتكرار ما يحمل هذا القصص من مبادىء أخلاقية ، وقيم روحيّة .

وقد أفردنا للتكرار فصلا خاصا في القسم النظري ، لمَا له من دور في إحياء الشعور ، وترسيخ العواطف الدينيّة التي لها تأثير في الاعتقاد والسلوك وتكوين الشخصيّة

ومن عوامل تكوين هذه العاطفة :

الإيحاء :

فمن أهم الوسائل التي تحقّق الصِّلة بين أفراد المجتمع قابليّة كلّ شخص للايحاء عندما يكون مندمجا في المجتمع . وتتفاوت هذه القابليّة حسب الأشخاص ، وفي الشخص الواحد تبعًا لمستوى نشاطه الذّهني ، وحالته الانفعاليّة .

ومن مظاهر الإيحاء : القابليّة لسرعة التصديق ، والمشاركة الوجدانية ، والمحاكاة (1)

« وكثيرا ما يظهر أثر الايحاء بالمحاكاة في تكوين العواطف الاجتماعية كالتديّن والوطنية . فإن أمثال تلك العواطف إنّما تنشأ

---

(1) يوسف مراد : **مبادىء علم النفس العام :** 195 ــ 108 .

في أحضان المجتمعات حينما يشبّ الفرد ، فيجد قومه وقد سيطرت عليهم عاطفة دينية خاصّة ، فينساق في تيّارهم ، ويدين بما يدينون به ، ويقلّدهم في كلّ مظهر من مظاهره ، ثمّ لا يلبث أن يؤدي به إيحاؤهم له ومحاكاته لهم ، إلى أن يصدر عنه مثل ذلك تحت تأثير عاطفة خاصّة لا تقلّ صدقا ولا رقّة عن عواطفهم » (1)

ويبدو أنّ ما تمنّاه بعض الناس من قوم قارون لمّا خرج عليهم في زينته ، وقد بهرهم ما شاهدوا ، وفتنهم ما رأوا ، إنّما كان مبعث هذه الأماني في نفوسهم التأثير الإيحائي . وهذا شأن عامّة الناس .

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ . إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » (2)

ولكنّ أهل العلم والتّقى من قومه لم تغرّهم هذه المظاهر الخادعة ، لأن لهم شخصيّاتهم المتماسكة بالعلم والإيمان . فلم يؤثر في نفوسهم هذا الايحاء كما حكى ذلك عنهم القرآن : « وَقَالَ الذين أُوتُوا العِلْمَ : وَيْلَكُمْ ! ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاّ الصَّابِرُونَ » (3)

---

(1) مصطفى فهمي : **في علم النفس** : 108 .

(2) القصص : 79 .

(3) القصص : 80 .

فالتأثير الايحائي إذنْ سلاح ذو حدَّين . فقد يكون خيرا إذا كوّن العواطف الصالحة . وقد يكون شرّا إذا كوّن العواطف السيّئة .

وإيمان أهل الأديان برسالات الأنبياء بعد موتهم ، إنما حصل عن طريق الايحاء أكثر من أيّ طريق آخر . وهو أمر يدعو إلى العجَب من قوّة تأثير هذا العامل العاطفي وشدّة نفاذه . حتّى أنّه ليحمل الأفراد على الإيمان بصُحُف مكتوبة ، لأنّ المجتمع آمن بها .

رُوي أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال يوما لأصحابه : « أيُّ المؤمنين أعجب إليكم ؟ قالوا : الملائكة . قال : ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربّهم ؟ قالوا : فالأنبياء . قال : ومالهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن ! قال : ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحُفا يؤمنون بما فيها » (3)

وها هم قوم يونس كذّبوا رسولهم في تضامن ، ثمّ آمنوا بالله في تضامن أيضا لمّا رأى بعضهم علامات العذاب تُنذر بشرّ قريب

فكان للإيحاء دوره في الحالين .

« فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إيمَانُهَا إلاّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ومَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِينٍ » (4)

---

(1) رواه البخاري :
(2) يونس : 98 .

وما تأثير الوراثة والتقليد إلاّ ضرب من الإيحاء . ولذلك قال نوح عليه السلام في دعائه على قومه :

« رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إلاّ فَاجِرًا كَفَّارًا » (1)

كما أنّ من أهمّ العوامل في تكوين عاطفة حول موضوع ذي صلة بموضوع آخر سبق أن تكوّنت لدى الشخص عاطفة مماثلة نحوه (2) :

الاقتران :

وهو من قوانين التّداعي لوجود حالتين نفسيتين معا في الشعور تُذكّر إحداهما بالأخرى . فرؤية الدّار تذكّر بمن فيها . ورؤيا الغيوم تذكّر بالمطر . والنفور من الحرب وبغض مآسيها يتولّد عنهما عاطفة الميل إلى السّلم ، وحبّ الخير للنّاس جميعا

ونجد في القصص القرآني من المؤثّرات النفسية هذا الاقتران .

فقد جعل القرآن من وسائل العظمة والاعتبار مشاهدةَ آثار المُبطِلين الذين كفروا ، فأخذهم الله بذنوبهم .

فإنّ رؤية هذه المساكن وهي خاوية على عروشها تذكّر بمن كانوا فيها ، وتذكّر بالله الذي أبادهم رغم ما كانت لهم

(1) نوح : 28 ـ 29 .

(2) **فى علم النفس** : 109 .

من قـوّة وصَوْلـة . وقد كانت ديار عـاد وثمـود ولـوط من الأماكن التي تمرّ بهـا قوافـل التجّار من مـكة . ولذلـك نعى عليهـم القـرآن غفلتهـم حيـن قـال :

« أوَ لَـمْ يَسيـرُوا فـِي الأرْضِ فـَيَنْظُرُوا كَيـْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذيـنَ مِنْ قَبْلِهِـمْ كَانُوا هُمْ أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثَارًا فِي الأرْضِ ، فَأخَذَهُمْ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، ومَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ : ذلِـك بِأنَّهُـمْ كَانَتْ تَـأتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَـكَفَرُوا فَأخَذَهُمْ اللهُ . إنَّـهُ قَوِيٌّ شَدِيـدُ العِقَابِ » (1)

يقـول علماء النفس : إنّ الترابط ــ وهو ربـط شيء بآخـر ــ هو الطريقـة الوحيـدة لتذكّر أيّ شيء مهمـا كان . والتذكّر سبيـلٌ لتحريك العقـل . واذا تحـرّك العقـل بالنظـر أو القيـاس أو الاستقـراء ، فقد يتحـرّك القلـب بالإيمـان ، والوجـدان باليقيـن .

قـال تعالى « ولَقَدْ أهْلَـكْنَا مَا حَوْلَـكُمْ مِنَ القُرَى ، وصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ » (2)

ثمّ إنّ عقولنـا تعتمـد عـلى الرؤيـة كثيـرا ، لأن انطبـاعـات النظر تَثبت . فنحن نستطيع في معظم الأحيان أنْ نتذكّر وجه الشخص عنـد عجزنـا عن تذكّر اسمـه . إنّ الأعصاب التي توصل بيـن العيـن والمـخّ أكبـر من تلـك التي توصـل بيـن الأذن والمـخّ . ولـدى الصينيين مثـل مأثـور : « إنّ رؤيـة الشيء مـرّة ، خيـرٌ من سماعـه ألـف مرة » (3)

---

(1) غافـر : 21 ــ 22 .

(2) الأحقـاف : 27 .

(3) **التأثير فى الجماهير عن طريق الخطابة** (ت) عزت صالح ورفيقه : 64 .

وفي قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » (1) خطابٌ للرسول صلّى الله عليه وسلّم ولكلّ من يحصل له التأثّر والاعتبار بالرؤية لتلك المدينة ومعالمها الباقية . والاستفهام في الآية يثير اليقظة والانتباه .

فنلاحظ حينئذ أنّ قصص القرآن يثير انفعال الرهبة أوالخوف ، أوالعجَب ، أوالاعجاب ، أوالاستياء ، أونحو ذلك بطرق شتّى من المثيرات والمنبّهات ، ويعمل على تحويل تلك الانفعالات العابرة إلى عواطف ثابتة بواسطة التكرار والإيحاء والاقتران وغيرها من الوسائل التعليمية التربوية الناجعة التي ظهر أثرها في الرسول صلّى الله عليه وسلّم . فإن اصفرار وجهه الكريم كلّما رأى سحابا ، وخوفه الشديد الذي يجعله يذرع المكان غاديا رائحا ، دليل على استجابته كليًّا لَمَا ورد في قصّة قوم عاد الذي خرجوا فرحين لمّا شاموا سحابا ، فقالوا : « هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا » (2)

فكان ما استعجلوه : « رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا » (3)

وهكذا فإنّ القرآن وقصصه بالخصوص تحوّلٌ بمحمد صلى الله عليه وسلّم إلى تجربة حيّة تتجسّم في عمل ، وتتمثّل في شعور

وإذا نحن بحثنا في مدى تأثير القصص القرآني عاطفيّا لمسنا صدى ذلك في القصص الإسلامي قديمه وحديثه من خلال

---

(1) الفجر : 6 .
(2) الأحقاف : 23 .
(3) الأحقاف : 24 .

الظواهر التي يستبين فيها الإيمان بالقضاء والقدر ، والاستسلام إلى سلطان القوّة الأزليّة ، والاتّجاه إلى تطبيق قاعدة القصاص في الدنيا ، والاعتقاد في عدالة السماء (1) . ومن ذلك مثلا ما نجده في بعض القصص العربي : أن كلّ مظلوم منتصف من ظالمه ، وكل شرّير مخفق ، صائر إلى بوار . لأنّ للخير جزاء الخير ، وللشرّ عاقبة الشر . ومن وراء الغيب قوة قاهرة تنتقم ، وعين ساهرة تثأر ، والثواب والعقاب في هذه الحياة الدنيا كلاهما يأتي معجّلا . وهو صدًى لمَا نجده في كثير من القصص القرآني .

الاقناع

يؤلّف قصص القرآن على اختلاف أنواعه ومقاصده وحدة في العقيدة قوامها : تجربة شعورية دينيّة يطمئن إليها الفكر . وهي حقيقة سيكولوجيّة لا بدّ من اعتبارها في نظرتنا إلى هذا القصص ، حتى الذي اقترنت وقائعه بخوارق أو أشياء غيبية غير مألوفة : كإحضار عرش بلقيس في قصّة سليمان . (النمل : 38 — 42) ، وإحياء الميّت في قصة بقرة بني إسرائيل . (البقرة : 71 — 73) ، وكآية البعث في قصّة إبراهيم . (البقرة : 260)

فإذا فُحصت هذه الوقائع وأمثالها بعين تنظر إلى الوجود نظرة شاملة ، فإنّها تكشف عن إرادة تجري على سنن تثير العقل للنّظر ، لا ليبحث عن المؤثّرات الطبيعية للأشياء في عالم الغيب ، فإن ذلك يتجاوزه ، ولكن ليبحث فيما وراء تلك الوقائع ، وما تدلّ

---

(1) محمود تيمور : **دراسات فى القصة والمسرح** : 84 ــ 85 .

عليه ، ومالَها من انعكاسات في النفس على طريقة التنبيه والإيقاظ لمواجهة موضوع الفكر والإيمان ، قصْد التّوصّل إلى إدراك الحقائق التي يعرضها القرآن على الفكر الإنساني الطبيعي المتحرّر ، لا الفكر المقيَّد بالقوالب النظرية المصطنعة ، والقضايا الفلسفية الموضوعة (1)

فالأسلوب المنطقي الذي نراه جافّا مجرّدا عند المتكلمين والفلاسفة يمتزج في القرآن الكريم بالأسلوب العاطفي المثير ، دون أن يكون ذلك على حساب أدلّته وبراهينه . فهو يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق قضاياه ومشكلاته ، ليحرّك تطلّعه إلى معرفة الحقيقة ذات الصّلة بحياته الحاضرة ، ومصيره البعيد . وهو يدعوه إلى النظر في الكون لاستنباط سننه ، وللاهتداء إلى الإيمان بخالقه . وكلّ هذه الدعوات موجَّهة إلى قواه العاقلة ، ليكون إيمانه عن تأمّل وتدبّر ، لا عن تقليد لِمّا وجد عليه آباءه ، من غير نظر ولا تمحيص .

وقد يقال إذا كان في القصص القرآني ما هو فوق العقل ، فكيف يُفهم بدون عقل ؟

يقول فتحي رضوان : « إنّي لو خُيِّرت بين ديني وعقلي لآثرْتُ عقلي . لأنّني قد أصبح به متديّنا . لكنّني لو فقدته فسأفقد ديني معه . لأنّ الدّين أسقط الخطاب عن المجانين » (2)

---

(1) انظر : **تاريخ الفلسفة فى الاسلام** : 68 ـ 70 .

(2) **الفكر الاسلامى والتطور** : 12 .

والحقّ أنّ القرآن إذ يقدّم في قصصه للعقل شواهد الألوهية الخالقة ، وأدلّة القدرة المطلقة ، فليس لتعجيزه وتعطيله ، بل لإثارة ملاحظته حتى لا ينظر إليها بعين غيره . فإنّ الملاحظة التأمّليّة تنشيء الفكرة ، والفكرة تهيّء التجربة ، وتقود من الأثر إلى المؤثّر ، ومن التّدبير إلى المدبّر . فهو لم يخضع في إقناع العقل إلى قواعد علميّة مقررة جامدة كمنطق أرسطو .

أمّا ما جاء فيه موافقا لبعض أقيسة المنطق في المحاجّة ، كالذي استخلصه الغزالي في (القسطاس المستقيم) فليس دليلا على أنّ القرآن يخضع في حُججه إلى القواعد التي اصطلح على وضعها علماء المنطق ، لأنه غير مطّرد . فهو شبيه بما قد يقال : إنّ في القرآن شعرا ، لوجود ما يصلح ان يكون بيتا من الشعر أو نصف بيت في أوزانه وتفعيلاته .

ووجهة الغزالي في ذلك أنّ مُعطيات الحسّ والتّجربة والتواتر يمكنها أن تتحوّل وتصبح معارف ضروريّة ومقدمات صالحة للاستعمال في البراهين . ويتحقّق ذلك بفضل نشاط عقل الإنسان وتفكيره ، لاستخراج الأصول الضروريّة وتأليفها تأليفا تتوفّر فيه شروط البرهان (1)

ولتطبيق هذا الرأي وَضع بعض حجج القرآن في أقيسه منطقية . ومن ذلك ما ورد في معرض التنديد بمنكَرات أهل الكتاب وادعاءاتهم الباطلة : « وقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أبْنَاءُ اللهِ وَأحِبَّاؤُهُ .

---

(1) القسطاس المستقيم : 17 ــ 18 .

قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ » (1)

وذلك أنّهم ادّعوا أنهم أبناء الله . فعلّم الله تعالى نبيّه محمدا عليه السلام إظهارَ خطئهم بالقسطاس المستقيم . فقال : « قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ » .

(وكَمَالُ صورة هذا الميزان : أن البنين لا يعذّبون . وأنتم معذّبون . فإذن لستم أبناء . فهما أصلان

أمّا أنّ البنين لا يعذّبون ، فيُعرف بالتجربة ، وأمّا أنتم معذّبون ، فيعرف بالمشاهدة . ويلزم منها ضرورة نفي البنوّة) (2)

وإخضاع بعض حجج القرآن إلى مثل هذه الموازين لا يخلو من تعسّف ، لأنّ أكثر الأدلّة التي يقيمها جَليّةٌ تسبق إلى الأفهام من أوّل النظر ، بحيث يدركها كلّ الناس . فهو ينظم المسلّمات البديهية ، ويرتّبها ، ليتوصّل منها إلى تقرير الحقيقة التي تُفحم الخصم ، وتوضّح معالم الحقّ ، بأسلوب يفيض بيانا وإشراقا . كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام ، وهو يبيّن لقومه أنّ شأن الاله أن يضرّ وينفع . فإذا لم يدفع عن نفسه الضرّ والأذى ، فهو أبعد من أن يدفع ذلك عن غيره . فهو إذن لا يستحقّ عبادة ولا تقديسا .

---

(1) المائدة : 20 .

(2) **القسطاس المستقيم** : 56 ـ 57 .

قَالَ : « أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ؟ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟ » (1)

يقول إقبال : « ظل الغزالي على الجملة تلميذا لأرسطو في المنطق ، ووضع في كتابه "القسطاس" بعض حجج القرآن في أقيسة منطقية ارسطالية . وفاته أنّ في سورة الشعراء قضيّة تقرر أنّ العقاب عاقبة المكذّبين للأنبياء ، وأنّ هذه القضيّة قامت على أساس السرّد البسيط لأمثلة من أخبار الأوّلين » (2) .

وقصص القرآن مزيج من العقيدة والمعرفة ، ومن العاطفة والفكر ، والحقّ والجمال . فهو لم ينس حظ العقل من حكمة وعبرة ، ولاحظّ القلب من ترقيق وتحذير . كلّ ذلك ليجعل بذور العقيدة التي يدعو إليها ضاربة في أعماق النّفس ، لأنّ هدفه الأوّل أن يصنع رجالا ، لا أن يلقي مواعظ ، وأن يصوغ ضمائر ، لا ان يسرد وقائع ، وأن يبني أمّة ، لا أن يقيم فلسفة (3). وقد بيّنّا هذه الحقيقة في مقدّمة الفصل الخامس من قسم البحث النظري ؛

لذلك فإنّ القرآن لا يستحسن الكلّيات المجرّدة ، بل يعنى دائما بالمشخّص المعيّن الذي لم تضعه الفلسفة موضع الاعتبار إلاّ حديثا بعد ظهور النظريّة النسبية (4)

---

(1) الأنبياء : 66 .

(2) **تجديد التفكير الديني** ... 147 .

(3) محمد الغزالي : **نظرات في القرآن** 157 .

(4) **تجديد التفكير الديني** ... 94 .

فهـو يربط الأحداث بالسّنن ، ليجعل إدراك الأمـور بالاعتمـاد على أصول قـارّة ، حتى ليتسنّى للذهـن في كثيـر من الأحيـان أن يتنبّـأ بمـا ينجـرّ عن تلـك الاحـداث من هزيمـة أو انتصار ، وعقاب أو ثـواب ، ونقمـة أو عنايـة إلهيـة ، لأنـه كان نتيجـة حتميـة لحوادث مماثلـة : كما في قصص قارون وفرعـون .

قـال تعالى : «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ» (1)

كمـا هو يربـط الصّلـة بين الوجـدان عن طريـق الإحسـاس والشعور الباطنـي والـذّوق الجمالـي ، وبيـن الفـكر عن طريـق الحـواسّ .

وكثيـرا مـا يتّخـذ مادّته وبرهانـه من مشاهـد الـكون ، كما في قصّة إبراهيم وهـو يبحث عن الله في ملـكوتـه (2) . فإنّ فيها امتزاجـا بين الإحساس والمشاهدة ، وانتقالا منطقيّـا من أفـول الـكواكب إلى حاجتهـا إلى خالـق يبـدّل ولا يتبـدّل ، ويقـدّر لهـا هـذه السُّنة التي تخضـع لهـا ، وهي الأفـول .

وكمـا فـي قصّة مـوسى وهو يحـاور فرعـون في آيـات الله في الـكون على سبيل الاستدلال العقلي الحرّ بأنّ الذي أمر بالدعوة إليه إنّما هو خالـق تلـك الآيـات (3) .

---

(1) الانفـال : 55 .

(2) الانعـام : 75 ـ 79 .

(3) طـه : 49 ـ 56 .

وكما في قصّة نوح وهو يدعو قومه إلى التأمّل في عالم الأرض والسماء ، وما فيهما من آيات القدرة المبدعة (1)

إنّ العقيدة الدّينيّة إذا استقرّت ورسخت في الوجدان تصبح في يوم ما غنيّة عن المدد الفكري بقدر ما تحتاج إلى المدد العاطفي . ذلك أنّ التحوّل عن الدّين لا يسير بسرعة التقدّم العلمي (2)

والآراء العلمية تغزو – أوّل ما تغزو – عقل المرء ، ولا تتغلغل في كيانه الانفعالي إلاّ بعد وقت طويل .

فقد يَحدُث أنّ مثقفا يقتنع بنظريّة فلسفية أو علمية تصادم عقيدته ، فيدين بهذه النظريّة ، ويبقى مع ذلك على إيمانه بما يعتقد . وقد يقبل هذا التناقض حتى تصبح النظرية الجديدة يقينا : ، وحينئذ ينبذ كل عقيدة تُناقضها .

ويدلّ تاريخ الفكر الإنساني على أنّ التحرّر من الدّين لم يكن يأتي مع التحرر الفكري ، بل في أعقابه . وما ذلك إلاّ لأنّ الشّعور الدّيني متغلغل في حياة المتديّن ، وجذوره متشبّثة بأعماق نفسه (3)

واذا لم يُوجد في قصص القرآن ما يصادم الحقائق المنطقيّة المسلّم بها ، فلأنّه لم يَبْنِ أحكامه واستنتاجاته على آراء فلسفيّة ،

---

(1) نوح : 15 – 20 .

(2) **تجديد التفكير الدينى فى الاسلام** : 94 .

(3) انظر : **تطور الشعور الدينى عند الطفل والمراهق** : 300 .

أو نظريّات علميّة قد تتطوّر بتطوّر الزمان ، أو يكشف التقدّم العلمي عن فسادها . فهو لم يُعرَض لخاصّة أهل العلم والفكر ، بل للنّاس كافّة قصد هدايتهم . فكان لا بدّ أن يخاطب عقولهم جميعا على اختلاف مستوياتها . لذلك كان ينعى على كل مجتمع تسيطر عليه معتقدات تلقّاها بالوراثة والتقليد عن غير علم ولا نظر ، ويرفض كلّ ما يبرّر التمسّك بتلك المعتقدات :

« سَيَقُولُ الذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ولا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ . كَذَلِكَ كَذَّبَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ » (1)

يقول علماء الاجتماع : لا يكون التفكير منطقيا إلاّ إذا كان اجتماعيّا . ولكن علماء النفس قلبوا نظريتهم ، فقالوا : لا تكون الحياة الاجتماعية سليمة كاملة إلاّ إذا استندت إلى التفكير المنطقي . وقد أيّدت التجربة صحّة نظريتهم التي سبق أن قرّرها القرآن بمثل قوله تعالى : « وإذا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ . قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُونَ » (2)

---

(1) الانعام : 148 .

(2) البقرة : 169 .

ومع هـذا فلا ينبغـي أن يتجاهـل أحـد مـا في القـرآن من ضروب الاستدلال القائـم على البحث عن العلّـل ، طبق قواعـد الفـكر الملزِمة ، ومن التنبيـــه المستمـرّ على النظـر العقلـيّ في الـكـون ، وعلى التدبّر في بنـاء العوالـم ؛ ومن إشارات كونيّة ونفسيّة من شـأنهـا أن توصـل بالضرورة العقليـة إلى الغايـة منـه . وهي إنشـاء وجهـة نظـر عن الذّات الإلهيـة وعن الإنسـان والـكون والحيـاة (1)

فإبراهيـم عليـه السـلام يجادل (نمروذ) الذي آتـاه الله المُلـك فادّعـى الربوبيّة ، وزعم أنـه يُحيـي بالعفـو مـن حـكم عليـه بالقتل ، ويُميت من شاء قتْلـه . وفي ذلـك تلبيـس على العامّة ، لأنّهم لا يدركون معنى الإحياء الذي نسبـه إبراهيم إلى الله وحـده ، وهو : إنشـاء الحيـاة في جميـع العوالـم الحيّة من نبـات وحيـوان وإنسـان ، ولا معنـى الإماتـــة التي يختصّ بهـا الله ، وهي : قطـع مـدد الحيـاة عنهـا .

والعقـل وإن أدرك مظاهـر الحياة والمـوت في الأحياء والأموات ، فهـو عاجز عن إدراك حقيقـة الحيـاة والمـوت .

لذلـك حاجّهُ إبراهيـم بوجـه آخـر في سُنّة كونيـة ظاهـرة يشتـرك كلّ الناس في فهمهـا . وهي أن يصيّر طلـوع الشمـس من المغرب ، إن كـان ربّا كما يزعـم .

وكان هـو وأهـل مملـكته اشتهـروا بالتنجيـم . وحركةُ الـكـواكـب من المغرب إلى الـمشـرق معلومـةٌ لديهـم (2) فتحـدّاه بالواقـع الذي

---

(1) **تاريخ الفلسفة فى الاسلام** : 69 .

(2) **النسفى** . ج : 1 / 130 .

لا يقبل الجدل ، فأدركته الحيرة من نصوع الحجة وسطوعها ، ولم يستطع أن يقول مثلا : فليأت ربك بالشمس من المغرب ، لأنه كان يدّعي الربوبية لنفسه ، ولا يعترف بها لغيره

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ . إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . قَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ ، فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ . فَبُهِتَ الذِي كَفَرَ . وَاللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ » (1)

وفي هذا دليل على بطلان رأي القائلين بذمّ الجدال والمناظرة في العقيدة الدينية إطلاقا ، مستدلّين على ذلك بمثل قوله تعالى :

« وَالذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ »(2)

وهذه الآية إنّما تبيّن وجه الجدال المذموم مع المعاند للحقّ الذي يكابر في الحجّة بعد ظهورها ، كهؤلاء الذين أشارت إليهم الآية .

ومثلهم أولئك الذين يستعملون في الجدل طرقا ملتوية قصد المغالطة وتبرير أعمالهم بكل الوسائل ، كأهل الوثنيّة

---

(1) البقرة : 257 .

(2) الشورى : 14 .

الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنّ الملائكة بنات الله رغم كراهيتهم للبنت ووأدها . فكانوا يعبدونهم ويقولون : إنّما نعبدهم بمشيئة الله . ولو شاء ما عبدناهم .

« وجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إنّ الإنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ . أمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وأصْفَاكُمْ بِالبَنِينَ ؟ وإذا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . وجَعَلُوا المَلائِكَةَ الذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إنَاثًا . أأشْهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ويُسْألُونَ . وقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ . مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ . أمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوا : إنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ » (1)

ثمّ جادلوا في قوله تعالى : « إنَّكُمْ ومَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » (2) ، فقالوا : « إنّ عيسى قد عبده قومه أهو في النار ؟ ثُمّ زعموا أنّ الأصنام التي يعبدونها هي تماثيل الملائكة . وهم في عبادتهم لها خيرٌ من النصارى في عبادتهم لعيسى ابن مريم ، لأنّه بشر مثلهم . فردّ الله على باطل جدلهم ، ودحض مفترياتهم ، وبرّأ عيسى ممّا ارتكبه أتباعه من بعده :

---

(1) الزخرف : 14 .

(2) الأنبياء : 98 .

« ولَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذَا قَوْمُكَ مِنْه يَصُدُّونَ . وَقَالُوا : أآلِهَتُنَا خَيْرٌ أمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً . بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إنْ هُوَ إلاَّ عَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَيْهِ ، وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إسْرَائِيلَ » (1)

أمّا الجدل الذي يبيّن مسالك الحقّ ، وينير سبيل المعرفة ، وينتهي بالضّال الذي لم يتلبّس بإصرار أو تعصّب أو عناد إلى الرّشد ، فقد أمر به القرآن ، وحثّ عليه بمثل قوله تعالى :

« ادْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وجَادِلْهُمْ بِالتِي هِيَ أحْسَنُ . إنَّ ربَّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ » (2) .

فهذه الآية توجب الجدل ، وتعرّف بآدابه من الرفق والبيان والتزام الحقّ ، والرجوع إلى ما أيّدته الحجّة القاطعة .

وروي عن أنس بن مالك أنّ النبيء صلّى الله عليه وسلّم قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » (3) .

وحاجّ ابن عباس الخوارج بأمر من علي ، فما أنكر أحد من الصحابة الجدال في طلب الحقّ . فلا معنى لمن جاء بعدهم » (4) .

---

(1) الزخرف : 57 – 59 .

(2) النحل : 125 .

(3) رواه احمد .

(4) **الاحكام في أصول الاحكام** : ج : 1 / 27 .

قال السيوطي : « اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلّة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تُبنى من كلّيات المعلومات العقلية والسمعية إلاّ وكتاب الله قد نطق به ، لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طُرق المتكلّمين ، وذلك لأمرين :

أحدهما بسبب ما قاله « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

والثاني أن الذي يميل إلى دقيق المحاجّة هو العاجز عن إقامة الحجّة بالجليل من الكلام . فإنّ من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحطّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلاّ الأقلّون . فأخرج تعالى مخاطباته في محاجّة خلْقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليّها ما يقنعهم ، ويُلزمهم الحجّة ، ويفهم الخواصّ من أنبائها ما يرابي على ما أدركه الخطباء » (1) .

وفي القرآن ما يدلّ على أنه كان في بلاد العرب مِلَل مختلفة ، ولأصحابها شيء من التفكير فيما يتّصل بالألوهية والبعث

فكان لابدّ للقرآن من أن يقول كلمته الفاصلة فيما كانوا يختلفون فيه ، وأن يبيّن الحقّ فيما عليه النّاس من اعتقادات ، وأن يجادِل المخالفين فيمَا أراد أن يقرّر من اعتقادات جديدة (2)

---

(1) **الاتقان فى علوم القرآن** : ج : 2 / 135 .

(2) محمد يوسف موسى : **القرآن والفلسفة** : 11 .

فمنهم من كان لا يرى علّة لوجود العالَم سوى الطبع المُحْيِي والدهر المُفني ويسمّيهم الشهرستاني (معطِّلة العرب) ، إذْ أنكرت عقولهم الخالقَ والبعث ، فكأنّهم عطّلوها ، ولم ينتفعوا بها (1) وهم الذين يحكي عنهم القرآن :

« وقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحْيَا ومَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ ، ومَالَهُمْ بِذلِك مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ » (2)

ومنهم من آمن بالله وأنكر الرسالة والبعث

أخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عباس قال :

« جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعظْم حائل ففتّته ، وقال ساخرا : يا محمد أيُبعث هذا بعد ما أرِم ؟ قال : نعم ! يبعث الله هذا ، ثمّ يُميتك ثمّ يُحييك ، ثمّ يُدخلك نار جهنم ، فنزلت الآيات » (3)

« أولَمْ يرَ الإنْسَانُ أنَّا خلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وضَرب لَنَا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ . قَالَ : مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الذي أنْشَأهَا أوَّلَ مَرَّةٍ وهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (4) .

---

(1) انظر : **الملل والنحل** : للشهرستانى . ج : 2 / 432 .
(2) الجاثية : 24 .
(3) **لباب النقول فى أسباب النزول** : 187 .
(4) يس : 77 – 79 .

لذلك تناول القرآن في عدّة قصص التّدليل على ما سيكون بعد الموت من بعث وحساب : كقصّة إحياء قتيل بني إسرائيل (البقرة : 71 ـ 72) ، وقصّة الرجل الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها (البقرة : 258) ، وقصّة أهل الكهف (الكهف : 9 ـ 26) .

فكان في عرض مثل هذه الوقائع العجيبة دليل على قدرة الله على البعث

ومن الأدلّة التي استعملها القرآن في هذه القضيّة قياس الغائب على الشاهد بأمثلة حسيّة في نشأة الإنسان الأولى ، وفي الطبيعة ، كما في قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ . وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا. وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ »(1)

---

(1) الحج : 5 .

ومن أوضح الأدلّة العقليّة في قصص القرآن على وجود الله وقدرته على الفعل ما أبقاه الله من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم ، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم ، وجَعْل العاقبة لهم .

فقال في قوم لوط : « إنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزًا مِن السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . ولَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ » (1) .

وقال فيهم وفي آثار قريتهم لمكذّبي محمد صلّى الله عليه وسلم :

« وَإنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وبِاللَّيْلِ ، أفَلا تَعْقِلُونَ ؟ » (2)

واعتبارُ الفكر بمثل ذلك ، ينقله من الدّليل إلى المدلول ، ومن الملزوم إلى لازمه . ومن أقرّ بوجود الله وآمن بصفاته وأفعاله ، واطمأنّ الى عدالته في الأرض . أيقن أنه لا يدع المفترين عليه دون أن يأخذهم بذنوبهم في الدّنيا ، لأنّه يعلم كيف يتقوّلون عليه . أفلا تراه كيف يُخبر أنّ كماله يأبى أن يتركهم وشأنهم ، بل لا بدّ أن يجعلهم عبرة لعباده كما جرت بذلك سنّته .

فهو يقول لمن اتّهموا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالكذب على الله :

---

(1) العنكبوت : 34 ـ 35 .

(2) الصافات : 137 ـ 138 .

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » (1)

ولذلك كان جواب هود عليه السلام لقومه لمّا قالوا له :

« يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ » (2)

« قَالَ : إِنِّيَ أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ . فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ . مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا . إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (3)

فكانت بيّنته من أوضح البيّنات ، لأنه أشهد اللهَ على صدقه ، وعلى براءته من دينهم وآلهتهم . ثمّ قرّر دعوته أحسن تقرير ، وبيّن أنّ ربّه وربّهم الذي نواصيهم بيده هو وليّه القائم بنصره وتأييده ، وأنّه سبحانه على صراط مستقيم ، فلا يخذل من آمن به وتوكّل عليه ، ولا يُشمت أعداءه به ، ولا يكون معهم عليه » (4) .

ومن الأدلّة العقلية القياس الواضح بالمثال ، كما في قوله تعالى :

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (5)

---

(1) الحاقة : 44 – 45 .
(2) هود : 53 .
(3) هود : 54 – 55 .
(4) **مدارج السالكين** . ج : 3/300 .
(5) آل عمران : 59 .

فقد ساق القرآن هذا المَثَل للذين أنكروا أن يكون عيسى بشرا ، معلّلين ذلك بأن خلْقه لم يكن وفق السُّنن الطبيعية

ويذكر الطَّبري أنّ رهطا من أهل نجران قدموا على النبيء صلّى الله عليه وسلّم . فقالوا له :

« مالَكَ تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : هو الله ، نزل من مُلكه فدخل في جوف مريم ، ثمّ خرج منها فأرانا قدرته وأمره . فهل رأيتَ قط إنسانا خُلق من غير أب ؟ . » (1)

ولو كان لهؤلاء دليل عقلي على استحالة ذلك عند الله لكانوا معذورين ، ولكن لا دليل لهم إلاّ أنّ هذا غير معتاد . وهم دوْما يرون من شؤون الطبيعة والكون ما لم يكن معتادا . وكلّ ما لا يعرفون له سببا يعبّرون عنه بفلتات الطبيعة ، في حين أنّ الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوبا عقليا مطّردا .

لذلك لا يجوز أن ننكر وقوع ما لم يُعرف له سبب ظاهر لاحتمال ان يكون له سبب آخر خفّي لم يقف الإنسان عليه .

وأيّ دليل إيجابي يعتمده هؤلاء في تأليه عيسى سوى أنّه ليس له أب، ولكن له أمّ . فهل لله أمّ ؟

« لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا : إنّ اللهَ هُوَ المسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۝ وَقَالَ المسِيحُ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ ربِّي وَرَبَّكُمْ . إنّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنّةَ

---

(1) جامع البيان ج : 3/296 .

وَمَأْوَاهُ النَّارُ . ومَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ . ومَا مِنْ إِلَهٍ إلاَّ إِلَهٌ واحِدٌ . وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ . انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » (1) .

فقد أقامت هذه الآيات دليلين على بطلان ما يزعمونه من تأليه عيسى عليه السلام ، وهم أنفسهم مختلفون في فكرة حلول الله في جسد المسيح ، وفي نظرية اللاّهوت والناسوت اختلافا أدّى بهم زمنا طويلا إلى التّقاتل . وبطلان عقيدة التثليث والأقانيم الثلاثة وما فيها من غموض وتعقيد (2)

فالدّليل الأوّل يعتمد على حقيقة نقلها القرآن من التّاريخ وهي : أنّ عيسى كان يدعو بني إسرائيل إلى عبادة الله ربّه وربّهم ، ويحذّرهم من الإشراك به .

والدليل الثّاني أن عيسى وأمّهُ كانا يأكلان الطعام . والأكل من خصائص الإنسان والحيوان فبطل أن يكون إلها .

فأين سهولة العقيدة التي دعا إليها القرآن وقصصه من غموض سائر العقائد الأخرى ؟

---

(1) المائدة : 74 — 77

(2) انظر : **الجانب الالهى من التفكير الاسلامى** : لمحمد البهى : 99 — 100 .

يقول لوبون (Le Bon) : « لا شيء أكثر وضوحا وأقلّ غموضا من أصول الاسلام القائلة بوجود إله واحد ، وبمساواة جميع الناس أمام الله . والإسلام من أكثر الإديان ملاءَمة للعقل والعلم . وإنّك اذا اجتمعت بأيّ مسلم رأيته يعرف ماذا يجب عليه أن يعتقده ، على عكس النصرانيّ الذي لا يستطيع حديثا عن الاستحالة والتثليث وما شابههما من الغوامض إلاّ أن يكون من علماء اللاّهوت الواقفين على دقائق الجدل » (1)

وهكذا كان القصص القرآني يدفع إلى التفكير بما جاء فيه من قضايا ، وجاء به من حلول لمشاكل الألوهية والنبوّة والقدَر والبعث والإنسان . فهدى إلى المعرفة التي يؤمن بها القلب قبل العقل ، لأنّ العقل قد لا يصل إليها وحده .

الإبداع الفنّي

إذا كانت معالم الأصالة الفنيّة تبرز في القصّة على قدر ما تتّضح الفكرة الأساسيّة لها ، وعلى قدر اتّصالها بالإنسان في جوهره وحقيقته بأسلوب جذّاب ، وصيغ للتعبير موحية في طرافة وإمتاع وصدق ، فإنّ إبداع الفنّ في القصّة القرآنية – على إيجازها – يبدو جليّا في وحدة موضوعها وطريقة عرضها للأحداث في مشاهد حيّة ، وأسلوب إدارتها للحوار بما يصوّر المعاني الذهنيّة ، وينمّ عن الحالات النفسيّة ، وحسن اختيارها للموقف المثير لتوجيه القلب للعبرة .

---

(1) **حضارة العرب** : 158 – 159 .

وليست وظيفة الفنّ إلاّ أن يخلق شيئا حيّا نابضا يؤثّر في النفس والفكر .

يقول سيد قطب : « إنّ التعبير القرآني يتناول القصّة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها فتستحيل القصة حادثا يقع ، ومشهدا يجري ، لا قصّة تُروى ، ولا حادثا قد مضى » (1) .

فلم يكن الإبداع في القصص القرآني حاصلاً من ناحية اللفظ والمعنى فقط ، ولكن في منهجه الفريد ونظمه الوحيد الذي لو حاول أحد تقليده لبدا كلامُه مقتضَبا مضطربا لا يستقيم مع أسلوب الكتابة . وإلاّ فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبّر على طريقة الأداء القرآني في استحضار المشاهد ، والتعبير الموجّه ، وكأنّ المشهد حاضر ، (2) كما في مثل هذا الموضع من سورة يونس » :

« وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائِيلَ البَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنُودُهُ بَغْيًا وعَدْوًا ، حَتَّى إذَا أدْرَكَهُ الغَرَقُ . قَالَ : آمَنْتُ أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاّ الذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وأنَا مِنَ المُسْلِمِينَ » وإلى هنا هي قصة تُحكى .

ثمّ يعقبها مباشرة خطاب موجّه في مشهد حاضر : « الآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ . فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »

---

(1) **التصوير الفنى فى القرآن** : 156 .

(2) **فى ظلال القرآن** : ج : 11 / 154 .

ثمّ يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر :

« وإنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » (1) .

وليس الكشف عمّا تضمّنه من تشابيه ومَجازات ، واستعارات وكنايات بكاف وحده لإبراز مواطن الجمال فيه . إذ ليست قيمة الاثر الفنّي في جماله الشّكليّ ، بل وفي سحره البياني ، وتأثيره النفسي ، وبما يحمل من قيم روحيّة ، واتّجاهات جديدة في الحياة .

والدّين والفنّ كلاهما يضيء من مشكاة واحدة ، هي ذلك القبس العلوي الذي يملأ القلب سكينة وصفاء وإيمانا .

وليس مصدر الجمال في الفنّ إلاّ ذلك الشعور بالسموّ الذي يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفنّي. ومن أجل ذلك كان لا بدّ للفنّ أن يكون مثل الدّين قائما على قواعد الأخلاق (2)

وأمّا السّحر البياني فإنه لا يؤثّر إلاّ في من وقفوا على أسرار اللغة ودقائقها ، وأحاطوا بفنون القول فيها ، وأرهف الذّوقُ حسّهم .

لذلك جعل الله سماع المشركين من العرب إلى القرآن — وهم أهل الذوق البياني — حجةً عليهم . فقال موجّها نبيه صلّى الله عليه وسلّم :

« وإنْ أحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ » (3) .

---

(1) يونس : 90 — 92 .
(2) توفيق الحكيم : **فن الادب** : 76 .
(3) التوبة : 6 .

ثمّ إن روعة القصّة القرآنية ، لم تكن في جدّة موضوعها . فقد تكون ذائعة عند العرب ، معروفة في أوساطهم : كقصّة أصحاب الفيل ، ولكن روعتها في الأضواء التي سلّطتها على وقائعها ، وفي الرّوح الجديدة التي اقتحمت بها القلوب ، وفي الآفاق الفسيحة التي فتحت عليها للمعرفة نوافذ .

ففي سورة الكهف تغلّب العنصر القصصي ، إذ هو يمثّل إحدى وسبعين آية من مائة وعشر : قصة أهل الكهف ، وقصة صاحب الجنتين ، وإشارة إلى قصّة آدم وإبليس ، وقصّة موسى والعبد الصالح ، وقصة ذي القرنين .

ومحور هذا القصص هو محور السورة كلّها . وهو توضيح المنهج السليم للنظر والفكر ، على أساس أنّ وراء الحسّ عوالم غير منظورة ، وأنّ وراء الظواهر خفايا وأسرارا ، وليس الوجود مرتبطا دائما بمّداركنا ، ولا بالقواعد التي استنبطناها من تجاربنا ومشاهداتنا . كما أنّ الحقيقة لا ترتبط بالقيم الزائلة من الأموال والبنين ، وإنّما القيم الانسانية الصادقة ما ارتبط بميزان العقيدة . وكفى بهذا شعورا باللاّمتناهي ، يُطلِقُ للفكر وللخيال الحريّة في مجالاتهما المثمرة . وكلّما تعمّق إحساس الانسان في ملكوت الله وعظمته وخفيّ أسراره ازداد إيمانا بالله وبقدرته الباهرة .

وفي سورة مريم يستغرق القصص أيضا نحو ثلثيها . فتحسّ الألفاظ فيها تلين تارة وتشتدّ أخرى ، وجرس الألفاظ والفواصل يختلف إيقاعه الموسيقيّ باختلاف الجوّ والموضوع .

وأكثر الفواصل في قصص هذه السورة تنتهي بياء ممدودة رخية : (سويّا – حَفيّا – نجيّا –) .

أمّا المواضع التي تقتضي الشدّة والعنف فتجيء فيها الفاصلة مشدّدة : (مدّا – هدّا – أزّا) (1)

إنّ الفاصلة القرآنيّة تَرِدُ وهي تحمل شحنتين في آن واحد : شحنة من الوقْع الموسيقي ، وشحنة من المعنى المتمّم للآية .

والمعنى هو الذي يتحكّم في نوع الفاصلة ، ثمّ يأتي النَّغَم الموسيقي متمّما للرّوعة التي يتميّز بها أسلوب القرآن .

وبعض الدارسين تغيب عن أذهانهم العلاقة بين الآية القرآنية ونهايتها ، فيتوهّمون أنّ الحديث في الآية حول فكرة ، وتأتي الفاصلة بفكرة أخرى ، لأنهم لا يجدون ارتباطا بين الأولى والثانية ، أو بين المقدّمة والنتيجة . ولو تأمّلوا لوجدوا هذا الانسجام بين الفكرة التي تحملها الآية ، والخاتمة التي تنتهي بالفاصلة .

اقرأ قوله تعالى مثلا على لسان عيسى عليه السلام عندما يسأله ربّه يوم القيامة .

« أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأمِّيَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟» (2) . فيُجيب فيما يجيب : « إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ . وإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ » (3)

---

(1) الباقلاني : **اعجاز القرآن** : 38 .
(2) انظر : **في ظلال القرآن** : ج : 16 / 25 .
(3) المائدة : 116 .

فقد تتساءل عندما تقرأ هذه الآية : لماذا لم تنته بقوله مثلا : وان تغفر لهم فإنّك أنت (الغفور) الرحيم . مع أنّ السياق يوحي بالغفران ؟ ولكنك إن أمعنت النظر وجدت أنّ الذي استحقّ العذاب لا يستطيع أن يَغفر له إلاّ من كانت سلطته أعلى السلطات ، وقوّته أعظم القوى ، وعزتّه فوق كلّ عزة . ومن كان كذلك وجب أن يكون متّصفا بالحكمة التي يساندها العقل والمنطق السليم ، وينأى عنها الحمق والتسرّع والظلم والتّهوّر . وإذا جاءت الفاصلة بالعزّة مقترنة بالحكمة ، فلأنّ القادر على العقاب عزيز دائما . ولكن ليس كلّ عزيز عادلا . فكم من ملوك وحكّام ورؤساء ، ومن بيدهم سلطان على النّاس في هذه الدنيا ملكوا العزّة ، إلاّ أنهم فقدوا الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم ! أفلا تجد عندئذ أن ربط الحكمة بالعزّة تعبير رائع ، وتصوير جامع ، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم . ؟

والحقّ أنه ما انتهت آية إلاّ بفاصلة ملائمة كلّ الملاءمة لمعناها ، مستقرة في مكانها ، غير نافرة ولا قلقة ، ولكّن الأفهام قد تتضاءل عن إدراك سرّها .

والعربي في عهد نزول القرآن كان له من الذّوق المرهف ما يدرك به مكانة الفاصلة وموقعها . وما تتركّب منه ، بل وما ينبغي أن تكون عليه . فقد روت الاخبار ان أعرابيا سمع قارئا يتلو :

« فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أنّ اللهَ (غَفُورٌ رحِيمٌ) » (1) . فقال : إن كان هذا كلام الله فلا .

---

(1) البقـرة : 209 .

إنّ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزّلل ، لأنّه إغراء عليه ، وعاد القارىء لينظر ، فوجد الآية انتهت بقوله تعالى :

« فَاعْلَمُوا أنّ اللهَ (عَزِيزٌ حَكِيمٌ) » (1) .

فالفاصلة القرآنية كالقافية الشعريّة ، وتزيد على القافية بشحنة المعنى ، ووفرة النغم ، وسعَة الحركة الحرّة .

ولْنتأمّل دقّة القرآن في اسْتخدامه للألفاظ ، وحسن اختيارها في مواقعها . فقد جاء على لسان السّحَرة الذين آمنوا بموسى رغم ما أوعدهم به فرعون من عقاب شديد :

« رَبَّنَا أفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » (2) .

فإنّ ما يثيره لفظ "أفْرِغْ" وما يوحي به من لين ورفق وطمأنينة يحسُّها من هدأ جسمه بما يُلقَى عليه . وهذه الرّاحة تشبهها تلك الرّاحة النفسيّة التي ينالها من مُنِح الصّبْرَ الجميل .

فإذا جاء إلى العذاب استخدم لفظ "صَبّ" . فقال : « فَصَبّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ » (3) وهي مؤذِنة بالشدّة والقوّة معا .

وقد يجسّم القرآن المعنى ، ويهَب للجماد العقل والحياة ، زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس .

ومن أروع التجسيم قوله تعالى :

« ولَمّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أخَذَ الألْواحَ » (4)

---

(1) بكرى شيخ امين : **التعبير الفنى فى القرآن** : 201 ــ 203 .
(2) الأعراف : 126 .
(3) الفجر : 14 .
(4) الأعراف : 154 .

ألاَ تحسّ الغضب هنا وكأنه كائن حيّ يدفع موسى إلى لانفعال والثورة ، ثمّ يسكت ويكفّ عن دفعه (1)

وهكذا فإنّ للألفاظ أطيافا وظلالا وأصداء في النفس ، كما أنّ لجرسها إيقاعا في الأذن .

والكلمات في التّعبير ، كالألوان في الرّسوم ، والأنغام في الموسيقى .

وإن شئت فاقرأ ما ورد في القرآن من دعاء زكرياء وإيقاعه الغنائي ، ودعاء إبراهيم وأصوات ألفاظه المتقطّعة المتهدّجة ، ودعاء نوح المجلجل المديد . فهي كلها في سمّوها وحرارتها كأنها أناشيد السماء .

وإنّ اختلاف صيَغ التعبير وأساليبه في القصص على الخصوص من إيجاز وإسهاب وإجمال وتفصيل ، ولين وعنف ، ليَفرض على الباحثين في وجوه الإبداع أن يعرفوا مقامات الكلام ، وما تمليه طبيعة الموقف وظروفه .

فهذه إشارات سريعة تُعرَض فيها قصّة فرعون وقومه لمّا أصرّوا على تكذيبهم لموسى .

« وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا ، فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » (2) فيبتليهُم الله بآيات من العذاب .

« وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا : يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ . لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ

---

(1) **التعبير الفنى فى القرآن** : 197 .

(2) الأعراف : 132 .

الرُّجْـزَ إِلَى أَجَلٍ هُـمْ بَالِغُـوهُ إِذَا هُـمْ يَنْـكُثُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُـمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُـوا بِآيَـاتِنَا وكَانُـوا عَنْهَا غَافِلِينَ » (1) .

فالسيّاق يختصر في حادث الإغراق ، ولا يفصِّل خطواته ، كما فصّلها في مواضع أخرى من السُّور ، لأن الجوّ هنا جوّ الأخذ الحاسم بعْـد الامهال الطويل ، والانـذار الشديـد ، فلا داعـي إذن للتفصيـل .

إنّ الحسـم السريع هنـا كحلـول العـذاب السريـع ، أوْقـع فـي النفـس ، وأرهب للحسّ .

وهـذا القصص لشـدّة إيجـازه وإحـكامـه ، تـكاد كلماتـه تتحوّل رمـوزًا تنطـوي كلّ كلمـة منهـا على معـان كثيـرة . لـذلـك فإنّ الفهـم الدقيـق لإيحـاءات القـرآن وإشاراتـه تستدعـي يقظـة متواصلـة في قراءتـه ، وفكرا واعيـا لتدبّر مراميـه ، وحسّا مرهفـا لتذوّق معانيـه . تأمّـلْ هـذه الآية ومـا لكلماتهـا من أبعـاد ، وكيـف كانت مصـدرا لإيجـاد كلّ هـذه المعانـي التي تحتملهـا !

« وقَالَ نِسْوَةٌ فِـي الْمَدِينَةِ : امْرَأَةُ الْعَزِيـزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا . إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ » (2)

قال ابن قيّم الجوزية : « هَذا الكلام متضمن لوجوه من المكر

أحدها : قولُهـن : امْـرأةُ العَـزِيـزِ تُـراوِدُ فَتَـاهَـا » ولـم يسمّـوهـا باسمهـا ، بـل ذكـروهـا بـالوصف الـذي ينـادى عليهـا

---

(1) الأعـراف : 134 ـ 136 .
(2) يوســف : 30 .

بقبيح فعلها بكونها ذات بعل . فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممّن لا زوج لها .

الثاني : أن زوجها عزيز مصر ، ورئيسها ، وكبيرها . وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها .

الثالث : أن الذي تراوده مملوك لا حرّ . وذلك أبلغ في القبح .

الرابع : أنّه فتاها الذي تراوده هو في بيتها ، وتحت كنفها . فحكمه حكم أهل البيت ، بخلاف من تطلب ذلك من الأجنبي البعيد .

والخامس : أنّها هي المراودة الطالبة .

السّادس : أنّها قد بلغ بها عشقها له كلّ مبلغ ، حتّى وصل حبّها له إلى شغاف قلبها .

السابع : أنّ في ضمن هذا : أنّه أعف منها وأبرّ وأوفى ، حيث كانت هي المُراوِدة الطالبة ، وهو الممتنِع ، عفافا ، كرما ، حياء وهذا غاية الذمّ لها .

الثامن أنّهنّ أتيْن بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدّالة على الاستمرار الوقوع حالا واستقبالا ، وأنّ هذا شأنها ، ولم يقلْن : راودت فتاها . وفرقٌ بين قولك : فلان أكرم ضيفا وفلان يكرم الضيف ويطعم الطعام ، ويحمل الكَلّ . فإن هذا يدلّ على أنّ هذا شأنه وعادته .

التاسع : قولهن "إنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" أي إنّا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح . فنسبْن الاستقباح

إليها . ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضا على الهوى ، ولا يكدْن يريْن ذلك قبيحا ، كما يساعِد الرجالُ بعضهم بعضا على ذلك . فحيث استقبْحن منها ذلك ، كان هذا دليلا على أنه من أقبح الأمور ، وأنّه مما لا ينبغي أن تساعَد عليه ، ولا يحسن مُعاونتها عليه .

العاشر : أنّهن جمعْن لها في هذا الكلام واللّوم بين العشق المفرط ، والطلب المفرط . فلم تقتصد في حبّها ، ولا في طلبها .

أمّا العشق فقولهن "قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا" أي وصل حبّه إلى شغاف قلبها .

وأما الطّلب المفرط فقولُهن "تُراوِدُ فَتَاهَا" . والمراودة : الطلب مرةً بعد مرة . فنسبوها إلى شدّة العشق ، وشدّة الحرص على الفاحشة

فلمّا سمعتْ بهذا المكر هيّأتْ لهن مكرا أبلغ منه ، لأنّها قابلت مكرهن القوليّ بهذا المكر الفعليّ (1)

ومثل هذا في إيجازه المحكم ، وغزارة معانيه ، قوله تعالى على لسان شعيب ، وهو يدعو قومه إلى الله ، ويعرّفهم بقدرته وحكمته وعدله :

« إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (2) .

فصراطه الذي هو سبحانه عليه ، ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحقّ وفعله...

(1) **التفسير القيم** : 314 ـ 315 .
(2) هود : 56 .

قال ابن قيّم : « وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنّه لا يقول إلاّ الحقّ ، ولا يأمر إلاّ بالعدل ، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحقّ في أقواله وأفعاله . فلا يقضي على العبد بما يكون ظالما له به ، ولا يأخذه بغير ذنبه ، ولا يفعل قطّ ما لا يُحمَد عليه ، ويثنَى به عليه ، بل ما يكون له فيه العواقب الحميدة ، والغايات المطلوبة ، فإنّ كونه على صراط مستقيم ، يأبى ذلك كلّه » (1)

فهذه المعاني كلّها تضمّنتها جملة واحدة .

ثمّ إنّ بلاغة الكلام ليست في تطبيق قواعد البلاغة المعروفة كجمال صياغة التعبير ، وحسن اختيار الألفاظ فقط ، فكم من كلام حسَن السبْك ، جميل التعبير ، فصيح اللفظ ، سليم من الاخطاء ، ولكنه لا يثير في نفوسنا شعورا ، ولا يحرّك عاطفة !

وإنّما البلاغة أن يَبلُغ بها المتكلّم ما يريد إلى نفس السّامع بإصابة موضع الإقناع من عقله ، والتأثير من وجدانه .

وبعبارة أوجز : ما نجد من أثر الكلام في نفوسنا . وقد سبق الجرجاني إلى تقرير هذه الحقيقة لمّا ربط بلاغة الكلام بتأثيره في النّفس (2)

قال صلّى الله عليه وسلم : "إنّ من البيان لسحرا" (3)

لذلك عُدّ علم البيان شعبة من علم النفس (4)

---

(1) **اعلام الموقعين عن رب العالمين** . ج : 1 / 162 .

(2) **اسرار البلاغة** : 98 .

(3) رواه أحمد وأصحاب السنن .

(4) **المنار** . ج : 1 / 292 .

وفي قوله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلّم :

« وقُلْ لَهُمْ فِي أنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا » (1) تعبيرٌ مصورٌ ، وكأنّما القول يُودَع مباشرة في الأنفس ، ويستقرّ في القلوب .....

وأرى أنّ تأثير البلاغة في النّفوس إنّما هو تأثير الإبداع الفنّيّ فيها ، وهو التأثير السيكولوجي ذاته . ومن طبيعة الفنّ أنّه لا ينحصر في قواعد ، ولا يطّرد في أقيسة ، رغم ما قام به أعلام البلاغة وأيمّة النّقد من محاولات التأصيل والتقنين والاستنباط .

فكم من روائع تجاوزت القواعد التي اصطلحوا عليها ، والضوابط التي وضعوها ! فكيف بفنّ الخالق الذي أبدع هذا الكون ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ؟

فإخضاع كلامه لمقاييس الفنّ التي اصطلح على وضعها البشر ضرب من العنت ، لأنهسبحانه لا ينظر إلى الأشياء نظرة الإنسان ، ولا تقُوده العواطف ، فتدفعه إلى القول ، ولكنه ابتدع في هذا القرآن الحكيم منطقه ، كما ابتدع فنّه ، وهو مع ذلك لم يخرج عن المدارك البشرية فهْما وذوقا ، وإنْ أعجَزها الإتيان بمثله ، أو محاكاته .

وكذلك الطبيعة ، فهي وإن كانت من خلْق الله وإبداعه ، فإنّ الاعجاب بجمالها وبديع اتّساقها يملأ قلوبنا .

فمعرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يُحكمها من الوجهة الفنّية والذّوقية إلاّ من أوتي حظّا عظيما من مختار كلام البلغاء نظما ونثرا ، حتى صار ملكة له وذوقا . وعندئذ يدرك معنى قوله صلى الله عليه وسلّم :

---

(1) النساء : 62 .

« فضل كلام الله على سائر الكلام ، كفضْل الله على خلْقه » (1) .

وإنّما يدرك أسرارَ تأثير القرآن في الأمة العربية أولئك الذين كانوا حين أنزل الله القرآن عَبدَة البيان . وقد سمعنا بمن استخفّ بأوثانهم ، ولم نسمع قط بأحد منهم استخفّ ببيانهم (2)

وفي عرض هذا الموقف الرهيب لحادثة الطوفان التي تُعتَمدّ من أعظم الأحداث في تاريخ الإنسانية ، والتي لم تُبق إلاّ على القليل من البشر، وهم مَن آمن من ذرّيّة نوح كما يشير القرآن :

« وجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ » (3) . مثَلٌ من أمثلة التّصوير القرآني في القصة ، وإبراز الحقيقة النفسيّة الكامنة فيها .

« وهول هذه الفاجعة إنّما يقاس بمداه في النّفس بين الوالد والمولود ، كما يُقاس بمداه في الطبيعة ، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان . إنّهما لمتكافئان في الطّبيعة الصّامتة ، وفي نفس الإنسان . وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن» (4) ، لأنّ الحياة في الفنّ ، كما هي تشخيص لما يقع في العالم الخارجي من أحداث ، هي في الآن نفسه تصوير لِما يقع في العالم الداخلي من شعورٍ نحو تلك الأحداث.....!

« ....وهْيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالجِبَالِ ، ونَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وكَانَ فِي مَعْزِلٍ : يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ، ولاَ

---

(1) رواه الدارمي في سننه .

(2) محمود شاكر : مقدمة **الظاهرة القرآنية** : 45 .

(3) الصافات : 77 .

(4) **في ظلال القرآن** . ج : 12/65 .

تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ . قَالَ : لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلاّ مَنْ رَحِمَ . وحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ » (1) .

إنّ المعاني الكثيرة التي أدّتهما هاتان الآيتان رغم قلّة الألفاظ فيهما جديرة بالنظر والاعتبار :

– فقد رَسَمَتْ صورة لسفينة تغالب لُجَج الأمواج وليس لها مرفأ تقصده . أو اتّجاه تريده ، واليابسة تغرق في الطوفان . والقرآن حين يشبّه محسوسا بمحسوس كتشبيهه للأمواج بالجبال في هذه الآية ، فإنّما يرمي إلى رسم الصورة كما تُحسّها النّفس . فهذه الجبال تصوّرها للعين هذه الأمواج الضخمة ، كما تُصوِّر لنا ما يُحسّ ركاب هذه السفينة من فزع (2)

– وترجمتْ عن عاطفة الأبوّة الرحيمة المتمثّلة في إحساس نوح نحو فلذة كبده ، وحرصه الشّديد على إنقاذه من الكفر والغرق ، وهو أشدّ الناس إدراكا لحقيقة الهول .

– وأبانتْ عن موقف الابن العاقّ ، ونفسه المغرورة العنيدة ، واعتداده بقدرته على النجاة ، دون أن يردّه الرّعب إلى الله ، فيخافَ بطشه . لأنّه يعتقد الهلاك من الماء ، لا من الله . ويرى النجاة في الاعتصام بالجبل ، لا في الاعتصام برحمة الله .

---

(1) هود : 41 – 43 .

(2) **التعبير الفنى فى القرآن** : 192 .

ـ وأنارت السبيل إلى حقيقة يستخلصها كلّ من استوقفته العبرة ، وهي أنّ صلة القرابة والدّم لا تُغني من الله شيئا .

فهي واهية بالنسبة لصلة العقيدة ، وقرابة الإيمان التي تربط بين القلوب . إنّها العروة الوثقى بين الله والناس ....

واذا نحن بحثنا عن عوامل التأثير الفنّي أو السيكولوجي في الآيتين لاحظنا أنّ الظاهرة الأولى فيهما هي الإتّساق البديع بين الأحداث وصورها التعبيريّة .

فبينما نتشخّص مشهد السفينة وهي تجري بين أمواج كالجبال ، والطوفان يطغى فيغمر اليابسة ، إذا بنا نُمسك أنفاسنا لنُصغي إلى الحوار المؤثّر بين أب تفجّرت في قلبه عاطفة الحنان . وابن لجّ به العناد ، فأصرّ على الباطل والضلال ؛ إذ يفاجئنا التعبير الخاطف بانقطاع الصوت لاقتحام الموج ، « وكأنّ حيلولة الموج بين الاثنين جاءت رحمةً بقلب نوح ، إذ حجبتْ بصرَه عن ذلك المصير الذي طالما تهيّبه » (1) .

وهنا تتجلّى قوة الله وعظمته بأخذه أمّة في سرعة مفجعة ، عبّرت عنها الآية الثانية بإيجاز محكَم ، وتصوير للهول لا يقلّ عن الهول نفسه روعةً وسرعة :

« وَقِيلَ : يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ! وَغِيضَ المَاءُ ، وَقُضِيَ الأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ . وَقِيلَ : بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (2) .

---

(1) محمد المجدوب : **قصص وعبر** : 37 .

(2) هـود : 43 .

ألم يكن في مخاطبة الأرض والسماء ما يُشعر بعظيم قدرته ، وسرعة مُضيّ أمره ، ونفاذ تدبيره ؟

يزيد التعبيرَ روعة في الآية هذا التَّعاقبُ الزّمني السريع بلا مُهلة أو انقطاع لأفعالٍ متتالية صيغت للمجهول ، حتى لنخال أنّ الكون كلّه اصداءً تردّد أمر الله لتنفيذ مشيئته العليا . وهي ظاهرة في القرآن تكاد تطّرد عند وصف العذاب ، وخاصّة أهوال القيامة ، كما في هذه الآية :

« فَإِذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ ، وحُمِلَتِ الأَرْضُ والجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً » (1)

وتهدأ العاصفة ، ويخيِّم السكون ، ويتمشّى الاستقرار كذلك في الألفاظ ، وفي إيقاعها في الأذن والنفس . وتستيقظ في نفس نوح لهفة الوالد المفجوع ، فينادي ربّه ، ويجري بينهما حوارٌ تبرز منه هذه الحقيقة (2)

ونَادَى نُوحٌ رَبَّهُ . فَقَالَ : رَبِّ إنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ ....

فكانت آيات الحوار حلقة ربطت بين الظواهر والبواطن ، بين الحدَث ومؤثِّراته بذلك الخيط النفسيّ الذي ضمّ شتات الخوطر ، وجعل منها وحدة معنويّة ، ومبدأ لا يتغيّر مع الزمان ، تمثّل واضحا في مثل قوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذِينَ آمَنُوا

(1) الحاقة : 12 ـ 13 .

(2) انظر : **في ظلال القرآن** . ج 12/40 .

أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولَوْ كَانُوا أولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُمْ أصْحَابُ الجَحِيمِ . ومَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيمَ لأبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وعَدَهَا إيَّاهُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ » (1) .

وهكذا نلاحظ أنّ ما عُرِض من قصّة نوح في تلك المشاهد كان تأثيره من ناحيتين :

ناحية الإبداع البياني الحاصل من طريقة القرآن في أداء المعاني . وهي إبراز الحالات النفسية في صورة حسّيّة ، لا مجرّد التعبير عنها في صورة تجريديّة ؛ وتصوير المشاهد الطبيعية بالتخييل الحسّي المفعَم بالحيويّة والحركة ، لا مجرّد وصفها بالألفاظ.

وناحية الشعور العامّ الصادر عن الإحساس . والاحساس البشري قلّما يختلف بين إنسان وإنسان ، كما يختلف الذوق . بحيث لو نقلت معاني تلك الآيات إلى لغة أخرى بدقّة وإحكام لكان لها تأثير في الشعور ، شعور الانسان أيًّا كان .

ويجدر التنبيه هنا إلى أنّ عوامل التأثير في القصّة القرآنية تختلف من قصّة إلى أخرى ، بل تختلف في القصّة الواحدة التي تكرّر عرضها في عدة سور ، وذلك لتجدّد الأسلوب في الأداء تجدّدا يمدّ المشاعر بنشاط لا يفتر .

---

(1) التوبة : 114 .

فهذا عرض جديد لقصّة نوح في سورة القمر . وقد سيقت لإنذار المعرضين عن رسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم بما أصاب قوم نوح – أوّلَ المكذّبين برسالات السماء – من نكال وعذاب .

وهي في هذه السورة الحلقة الأولى من خمس حلقات جسّمت كلّها مصارع قوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون في جوّ مفزع رهيب .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ، وقَالُوا : مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدعَا ربَّهُ أنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وفَجَّرْنَا الأرْضَ عيُونًا فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وحَمَلْنَاهُ عَلَى ذاتِ ألْواحٍ ودُسُرٍ . تَجْرِي بِأعْيُنِنَا جَزاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . ولَقَدْ تَركْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ونُذُرِ ؟ » (1) .

وأخصّ ما يمتاز به أسلوب العرض هنا : الإيجاز البليغ ، والإيقاع الموسيقيّ السّريع . ولاشكّ أنّ للرّنين الصّوتي أثرَه القويّ في تصوير الحادثة ، شأنَ القصص الذي نزل في الفترة الأولى للدّعوة . فقد كان يعتمد على الايجاز والموسيقى اللفظية الأخّاذة ، وإبراز الحوادث لِزلزلة المشركين من موقف العناد .

وقد ذكر الله قصّة نوح وما كان من قومه في عشر سور .

وهذا التكرار الذي نلحظه للقصّة الواحدة ، والذي تناولنا الحديث عنه في الفصل الثالث من قسم البحث النظري ، مقصود

(1) القمر : 9 – 16 .

في القرآن . لأنَّهُ ليس الغرض من عرض القصة القرآنية تعليم التاريخ منها ، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها في شتّى المناسبات ، وبمختلف الأساليب .

ولا شكّ أنّ ذكر جانب من القصة في سورة لم يُذكر في سورة أخرى أثناء عرضها لتلك القصّة نفسها ، هو من سِمات المنهج القرآني في القصّة باقتصارها على موطن العبرة منها . واختلافُ المناسبات التي تُعرض فيها يسمح بإعادة ذكرها أو ذكر حلقة منها بأسلوب يلائم تلك المناسبة . وهو ميدان فسيح للتصوير الفنّي والقيَم التعبيريَّة . وتفنّنُ القرآن في المعاني باختلاف طرق أدائها وأساليب عرضها هو من آيات إعجازه البياني .

ورغم تكرار قصّة نوح في القرآن نحو عشر مرات ، فإنها في جميعها ألغتْ ذكر تفاصيل وجزئيّات قد تُحوِّل الشعور إلى غير الاتجاه المقصود ، لأنه لم يتعلق غرض دينيّ بذكرها . ومن ذلك مثلا : هل كان الطوفان عامّا أو خاصّا ؟ وماهية التنّور الذي فار بإذن الله . ومَن هم الذين أقلّتهم السفينة مع نوح ؟ وكم يوم بقوا فيها ؟ وأين هبطوا ؟ وكم بقي الماء غامرا للأرض ؟.

كما أنه لم يتحدث عن المُغرَقين ولا عن مجهودهم ومحاولاتهم ، ولا عمّا لقوا من الألم في أنفسهم ، ولا عمّا أحسُّوا من الندم ، لإعراضهم عن نوح ودعوته (1).

---

(1) طه حسين : مرآة الاسلام : 168 .

فمثل هذه الأسئلة قد يُثيرها الفكر ، ولكن القرآن لم يُجِب على واحد منها ، لأنّ من شأنه الإعراضَ عن التفاصيل التاريخية التي تبعد بالذهن عن الهدف المرسوم ، وهو الاعتبار .

وكثيرا ماَ يترك بين مشاهد القصة "فجوات" كما يسمّيها "سيد قطب" ولا يصحّ أن نسميها "ثلمات" أو "ثغرات" كما يسميها "قولدتزيهر" لمّا تُوهِم هذه العبارة من خلَل في بناء القصّة القرآنية يجب تداركه ، أو نقص يجب إتمامه وهذه الفجوات ينفذ منها إلى ملَكة التخيّل شعاع من جمال الفنّ ، فيثيرها ويُفسح المجال للخيال ، كي ينطلق حرّا فيتصوّر ما يشاء .

الفصل الرابع
نظرات في قصة يوسف

يذكر بعض المفسّرين أنّ اليهود قالوا لكبراء المشركين : سلُوا محمدا : لِمَ انتقل آل يعقوب من الشّام إلى مصر ، وعن قصّة يوسف ؟ (1) .

فنزلت السّورة تروي هذه القصّة التي هي أطول قصص القرآن ، إذْ تتعدّد فيها الشخصيّات ، وتتلوّن الأحداث ، ويجري فيها الحوار ليّنا رقيقا ، وتتوزّع فيها عناصر القصة توزيعا يتطلّبه الفنّ القصصيّ . فهي موزّعة بمقدار ، تظهر وتختفي حسب الظّروف الطبيعية ، وحسبما يحيط بالأشخاص من أحداث (2) .

وقد بُنيت بناء محكَما من حيث وحدة الموضوع وإحكام التصميم ، وتساوق المعاني . اشترك فيها الفنّ والاحساس، فجاءت ثريّة بالألوان والسّمات ، لأنها جمعت من عناصر القصّة ما تفرّق في غيرها من قصص القرآن . وجاء ترتيبها للأحداث في تناسق وتسلسل .

فالمشاهد تَنتقل بك – وهي تُعرض – من صورة إلى صورة ، ومن حركة إلى حركة ، حتّى تأتي عليها جميعا ، وقد ارتسمتْ في مخيّلتك حقيقة حيّة بفضل ما فيها من قيَم أخلاقية ، عُرضت بأسلوب فنّي مؤثّر

---

(1) انظر : **الكشاف** ج : 1 / 455 .

(2) **الفن القصصي في القرآن الكريم** : 314 .

وخيـْط الأحـداث فيهـا ـ على مـا بينهـا من اختـلاف في الـدّوافع والمقـاصـد ، وتباعـد فـي الـزمـان والمـكان ـ تـُمِسـك بـه العنايـه الالهيـة من البداية إلى النهايـة . فقـد بـدأت القصّة برؤيـا يوسف في عالـم الغيـب ، وخـُتمـت بتحقـّق رؤيـاه في عالـم الشهـادة .

بَيْـدَ أن تلـك الأحـداث التي كان فيهـا للتّربيـة وللعواطـف والغرائز دور فعّال ، وانعـكاسات نفسيّة أثـّرت علـى مـواقف الاشخـاص وسلوكهم هي ليسـت كالأحـداث المبالـَغ فيهـا أو المفتعـَلة ، التـي كثيـرا مّـا نجدهـا في القصص التاريخـي الذي يقصّه الإنسـان ، ويصبغـه بألـوان من خيالــه ، قد تـُخرجـه عن واقعــه التاريخـي ، بـل وعـن طبائـع الأشيـاء ، ويُملـي علـى الأشخـاص مـواقف تفضي بهـم إلى النهايـة التي رَسـم خطـّتَها من قبـل . ولـكنّ الأحـداث في هـذه القصـة القـرآنيـة تمثـّل صراعـا حقيقيّـا بيـن الخيـر والشـرّ ، والفضيلـــة والرّذيلـة ، وصوت الحـقّ ومغـريـات الهـوى ؛ في اختيـار حـرّ ، وإرادة متحـرّرة يُفسـَح فيهـا المجال للإنسـان فيمـا يأتـي ويـدَع مـن أعمـال يصحبهـا شعـور بيقظـة العقـل ، وإحسـاس الميـل ، ومراقبـة الضميـر ، ومـا ينتـج عن ذلـك من مسؤوليـة شرّف الله بهـا الإنسـان وبنـى عليها تـكليفه وابتلاءه وجـزاءه ، ممـّا لا يتأتّى مع استعباد الإرادة .

قال تعالى في حديـث قدسي : « يـَا عبـادي إنـّمـا هي أعمالـكم أحصيها لـكم ، ثمّ أوفـّيـكم إيـّاها ، فمن وجـد خيـرا فلـْيحمدِ الله عليه . ومن وجـد غيـر ذلـك فـلا يلـومنّ إلاّ نفسـه » (1) .

---

(1) رواه مسلم .

ولولا أنّ الإنسان أمين على شخصيّة حرّة أخذ تبعتها على عاتقه ، لما كان أيّ معنى لقول العزيز لامرأته :

« ...... واستغفري لذنبك » (يوسف : 29)

ولا لقول يوسف عليه السلام : « وما أبرّئ نفسي إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء » (الآية : 53)

ولا لقول إخوة يوسف : « يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ، إنّا كنّا خاطئين » (الآية : 97) .

وما التجاء امرأة العزيز إلى إحضار النسوة اللّائي عذلنها في حبّها لفتاها ، وأنكرن عليها ذلك في مجالسهنّ الخاصّة ، وأمر يوسف بالخروج عليهن فجأة ، إلاّ لتبرير سلوكها بما لا يستطعن إنكاره من حسنه الرائع ، وهو ما يسمّى في علم النفس (بالتبرير)

والتبرير ليس معناه أن تكون تصرّفات الفرد معقولة ، ولكن معناه : أن نبرّر سلوكنا ، حتى يبدو في نظرنا معقولا . وهو حيلة دفاعية ، لأنّه يمكّن الفرد من تجنّب الاعتراف بما يدفعه إلى سلوكه غير المعقول من دوافع غير مقبولة (1) .

وأمّا قول يوسف : « ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه ، وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين » (الآية : 33) .

---

(1) مصطفى فهمي : **الدوافع النفسية** : 158 ـ 159 .

فلا يدلّ على أنّه عليه السّلام فاقدٌ للإرادة والعزم على مجاهدة نفسه فيما يدهمها من خطر غواية المرأة وفتنتها ، ولكنها مقامات الأنبياء في التجائهم إلى الله في كلّ آن ، لأنّهم أعرف النّاس به ، وهو الذي تولّى رعايتهم وتربيتهم ؛ وفي خوفهم حتى من خطرات قلوبهم ، وميل نفوسهم . وكيف لا يخاف الفتنة والصّبوة ، ونظراتُ هذه العاشقة التي تأويه بيتها تلتمس مواطن الإثارة لتجد مكانا خاليا من قلبه ؟ إنّ من أقوى التأثير شعور الرّجل بحبّ المرأة اياه ، كما قالت عليّة بنت المهدي :

« تَحبّبْ فإنّ الحُبّ داعيةُ الحُبّ » (1)

سير الأحداث في القصة

إذا نحن تأمّلنا في أحداث هذه القصة رأيناها تسير سيرا طبيعيا وفق سُنن الحياة . فقد اتّفق إخوة يوسف على بغضه ، لأنّه كان في اعتقادهم أحبّ إلى أبيهم منهم . ودبّروا له مكيدة كي يخلو لهم وجه أبيهم . وأنجزوا خطتهم للتخلّص منه ، لأنهم أحكموا تنفيذها .

وراودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه لأنها افتتنت بحسنه فأحبّته ، وليس لها ما يردعها من خوف زوجها عن خيانته ، لأنّها تملك قيادَهُ كما يشاء هواها ، شأنَ ربّات القصور المترَفات اللاّئي أفسدت طباعَهن الحضارةُ والحريّة والفراغ . وكادت له لمّا رفض أن يستجيب ، لأنّ لها من نفاذ الكلمة ، ومن السلطان على زوجها ما مكّنها من الانتقام ، رغم ما عرَف زوجُها من آيات صدقه.

---

(1) المنار . ج : 12 / 296 .

ثمّ أخرجه من السجن ، واستخلصه لنفسه وأولاه ، لأنّه أيقن ببراءته ممّا نُسب إليه ؛ وبحصافة عقله ، وإصابة فهمه لمّا عبّر له رؤياه .

واستطاع يوسف أن يحتجز عنده شقيقه الذي طال شوقه إليه عندما جاءه إخوته يكتالون ، لأنه عرف كيف يحتال على إخوته بما يقطع حجتهم ، ويجعلهم أمام الأمر الواقع .

وهكذا كان تعليل هذه النتائج للأحداث تعليلا يقبله العقل ، لارتباط الأسباب فيها بمسبّباتها ارتباطا طبيعيّا

ولكنّ الذي قد يثير الاستغراب ما انتهت إليه بعض أحداث القصّة من نتائج غير لازمة لها عادة ، ولا تفسّرها الأسباب العاديّة ولا الصُّدفة ، وإنّما تفسّرها العناية الالهية بيوسف وأبيه اللّذيْن اصطفاهما الله بالنّبوّة .

ومن ذلك خروج يوسف من الجُبّ سليما مُعافىً ، وكأنّ يدًا خفيّة تلقّفته وهو يهوي فيه ، ورجوع البصر إلى يعقوب لما جاءه البشير ، وألقى على وجهه قميص يوسف ، وكان قد فقد بصره من إدمان البكاء عليه . ولكنّ الإيمان هو الذي يدفع هذا الاستغراب ، ويزرع في القلب اليقين والثقة بالله والاطمئنان إلى عدله وحكمته ، والاعتقاد بأنّ القدَر ليس الاّ مشيئة الله التي لا تُخالف سننه . وتلك السنن هي التي تجري الأحداث بمقتضاها ، وتُفضي إلى نتائجها : « سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » (1) .

---

(1) الأحزاب : 62

إلاّ أنّنا قد نتوصّل إلى معرفة تلك السنن ، وقد تقصر عقولنا عن إدراكها . بل من العلماء من يذهب إلى أنّ الخوارق في معجزات الأنبياء تجري حسب سنن إلهية لا نملك تفسيرها ، فنعتبرها خارقة للمألوف والعادة لِما خفي علينا من أسبابها المؤثّرة بالإرادة العليا .

الجانب النفسي في القصّة

قصّة يوسف في القرآن هي قصّة الشخصية والأحداث معا . فهي لا تسجّل واقعا فحسب ، ولكنها تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود . إنّها تنتصر للإيمان ، للصبر ، للعفاف ، للأمانة ، للإخلاص ...

وقد أبرزَت صراع النفس أملا في الحظوة ، أو إشباعا لظمإ الحبّ . وقام بالأدوار فيها شخصيّات متباينة في السنّ ، وفي المكانة الإجتماعيّة . ولكلّ منها طابعها الخاصّ وفق التربية والتجارب التي مرّت بكل منها : كالبراءة ، والحسد ، والعلم ، والحكمة . (1) فكانت لذلك كلّه مطمح أنظار الكتّاب والشعراء قديما وحديثا ، ومنبعا ثرّا يستوحون منه ، كما قال جلّ شأنه :

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ » (الآية : 8)

فهذه زوجة شاعر لم تصدّق دموعَه حين رأته يبكي ، فشبّهتها بقميص يوسف لمّا جاء به إخوته ، وعليه دم كذب

---

(1) أحمد ماهر البقرى : **يوسف فى القرآن** : 123 ــ 124 .

جُفُونُكَ والدُّموعُ تجُولُ فيها ... وقلبُكَ ليس بالقلبِ الكئيب
نظيرُ قميصِ يوسفَ يومَ جاءوا ... على لبّاتِه بدمٍ كَذُوبِ (1)

وهذا جلال الدّين الرومي يكتب بالفارسية قصّة يوسف الصِّدّيق ، وضيفه الصَّديق (2) .

يقول فيها الضيف ليوسف عليه السلام : « لقد قطعتُ رحاب الآفاق بحثا وتنقيبا ، وطوّفتُ في أقطار المشرق والمغرب ، فلم أعثر على الهديّة اللائقة بك . فكنوز الخير كلّها لديك ... وكيف أحمل الذّهب إلى المنجم ، والتّمر إلى هجَر ، واللؤلؤ إلى بحر عُمان ؟ إنّ كلّ الجواهر والنفائس ملء خزانتك . وهذا قلبي ملك يمينك ، ورهن طاعتك ، أمّا حسنك فليس لرَوعته مثيل .

– قال يوسف : كأني بك قادم ، وأنت فارغ اليد بعد رحلتك الشاقّة وجهدك الجهيد .

– قال الصديق : إنّي وقد أعياني العثور على الهدية الجديرة بمقامك ، أحضرت إليك مرآة لترى فيها وجهك الجميل .

إن الشّمس شمعة السماء ، وأنت شمس المحاسن كلّها ، وإنّي أهديت هذه المرآة لتذكُرني كلّما رأيتَ وجهك . إذنْ فقد أهديْتُ إليك أنوارك ، وقدّمت إليك محاسنك .... »

وهكذا فإنّ الدّارس لهذه القصة في القرآن يستطيع أن يبرز شحنات نفسيّة من أبطال القصّة ، ومن بعض كلماتها وإشاراتها .

---

(1) أبو منصور الثعالبي : **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** : 40 .
(2) تعريب : الشاوي شعلان : **منبر الاسلام** . صفر سنة 1390 هـ

فنحن نلحظ كلمة الصبر مثلا ، كانت دائما على لسان يعقوب ، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف ، وتوكيد الأيمان على لسان إخوته . كما نلحظ أنّ في الامكان وضع عناوين لبعض السّلوك الذي فرط من شخصياتها : كالتبرير والإسقاط والكذب والغيرة ، والقلق ، والاحساس بالذنب (1) ونحو ذلك من الحيل اللاّشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية ، والتي يسميها علم النفس آليات عقلية ، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتّره النّاشيء عن فشله ، وهو يحاول تحقيق رغباته .

فإخوة يوسف مثلا ظلّوا ضحايا الكبت الذي عانوه ، كي يخفوا رغبتهم في التخلّص من يوسف ، حتى يخلو لهم حبّ أبيهم ، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبتها ، بل كثيرا ما تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضدّ يوسف ، ممّا جعل يعقوب يشكّ في حسن نواياهم عند ما دعوا يوسف أن يلعب معهم . فقال لهم :

« وأخَافُ أنْ يَأكُلَهُ الذّئبُ وأنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ » (الآية : 13).

وكان من نتيجة هذا الكبْت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم... فكلّ ما كان يهمّهم تحقيقه هو أن يحُولوا بين يوسف وأبيه ، فاتّفقوا على قتله ، وتلطيخ قميصه بالدّم ، وادّعاء أنّ الذئب أكله لمّا ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم...

ولكنّ التلفيق كان واضحا ، لأنّ القميص لم يكن ممزّقا بآثار أسنان الذئب ؛ ممّا جعل يعقوب

(1) **يوسف في القرآن** : 157 .

لا يصدّقهم . ولهذا كان يدعوهم دائما إلى أن يتقصّوا آثار أخيهم ! ولو أنّه صدّقهم في دعواهم لمَا أصرّ على أن يقتفوا آثاره .

وقد وقعوا في حالة (التبرير) كما يفعل المذنب ، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه ليبيّن لنفسه وللناس أنّ لسلوكه هذا أسبابا معقولة . فهم يقولون : « يَا أبَانَا إنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ، فَأكَلَهُ الذِئْبُ ، ومَا أنْت بِمُؤْمِنٍ لَنَا ولَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » (الآية : 17) .

وإذا كان "الإسقاط" هو حيلة يُسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين..... ويهمّه بالدرجة الأولى أن يُلصقها بمن يظنّ أنه ينافسه مباشرة : كالزّوج الذي يخون زوجته ، ثمّ يتهمها بالخيانة . إذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم النفس ، فإنّ القرآن الكريم روى ذلك عن إخوة يوسف ، حينما دسّ يوسف صاع الملك في متاع أخيه ، وألقى القبض عليه بتهمة السّرقة ليستبقيه ، دون أن يكشف لهم عن شخصيّته (1) . إذ تقول الآية الكريمة على لسانهم :

« إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » (الآية : 77).

ولو استقصينا لوجدنا في السّورة آيات أخرى تتحدّث في بساطة عن أدقّ النظريات لعلم النّفس الحديث

---

(1) عبد المنعم الجداوي : من كتاب : **القرآن نظرية عصرية جديدة** : 221 .

الأحلام في القصة

ونجد في هذه السورة عنصرا اخر يتّصل بعالم النفس والغيب . فقد تضمّنت أربع رؤى ، وهي :

ما قصّه يوسف على أبيه وهو صبي (1) ، وكأنّ القصّة تأويل لهذه الرؤيا ، ولمّا تنبّأ به يعقوب من ورائها .

وما قصّه الفتيَانِ من رؤياهما على يوسف في السِّجن (2)

وما قصّه الملِك من رؤياه على حاشيته (3) .

وكانت تنبُّؤات يوسف فيما عبّره من هذه الرُّؤى كلّها صادقة ، لِمَا علّمه الله من تأويل :

«وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ»(4).

ولعلماء النفس بحوث ودراسات في موضوع الأحلام ، وقد حاولوا أن يجدوا لها تفسيرا يسير على منهج علميّ ، ولكن آراءهم في ذلك اختلفت وتضاربت . فمنهم من يرى أنها صوَر من اللاّشعور البدائي . ومنهم من يرى أنّها "تعويضيّة" . وآخرون يرون أنّها تقوم بوظيفة لإعداد الحياة ، إذْ أنّ الأمر كلّه لا يعدو أنّ القوم يحلمون ، لأنّهم يلتمسون في الحلم حلولا يسيرون على هديها في نشاطهم المقبل .

---

(1) الآية : 4 .
(2) الآيات : 36 – 42 .
(3) الآيات : 42 – 49 .
(4) الآية : 6

فالأحلام ترجع في الحقيقة إلى أحد نوعين :

إمّا شعوري : وهو ما يشغل النّفس من مشاكل في واقع الحياة ؛

وإمّا لا شعوري : وهو ما رسب في النفس من رغبات مكبوتة ؛ فيتّخذ العقل الباطن من الأحلام متنفّسا لهذا الكبت الذي يقع في اليقظة . ولكنّا نجد الرّؤى التي قصّها علينا القرآن لا تندرج تحت هذين النوعين ، وإنّما هي تمثّل نوعا ثالثا مستقلاّ بذاته ، لم يشأ علماء النفس أنْ يُقرّوه ، وهو اكتشاف الغيب ، والتنبّؤ بالمستقبل .

روي أنّ الشاعر الاغريقي : سيمونيدس (Simonide) اعتزم السفر بحرا ، فرأى في النوم ما يحذّره من ركوب البحر ، فعدل عن الارتحال . بينما جميع رفاقه لاقوا حتفهم في تلك الرحلة . وسمع الناس نبأ ذلك الحلم ، فتناقلوه خلَفا عن سلف عصورا طويلة . وزادهم إيمانا بما في الحلم من أمور تكشف عن حجب المستقبل .

لكن أدلر (Adler) يفسّر تلك القصّة فيقول :

« إنّه يحتمل أنّ صاحبنا الشاعر لم يكن صادق الرّغبة في القيام بتلك الرحلة خوفا من أهوال البحر وأخطاره . فلمّا دنت ساعة الرحيل كان يعتصر ذهنه لالتماس سبب يبرّرُ تردّده وإشفاقه من الارتحال ، حتّى لا يُتّهم بالجبن . فكان لذلك صداه في النّوم .

فليس لحلمه من قيمة إلاّ أنّ الصدفة التي أدت إلى تحقّقه بلغت من الرّوعة حدا أبقى أثرها في عقول النّاس زَمنا طويلا..... ولو أنّ السفينة لم تغرق لمّا سمعنا نبأ رؤْيَاه ، لأن العقل لاّ

يـولَع إلا بمـا يبعثـه علـى الحيرة والتطلّع ، ولا يشـدّه إلاّ الحديث عن الحـكمـة المخبوءة بيـن السمـاء والأرض » (1)

فرؤيـا يـوسف التي أفصحـت رمـوزهـا في مستقبـل أمـره عن واقع غيبيّ يتحقق ، ليست حديثا للنفس عمّا يشغلها ، لأنَّهُ عليه السلام ما كان يدور بخلده حين رأى رؤياه أنّ مستقبلا كهذا ينتظره . وليس تفريجا عن كبت يحسّ به ، لأنّ ذلك لا يكون لمَن هو عادة في مثل سنّه.

وكثيـر من النّاس رأوا في منامهـم مـا سيحـدث لهـم في اليقظـة فحصل لهـم بذلـك اليقيـنُ بـأنّ النّفـس مدرِكـة للغيـب في النّوم .

وقد بيّـن ابن خلـدون : أنّ النّفـس إذا خفّت عنهـا شواغـل الحسّ ومـوانعه بالنّـوم تتعـرّض إلى معرفـة مـا تتشـوّق إليـه في عالـَم الحقّ ، فتدرك في بعـض الأحيان منه لمحـة يـكون فيهـا الظفَـر بالمطلـوب . ولذلـك جعـل الله الرّؤيـا من المبشِّرات (2) .

قـال صلّى الله عليه وسلّم : « لم يبق من النبوّة إلاّ المبشِّرات ، قيل : وما المبشِّرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة » (3) .

وفي رواية : « أصدقُـكم رؤْيـا أصْدقُـكم حـديثـا » .

ويـرى الغزالي أنّ أدلّة العقـل وحـدهـا لا تـكفـي لإثبـات نبـوّة نبيّ . ويقـول : إنّمـا نعـرف النبـيء أو العـارف الذي يَتلقّى علمـه من الله بأمـر آخـر . فإنّ الله أعطانـا نموذجـا من خصائـص النبـّوة نشاهــده في نفوسنـا . ويعني بذلـك مـا يـراه النائـم من أسـرار الغيب (4)

(1) اسحق رمزى : **علم النفس الفردى** : 132 ـ 134 .

(2) **المقـدمـة** : 180 .

(3) رواه البخـارى .

(4) **المنقذ من الضلال** : 24 ـ 26 .

بين القرآن والعهد العتيق

الابتكار في القصّة ليس في خلق موضوع جديد لم يُسبق إليه . فقد يكون الموضوع مألوفا لدى النّاس أوْ لدى طائفة منهم ، ولكن بما يُشيع فيه الفنّ من آيات إبداعه ، ويسكب فيه من رُوحه . إذْ : « ليس الفنّ في الهيكل ، بل في الثوب الجديد الذي يُلبسه الفنّان للهيكل القديم » (1)

فموضوع قصّة يوسف – وإن لم يكن جديدا عند أهل الكتاب – هو من أنباء الغيب بالنسبة للرسول صلّى الله عليه وسلّم :

« ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، ومَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » (2) .

ولكن عند المقارنة يتّضح الفرق بين القرآن والعهد العتيق ، سواء في المدخل إلى هذه القصّة ، أو في أسلوب عرض الأحداث ، أو في الأحداث نفسها .

فالقرآن يضع القصّة في إطار ديني تنفذ منه أشعّة روحيّة إلى النفس ببيان العبرة الاخلاقيّة والتربوية التي من أجلها أنزل الله القصّة كما سيأتي بيان ذلك .

أمّا الأحداث فيها ، فهي مرتّبة ترتيبا منطقيا تجري في تناسق وتسلسل ، ونتائجها مبنيّة على مقدّمات يتقبلها العقل ويطمئنّ إليها

---

(1) توفيق الحكيم : **فن الأدب** : 13 .
(2) يوسف : 102 .

إنه يحرِّك المشاهد ، ويدير الحوار في صدق وحرارة ، فيُبرز سمات النبوّة في يعقوب بقدر ما يُبرز صفات الأبوّة فيه ، ويعرِّف بيوسف كنبيّ اجتباه الله ، وآتاه العلم والحكمة ، ليعمل جاهدا على تخليص النفوس من آفات الباطل وأوشاب الشرك ، وحمايتها من غائلة المجاعة .

ويمثِّل بامرأة العزيز المرأةَ التي يغلبها الهوى ، فيسدّ عليها منافذ الحكمة ، ثمّ يستيقظ فيها الضمير بوخز النّدم ، فتُقرّ بخطيئتها ، وتُقلع عن ذنبها ، وتثوب إلى رشدها .

أمّا العهد العتيق فقد وضع القصّة في إطار عائلي ، يحمل طابع السّرد التاريخي المجرّد ، دون أن يشير كالقرآن إلى ما وراء الأحداث من عِظات بالغة ، فيجعل منها صوَرا حيّة للإنسان ، حين يطغى عليه الحسد ، فيكيد لأخيه، وينصب له شِراك الشرّ ، وينكِّل به ؛ وحين يأخذه الهوى ، فيدفع به إلى مهاوي السوء ؛ ولكنه في النّهاية يتعثّر ، فيتفتضح أمره ، وتنكشف حقيقته .

ثمّ تصوِّر هذه الأحداث الجانبَ المقابل ، فتُبرز شرف الإنسان وسموّ نفسه حين يستنير بنور الله ، ويتسلّح بالإيمان ؛ فيكون طيّب السّريرة ، نبيل المقاصد ، صبورا في الملمّات ، لا ييأس من رحمة الله ، ولا تغيّر طباعَه الإحَنُ والشدائد ، لإيمانه بأنّ الحق قوّة لا تقهرها نزوات الأهواء ، ولا صولة البغي ، وأنّ الله لن يتخلّى عن نصرة من يلتجىء إليه مخلصا مهما طال الأمد .

وإذا تعرض "العهد العتيق" إلى بعض الغيبيّات ، فإنه لَيثيرُ الدهشة والاستغراب أكثرَ ممّا يُذكي الإيمان ، ويُحيي ما بالنفوس من نوازع الخير ؛ وذلك لمَا أتى به من تشابيه مادّيّة غامضة

تصدم الوجدان ، وتدعَ العقل في حيرة . ومن ذلك مثلا ما جاء في سفر التكوين عن رؤيا يعقوب عليه السلام :

« ورأى حلما . وإذا سُلَّم منصوبة على الأرض ، ورأسها يمسّ السماء . وملائكة الله صاعدة نازلة عليها ، وهو ذا الربُّ واقف عليها فقال : أنا الرّبُّ إلهُ إبراهيم أبيك وإله إسحق » (1)

ولعلّ من المفيد أن نشير بإيجاز إلى أهمّ النقاط الفنيّة والنفسيّة في قصّة يوسف بمقارنة بعض مشاهدها بين القرآن والعهد العتيق ، ليتّضح لنا ما بينهما من فروق في الشّكل والمضمون (2)

ويبدأ الخلاف في هذه القصّة بين القرآن والعهد العتيق برؤيا يوسف .

القرآن	العهد العتيق
سورة يوسف	سفر التكوين :
3) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ .	7) رأيتُ كأنّا نحزم حزما في الصحراء ، فإذا حزمتي وقفتْ ثمّ انتصبت فأحاطت بحزمكم وسجدتْ لحزمتي .

---

(1) **العهد العتيق** : سفر التكوين : فصل 28 فقرة 12 و 13 — (ترجمة الآباء اليسوعيين بيروت 1882) . وهو المصدر الذى اعتمدناه فى هذه القصة .

(2) انظر : **الظاهرة القرآنية** : لمالك بن نبى . صفحة : 240 وما بعدها .

4) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ : يَا أَبَتِ ! إِنِّي رأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ والقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .

5) قَالَ : يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا . إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

8) فقال له إخوته : ألعلّك تملك علينا ، أو تتسلّط علينا ؟ وازدادوا أيضا حنَقا عليه لأجل أحلامه وكلامه .

9) ورأى أيضا حلما آخر ، فقصّه على إخوته ، وقال : رأيتُ حلما أيضا : كأنّ الشمس والقمر وأحَد عشر كوكبا ساجدة لي

10) وإذ قصّه على أبيه وإخوته زَجره أبوه ، وقال له : ما هذا الحلم الذي رأيتَه ؟ ، أترانا نجيء أنا وأمّك وإخوتك فنسجد لكَ إلى الأرض ؟

إنّا لا نجد في القرآن إلاّ رؤيا واحدة ، ولا نجد ما يبرّر هذا الزجر ، أو يفسّر الاستفهام الإنكاري الذي جاء في رواية "العهد العتيق" على لسان يعقوب ، وهو النبي الأب الذي ما ينبغي لمثله أن يحسد أحدا من أبنائه على ما سيمنّ الله به عليه من منزلة سامية ، ومقام رفيع ، ولاسيمّا يوسف أحبّ بنيه إليه...

بل لقد كانت هذه الرؤيا بشرى له ، يتلألاء وميضها أمامه في أحلَك أوقات حياته ، فيربط قلبه بشعاع من الأمل والثقة في عدل الله ورحمته . بل لعلّه يتمثّلها صابرا محتسِبا في حزنه الكئيب ، مثل ما كان يوسف يتمثّلها في سجنه الرهيب .

وفي موقف تآمُر إخوة يوسف عليه ، يذكر العهد العتيق :

أن يوسف هو الذي ذهب إلى إخوته ليتفقّد سلامتهم بأمر من أبيه . ويذكر القرآن :

أنّ إخوته احتالوا على أبيهم حتى يرسله معهم ، رجاء أن ينالوا منه ، ويحُولوا بينه وبين ملازَمته لوالده ،

ولكنّ رؤيا يوسف جعلت يعقوب يخشى عليه من إخوته ، فيحذّره من إخبارهم برؤياه . ويقتضي ذلك أن يمنعه من الخروج معهم . بينما نجد في العهد العتيق ، كأنّه أرسل بنفسه الفريسة لِمَن يتلهّف عليها . وهذا يتنافى والترتيب المنطقي لسياق القصّة .

ومن ناحية أخرى فليس في القرآن ما يدلّ على أنّ يوسف خالف نصحَ أبيه ، وقصّ على إخوته ما رأى ، حتى يقولوا له : « ألعلّك تتسلّط علينا ؟ فيكيدوا له من أجل ذلك ، كما يُستفاد من العهد العتيق .

القرآن	العهد العتيق
11) قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يوسُفَ وإنَّا لَهُ لَنَاصِحونَ؟	12) ومضى إخوته ليرعَوا أغنام أبيهم عند شكيم .

12) أرسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

13) قَالَ : إنِّي لَيَحْزُنُنِي أنْ تَذْهَبُوا بِهِ . وأخَافُ أنْ يَأْكُلَهُ الذِئْبُ وأنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ .

14) قَالُوا : لَئِنْ أكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إنَّا إذًا لَخَاسِرُونَ

15) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وأجْمَعُوا أنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَاتِ الجُبِّ وَأوْحَيْنَا إلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ

13) فقال إسرائيل (1) ليوسف : إنّ إخوتك يرعون عند شكيم . هلُمّ ابعثك اليوم . قال : ها أنذا .

14) فقال له : امضِ فتفقد سلامة إخوتك ، وسلامة الغنم ، وائتني بالخبر........

18) فلمّا رأوه عن بُعدٍ قبل أن يقرب منهم ائتمروا عليه

19) فقال بعضهم لبعض : ها هو صاحب الأحلام مقبل .

ويزداد الاختلاف بين الرّوايتين اتّساعا وعمقا في وصف حالة يعقوب ، لمّا بلغه نبأ الفجيعة ، ووقوع المحذور بفقد أعزّ ولد عليه.

فالقرآن يصوّر لنا صدق تنبّؤه بما رَابه من أبنائه ، وربّما كشف له الغيب عن مكروه سيحصل ، ولكن الحذر لا يمنع القدَر . فلم يجد بدًّا من الاستسلام للقضاء ، حتى انجلى الغيب عن مأساة

---

(1) إسرائيل : لقب على يعقوب • وأصله كلمة عبرانية تشير الى اختصاص يعقوب بجانب الله •

اعتصم فيها بالتجلّد ، ولاذ بالصبر الجميل ، مَفزعِ المتّقين ، ومَوئل المؤمنين . ومن أوْلى بالصّبر من الأنبياء صفوةِ خلق الله ؟

أمّا العهد العتيق فقد صوّر لنا يعقوب في صورة مفزعة من الهلَع والجزع لا تليق بمقام من اصطفاه الله بالنبّوة ، ومن ينظر إلى الغيب ببصيرة نافذة .

أليس هو القائل : « إِنَّمَا أَشْكُوبَثِّي وحُزْنِيَ إِلَى اللهِ ، وأعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخِيهِ ، ولاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ . إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ (الآيه : 87) .

فلم يكن ثباته في محنة ابتلائه . ولم يكن رجاؤه الذي لم ينقطع ، وصبره الذي لم ينفذ ، وصلته بربّه التي لم تفتر ، إلاّ عنوانا على اليقين ، وترجمانا على الإيمان ، رغم فزعه إلى الله بالشّكوى ممّا ألمّ به من حزن . والدّموع التي يذرفها إنّما هي استجابة لداعى العاطفة البشريّة .

القرآن	العهد العتيق
16) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ	وبعثوا بالقميص الموشّى ، فأنفذوه إلى أبيهم ، وقالوا : وجدنا هذا ، أقميصُ ابنكَهو ؟
17) قَالُوا : يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وتَرَكْنَا يوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ،	33) فأثبته وقال : قميصُ ابني ! وحشٌ ضَارٍ أكله ! افترس

وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ .

18) وجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ . قَالَ : بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا . فَصَبْرٌ جَمِيلٌ . واللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ .

يوسف افتراسا !

34) ومزّق يعقوب ثيابه ، وشدّ مسحا على حقويْه ، وناح على ابنه أياما كثيرة .

35) وقام جميع بنيه وبناته يعزّونه ، فأبى أن يتعزّى وقال : اني أنزل الى ابني نائحا الى الجحيم .

فالقرآن يبيّن أنّ دموع إخوة يوسف مفتعلة ، ولم يقولوا لأبيهم : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » إلاّ لارتباكهم وشعورهم بأنّ أباهم لا يصدّق دعواهم .

وكان ممّا يدلّ على كذبهم أنّهم قدّموا جميع الشواهد التي تبرئهم من العدوان في رباطة جأش دون أن يصيبهم ما يُصيب الذاهلَ من أسى وحيرة في مثل هذه الفاجعة . وقد أحسّ يعقوب بأنّ في الأمر سرّا ، فقال لهم : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » .

ولكنّه لم يشأ أن يرميهم صراحةً بالكذب والخيانة ، وهم أولاده جميعا ، لأنّ الأمر لم يبلغ عنده بَعْدُ مَبلغَ اليقين .

وكلّ ذلك مخالف لمَا جاء في العهد العتيق . وهو انخداع يعقوب وانطلاء حيلة أبنائه عليه .

ومن مواطن الاختلاف : ما أشار إليه القرآن عندما راودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه لمحاولة إغرائه . وقد قَدّت قميصه من خَلْف وهو يتخلّص بالفرار ، ممَّا أقام الدليل على براءته . كما شهِد بذلك شاهدٌ من أهلها .

بينما يذكر العهد العتيق أنَّه ترك قميصه عندها لمَّا أمسكت به ، فتركه بيدها وفرّ هاربا إلى الخارج .

القــرآن	العهد العتيق
23) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ، وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ ! قَالَ : مَعَاذَ اللهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ . إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .	7) وكان بعد هذه الأمور أنّ امرأة مولاه طمحت عينُها إلى يوسف وقالت : ضاجعْني .
24) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ .	8) فأبى ، وقال لامرأة مولاه : هو ذا مولايَ لا يعرف معي شيئا ممّا في البيت ، وجميع ما هو له جعلَه في يدي . 9) وليس في هذا البيت شيء فوق يدي ، ولم يُمسك عنّي شيْئا غيركِ ، لأنّكِ

25) واسْتَبَقَا البَابَ وقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ، وألْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ . قَالَتْ : مَا جَزَاءُ مَنْ أرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إلاَّ أنْ يُسْجَنَ أوْ عَذَابٌ ألِيمٌ .

26) قَالَ : هِيَ رَاوَدَتْنِي عن نَفْسِي. وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أهْلِهَا إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ .

27) وإنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

28) فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ : إنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .

29) يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هَذَا، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ .

30) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ : امْرَأةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا . إنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ .

زَوجته ، فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة ، وأخطىء إلى الله ؟

10) وكلّمته يوما بعدَ آخر ، فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها .

11) فاتّفق في بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمرَه ، ولم يكن في البيت أحد .

12) فأمسكت بثوبه قائلة : ضاجعْني فتراك رداءَهُ بيدها ، وفرّ هاربا إلى الخارج .

13) فلمّا رأتْ أنّه قد ترك رداءه بيدها وهرب خارجا .

31) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا ، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ، وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ . فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ ! مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .

32) قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ . وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ . وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ .

33) قَالَ : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ . وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

34) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

35) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ .

14) صاحتْ بأهل بيتها ، وقالت لهم : انظروا كيف جاءنا برجل عبْرانيّ ليتلاعب بنا ؟ أتاني ليضاجعني . فصرختُ بصوت عال.

15) فلمّا سمعني قد رفعتُ صوتي وصرختُ ، ترك رداءه بجانبي ، وفرّ هاربا إلى الخارج .

16) ووضعتْ رداءَه بجانبها حتى قدم مولاه إلى بيته

17) فكلّمته بمثل هذا الكلام وقالت : أتاني العبد العبراني الذي جئتنا به ليتلاعب بي

18) وكان عندما رفعتُ صوتي : وصرختُ أنْ ترك رداءه بجانبي ، وهرب خارجا .

19) فلمّا سمع مولاه كلام امرأته الذي أخبرتْه به . قالت : كذا صنع بي عبدُك ! فاستشاط عليه غضبا

20) فأخذ يوسف مولاه وأودعه الحصن حيث كان سجناء الملك مقيّدين . فكان هناك في الحصن .

ففي القرآن يدين الزوج زَوجته لمَّا ثبتتْ لديه براءة يوسف . بينما في العهد العتيق يغضب عليه ، ويُودعه السجن . وفي القرآن يَشيع الخبر بين نساء المدينة فتجمعهن امرأة العزيز في بيتها ، وتأمرُ يوسف بالخروج عليهن ، ليرين جماله حتَّى يكففن عن تعنيفها في حبّها . ولكن العهد العتيق لم يذكر شيئا من ذلك .

ويحسن أن نقف قليلا عند هذا المشهد الذي صوّره القرآن لنرى كيف تلتقي رَوعة الدّين بجمال الفنّ ؟

لقد كان عرْضا بديعا يضرب مثلا حيّا في الدّعوة إلى الاستقامة ، والتّدرّع بالإيمان في غياهب الضلال التي تزيغ فيها القلوب ، والاهتداء بنور اليقين في متاهات الفتنة التي تتهاوى فيها الإرادة ، حتى تنتصر الفضيلة على الرذيلة ، والوفاء على الخيانة ، والتّماسك على الانحلال .

ولكنّها دعوة ضمنيّة تنساب إلى المشاعر في يُسر ، وقد كانت فيها الكلمات تصوِّر المشاهد ، وتعبّر عن الأحاسيس . كما كانت اللّمحات والإشارات فيها أبلغ تأثيرا من الخطب الوعظيّة الطويلة .

فعبارة "هيتَ لَكَ" وإن لم تكن متداولة في الاستعمال ، لكنّ السّياق القرآني أبان عمّا تدلّ عليه من دعوة مشينة ، إنها كناية ، تُربي على إفصاح ، وتلميح أفصح دلالة من تصريح ، مع تنزّهٍ عمّا يُستهجَن ذكرُه .

وتُقابلها من ناحيةٍ ردّ الفعل عبارة "مَعاذَ الله" فهي هنا تفيد معارضة الاستجابة لداعية الهوى والغواية ، كأشدّ ما تكون

المعارضة إباءً ، لأنّها ثمرة الأيمان . وإيمان الأنبياء معرفة بالله وخشية منه . وكلّما ازداد المؤمن بالله معرفة ازداد منه خشية .

وممّا يجدر التنبيه إليه أنّ القرآن لم يُخف ما تنزع إليه الطبيعة المادّيّة للانسان . فكلاهما همّ بالآخر. ولا يُعتبر ذلك زلّة من يوسف ؛ لأنّ ما يعتري الإنسان من ميل نفسي بغير اختياره وكسبه ، لا يدخل تحت طائلة التكليف ، حتى يبرز بالعزم والفعل ، لأنّ فضل الاستقامة في الأديان السّماوية ليس في قتل الغرائز ، بل في التّحكّم فيها بمجاهدة النفس ، والتغلّب على النزوات .

لذلك لمْ تكن الزلّة إلاّ من امرأة العزيز . لأنّها عزمتْ على ما همّتْ به . أمّا يوسف عليه السلام فقد عصمه الله بما أراه من برهانه (1) ، لإحسانه وإخلاصه فكانت صِلته بالسماء أقوى من صلته بالارض ، رغم تهافت المرأة عليه وهو في سنّ المراهقة ، ورغم أنه شبّ في جوّ القصور .

كما أنّ القرآن لم يُخف من هذا المشهد جانبَ الصُّورة المقابلة . وهي المتمثّلة في استبداد الهوى برشد امرأة تنعم بين أحضان الترف والعزّ والسلطان وناهيك افتتانا بجمال عبدها وخادمها ، أنّها خرجت عن طبع أنوثتها في ادّلالها وتمنّعها ، ونزلت عن كبريائها وسلطانها . ولكنه يعتزّ عليها بالديانة والأمانة ، والترفُّع عن الخيانة (2) .

---

(1) انظر : **لطائف الاشارات** : للقشيرى . ج : 3 / 178 .

(2) **المنار** . ج : 12 / 278 .

قال ابن مسعود : « المرأة حبالة الشيطان ، والشباب شُعبة من الجنون ، وخيرُ ما يُلقى في القلب اليقين » (1) .

ومجاهدة النفس خير واق من السوء والفحشاء ، وخير وسيلة لبلوغ القمّم ، واحتضان المثُل العليا . فإنّ يوسف عليه السلام قد سُجن ظلما . ولإخلاصه وأمانته لم ييأس حتى يكفر بالقيم التي يؤمن بها ، فيرتمي بين أحضان الرذيلة والإثم اتّقاءً لغضب سيّدته عليه ، بل آثر السجن وعَذابه على حياة التّرف والإثم .

وهكذا فإن الآيتين "23ـ24" وهما في منتهى الإيجاز تُلقّنان في حرارة من خلال عرضهما لهذه الحادثة أسمى المبادىء الأخلاقية . وما ذاك إلاّ لأنّ المعاني سُبكت فيها ونضدت بطريقة فنّيّة تترك الخواطر تنساب حرّة في إطار الخطوط العامّة التي رسمتْها .

والتّداعي الحرّ هو من أثر الفنّ الذي يملك من القوّة ما يُخضع إليه كلّ فكرة ، كما أن الاحساس الفنّي يُحدث في النفوس انفعالات ، ويؤسر العواطف ، ويشدّها إليه .

وأين بلاغة القرآن وإحكام إيجازه ، وجمال أساوبه وقوّة تأثيره ، ممّا حكاه العهد القديم عن نفس المشهد الذي عرضتْه الآيتان ؟

ويُبتلّى يوسف في محنته الثالثة والأخيرة ، فيدخل السجن ـ رغم ما رأوا من براءته ـ مُدّة لم يحدّدوا زّمنها ، لأنّ غرضهم أن ينسى الناس قصّته مع امرأة العزيز . هذه القصة التي لاكتْها الألسن كثيرا في الأوساط الشعبيّة آنذاك .

---

(1) الجاحظ : **البيان والتبيين** . ج : 2 / 56 .

وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهم ونسائهم ، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء ، كلُّ جريمته أنه لم يستجب ، وأن امرأة من الوسط الرّاقي قد فُتنت به وشهّرت بحبّه .

ويكاد القرآن والعهد العتيق يتّفقان في عرضهما لأحداث هذا المشهد ، لكن التوراة تستغرق أكثر من القرآن في تفاصيل رؤيا السجينين ، بينما ينفرد القرآن بذكر دعوة يوسف وهو في السجن إلى توحيد الله ، وبثّ العقيدة الصحيحة .

ويظهرُ جليّا في هذه الدّعوة لطف مَدخله إلى النفوس ، وسيرُه خطوة خطوة في رفق وتُؤدة . قال : « لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلاّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أنْ يَأْتِيَكُمَا » (آية 37) ثمّ يتوغّلُ في قلوبهما أكثر ، ويُفصح عن دعوته ، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما بعد ذلك التّمهيد الطويل (1) :

« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ ....» (آية : 39) .

وفي هذه المحنة تتجلّى نعمة الله على يوسف بإظهار دلائل نُبوّته بمَا علّمه ربّه من تعبير الرؤيا ، وبما أطلعه من أسرار غيبه .

القـــرآن	العهد العتيق
36) ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ . قَالَ أحَدُهُمَا : إنِّي أرَانِي أعْصِرُ خَمْرًا . وقَالَ الآخَرُ : إنِّي أرَانِي أحْمِلُ فَوقَ رأسِي	الفصل الاربعون : 1) وكان بعدَ هذه الأمور :أنّ ساقي ملك مصر والخبّاز أجرما الى سيّدهما ملك مصر

(1) في ظلال القرآن ج : 12 / 110 ـ 113 .

خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

37) قال : لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلاّ نَبَّأْتُكُمَا بتأويله قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . ذَالِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي . إنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

38) واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِيَ إِبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ . ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وعَلَى النَّاسِ ، ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ .

39) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أأرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ .

40) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنِ الحُكْمُ إلاّ للهِ . أَمَرَ ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إِيَّاهُ .

2) فسخط فرعون على خصيّه : رئيس السُّقاة ، ورئيس الخبّازين .

3) وجعلهما في حبْس بيت رئيس الشرطة في الحصن حيث كان يوسف مسجونا .

4) فوكّل رئيس الشرط بهما يوسف . فاهتم بهما . وأقاما مدّة في السجن .

5) فرأيا حلما في ليلة واحدة .

6) فدخل عليهما يوسف بالغداة . فإذا هما قلِقان .

7) فسألهما وقال : ما بال وجوهكما مكتبئة اليومَ ؟

89) فقالا له : رأينا حلما ، وليس لنا من يعبِّره . فقال لهما يوسف : أليس الله علّمني التعبير؟ قصّا عليّ !

9) فقصّ رئيس السّقاة حلمه على يوسف ، وقال له : رأيت كأنّ جفنة كرم بين يديّ

10) وفي الجفنة ثلاثة قضبان ، وكأنّي بها أفرعَتْ وصارت عِنبا

ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ .

14) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا . وأمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ . قُضِيَ الأَمْرُ الذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ .

11) وكانت كأس فرعون في يدي . فأخذتُ العِنب وعصرتُه في كأس فرعون ، وناولت الكأس لفرعون .

12) فقال له يوسف : هذا تعبيره : الثلاثةُ قضبان هي ثلاثة أيام .

13) بعد ثلاثة أيام يَرفع فرعون رأسَك ، ويردّك إلى منزلتك ، ويتناول فرعون كأسَه كالعادة الأولى حين كنتَ ساقيَه .

14) إنّما إذا جاء أمرُك فاذكرْني في نفسك ، واصنع إليّ رحمة ، وأجْرِ ذكرى لدى فرعون ، وأخرجْني من هذا البيت

15) لأني قد خُطفت من أرض العبرانيين . وها هنا طرَحوني أيضا في هذا الجُبّ ، من غير أنْ أفعل شيئا .

16) ولمَّا رأى رئيس الخبَّازين

أنه قد عبّر له بخيْر ، قال ليوسف : رأيت أنا أيضا في حلم : كأنّ ثلاث سلال حواري على رأسي .

17) وفي السلّة العُليا من جميع طعام فرعون ممّا يصنعه الخبّاز ، والطيرُ تأكله من السلّة من فوق رأسي .

18) فَأجابَ يوسف وقال له : هذا تعبيره : الثلاث السِّلال هي ثلاثة أيام .

19) بعد ثلاثة أيام ينزع فرعونُ رأسَك عن بدنك ، ويعلّقك على خشبَة ، فتأكل الطير لحمك .

ويمنّ الله على نبيّه يوسف جزاء صبره بعدَ ان لبث في السجن بِضْع سنين ، فيُرى ملكُ مصر رؤيا حيّرتْه ، ويطلب تأويلها من الكهَنة ، ولكنهم عجزوا ، وإذا بساقيه يتذكّر وصية يوسف إذ كان معه في السجن ، بأن يَذكُره عند سيِّده ويتمّ ذلك ، ويرسله الملك إليه وهو في السجن ليعبِّر له الرؤيا . ولمّا تبيّن للملك براءته من كلّ ما اتُّهِم به ، وتبيّن له مدى علمه في تأويل الأحلام ، وقع في نفسه احترامه وحبُّه ، فأخرجه من السِّجن ، لا ليُطلق سراحه فحسب ، بل وليكرمه ويجعله بمكان المستشار والصّديق . ولمّا أيقن يوسف أنّ سلوكه الحميد صار مَبعث الثقة فيه والاطمئنان

إليه ،والحرص على استرضائه ؛ رأى أن يصدع برغبته لديْه . فطلب إليه أن يستعمله على خزائن مصر . أي : كوزير للماليّة . ولم يكن قصده الأثَرة والانتهازيّة ، بل لينهض بالواجب في أشدّ أوقات الأزْمة ؛ شعورا منه بأنَّه أقدر النَّاس على إنقاذ مصر من أزْمة المجاعة التي ستحلّ بها في سِني الجدب حسب تأويله لرؤيا الملك ، ودعوة النَّاس في البلاد إلى نبذ الأوثان وعبادة الله الواحد القهَّار . وهكذا تكفَّل يوسف بحياة النَّاس الماديّة بما اختزنه لأقواتهم في سنوات الجدب ، وبحياتهم الرّوحية ، بما بثّه في نفوسهم من عقيدة التوحيد .

وهذا ما ينبغي أن يكون لصاحب الدّعوة من يقظة في انتهاز الفرص السّانحه حين يتهيّأ الأنس إليه ، والثقة به؛ فلا يترك المجال لغيره ممّن يرغب في الولاية ، وهو لايستطيع أن يتحكّم في عواطفه ، أوْ لا يحسن التصرف ، أو ينحاز إلى فئة دون أخرى ، فيكون التطاحن من أجل الخبز ، أو نحو ذلك ممّا يعود على مصر بأنكى أنواع البلاء .

يُروى أنه قيل ليوسف : لِمَ تجوع وانت على خزائن الارض ؟ فقال : أخشى أن أشبع ، فأنسى الجائع . ولعلّ هذا ما يبرّر طلب يوسف إلى الملك أن يوليه مصر . ولكن العهد العتيق يذكر أنّ فرعون مصر هو الذي عرض عليه الولاية ، كما هو ينفرد بذكر جزئيات ثانوية لم ترد في القرآن ، وتتعلّق بمراسم التولية في ذلك العهْد .

القـــرآن	العهـد العتيـق
45) وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي . فَلَمَّا كَلَّمَهُ، قَالَ : إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ .	14) وقال فرعون ليوسف : انظر ! قد أقمتُك على أرض مصر .
55) قال : اجْعَلْنِي على خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ .	24) ونزع فرعونُ خاتمه من يده وجعله في يد يوسف ، وألبسه ثياب خزّ ، وجعل طوقا من الذهب في عنقه .
56) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ . نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ، وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ	43) وأركبه مركبته الثانيه ونادوا أمامه : اركعوا ، وأقامه على جميع أرض مصر .

ويفاجئنا العهد العتيق بصورة غريبة عندما يدخل عليه إخوته فيعرفهم دون أن يعرفوه . فقد ذكر أنه وصفهم بالتجسّس ، وحبسهم ثلاثة أيّام ؛ ثمّ أطلق سبيلهم ، واستبقى أخاهم شمعون ، وقيّده بمرأى منهم ، حتى يعودوا إليه ، ومعهم أخوهم الصغير (بنيامين) .

وهذا التهديد من يوسف إن حملناه محمل الجدّ ، فلا بدّ من القول بأنّه يحمل حقدا دفينا على إخوته وهو ما يجب أن يُبرّأ منه .

أمّا القرآن ، فقد ذكر أن يوسف أكرم وفادتهم ، وردّ إليهم ما دفعوه من ثمن دون أن يُشعرهم ، رجاء أن يُغريهم هذا بإحضار شقيقه ، وهدّدهم بلطف إن لم يأتوا به . ولم يرِدْ شيء ممّا ورد في العهد العتيق من إساءته لإخوته ، إذ أنّ ذلك لا يتّفق

والصّورةَ التي رَسمها القرآن وأبرزَ معالمها لشخصية يوسف ، وما اتّسمت به من حلم وإخلاص وبرّ ، وهو الذي علّمه ربُّه وأحسن هدايته وطهّر قلبه من الحسد (1) . فقال منوّها بشأنه : « كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ . إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ (الآية : 24) .

ألَمْ يقلْ لإخوته لما رجعوا إليه وذكّرهم بما فعلوا ؟

« لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » (الآية : 92) .

القرآن	العهد العتيق
58) وَجَاءَ إخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ .	7) ولمّا رأى يوسف إخوته عرفهم ، فتنكّر لهم وكلّمهم بجفاء ، وقال لهم : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان لنبتاع طعاما .
59) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أبِيكُمْ . ألاَ تَرَوْنَ أنِّي أوفِي الكَيْلَ وَأنَا خَيْرُ المُنْزِلِينَ ؟	8) وعرف يوسف إخوته ، وأمّا هم فلم يعرفوهُ .
60) فَإنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ .	9) فقال لهم : أنتم جواسيس، وإنما جئتم لتجسّوا ثغور الأرض ....

(1) منبر الاسلام ع : 4 ــ 1964

61) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ .

62) وَقَالَ : لِفِتْيَتِهِ : اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

17) فجعلهم في الحبس ثلاثة أيَّام ....

24) فتحوَّل عنهم وبكى . ثمَّ عاد إليهم . وخاطبهم وأخذ من بينهم شمعون ، فيقيَّده بمشهدهم

وهكذا فإن المُتأمّل في هذه القصَّة يدرك بَعدَ المقارنة انفراد القرآن العظيم بالإيجاز البليغ في عرض أحداثها ، وإبراز المعالم الرُّوحية فيها ، مثل تبشير يوسف عن طريق الوحي لمَّا ألقاه إخوته في الجُبّ ، بأنَّ الله سيخلِّصه ممَّا هو فيه ، وسينبئهم بما فعلوا .

ومثل قول يعقوب لمَّا اشتدَّ به الأسى : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ » (الآية : 86).

الفصل الخامس

الجانب التربوي في قصص القرآن

أثر القصص في العقيدة والسلوك :

قصص القرآن متناسق في منهجه التربوي مع منهج القرآن . فهو تطبيق بالمثال الحيّ لهذا المنهج المتكامل . ذلك أنّ القرآن بقصصه ومواعظه وتوجيهاته العقائدية والتشريعية وحدة متناسقة ، وإنْ تنوّعت طرقه في التبليغ والتعليم قصد الإمعان في التأثير ، وتجديد نشاط النفس يتجدّد انتقاله في السورة الواحدة من غرض إلى آخر ، مع ارتباط وثيق بالمحور العامّ الذي يجمع تلك الأغراض على اختلافها .

سُئلت عائشة عن خلُق رسول الله صلى عليه وسلم . فقالت : «كان خلُقه القرآن» . فكان بحقّ مثلا أعلى في الأخلاق القرآنية ، وأسوة حسنة في الاهتداء بهدي القرآن ، والعمل بتعاليمه وتوجيهاته . قال تعالى :

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (1)

فالآية تشير الى مذهب جليل في الأخلاق . وهو مذهب القدوة والمثل ، وتهيب بكلّ من يتولّى شأنا عامّا من شؤون الناس أن يأخذ نفسه أوّلا بما يطالب الناسَ أن يأخذوا أنفسهم به ،

---

(1) الأحزاب : 21 .

حتى يكونوا قدوة لغيرهم ، فيرى الناس في مرآة النفوس الكبيرة صورا طيّبة يعملون على مثالها . فالأمثلة العالية تنتقل بين الناس ، ويلتزمها الجيل بعد الجيل . (1) وكما كان الأنبياء قدوة للرسّول ، فهم جميعا قدوة للناس : «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ واليَوْمَ الآخِرَ» (2)

وقد دلّت التجربة التربويّة على أنّ أشدّ المواعظ الدينيّة نفاذا إلى القلوب ما عُرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص ، والتأثّر بالأحداث ، والانفعال بالمواقف.

ومن هنا كانت الوسائل والأهداف ترتبط في مناهج التربية ارتباطا متينا . فبحيويّة العرض في القصة الموجّهة ، وقوّة التخييل والتصوير فيها ، وتهيئة اللّحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار – مثلما يلاحظ ذلك في القصّة القرآنية – يحصل من التأثّر بالتوجيه التربوي مالاَ يحصل عند إقحام ذلك التوجيه على النّفس وهي في راحتها واسترخائها ، أو في انطلاقها وتحرّرها .

ويتّضح ما لقصص القرآن من تأثير في إشاعة العقيدة والإيمان أنّا نجد أثره في العواطف الدينية التي بثّها في قلوب المؤمنين ، والتي صارت توجّه سلوكهم ، ويصدر عنها معظم دوافعهم اللاّشعورية نحو الخير والفضيلة ، كما قال أحد علماء

---

(1) ابراهيم سلامة : **خلق ودين** : 78 .

(2) المتحنة : 6 .

التربية : «إنّ التربية فنّ يمكن من إدخال الشّعوري في اللاّشعورى مصدر القرارات السريعة» (1)

فكم علماء في الطبيعة ازدادوا إيمانا بقوة الله وبمشيئته في الأحداث الكونيّة التي أصيب بمثلها في القرون الخالية أقوامٌ أعرضوا وصدّوا عن الهدى ، وذلك بما تضمّنه بعض القصص القرآني من تفسير لأسبابها ، وتوجيهات دينيّة لا تقّاء بواعثها ، فأصبحوا هم وغيرُهم من المؤمنين يَعتبرون بما يقع من جوائح وأحداث كونيّة مريعة ، كالفيضانات ، وشدة القيض مع انحباس الغيث .

ولا يَستبعدون أن تكون نُذُرا من الله الذي له في ما يجري من نظام الأسباب مشيئة وحكمة ، بهما تتهيّأ الظروف لتلك الأسباب الطبيعية ، لا كما يعتقد الماديّون بأنها نتيجة تفاعل قسْري لذرّات المادّة ، فيبنون آراءهم ومعتقداتهم على النواميس الطبيعية وحدها ، أو تسلسل الحوادث الدّهريّة ، أو محض الصدّفة . ولكنّ المؤمنين تذكّرهم بربّهم ، فيتوبون إليه ، ويستغفرونه ، ويهرعون إليه منيبين ضارعين كي يرحمهم ويعفو عنهم تأسّيا بما ورد في القرآن حكاية عن قول نوح لقومه :

«فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» (2)

---

(1) **روح التربية** (ت) طه حسين : المقدمة : 4 .

(2) نوح 11 ـ 13 .

وبما ورد حكايةً عن قول هود لقومه :

«وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (1) »

ففي قصص القرآن إذَن تربية دينية لها أثر عميق في النفوس مصدرها : عقيدة تضمّ الخالق والإنسان والكون ، وتقوم على أساس أنّ كلّ خلُق كريم هو في ذلك الشعور الباطني ، وهو الإيمان بالله الذي جعل الكون معرضا رائعا تتجلّى فيه حقيقة الألوهية بآثارها ، وتملأ جوانب الإنسانية بآياتها .

وفي القرآن إشارة عابرة لقصّة قوم يونس الذين كاد يحلّ بهم العذاب كما حلّ بمن سبقهم من أقوام الرّسل . ولم يُرفع عنهم وينجوا منه الاّ بالإيمان : «فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ» (2)

فالإيمان بالله شهادة قائمة للانسان بأنه ذوعقل يميِّز الخير من الشر ، ويفرّق بين الحقّ والباطل . فهو بهذا العقل عرف الله ، ومن ثَمّ عرف الأعمال الصالحة فسعى إليها .

أمّا من لم يفتح له عقلُه طريقا إلى الله فقد عمي عن الحقيقة الكبرى ، وضلّ الطريق إليها . فكيف يمكن أن يهتدي إلى حقّ بعد هذا ؟ وكيف يتعرّف إلى خير بعد أن حاد عن الطريق الموجِّه إليه؟ (3)

(1) هود 52 .

(2) يونس : 98 .

(3) عبد الكريم الخطيب : **التعريف بالاسلام** : 230 .

فالله تعالى يقول : «مَثَلُ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا» (1)

والحقيقة التي يؤكّدها القصص القرآني أن موازين القيَم والأخلاق مرتبطة بميزان الله . فالكفر ظلمة وضلال . والإيمان نور وهداية . فلا إصلاح بغير عقيدة ، ولا تربية بغير إيمان «ومَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (2) .

وقد عجز لوط عليه السلام عن اجتثاث ما تمكّن من نفوس قومه من منكرات لأنّ منشأها عقدة الكفر .

ويفيد التحليل النفسي للعادات الفاسدة أنّها تَبطل وتزول بمجرّد اقتلاع العقدة ، مثلما يزول المفعول الكهربائي بانقطاع التيّار (3)

لذلك أقام القصص القرآني منهجه التربوي على العقيدة ، فجعل منها منطلَقا إلى عالم الحسّ أوّلا ، لأنّ الاتجاه التجريبي مرحلة لا غنًى عنها في حياة الإنسان الرّوحية

« قُلْ سِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِنْ قَبْلُ ، كَانَ أكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ» (4)

---

(1) ابراهيم : 18 .

(2) النور : 39 .

(3) انظر : **علم النفس والاخلاق** . ج . 1 ـ أ هادفيلد . (ت) محمد عبد الحميد أبو العزم : 64 .

(4) الروم : 41 .

والاعتبار بآثار الحوادث الكونيّة التي عُذّب بها المبطلون هو طريق الإيمان بالله، والعمل الصالح في رضاه .

ثم إلى عالم الغيب ثانيا بما أودع الله في الإنسان من الشعور بسلطة غبية تسيّر الأكوان ، وإليها ينسب كل ما لا يَعرف له سببا ، وبها يحتمي من لأهوال عند الشدائد .

فهذه العقيدة تبعث في نفسه الاطمئنان الذي يضمن لها الهدوء والاتّزان في الأفعال والسلوك ، ويُبعد عنها الخوف من المجهول ، ويوجّهها الوجهة الصحيحة دون أن تتشبّث بالتعويضات ، أو التأويلات .

وفي القرآن يُذكَر الايمان متبوعا في الغالب بعمل الصالحات كنتيجة حتميّة له . لأن الإيمان ليس في الحقيقة مجرّد شعور عن علم ومعرفة ، ولكنه تكييف للإنسان في صلته بربّه ، وتدبيره لنفسه ، وعلاقته بغيره .

وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة الإيمان فقال : اذا ساءتْك سيّئتك ، وسرّتك حسنتك ، فأنت مؤمن» (1)

وقال : «إذا أراد الله بالعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه»(2) إذ لاشيء يستطيع أن يؤثّر من الخارج تأثير الإيمان من الدّاخل. فكلّ قوّة تتلاشى أمام قوّته .

وقد أثبت بعض علماء النفس أنّ الذين يُقدمون على الانتحار لا يؤمنون بالله ، أو نُزع الإيمان من قلوبهم بتأثير اليأس من رحمة الله التي لا تضيق بأحد من خلْقه .

---

(1) رواه احمد فى مسنده .

(2) رواه الديلمى فى **مسند الفردوس** .

والدّارس للقصّة القرآنية يُدرك الدّور العظيم الذي قامت به في تربية العقيدة وتعهّدها وتنميتها ، إذ ليست الغاية من التربية سوى تكوين العواطف الصّالحة ، ولكن هذه العواطف لا تصبح أساسا للخلُق الكريم إلاّ إذا تحوّلت إلى اتّجاهات يكون ينبوعها الدّائم هو العقيدة ، مصدر الإيمان والخير والأمن .

ولقد واجه إبراهيم قومَه الجاحدين المشركين بحجةٍ ألهمه الله إيّاها ، وهي أنّ من يخلص لله لا يخاف مَنْ دونه . فهو أحقّ بالاطمئنان والأمن من الملحد والمشرك :

« وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ، وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا . فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ الذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (1)

وفي قصة آدم حكى القرآن عن إبليس قوله في إغوائه للإنسان :

« قَالَ : فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » (2)

---

(1) الأنعام : 82 ـ 83 .
(2) الأعراف : 15 ـ 16 .

وفي هذا التعبير تصوير حركي مشخّص لصدّ إبليس البشرَ عن الهدى بالحيلولة بينهم وبين صراط الله المستقيم ، وهو الإيمان وما يتبعه من الأعمال الصالحة .

فكان تحذير القرآن لهم وتنبيههم إلى الاعتصام بالإيمان والحيطة من فتنة الشيطان الذي يأتيهم من نُقَط الضّعف فيهم ومِنْ مداخل الشّهوة :

«يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا . إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . إنّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلذِينَ لا يُؤْمِنُونَ»(1)

وفي قصّة ابني آدم يتجلّى أثر الإيمان والتّقْوى في قول هابيل لأخيه قابيل لمّا توعّده بالقتل :

«لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ، مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ . إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ» (2)

ومن هنا كان جلّ القصص القرآني يهدف إلى غرس عقيدة التوحيد ، ويدعو إلى التصديق بالرّسالة المحمّدية ، وبرسالات الأنبياء قبلها ، حتى يعتزّ المؤمنون بالحقّ وحده ، ويصبروا على الأذى في سبيل إعلاء كلمته

(1) الأعراف : 36 .

(2) المائدة : 28 .

وقد أكّدتْ بعض الدّراسات التربويّة ، والأبحاث النفسية أنّ الايمان بالله وقاية وعلاج من الأمراض النفسيّة ، والاضطرابات العصبيّة ، والانحرافات الخلقيّة التي تنشأ من عوامل القلق ، والتوتّر العصبي ، والخوف ؛ وأنّ من أهمّ أسباب الأمراض العضوية ، الحالةَ العامة التي يسيطر عليها الجهاز العصبي ، والحالة النفسيّة . وقد أصبح العلاج النفسيّ عن طريق الإيمان من وسائل الطبّ .

يقول وليم جيمس (W. James) : «إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان» (1)

وأهمّ خاصيّة للعقيدة الإسلامية أنها منشئة ، تدفع بالحياة إلى التجدّد والنمُوّ والترقّي ، وبالطاقات البشريّة إلى الإنشاء والانطلاق والارتقاع . فتملأ فراغ النفس والحياة بالشعور والعمل ؛ ولا تترك مجالا للقلق والحيرة ، ولا للشذوذ والانحراف ، ولا للضياع والخوف ؛ لأنّها عقيدة تقوم على الحسّ والتجربة والعقل ، كما هي تقوم على الفطرة والوجدان والغيب . وفيها ما يكفل للفرد الصحّة النفسيّة التي عرّفها الدكتور مصطفى فهمي :

«بقدرة الفرد على التّوافق مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش فيه . وهذا يؤدي به الى التمتّع بحياة خالية من الاضرابات ، مليئة بالتّحمّس ، ويتّسم الفرد وفقا لهذا المفهوم بالرّضى عن الذّات ، فلا يسلك سلوكا شاذا ، بل يسلك سلوكا معقولا يدلّ

---

(1) عبد الرزاق نوفل . **بين الدين والعلم** : 60 .

على اتّزانه الانفعالي والعاطفي والعقلي في ظل مختلف المجالات، وتحت تأثير جميع الظروف» . (1)

واذا لم يكن للعقيدة أثر في أخلاق الانسان وسلوكه وصحّته النفسية، فذلك دليل على أنّها مزيّفة، وصاحبها ممن يدّعون الإيمان قولا لا عملا، دون أن يمسّ قلوبهم، ولا كان له سلطان على أرواحهم. وإذا قاموا بعبادات موروثة، فهي صورة بلا روح؛ لأنهم مشغولون عن الله وعن عظمته وجلاله .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالذِينَ آمَنُوا . وَمَا يُخَادِعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (2)

فالإيمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب والإرادة التي تحرّك الأعضاء في الأعمال . فإنْ نازعه في سلطانه طائف من الهوى، فإنّه لا يلبث أن يقهره » (3) .

« إنّ الذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (4)»

---

(1) **الصحة النفسية** : 16 .
(2) **المنار** . ج : 1 / 339 .
(3) البقرة : 7 ـ 8 .
(4) الأعراف : 201 .

تربية الأنبياء

البحث في هذا الموضوع يشمل ناحيتين :

الأولى : تربية الله لأنبيائه وإعدادهم لأعباء الرسالة

والثانية : تربية الأنبياء لمن بُعثوا إليهم من الأمم بالقول والفعل والقدوة . ولكل منهما صداه في قصص القرآن

الناحية الأولى : يصوّر بعض القصص القرآني ما أكرم الله به رسله من عناية ، وما أحاطهم به من رعاية لتوجيههم وتربيتهم تربية تُعدّهم للنهوض بتبليغ الرسالات السماوية ومجابهة قوى الشر والطغيان في الأرض . فابتلاهم بشتّى البلايا والمحن ، ولكن لا ليكلهم إلى نفوسهم ، ولا ليدعَهم لضعفهم كبشَر بل ليقوّي عزائمهم بالشّدائد ، ويمنّ عليهم بمغفرته ورضوانه ومحبّته ، وبما أنعم عليهم من نِعم الخلق والتربية والهداية والاصطفاء ، ويُحيي فيهم الشعور بالضعف أمام قوّته ، وبالذّلّة أمام عزّته ، وبالحاجة أمام غناه ، وبالرجاء في استجابة الدعاء.

فكان من أثر هذه التّربية الرّوحية في نفوسهم أن صاروا عنوانَ الأمانة والصدق والنّزاهة ، ومثال الإخلاص لله والعمل في سبيله دون طمع أو منفعة شخصيّة في الدنيا :

وقد حكى القرآن عن أنبيائه نوح وهود وصالح ولوط وشعيب قولا واحدا صدر عن كلّ منهم حين بُعث في قومه :

« إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ .
وَمَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلَى رَبِّ
العَالَمِينَ » (1)

ومـاذاك إلاّ للإشعار بهذه الوحدة السّماوية النبي تجمع بين الأنبياء جميعا على صعيد عقيدة التوحيد ، وتوحّدهم شعورا وعملا وحركة ، رغم اختلاف أزمانهم. كما صار عنوانُ الرُّبوبية شعارَهم في دعوتهم لأممهم ، وفي دعائهم لربّهم (2)

فإبراهيم يقول في دعوة قومه إلى الله :

« اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ » (3)

ويقول في دعائه :

« رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أنْ
نَعْبُدَ الأَصْنَامَ . رَبِّ إنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ
فَمَنْ تَبِعَنِي فَإنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإنَّكَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ . رَبَّنَا إنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي
زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ
فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ

(1) الشعراء : 105 ـ 108 .

(2) انظر : **تفسير القرآن الكريم** للشيخ محمود شلتوت : 408 .

(3) العنكبوت : 15 .

مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ . وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ » (1)

ويوسف يقول في دعوة قومه إلى الله :

« إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ . ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ » (2)

ويقول في دعائه :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ : تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » (3)

فهم على اتصال دائم بربّهم في السّرّاء والضّراء ، يدعُون له قيادتهم ، ويعلنون خضوعهم لمشيئته . فشعيب يهدّده قومه :

---

(1) ابراهيم : 37 — 40 .

(2) يوسف : 37 — 38 .

(3) يوسف : 101 .

« لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْلَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا » (1)

فيجيبهـــم :

«قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا . وَمَا يَكُونُ لَنَا أنْ نَعُودَ فِيهَا إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا » (2)

فهو ينكر ما طلبوا إليه من العودة هو ومن آمن معه إلى ملّة قومه . ويعارضها بشدة ، ولكنه يفوّض الأمر لله في ما سيكون من أمره وأمر المؤمنين معه . لأن المشيئة بيده سبحانه ؛ وذلك منتهى الأدب مع الله .

وهم إذْ دَعوا ربهم – وهم أعرف الناس بسننه في خلقه – لا يطمعون في غير مطمع ، ولا يتركون الأخذ بالأسباب الطبيعيّة ، ولا يتواكلون ؛ ولكنهم يتوكّلون على الله فيما يقصدون من طلب هدايته وتوفيقهم إلى الأسباب التي جرت سنته بان تحصل بها الرّغائب ، وتتحقّق الغايات .

وما دعاؤهم إلافزع قلوبهم ، وشعورهم بالحاجة إلى معونته

فهو مظهر من مظاهر إيمانهم وعبادتهم كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «الدعاء هو العبادة» . وكما قال أيضا :

---

(1) الاعراف : 87 .
(2) الاعراف : 88 .

(مَثَل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكره ، مثل الحيّ والميّت » (1)

قال تعالى : «وكَأيٍّ مِنْ نَبِيءٍ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ . فَمَا وَهَنُوا لِمَا أصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا . واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاّ أنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْلَنَا ذُنُوبَنَا وإسْرَافَنَا فِي أمْرِنَا وثَبِّتْ أقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ»(2)

ولمّا برز المؤمنون في جيش طالوت ، وكان معهم داود عليه السلام لمقاتلة الملك الطاغية جالوت وجنوده :

« قَالُوا : رَبَّنَا أفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقْدَامَنَا وانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُمْ بإذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ » (3)

«ولا شك أنّ الدّعاء والتوجّه إلى الله تعالى في مثل هذه الحال مما يزيد المؤمن المجاهد قوة وعزيمة ومصابرة . ولذلك يقرّر علماء النفس والأخلاق بأن المؤمنين أشد صبرا وثباتا في القتال من الجاحدين » (4)

---

(1) الحديثان رواهما البخارى .

(2) آل عمران : 146 ـ 147 .

(3) البقرة : 250 ـ 251 .

(4) **المنار** . ج : 4 / 172 .

« فاذا اتّخذت الأمّة الوسائل التي أمرت بها ودعت ربها أن يثبّتها ويتمّ لها ما ليس في وسعها من أسباب النصر ، فإنّ الله يستجيب لها» (1)

وليؤكّد الخالق دوام الصلة بينه وبين أنبيائه ، كانت أجلّ الصفات التي ينعتهم بها هي صفة العبودية له سبحانه .

«ووَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوَّابٌ» (2)

«وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيُّوبَ إذْ نَادَى رَبَّهُ» (3)

«وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أولِي الأيْدِي وَالأبْصَارِ» (4)

وهذه الصّلة الالهية هي خير ما يستمدّون منه القوّة والثبات في الحقّ ، والقدرة على مقاومة الصّعاب ، واقتحام الأخطار ، والصبر على تحمّل الأذى في الدعوة ، واستعذاب الألم الجسمي والنفسي في سبيل الله .

والألم كما قيل : يهذّب النفوس ، ويفجّر ينابيع الخير ، ويُرهف الحساسيّة ، ويغرس الرحمة التي تُنسم ظلالها على الضعاف والمكروبين في ساعات العسرة والضيق .

ومن ناحية أخرى فإنّ الله يعلم أنّ أنبياءه لن يلقوا الطريق معبّدا لنشر تعاليمهم وغرسها في النفوس ، وتنبيه أقوامهم إلى ما هم

---

(1) **المنار** : ج 3 / 53 .
(2) ص : 29 .
(3) ص : 40 .
(4) ص : 44 .

فيه من عماية وضلال ، والمَساس بمعتقداتهم وبمعبوداتهم المقدّسة عندهم ؛ بل سيجدون عاصفة من الاستنكار ، ويلقون الأمرّيْن . فكان من الحكمة أن يقوّي نفوسهم بشتىّ المحن ، وأن يعيشوا ألوانا من التجارب القاسية التي تزيدهم خبرة واسعة في الحياة ، حتى يجتازوا في بطولة وثبات امتحان الدّعوة الذي يُعدّ أوّل برهان يقدّمه الأنبياء على إيمانهم وصدقهم . إذ لا يثبت على المحنة ، ولا يقوى على مغالبة الاضطهاد إلاّ من كان صادقا أمينا ، مؤمنا بمايدعو إليه .

وقصص الأنبياء في القرآن لم تُهمِل ذكرما امتُحنوا به ، مثل قصص يونس وأيوب وداود وموسى عليهم السلام .

ولعلّ قصّة إرسال موسى تكشف لنا عن بعض جوانب الأسلوب الإلهي في تربية رسُله وإعدادهم للمهامّ العظام .

فقبْل أن يذهب موسى بأمر ربّه لمواجهة ملِك قويّ جبّار ، وخوض معركة خطرة . قبل أن يتصدّى للأحداث الجِسام مع فرعون ومع قومه بني إسرائيل الذين أذلّهم الاستعباد الطويل ، وأفسد فطرتهم وأخلاقهم ، يهيّئه ربّه نفسيّا لهذه المهمّة ؛ فيكرمه بمناجاته الطويلة في الفلاة ، ويؤنسه بندائه باسمه ، ويجيبه إلى سؤاله ، ويقضي حاجته ، ويعرض عليه قصّة حياته ، ليعرّفه كيف إنّه صُنِع على عين الله ، وألقى عليه محبّة منه ، إذ يتمّ تدبيره بإلهام أمّه أن تضع وليدها في التابوت، وتقذف به في البحر ليفعل الله به ما يشاء ، ولا تمتدّ إليه يد فرعون الذي كان يأمر أتباعه بأن يذبحوا أطفال بني إسرائيل ، ولكن

قـدّر الله هيّأله الحيـاة فـي بيت فرعون ، وقد كـان المـوت ينتظـره فيه . فتكـون نجـاتـه بإلقـائـه بيـن يـديـه ، ولا حـارس لـه سـوى عيـن الله التـي كـانت تـرعـاه فـي كـل خطـاه . ثـم يجمعـه بـأمّه مـرّة أخـرى كـي تـرضعـه بإشـارة من أختـه إلى آل فـرعـون لمّا رفض الوليد كـلّ المـرضعـــات .

ولمّـا شبّ فـي القصـر ابتـلاه ربّـه بـالخـوف والغـربـة عن الأهل فـرارا مـن القصـاص بـسبب قتلـه المصري الـذي كـان قصد مجـرّد دفعـه عن الإسـرائيلـي لمّا استنجد بـه ، فيغتمّ لـذلك ، ويهديـه الله الى الاستغفـار ، فيشـرح صـدره للـرحيـل .

ثـم يـدرّبـه علـى الخشـونـة وشظف العيش ، فيمتحنـه بـالخدمة ورعـي الغنم فـي أهـل مـدين ، وهـو الـذي تربّـي فـي قصر فـرعون حيث التّـرف والمتـاع والـزينـة ، . ثـم يـزوّده بـآيتيـن من آيـاتـه كحجّة على صدقـه فـي رسالتـه ، وهمـا العصـا واليـد ، بعـد أن بيـّن لـه عنايته بـه وهـو رضيـع وصغيـر وشـابّ ؛ وبـدّل شعوره بـالذنب القديم ، إلى شعـور بـالـرّضى والتّـكـريم ، وخلق فـي نفسه القـدرة على مـواجهـة الصـراع والمخـاوف . وعنـدئذ يـأمـره بـالـذهـاب هـو وأخـوه إلى فـرعون ، لإطلاق بنـي إسـرائيـل كـي يعيـدهم إلى عقيدة التـوحيد . فلـم يعـد مـوسـي يخشـى أيّ شـرّ ، وقـد عـرف كيف نجـّاه الله ممّا هـو أشدّ فـي ظـروف أسـوء وأعنف ! فمـا يـكـون من فـرعـون ؟ ومـا يـستطيـع أن يـفعـل ، واللهُ مـع مـوسـى وأخيـه يسمـع ويـرى ؟

« لاَ تَخَـافَا إِنَّنِـي مَعَـكُـمَـا ، أَسْمَـعُ وَأَرَى »

وقـد وضّح الخـالق لهمـا مـوضوع الـرّسـالـة التـي كُلِّفـا بتبليغها إلى فـرعـون . ومـا ينبغـي أن يقـولا فـي هـذا المـوقف .

وهكذا ألقى الله الطمأنينه والسّكينة في قلب موسى وأخيه ودبّر لهما الأمر (1) .

فلنتأمّل هذه القصة التي عرض القرآن فيها نموذجا رفيعا من أساليب التربية الإلهية للرّسل :

«وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ : امْكُثُوا . إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ! فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللهُ . لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي . وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ، لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى . وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي، وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . قَالَ : أَلْقِهَا يَا مُوسَى ! فَأَلْقَاهَا . فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . قَالَ : خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ، لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى . اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . قَالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي ، وَاحْلُلْ

(1) انظر : شرح القصة بأكثر تفصيل في « **مفاتيح الغيب** » ج . 22/14 ــ 61

عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ، واجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً . قَالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى . وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ . فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي . وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ؟ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً . فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى. واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي . اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي. اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَا : رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ : لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأْتِيَاهُ فَقُولَا : إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ . قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ . وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (1)

(1) طـه : 8 ـ 47 .

الناحية الثانية :

تربية الأنبياء لأقوامهم بتوجيهاتهم وسيرتهم حتى يكونوا للمؤمنين بهديهم والعاملين بإرشادهم المثَلَ الأعلى الصادق

وإذا كان الفنّان يرى مثلَه الأعلى في «الجمال» ، والفيلسوف في «الحقيقة» ، والأخلاقيّ في «الخير» ؛ فإنّ النبيء يرى مثله الأعلى في «الله» ، وأتباعه يرونه في «نبيهم» ؛ لأنّ مهمة الرسل لم تكن مقصورة على تبليغ شرائع الله ، وعلى أن يكونوا أمثلة حيّة في تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم ؛ بل وأن يكونوا أيضا قدوة للناس في إقامة العدل والحقّ ، وتسخير القوى والمواهب لإسعاد الخلق .

فهم رسُل أديان ، ولكنّهم مع ذلك مؤسّسو حضارة واجتماع ، وأسلوب جديد في الحياة ، يُعرف في العقيدة بالتوحيد والوحدة ، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين فرادها ، وفي الأخلاق بمراقبة الضمير والأمانة وحسن المعاملة(1)

فهم على اتّفاقهم على اصول العقيدة يعنون عناية خاصة بالأمراض الخلقية والاجتماعية المنتشرة في أقوامهم .

فنجد نبيّ الله إبراهيم يهتمّ كثيرا للتوحيد ومحاربة الشرك ، حتى ليُخيّل لمن يقرأ قصّته مع قومه في القرآن الكريم ، أنّه لم يُبعث إلاّ بالتوحيد ، وذلك لتفشّي الوثنيّة في عهده ، وفتنة الناس بالأصنام . ولذلك اشتهر بأنه شيخ الموحّدين

---

(1) ابو الحسن على الندوى : **النبوة والانبياء فى ضوء القرآن** : 19 و 93 .

ونجد نبيّ الله لوطا يُعنى بمحاربة الفاحشة التي فشت في قومه حتى ألِفوها ، وأصبح التنزّه عنها في نظرهم جرما

ونجد نبيّ الله شعيبا يدعو القوم بعد توحيد الله إلى أن يُوفوا الكيل ، ويزنوا بالقسطاس المستقيم ، لأن مرض الغشّ والتدليس كان شائعا فيهم

لذلك جعل الله الرسل بشرا لا ملائكة ، كي يكونوا نماذج للكمال الإنساني ، وجعل لهم من الغرائز البشريّة ما لسائر البشر ، ولكنهم كانوا حكماء في استخدامها . فلم يقتلوا غرائزهم ، ولم يميتوا شهواتهم ، بل حكّموا فيها عقولهم وضمائرهم ، فضبطوها وسيطروا عليها ، وساروا بها وفق ما أراد الله منها ، ونهجوا بها المنهج الذي بلغ بهم غاية الكمال الروحي والجسماني (1)

« وَمَا أرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إلاّ انّهُمْ لَيَأكُلُونَ الطّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأسْوَاقِ » (2)

«مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأمُّهُ صِدّيقَةٌ كَانَا يَأكُلاَنِ الطّعَامَ . انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمّ انْظُرْ أنّى يُؤْفَكُونَ(3)»

---

(1) امين دويدار : **صور من حياة الرسول** : 625 ـ 626 .

(2) الفرقان : 20 .

(3) المائدة : 77 .

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » (1)

وقد علَّمنا الرسل بما حكى القرآن عن سيرتهم في قصصهم أنّ المُثل العليا لا تتحقّق إلاّ بتحقّق الذّات والسّعادة .

فتحقّق الذات هو قانون الحياة الذي لايسمح بأيّ كبت ضدّ الفطرة السّليمة ، كنبذ بعض الغرائز باسم الزّهد أو الدّين : مثل غريزة الجنس في الزّواج ، وغريزة الغضب والمقاتلة في الدّفاع عن النفس أو الحقّ أو المعتقد . لأنّ مثل هذا الكبت يؤدّي إلى صراعٍ بين الرّوح والجسد ، فتظل النفس منقسمة . ولا سعادة مع الصّراع والتشتّت .

وقد لاحظ « ب . جانات » (P. Janet) أنّ أغلب طرق العلاج النفسي يكون بإرجاع التوازن بين مختلف القوى النفسية للإنسان (2)

والتوازن في الكيان البشريّ إنما يكون بالدخول إليه من منافذه الثلاثة : الروح والعقل والجسم ، وبربطها بعضها ببعض ، وتوجيهها وجهة سليمة (3) .

ولمّا كان إقناع الجماعة والتأثير على نفوسهم يتوقّفان على إدراك المشاعر القائمة بها ، فإنّ الأنبياء وُلِدوا في البيئة

---

(1) الرعد : 39 .

(2) La médecine Psychologique. P : 180.

(3) انظر : **منهج التربية الاسلامية** : 154 .

التي بُعثوا فيها ، وليسوا بالغرباء عنها . بل كان معظمهم يؤمن بما تؤمن به البيئة ، كما قال يوسف : إنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » (1)

فلم تكن مناهضتها برفض معتقداتها التي تأصّلت فيها أجيالا ، وعاداتها التي غدت جزءا من كيانها ، وتهيئتها لتقبُّل معتقد جديد ، وتربية جديدة ممّا يكفي فيه دور التلقين الجامد . بل إنّ ذلك يحتاج إلى مؤثّرات عظيمة زيادة على المعجزات .

لأن معجزات الرسل وإن كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان ولا مفضيَة إليه حتما . وإنما يكون الإيمان باستعداد المدعوّ إليه ، بالإضافة إلى حسن بيان الدّاعي .

ولذلك كان من أمر عيسى عليه السلام أنّه لمّا أحسّ من من قومه بني إسرائيل الكفرَ والعناد والمقاومة بالإيذاء رغم ما أراهم من آيات الله ، توجّه إلى البحث عن أهل الاستعداد النفسي الذين لا يتأخّرون عن نصرته في دعوته (2)

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ (3)

---

(1) يوسف : 37 .

(2) **المنار** . ج : 3 / 311 .

(3) آل عمران : 52 .

وإذنْ فلا بدّ أن يكون الأنبياء مزوّدين في هذه المعركة بمعرفة دقيقة للنفس ومساربها . وللتربية وأساليبها الملائمة لبيئتهم وعصرهم .

وهذه حقيقة نلمسها في تحاور الأنبياء مع أقوامهم . جاء في دعوة شعيب لقومه وهو يجهد في إقناعهم وهدايتهم :

« وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ » (1)

ولا شكّ أنّهم يتعرضون على أقوامهم من قصص الأوّلين وصفحات الماضين ما يخدم دعوتهم ، لأنّها من أقوى وسائل التّربية في الأمم . فهي نور يضيء السبيل للسّير في الطريق السّويّ وذلك بما توحي به من أسباب القوة والتمكين ، أو أسباب الوهَن والفناء .

وفي القرآن ما يدلّ على ذلك ، كقوله تعالى حكاية عن هود :

«وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً » (2)

وحكايةً عن صالح : «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ» (3)

---

(1) هود : 88 .

(2) الاعراف : 68 .

(3) الأعراف : 78 .

وحكاية عن شعيب : «وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» (1)

« وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » (2)

وقوله تعالى : « وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً . وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ» (3) فكلّ أمة يضرب لها الأمثال بمن سبقها من الأمم للتربية والاعتبار..

وفي مثل قوله تعالى :

«واتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»(4)

تربيةٌ اجتماعية تقتضي أنّ الجماعة مسؤولة عن أفرادها ، وأنّ عليها أن تتعهّد منهم كلّ من يبدو عليه الانحراف والانحلال ، حتى تجعل منه عضوا عاملا في حياة الجماعة بصدق وإخلاص .

ومن هنا كان من التعاليم الالهية التي حثّ عليها الأنبياء ونفّذوها : التّواصي بالحقّ . والأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ؛ باعتبارها من المبادىء الأساسيّة التي يشاد عليها صرح الحياة الاجتماعية (5) .

(1) هـود : 89 .
(2) هـود : 85 .
(3) الفرقان : 38 ـ 39 .
(4) الانفال : 25 .
(5) انظر : **تفسير القرآن الكريم** : محمود شلتوت : 647 ـ 648 .

«لُعِنَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (1)

وجاء على لسان المؤمن من آل فرعون :

« يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكَ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ » (2)

ومن عوامل تأثير الأنبياء أنّ كلّ نبيّ كان مثلا أعلى وقدوة حسنة للذين أرسل إليهم . وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء بعده أيضا لو عرف التاريخ حياته وسيرته على الوجه الأكمل . ولكنّ القصص القرآني لا يخلو من إشارات بعيدة المدى إلى ما حباهم الله به من كريم السجايا ، وحميد الفعال .

فقد كان إبراهيم مثالا يُحتذى في الحلم والرّأفة :

« إنّ إبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أوّاهٌ مُنِيبٌ » (3)

« فَمَنْ تَبِعَنِي فإنَّهُ مِنِّي . وَمَنْ عَصَانِي فَإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (4)

كما كان يوسف خيْر قدوة في العفو وكظم الغيظ . فقد قال لإخوته رغم ما ألحقوا به من أذى وشرّ :

---

(1) المائدة : 80 ـ 81 .
(2) غافر : 29 .
(3) هود : 74 .
(4) ابراهيم : 38 .

« لاَ تثْرِيبَ علَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » (1)

وإذا ذكر القرآن في قصص أنبيائه ما أكرمهم به من الرّضى والنصر وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ، فإنّه يعقبه بذكر ما يشجّع أتباعهم على الاقتداءبهم والتأسّي بأخلاقهم .

فيقول عن أيّوب : «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى للعَابِدِينَ» (2)

ويقول عن يونس : «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ» (3)

ويقول عن لوط : نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (4)

ويقول في معرض الامتنان على يوسف :

« وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ . نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ . وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ» (5)

وقال يوسف معلّلا إكرام الله له :

« قَالَ : أنَا يُوسُفُ وَهَذَا أخِي ! قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ، إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ» (6)

(1) يوسف : 91 .
(2) الانبياء : 84 .
(3) الانبياء : 88 .
(4) القمر : 35 .
(5) يوسف : 56 .
(6) يوسف : 90 .

مسالك التربية في قصص القرآن

للمنهج التربوي في القصص القرآني مسالك عديدة تلتقي كلّها عند نقطة واحدة ؛ هي الايمان الذي هو سموّ بالنفس ، واتّصال بالحقيقة ، وتجربة حيّة متجدّدة ، وتكوين للشخصية المتّزنة التي تعمل جميع طاقاتها الجسميّة والفكرية والرّوحية في اعتدال وتوازن ؛ لأن لصاحبها قوة منظّمة لا ندفاعاته الفطرية ، ومهذّبة لغرائزه الحيوانية ، وموجّهة إيّاه نحو المثل العليا .

وتلك هي الشخصية المتكاملة كما يسمّيها علماء التربية . «وهي التي يتّسم سلوكها وتصرّفاتها ودوافعها بالاتّزان الانفعالي»(1)

إنّ الشخص المتكامل من يدرك النواحي المختلفة التي تواجهه ، ثم يربط بين هذه النواحي وماالديه من خبرة سابقة تصلح لتكييف الاستجابة تكييفا ملائما .

وأهمّ القدرات التي تساعد على تحقيق التكامل : القدرة على التمييز ، والقدرة على الكفّ الإرادي وضبط النفس (2)

---

(1) مصطفى فهمي : **الصحة النفسية** : 281 .

(2) يوسف مراد : **مبادىء علم النفس** : 395 ـ 396 .

ولعلّ أبلغ وسائل التربية القرآنية توجيها وتعليما ، وأوفرها خبرات وتجارب وعواطف دينية ، قصصه الموجّه الهادف ؛ لأنّ تأثيره بالمثال ، وإقناعه بالواقع .

ألم يكن يوسف في حكمة تصرفاته ، ورشاد مواقفه ، وهو في خضمّ المآزق والمغريات التي تتيه فيها العقول مثالَ الشخصية المستقيمة المتكاملة التي بقيت على مدار التاريخ عنوان العفّة مع الجمال ، والاستقامة مع الذّكاء ، والمرونة مع الحزم ؟

ثم ألم نجد في قصة ابني آدم هابيل وقابيل شخصيتين متقابلتين : أولاهما تمثّل الشخصية المتكاملة باتّزانها واستقامتها وسلامة فطرتها . وثانيتهما تمثّل الشخصية المختلّة التوازن بانحرافها وعجزها عن ضبط النفس تجاه دوافع الحسد ؟

أمّا مسالك التربية في هذ القصص فهي متنوّعة بحسب المقام . لأن القرآن لا يعرض قصصه لمجرّد المتاع الفنيّ ، ولكن ليواجِه بها حالة معينة ، ويحقق بها غرضا مقصودا .

وأهمّها ما جاء مساوقا لعناصره الثلاثة : الأحداث ، والشخصية ، والحوار .

فالتربية بالاحداث : تُعرف بقوة تأثيرها ، وشدّة سيطرتها على النفس والفكر ، لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعليّة النفسيّة حول ظاهرةٍ ما ،

عن طريق الحسّ ، إن كانت هذه الظاهرة خارجيّة ، أو عن طريق التأمّل ، إن كانت داخليّة . وفي القرآن إشارات إلى أحداث توجّه الى الحسّ والتأمّل معًا ، كما في هذه الآية :

« وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القَرْيَةِ التِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ . أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُورًا (1) .

كما تثير بعض الأحداث الخوف الرّادع من العقاب المُماثل ، وخوف المَهابة والعظمة والجلال . وكلاهما ليس من نوع الخوف الذي يبعث على التشاؤم ، أو يسلب الثقة في النّفس ، والاطمئنان في الحياة . بل إنّه ممّا يبعث على الإيمان بقوة الله القاهرة ، والشعور بمُراقبة البواعث والدوافع ، وما ينجم عن تلك المراقبة من انتهاج سبيل الفوز والنجاة .

عن أبي هريرة عن النبيء صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربّه جلّ وعلا، قال : «وعزّتي لا أجمع على عبدي خوفيْن وأمْنَيْن . إذًا خافني في الدنيا أمّنْته يوم القيامة . وإذا أمِنَنِي في الدنيا أخفْتُهُ في الآخرة (2)

ولم تسيطر العواطف الدينية قديما على المجتمعات البدائية واللاّهوتية إلاّ بتأثير الخوف من أحداث الكون الهائلة ، وتأثير القوى الخفية .

---

(1) الفرقان : 40 .
(2) رواه بن حيان في صحيحه .

ولمّا كان أكثر أحداث القصص القرآني غير عاديّ ، فإن بعضها كالشُّعلة التي يصدر عنها الضّوء ، فتنير بأشعّتها ما تقع عليه . وهذه النّقط التي يصيبها شعاع النّفس هي المراكز التي تلتقي عندها العاطفة الدينية وتتجمّع . لذلك كان ما سُلّط على الأمم الخالية من أحداث وسيلة للتأثير على من لا ترتدع نفسه ، ولا يرتجف قلبه ، ولا يهتزّ وجدانه بغير المخاوف :

« فَإِنْ أعْرَضُوا فَقُلْ : أنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ اللهَ . قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأنْزَلَ مَلائِكَةً فَإنّا بِمَا أرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَأمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَقَالُوا : مَنْ أشَدُّ مِنّا قُوّةً ؟ أوَلَمْ يَرَوْا أنّ اللهَ الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ؟ فَأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أيّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ . وَأمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى ، فَأخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العَذَابِ الهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (1) »

ففي هذه الأحداث عبرة تهزّ المتكبّرين بمصارع أمثالهم ؛ حتى أنّ عُتبة ابن ربيعة لمّا استمع إلى هذه الآيات من الرّسول صلّى

(1) فصلت : 12 ـ 16 .

الله عليه وسلّم أمسك على فمه، وناشده أن يكفّ عن التلاوة . ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم . ثم لمّا حدّثوه في هذا قال : «قد علمتم أن محمّدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

إن عتبة يعلم أن وعده صلى الله عليه وسلم من وعد ربّه ، وأنه الصادق في نذيره صدقَه في تبشيره ، وذلك من دواعي رهبته وخوفه .

فاذا كانت هذه صورة من وَقْع الإنذار بالأحداث على قلبٍ لم يؤْمن ، فكيف بوقْعه على قلوب المؤمنيـــــن ؟

وهذه حادثة خسْف مريعة كانت النهايةَ المحتومة لمصير قارون الذي فتنه المال ، فنسِي مصدر النّعمة ، وبغى وظلم ، وعاث فسادا في الأرض ، كانت في الآن نفسه عبرة لطائفة من معاصريه الذين جرفتهم الفتنة ، وأغوتهم زينة الحياة التي كان يخرج فيها قارون على قومه ، فتمنّوا أن يُؤتوا مثلَ ما أوتيَ من ثروة ، ولكنهم لمّا شاهدوا هول مصرعه ندموا على ما تمنّوه ، وحمدوا الله أن لم يستجب لهم ، إذ أدركوا أنّ الثّراء ليس آية على رضى الله ، «وأنّ وراء هذه المظاهر الفاتنة ما هو أسمى ، وهو معرفة حق الله في نعمه ، وأنّ للبغي من سوء العواقب ما يجدر بالعاقل أن يقدّره ، وأن يُدخله في حسابه» (1) .

« فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ . فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ .

---

(1) **مع القرآن الكريم** : 120 .

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ، لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا . وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» (1)

وليست هذه القصة دعوة ضمنيّة إلى ترك الحياة ، أو الزّهد فيها ، ولكنّها تربية للمؤمنين على فهم قيم الحياة على وجهها الصحيح ، وتحذير لهم من أن تُفسد نفوسَهم نعمةُ الغنى ، فتصدّهم عن الإيمان ؛ حتى إذا رأوا أنفسهم يوما في عسر وضيق ، وشرار الناس في سَعة واستعلاء ، فلا تذهبْ أنفسُهم على الدنيا حسرات ، بل عليهم ان يوجّهوا قلوبهم الى ما يَدّخره الله للمخلصين من عباده ، فلا يَخلطوا بين قيَم الأرض ، وقيَم السماء.

وفي حادثة يونس عليه السلام درسٌ للمؤمن بأنّ العبادة في حالة الرخاء مدعاة للنّجاة في حالة الكرب .

أمّا نسيانُ اللهِ في حال الرخاء والإعراض عن هديه ، فإنّ ذلك يكون سببا في عدم استجابة الله له عند الشدة (2)

روى ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : «.... إني مُعلِّمك كلمات : احفظ الله يحفظكْ . احفظ الله تجدْه تُجاهك. اعرف الله في الرّخاء يعرفْك في الشدّة (3)

---

(1) القصص : 81 ـ 82 .

(2) عفيف عبد الفتاح طبارة : **مع الانبياء فى القرآن الكريم** : 309 .

(3) رواه البخارى ومسلم

وقد أخبرنا الله عن يونس أنه كان من المسبّحين قبل أن يلتقمه الحوت ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته من بطن الحوت .

وفي أحداث عاد يبين القرآن أنّ من أسباب هلاكهم :

(1) أنّهم غرّتهم قوّتهم فاستكبروا وعتوْا

«فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » (1)

(2) أنّهم كانوا منقادين لجبابرة يستعبدونهم ويذيقونهم ألوان العذاب ، ويسخّرونهم لمآربهم

« وتلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ» (2)

وفي عرض هذه الأحداث متبوعة بنتائجها الوخيمة دعوةٌ يُطلقها القرآن إلى الأمم والدول كي لا يحملها اعتزازها بقوّتها على أن تتنكّب طريق الحق . وبعضُ الدول الكبرى ركبها غرور العلم والثراء والقوّة ، فاستغلّت ثروات الشعوب الضعيفة ، وتسلّطت عليها بالقهر ، وسلكت في قهرها والسيطرة عليها كلّ الطرق الدّنيئة ، من التأييد المطلق للصهيونية المعتدية ، ومدّها بالرجال والعتاد ، وإشعال الفتن ، وشراء الضمائر ، وتفرقة

(1) فصلت : 15 ـ 16 .

(2) هود : 59

الجماعات في سبيل مغانمها ومصالحها الاستعمارية . ولسان حالها يقول ما قال قبلهم عاد . «مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟»

ودعوةٌ يطلقها القرآن داوية على أسماع أتباعه ، ليتحرّروا من سلطان كل متسلّط غاشم ، ومن كل معاند لا يقرّ بحقّ . (1) فلقد هلكت عاد مشيّعة باللعنة في الدنيا والآخرة ، لانقيادهم للجبابرة . وكذلك مصير كل شعب يستهين بكرامته ولا يضحّي من أجلها بما يجب ، لأن الإيمان يُسبغ على النفس الكرامة وإباء الضّيم .

هذه نماذج من تربية القرآن في ظل الاحداث ، وهي تربية تجريبيّة واقعيّة تقوم على الإحساس بمعيّة الله ، وتأثيره في مجرى تلك الأحداث على أساس العدل . فهو سبحانه يسمع عبده ويجيب دعاءه دون حاجة إلى شفيع أو وسيط ، والنّفس لاتقتنع بالمعرفة وحدها ، بل تتشوّف إلى المشاهدة والتجربة حيث تكون القلوب مهيّأة للتأثّر ، متفتّحة للتّوجيه .

وفي مثل حادثة خولة بنت ثعلبة تركيزٌ لهذه المعرفة ، وشهود لحقيقة الصّلة وواقع الإجابة .

فقد شهد المؤمنون في المدينة كيف تتدخل السماء في شؤونهم اليوميّة ، وكيف سمع الله لامرأة فقيرة محزونة ، وكيف استجاب دعاءها وأنزل فيها قرآنا (2) أعطاها حقّها ، وردّ عليها زوجها وولدها (3)

---

(1) **مع الأنبياء فى القرآن الكريم** : 99 ـ 100 .

(2) المجادلة : 1 .

(3) **منهج القرآن فى التربية** : 335 .

هكذا جاءت أحداث القصص القرآني صالحة للسير مع كلّ نفسٍ ، موجَّهة لكل جيل ، وذلك لتشابُه الأحداث وتماثُل النفوس

ومن عوامل التأثير بهذا النهج من التربية أنّ جُلّ الأحداث في القرآن جاءت كنتيجة حتميّة للثّواب أو العقاب العاجليْن في الدنيا. ومَن ذا الذي لايشتاق إلى ثواب عاجل قريب يُنعِم الله به عليه في ماله ، أوفي عرضه ، أوفي صحّته ، أوفي أمنه ، أوفي عقله ، أوفي سُمعته ، أوفي أبنائه ، أوفي أعماله ، زيادة على ما في الآخرة من ثواب ؟

قال الله تعالى : «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» (1).

وَمَنْ ذَا الذي لاَ يَخْشَى عِقَابا يَنْزِلُ عليه مِنَ الله تَعَالَى ، فيصيب شيئا مما يعتزّ به ويسعى من أجله زيادة على ما في الآخرة من عقاب ؟ (2)

قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . وَلَكِنْ كَذَّبُوا ، فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ

(1) المائدة : 65 ـ 66 .

(2) مع القرآن الكريم : 206 .

يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ؟ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ» (1)

فما أروع أن نجد في القصص شخصيات مثاليّة كالأنبياء ، جعل منهم القرآن نماذج إنسانية عالية ، ولكن ذلك لم يمنعه من الإشارة الى ما يُلمّ ببعضهم أحيانا من لحظات الضعف البشري دون مداراة ، رغم ثنائه عليهم وتمجيدهم بما هم أهل له ، خروجا منه عن المعنى الضيّق لمفهوم «الاخلاق» ، وتجنّبا لأيّ تزوير في عَرْض الشخصيّة الرفيعة التي كاد بعض الناس يؤلهونها ، أويتّخذون منها مثلا أعلى هو إلى الخيال أقرب منه إلى الحقيقة ، صنيعَ بعضهم في مثل شخصيّة عيسى عليه السلام ، وعلي كرّم الله وجهه . وإنما يشير القرآن في سرعة خاطفة إلى بعض نقاط الضعف فيهم رغم كمالاتهم ، ليَعرض النفس البشريّة كما هي في قوتّها وضعفها ، حتى يرتفع بها إلى أسمى الرتّب بتصوير القدرة الكامنة فيها على السموّ ، واستنهاضها من العثرة ، حتى تسترجع سريعا المكانة التي أعدّها الله للإنسان في الأرض وفي السماء إذا هو اتّبع سبيل الهدى (2) .

وفي قصة دواد عليه السلام ما يوضّح هذه الحقيقة :

---

(1) الأعراف : 96 ـ 99 .

(2) انظر : **العدالة الاجتماعية فى الاسلام** ، لسيد قطب : 280 ـ 281 .

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا : لاَ تَخَفْ ! خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ ، وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي ، لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً . وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ : أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ . قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ . وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ . وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ . يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ (2)

فالقصص القرآني لا يقف على الأخطاء أو نقاط الضعف ليجعل منها بطولات كالقصص البشري ، وخاصة في مشاعر الحب ومغامراته .

ونجد في الأدب الأوربي من يعرض خطيئة آدم على أنها مفخرة له وبطولة منه ، لأن لحظة العصيان هي اللحظة التي حقق

(1) ص : 20 ـ 25 .

فيها كيانه ، وأصبح سيّدَ نفسه . وهي اللّحظة التي أصبح فيها القوّةَ المسيطرة الفعّالة . ولتذهبْ إلى الأبد تلك الجنّةُ التي كان فيها آدم ، فإنّها لا تساوي شيئا إزاء تحقيق الإنسان لكيانه وذاتيّته ، واختياره لمصيره بنفسه في حريّة وإرادة .

وهي فكرة متأثرة بأساطير اليونان القديمة التي تصوّر الصراع الدائم بين البشر والآلهة ، وتتمنّى انتصار البشر على الآلهة الظالمين الطُّغاة .

والحقيقة أنّ الطريق لإثبات الذّات ليس في الانحراف والعصيان . إذ لم يكن في طاعة الله والامتثال لأوامره ونواهيه انعدام الشخصية وزوال الذاتيّة .

فالإنسان لا يُثبت وجوده بالانحراف عن الجادّة ، والعناد مع الحق إلاّ في حالة الضعف والمرض والهبوط . أمّا في حالته السويّة ، حالة الصحة والارتفاع ، فإنه يجد ذاته في مستواها الرفيع حين يطيع دوافع الخير والهُدى والصّعود (1) ...

فأيّوب عليه السلام امتحنه ربّه بزوال ماله ، وموت ولده ومعاناة المرض في جسمه ، فصبر وشكر ، ووفّاه أجره في الدنيا والآخرة . فكانت شخصيّته قدوة حسنة للمؤمنين الذين إذا مسّهم ضرّ ذكّروا أيوّب فصبروا كما صبر ، ولجأوا إلى الله بالضّراعة والدّعاء كما لجأ ؛ ليكشف عنهم الضّرّ ، وينالوا خيرا ممّا فقدوا

---

(1) انظر : **منهج التربية الاسلامية** : 243 ـ 244 .

«وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ» (1) .

وهود عليه السلام يُجلّي من خلال دعوة قومه إلى الحق ، ما ينبغي أن يكون عليه كلّ مصلح من مثابرة ومصابرة ، للتغلّب على العقبات . فهو في توكّله على ربّه يرسم طريق النصر الذي وعد الله به عباده المخلصين رغم ما يلقونه من عناء ، وإن طال الأمد ، واشتدّ الكرب .

تأملْ قولَه : «فَكِيدُونِي جَمِيعًا» فهو يريدأن يُلقي في أسماعهم أنّه لا يبالي بكيدهم مجتمعين ، ولا يخاف أذاهُمْ على الرغم أنّهم الأقوياء الأكثرون . وتلك سمة من سمات أصحاب العقيدة الذين غمر الإيمان قلوبهم ، وسيطر حبّ الإصلاح على مشاعرهم . فلا رهبة ولا وجل من أنصار الباطل . وللمؤمنين من عقيدتهم ما يستسهلون به كل خطر .

فَسِرُّ هذه الجرأة في هود أنه متوكّل على ربّه (2) هذا التوكّل الأصيل الذي يسبغ على النّفس اليقين والصبر ، ويقتضي في الآن نفسه تحقيق أوامر الله في إعداد ما ليس منه بدّ مع بذل الجهد ، وذلك وفقا لمشيئة الله في إطارالسنن التي أرادها ، وأمر الناس أن يتّبعوها .

---

(1) الأنبياء : 83 ــ 84 .

(2) **مع الأنبياء فى القرآن الكريم** : 100 .

ثم إنّ قومه يتهمونه بأنه أصابه سوء في عقله ، فيترفق في خطابهم ، ويواجههم بغير ما واجهوه به :

« إنْ نَقُولُ إلاّ اعترَاكَ بَعْضُ آلِهتِنَا بِسُوءٍ . قَال إنّيِ أشْهِدُ اللهَ ، واشْهَدُوا أنّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ بِهِ فَيكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لاتُنْظِرُونِ . إنّي تَوكّلْتُ عَلَى اللهِ رَبّي وَرَبّكُمْ . مَا مِنْ دَابّةٍ إلاّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيتِهَا . إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (1)

وفي ذلك كله عبرة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم وللمؤمنين ليتعلّموا كيف تكون الأخلاق العالية ، وكيف يكون الصفح الجميل ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، حتى يهتدوا بهدى الأنبياء الذين جاهدوا في الله حق جهاده دون أن يكون لهم باعث مادّي ، أو غرض دنيوي . وبهذه المثل العليا التي ربّى الله رسوله عليها بلغ صلى الله عليه وسلم ما بلغ من كمال وسموّ ، فقال الله منوّها بشأنه :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ . وَلَوْ كُنْتَ فَضًّا غَلِيظَ القَلْبِ لاَنْفَضّوا مِنْ حَوْلِكَ . فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْلَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ . فَإذَا عَزَمْتَ فَتَوكّلْ عَلَى اللهِ . إنّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوكّلِينَ » (2)

---

(1) هود : 54 ـ 56 .

(2) آل عمران : 159 .

وأما التربية بالحوار فأكثر ما تكون في القصص الطويلة التي تتّسع للجدال . والقرآن يختار من هذا الجدال لقطات من الأقوال الموحيّة ، فيصوغها في عبارات موجزة بليغة ، تفيض حكمة ورشدا فيما يجري على ألسنة الهداة ودعاة الحق الذين يسلكون في الحوار مسلك الحكماء ، أو ضلالا وزيفا فيما تنضح به القلوب المريضة والنفوس المنحرفة .

وقد يعقّب على تلك الأقوال بتزكية الحقّ وتأييده ، ودحْض الباطل وتفنيده ؛ كما جاء في جدل فرعون ورجل مؤمن من آله يواجهه هو وقومه بالحقّ في شجاعة وثبات .

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى . وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا . وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ . وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ . وَقَالَ الذِي آمَنَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا . وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَيَاقَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ؟ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا

أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ ؟ ؟ لاَ جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا ولاَ فِي الآخِرَةِ . وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ ، وأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ . وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ . إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا . وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ (1)

فالقرآن إذ يُفسح في قصصه مجال القول لخصوم الحق ودعاة الفتنة ، فإنّما ليكشف عن زيغهم وضلالهم ، ولينبه إلى فساد رأيهم وباطل قولهم ، كما ورد على لسان السامريّ ــ وقد صاغ لبني اسرائيل عجلامن حُلِيّ يُسْمع له خوار ،ليعبدوه أثناء غياب موسى في ميعاد التواراة ــ أن موسى نسي ربّه هنا ، وذهب يطلبه :

« فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ . فَقَالُوا : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى . فَنَسِيَ . أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ، وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولاَ نَفْعاً ؟ » (2)

---

(1) غافر : 36 ــ 45 .

(2) طه : 87 ــ 89 .

«واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ» (1)

ونلاحظ أن الحوار الموجِّه إلى الحقّ في القصص القرآني يعتمد على المنطق العقلي أكثر من اعتماده على الاستهواء العاطفي ، لأنّ أرقى درجات الإيمان، وأزكى وسائل التربية ما قام على النّظر والتدبّر .

وقد أورد ابن حزم القول مفصّلا في كتابه : «الاحكام في فصول الاحكام» تحت عنوان » باب في اثبات حجج العقول» ردّا على من قال : لايُعلم شيء إلاّ بالخبّر ، وهم جمهور أهل السّنة . «فبطل أن يُعلم صحّة الخبر بنفسه ، إذ لا فرق بين صورة الحقّ منه وصورة الباطل ، فلا بد من دليل يفرّق بينهما . وليس ذلك إلاّ بحجّة العقل المفرّقة بين الحقّ والباطل (2) .

وفي بعض الحوار إرشادٌ لطرق المحاجّة والمناقشة وبيان الحقّ ، وإرشاد إلى الخُلق الكريم والأدب العالي

فهود عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله ، وإلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم فيقولون له : «إِنّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ» فيردّ عليهم بقوله :

---

(1) الأعراف : 118 .

(2) انظر : **الاحكام في أصول الاحكام** : ج 1 / 13 ـ 14 .

«يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ . وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً . فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (1)

فقد قابل سفاهتهم بحلمه ، وطيشهم برصانته ، وضلالهم بإسداء خالص النّصح لهم . وإنّ هذا ليهدي إلى التخلّق بالحلم وكظم الغيظ ، ومقابلة الاساءة بالصفح والتسامح ، وخاصّة في مجادلة الخصم .

---

(1) الأعراف : 65 ـ 68 .

علاج الذنب بالتوبة

اهمّ وسائل التربية القرآنية لوقاية النّفس من آفات الزيغ والانحراف تتمثل في التحذير من غواية الشيطان وغرور الباطل، والتنفير من مغريات الهوى وفتنة الدنيا. دون اللجوء الى قتل الغرائز أو قهر النفس بالزهد في طيّبات الحياة ولذّاتها المشروعة، أو نحو ذلك مما يُلزم الانسان سلوكا معيّنا لا يتّفق وطبيعته البشريّة، أو يُقصيه عن بيئته وذاته كبشر قبل كلّ شيء.

«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ: إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» (1)

وخير إسوة في الاعتدال والتخلّق بأخلاق القرآن وآدابه محمد صلى الله عليه وسلم. فهو يقول:

---

(1) الأعراف: 30 ـ 31.

«على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله . وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألاّ يكون ظاعنا إلا لثلاث : تزوّد لمعاد ، أو عمل لمعاش ، أولذة في غير محرّم» (1) .

ومن الوسائل الوقائية النفسيّة في القرآن وقصصه : الترهيب من العقاب ، والترغيب في الثواب .

والخوف والرجاء كلاهما يقوّي إرادة الإنسان في الترفّع على ضعفه ونزواته . ولقد كان أقلّ تدريب للإنسان الأول في الجنة هو تجنّب المحظور عليه ، لتقوية هذه الارادة وإبرازها في مواجهة الإغراء والضّعف . ولئن فشل في التجربة الأولى ، فإنّها بقيت رصيدا له ولذريتّه من بعده . ليأخذوا منها درسا ينفعهم في مواجهة قوى الشر والفساد، دون أن يحملوا تَبِعة الخطيئة الأولى ووزرها

وهذه الحقيقة في التصوّر الإسلامي تنقذ كاهل البشريّة من أسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصوّرات المسيحيّة . والتي يقوم عليها في الكنائس رُكام الطقوس فوق ما يقوم عليها من أساطير خطيئة آدم التي تلازم البشريّة كاللّعنة المسلّطة على الرّقاب ، حتى يتمثّل الإله في صورة ابن الانسان

و«المسيح » يصلب ، ويحتمل العذاب للتّكفير عن هذه الخطيئة ومن ثَمَّ يكتب الغفران لمن يتّحد بالمسيح الذي كفّر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثتها البشريـــــة .

---

(1) رواه الحاكم وابن حبان فى صحيحه .

إنّ الأمر في التصوّر الإسلامي أيسر من هذا وأوضح

لقد نسي آدم وأخطأ ، وتاب واستغفر ، فقبل الله توبته وغفر له ، وانتهى أمرتلك الخطيئة الأولى ولم يبق منها إلاّ رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشريّ في صراعه الطّويل المدى (1) .

ونقل ابن القيم الجوزية عن طائفة من العلماء : «أنّ التوبة من أحبّ القُربات إلى الله ، لأنّ فيها من الذّلّ والانكسار والخضوع له سبحانه ما هو أحبّ إليه من طاعات كثيرة وقد كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة . ففي الحديث « ان الله يُحبّ العبد المُفتَن التوّاب» (2)

وفي الأثر الإسرائيلي : يارب ! أيْن أجدك ؟ قال : عند المنكسِرة قلوبُهم من أجلي» (3) .

وأورد ابن القيم بعض المواجيد الصوفية حول قصة آدم ، ومن ذلك :

«قيل باسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه : يا آدم إنّما ابتليْتُكَ بالذّنْب لانّي أحبّ أنْ أُظهر فضلي وَجودي وكرمي على من عصاني . يا آدم إنْ عَصَمْتُكَ وعصمت بنيك من الذنوب فَعَلَى من أجود بعفوي ومغفرتي وتوبتي ، وأنا التوّاب الرحيم ؟ يا آدم لم أخرجك منها نفيّالك عنها ، بل لتعود . يا آدم ذنب تَذِلّ به لدينا أحبّ الينا من طاعة تدلّ بها علينا

---

(1) انظر : فى **ظلال القرآن** . ج : 8 / 152 ـ 153 .

(2) رواه احمد فى مسنده .

(3) **مدارج السالكين** ... ج : 1 / 164 ـ 165 ..

«يا عبادي إنّكم تخطئون بالليل والنّهار ، وأنا أغفر الذنوب . فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي» (1) .

لئن كانت هذه خطرات وجدانية ، أو شطحات صوفية ليست لها ضوابط ، فإنّا إذا سبرنا تأثير التوبة من الناحية السيكولوجية أدركنا أنّها أنجع علاج نفسي يُريح الإنسان من آلام الشعور بالذّنب ، ويخلّصه من الاضطرابات العصبية الناتجة عن هذا الشعور كلّما غلبته على أمره ثورة شهوة أو سورة غضب لم تؤدّ إلى قتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ . فهي رحمةٌ لمن نسي ثم تذكّر ، وغوى ثم تبصّر، وأذنب ثم استغفر :

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ (2)

فليست التوبة إذن إلاّ وسيلة لمراقبة النفس وعلاجا لانخرام توازنها تحت وطأة الخطيئة ، وصيانة لها من اليأس الذي قديؤدي بها إلى الانهيار . فبها يعيد الانسان تماسكه ، ويستأنف نشاطه وسيره على نهج قويم ، لأنّ ممّا يزيد في حيرته وآلامه النفسيّة شعوره بالإثم .

---

(1) المصدر السابق : ج : 1 / 166 ـ 167 .

(2) آل عمران : 135 ـ 136 .

وفي قصّة داود عليه السلام درسٌ بليغ في الحرص على محاسبة النفس وكبح جماحها عندما يخطر لها خاطر السوء . والله تعالى يحاسب على ما تضمره الأنفس كما قال جل ثناؤه « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ » (1) : وهذا أسلوب حكيم من أساليب القرآن لإصلاح النفوس . فإنّ خاطرات السوء إذا تُركت بدون علاج أضرّت بالسّلوك وانعكست على الأفعال كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما أسرّ أحدٌ سريرة إلاّ أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه (2)

ويحاول بعض المذنبين الذين لا تربطهم بالله صلة الدّين والعقيدة طردَ القلق والألم النفسي بطرق تزيد المشكل تعقيدا . فالبعض يتناول الخمر أو المخدّرات ، والبعض الآخر يحاول النّسيان بالأكل والملذّات الجنسية أو غيرها . ولكن أغلب هذه الطرق تزيد في الاضطراب ، لأنها ترفع التّوتر الجسمي والنفسي وتُحدث التعب (3)

وذكر الدكتور ج . بورسي حالة شاب كان كان يشعر دائما بهمّ وحزن . فكان يقاوم آلامه النفسية بواسطة الخمر ، إلى أن أصيب جسميّا وانقلب اضطرابه العصبيّ إلى أعراض لأمراض مختلفة (4)

---

(1) البقرة : 284 .

(2) **مع الانبياء فى القرآن الكريم** : 299 — 300 .

(3) أبو مدين الشافعي : **الاطمئنان النفسي** : 46 .

(4) Le Déséquilibre Psychique. P : 88

وهكذا تتجلّى حكمة القرآن في علاجه للانحرافات النفسية والخطايا بفتح باب التوبة لمن شاء الرجوع إلى الجادّة بصدق وعزم . وقد ضرب لنا أبلغ الأمثال بآدم وداود ويونس وموسى عليهم السلام . رغم أنّ الأنبياء قيادات روحية وفكرية اصطفاها الله من النشأة الأولى وتخيّرها من معادن أرقى . فهم ليسوا كسائر الناس ، وإن كانوا من تراب الأرض مثلنا على حدّ قول المتنبي : (1)

فإنْ تَفُقِ الأنَامَ وَأنْتَ مِنْهُم   فَإنّ المِسْكَ بَعضُ دَمِ الغَزَالِ

فجَاء في توبة آدم : «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » (2)

وفي استغاثه يونس : « وَذَا النُّونِ إذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ . فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أنْ لاَإلَهَ إلاّ أنْتَ سُبْحَانَكَ . إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ » (3) .

وفي استغفار موسى : « قَالَ : رَبِّ إنِي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَاغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إنّهُ هُوَ الغَفُورُ الرّحِيمُ» (4)

---

(1) محمد الغزالى : **الجانب العاطفى من الاسلام** : 192 .

(2) طه : 121 _ 122 .

(3) الأنبياء : 87 _ 88 .

(4) القصص : 16 .

فقد دلّت هذه الآيات على أنّ الاستغفار من الذنب ، أو الاستغاثة بالله عند الشدّة الحاصلة بالذنب هي عين التوبة التي لا يستغني عنها مؤمن حتى الأنبياء ، فإنّهم اعتذروا لله مقرّين بخطاياهم . وقد قيل : خير الناس أكثرهم شعورا بالخطإ .

أمّا الاعتذار بالقدَر أو حمل الذنب عليه ، فهو فرار من المسؤولية ، ومخاصمة لله ، واحتجاج عليه . وقد أخذ بعض المفسّرين بظواهر الآيات والأحاديث الدّاعية الى التوبة ، والمرغّبة فيها ، فبنوا على ذلك أنّ في الحثّ عليها إغضاء عن المعصية التي يعقبها ندم ، بدعوى أنّ الاستمرار في الطاعة ، والشعور بقوّة الثّبات ، والتغلّب على الهوى ممّا يحمل على الغرور والعُجب ، ولكن من يدري فربّما ؟ فتَح لك بابُ التّوبة الطاعة ، وما فتَح لك بابَ القبول . وربّما قُضِي عليك بالذّنب فكان سببَ الوصول . فإن قيل : ربّ معْصيه ٌ أورثت ذلاّ وانكسارا ، خيرٌ من طاعة أورثت عزّا واستكبارا . قلنا : إن الذنب بمثابة السّمّ ، والتوبة ترياقُه . والاستقامة هي الصّحة . ولا يلزم أن يشوبها دائما عُجب أو غرور . وصحة مستمرة خير من صحة يتخلّلها مرض قد يطول أو يستمرّ فيؤدي إلى الهلاك(1)

والحقيقة أن الرقيب الذي هو الضّمير القائم على الأخلاق ، والذي هو في صراع متواصل مع الرغبات المكبوتة المنافية لها ليس دائما قوة فائزة منتصرة . وقد عرَف الأخلاقيّون هذه الحقيقة فاتّجهت جهودهم الى تقوية الضوابط الأخلاقيّة الواقية ، ولكنهم شعروا في الوقت نفسه أنّ الرقيب قد يبلغ

---

(1) ابن القيم الجوزية : **مدارج السالكين** : ج : 1 / 163 .

حدّا شديدا من الضغط لدوافع الإنسان وكبتها ، حتى يقع فريسة لأمراض عصبية مختلفة ، بدلا من أن يزداد مناعة خلُقيّة .

فالتوبة بهذا الاعتبار دليل ضمنيّ على ضرورة اللّجوء إلى التنفيس بعض الشيء عن تلك الدوافع في ظروف استثنائية ، بدلا من الاشتداد في ضغطها وكبحها . وهي في الآن نفسه بلسم لآلام لدغ الذنب الذي قد يتطوّر الى قلق نفسيّ مريع . بل قد يمرض الإنسان تكفيرا للذّات عمّا جنت (1)

ولكن يجب اعتبار أنّ بعض الآثام لا تكفّرها التوبة لتعلّقها بحق الإنسان ، كما تدلّ على ذلك قصة هابيل وقابيل (2) .

كما يجب اعتبار أنّ من شروط قبول التوبة الندم السريع ، والإقلاع عن الذنب .

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ : إِنِّي تُبْتُ الآنَ ، وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ......»(3).

لذلك لم يقبل الله توبة فرعون حين أدركه الغرق ، لأنّه لم يعد يملك النجاة ، ففقد الإرادة والاختيار وحرّيّة التصرّف :

---

(1) محمد كامل النحاس : **سيكولوجية الضمير** : 14 .
(2) المائدة : 27 ــ 31 .
(3) النساء : 17 ــ 18 .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً . وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ »(1)

فلا مبرِّر إذَنْ لإبطاءٍ أو انتظار . فالله سبحانه كما قال رسوله صلى الله عليه وسلم : «يبسط يده بالليّل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنّهار ، ليتوب مسيء الليل » (2) .

فعلى المؤمن أن يجدّد نفسه ، وأن يعيد تنظيم حياته ، وأن يستأنف دوما مع ربّه علاقة أفضل، وعملا أكمل ، وعهدا يُجري على فمه وقلبه هذا الدعاءَ المحمَّدي : (3)

« اللهمّ أنتَ ربّي لاَ إلـه إلاّ أنْتَ . خلقتني وأنَا عبدُك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ . أعوذُ بك من شرّ ما صنعت . أبوءُ لك بنعمتك عليّ . وأبوء بذنبي فاغفرْلي ، فإنه لا يغفر الذّنوب إلاأنت » (4) .

---

(1) يونس : 90 – 92 .

(2) رواه مسلم .

(3) انظر **الجانب العاطفي من الاسلام** : 204 .

(4) رواه البخاري .



فهرس الآيات

(2) ســورة البقــرة

(3) سورة آل عمران

(4) سورة النساء

(5) ســورة المــائــدة

(6) ســورة الأنعــام

(7) ســـورة الأعـــراف

(12) ســـورة يـــوســـف

(13) ســورة الـرعـد

(14) ســورة إبــراهيـم

(15) ســـورة الحجـــر

(16) ســـورة النحـــل

(17) ســـورة الاســـراء

(18) ســـورة الكهـــف

(19) سـورة مـريـم

(20) سـورة طـه

(21) سـورة الأنبيـاء

(22) سورة الحج

(23) سورة المؤمنون

(24) سورة النور

(25) سورة الفرقان

(26) سورة الشعراء

(27) ســورة النمــل

(28) ســورة القصــص

(37) سورة الصافات

(38) سورة ص

(39) سورة الزمر

(40) سورة غافر

(41) سورة فصلت

(90) سـورة البلـد

(91) سـورة الشمـس

(96) سـورة العلـق

(100) سـورة العـاديـات

فهرس الأحاديث

فهرس أسماء الأنبياء

لوط :

203 - 187 - 136 - 135 - 131 - 118 - 99 - 95 - 94 - 89 - 88 - 87
402 - 401 - 366 - 364 - 361 - 345 - 336 - 231 - 229 - 218 - 216
568 - 564 - 553 - 547 - 485 - 420

محمد :

70 - 67 - 66 - 65 - 64 - 63 - 62 - 61 - 60 - 55 - 54 - 53 - 52 - 50
161 - 153 - 130 - 124 - 123 - 118 - 117 - 111 - 84 - 75 - 73
293 - 250 - 243 - 238 - 226 - 215 - 213 - 209 - 208 - 206 - 186
472 - 468 - 397 - 340 - 338 - 337 - 334 - 322 - 315 - 301 - 300
589 - 575 - 509 - 506 - 482

موسى :

117 - 102 - 100 - 98 - 96 - 92 - 83 - 80 - 73 - 70 - 69 - 68 - 66
145 - 144 - 141 - 140 - 132 - 127 - 126 - 125 - 124 - 123 - 118
208 - 201 - 200 - 192 - 184 - 181 - 172 - 171 - 167 - 154 - 151
262 - 249 - 226 - 225 - 224 - 223 - 218 - 217 - 214 - 212 - 210
292 - 291 - 279 - 276 - 274 - 272 - 271 - 270 - 269 - 268 - 267
348 - 345 - 341 - 337 - 336 - 325 - 313 - 302 - 299 - 297 - 296
369 - 368 - 367 - 366 - 360 - 357 - 354 - 353 352 - 350 - 349
440 - 430 - 418 - 417 - 416 - 415 - 401 - 373 - 372 - 371 - 370
560 - 559 - 495 - 491 - 474 - 462 - 458 - 451 - 449 - 446 - 442
594 - 587 - 586 - 585 - 582 - 562 - 561

نوح :

203 - 143 - 142 - 136 - 135 - 134 - 131 - 121 - 120 - 118 - 95
326 - 316 - 315 - 280 - 261 - 231 - 229 - 215 - 207 - 205 - 204
452 - 431 - 420 - 412 - 402 - 397 - 393 - 350 - 340 - 337 - 336

فهرس الأعلام

ـ ا ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

مجاهد : 128 – 281 – 146 – 240

فهرس أسماء الأماكن

مراجع الاطروحة

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

(ترجمة الآباء اليسوعيين)

(بيروت 1882)

الأناجيل الرسمية

إنجيل برنبا

كتب التفسير

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

محمد بن محمد العمادى أبو السعود

(مصر 1828)

بيان السعادة فى مقامات العبادة

سلطان الخراسانى

(طهران 1314 هـ)

التحرير والتنوير

محمد الطاهر ابن عاشور

(الدار التونسية للنشر)

تفسير الجلالين

محمد المحلى وعبد الرحمن السيوطى

(مصر م· صبيح)

تفسير القرآن العظيم

سهل التسترى
(مصر 1908)

تفسير القرآن الكريم

محمود شلتوت
(مصر 1960)

التفسير القيم

محمد بن قيم الجوزية
(مصر 1949)

التفسير المنير لمعالم التنزيل

محمد النووى الجاوى
(مصر 1960)

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس

أبو طاهر الفيروزابادى
(مصر 1960)

جامع البيان عن تأويل آى القرآن

محمد بن جرير الطبرى
(مصر 1954)

الجامع لأحكام القرآن

أبو عبد الله محمد القرطبى
(مصر 1967)

الجواهر فى تفسير القرآن

طنطاوى جوهرى
(مصر 1351 هـ)

روح المعانى

محمد الآلوسى
(مصر 1301 هـ)

عمدة التفسير

عماد الدين ابن كثير
(مصر 1956)

فى ظلال القرآن

سيد قطب
(بيروت 1967)

الكشاف

محمود جار الله الزمخرى
(مصر 1925)

لطائف الاشارات

عبد الكريم القشيرى
(مصر م· دار الكتاب العربى)

مجمع البيان

أبو على الطبرسى
(بيروت 1956)

مفاتيح الغيب

فخر الدين الرازى ـ تحقيق « عبد الحميد »
(مصر 1932)

المنــار

محمد عبده ومحمد رشيد رضا
(مصر 1967)

النسفــى

عبد الله بن أحمد النسفى
(مصر م· دار إحياء الكتب العربية)

كتــب الحــديــث

الجامع الصغير

عبد الرحمن السيوطى

صحيح البخارى

محمد بن إسماعيل البخارى

صحيح مسلم

مسلم بن الحجاج النيسابورى

كتاب الشفاء

أبو الفضل عياض اليحصبى

المنتخب من السنة

المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية

مراجع مختلفة

ـ أ ـ

الآلوسى ـ محمود شكرى — بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب
(ط 2 مصر 1342 هـ)

إخوان الصفا — رسائل إخوان الصفا
(مصر 1928)

الاسكافى ـ محمد الخطيب — درة التنزيل وغرة التأويل
(مصر 1327 هـ)

الاصطخرى ـ على بن سعيد — المسالك والممالك
(مصر 1961)

الاسكندرى ـ أحمد ورفاقه — المفصل فى تاريخ الأدب العربى
(مصر النموذجية)

الأفغانى ـ جمال الدين — الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى
(مصر دار الكتاب العربى)

إقبال ـ محمد — التجديد الدينى فى التفكير الاسلامى
(ت : عباس محمود) (مصر 1955)

أمين ـ أحمد — فجر الاسلام
(مصر 1950)

أمين ـ بكرى شيخ — التعبير الفنى فى القرآن
(ط 1 بيروت)

إيدل ـ ليون — القصة السيكولوجية (ت) محمود السمرة
(بيروت 1959)

– ب –

الباقلانى ـ أبو بكر — إعجاز القرآن
(مصر 1954)

بدوى ـ مصطفى — دراسات فى الشعر والمسرح
(مصر 1960)

البقرى ـ أحمد ماهر — يوسف فى القرآن
(الاسكندرية 1971)

البستانى ـ بطرس — دائرة المعارف
(بيروت 1876)

البستانى ـ فؤاد أفرام — الروائع
(بيروت 1955)

البستانى ـ فؤاد أفرام — المجانى الحديثة
(بيروت 1946)

بنت الشاطىء ـ عائشة عبد الرحمن — مقال فى الانسان
(مصر 1969)

البهى ـ محمد — الجانب الالهى من التفكير الاسلامى
(القاهرة 1967)

البهى ـ محمد — الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم
(بيروت 1971)

البيرونى ـ محمد بن أحمد — الآثار الباقية عن القرون الخالية
(ليبزنج 1923)

– ت –

التفتزانى ـ سعد الدين — تهذيب المنطق
(مصر 1315 هـ)

تيمور ـ محمود — دراسات فى القصة والمسرح
(القاهرة م. النموذجية)

ابن تيمية ـ تقى الدين أحمد — الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
(مصر 1905)

ـ ث ـ

الثعالبى ـ أبو منصور — ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب
(مصر 1965)

ـ ج ـ

الجاحظ ـ عمرو بن بحر — البيان والتبيين
(القاهرة 1932)

الجاحظ ـ عمرو بن بحر — رسالة فى الرد على النصارى (ضمن 3 رسائل أخرى)
(م. السلفية 1342 هـ)

جاد المولى ـ محمد أحمد وزملاؤه — قصص القرآن
(مصر 1946)

الجرجانى ـ عبد القاهر — أسرار البلاغة
(القاهرة 1925)

جمعة ـ محمد لطفى — ثورة الاسلام وبطل الأنبياء
(مصر 1959)

الجندى ـ أنور — الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار ...
(مصر م. الرسالة)

الجندى ـ درويش — الرمزية فى الأدب العربى
(مصر 1958)

جيمس ـ وليام — إرادة الاعتقاد (ت) محمود حب الله
(مصر 1946)

ـ ح ـ

الحبابى ـ محمد عزيز — الشخصانية الاسلامية
(مصر دار المعارف)

الحداد — القرآن والكتاب
(بيروت)

ابن حزم ـ على — الاحكام فى أصول الأحكام
(مصر 1345 هـ)

ابن حزم ـ على — الفصل فى الملل والأهواء والنحل
(مصر 1317 هـ)

حسين ـ طه — فى الأدب الجاهلى
(القاهرة 1958)

حسين ـ طه — مرآة الاسلام
(القاهرة 1966)

الحكيم ـ توفيق — أوديب
(القاهرة م. النموذجية)

الحكيم ـ توفيق — فن الأدب
(القاهرة م. النموذجية)

الحوفى ـ محمد أحمد — مع القرآن الكريم
(مصر 1972)

ـ خ ـ

الخطيب ـ عبد الكريم — التعريف بالاسلام
(القاهرة 1965)

الخطيب ـ عبد الكريم — قضية الألوهية بين الفلسفة والدين
(القاهرة 1969)

الخطيب ـ عبد الكريم — القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه
(القاهرة 1965)

الخطيب ـ عبد الكريم — المسيح فى القرآن
(القاهرة 1956)

ابن خلدون ـ عبد الرحمن — المقدمة
(بيروت 1961)

خلف الله ـ محمد أحمد — الفن القصصى فى القرآن الكريم
(القاهرة 1965)

خلاف ـ عبد المنعم — المادية الاسلامية وأبعادها
(مصر ط دار المعارف)

ـ د ـ

الدراز ـ محمد عبد الله — النبأ العظيم
(الكويت 1970)

دروزة ـ محمد عزت — القرآن المجيد
(لبنان م. العصرية)

دويدار ـ أمين — صور من حياة الرسول
(مصر 1953)

دى بوار — تاريخ الفلسفة فى الاسلام
(ت) أبو ريدة
(القاهرة 1957)

ديورانت ـ وال — قصة الحضارة (ت) محمد بدران
وزكى نجيب محفوظ
(مصر م. لجنة التأليف والترجمة والنشر)

– ذ –

الذهبى ـ سيد محمد حسين — التفسير والمفسرون
(القاهرة 1961)

– ر –

راجح ـ أحمد عزت — أصول علم النفس
(الاسكندرية 1957)

رضا ـ محمد رشيد — الوحى المحمدى
(مصر 1948)

رضوان ـ فتحى — الفكر الاسلامى والتطور
(الكويت م. دار القلم)

رمزى ـ إسحاق — علم النفس الفردى
(مصر 1919)

– ز –

أبو زهرة ـ محمد — محاضرات فى النصرانية
(القاهرة 1966)

أبو زهرة ـ محمد — المعجزة الكبرى ـ القران
(بيروت 1970)

– س –

سادلر — العقل الباطن وعلاقته بالأمراض النفسية (ت) عباس حافظ
(مصر 1946)

سالم ـ سيد عبد العزيز — دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام
(الاسكندرية 1968)

السقا ـ مصطفى ورفيقاه — التبيان فى شرح ديوان المتنبى
(القاهرة 1936)

سلامة ـ إبراهيم — خلق ودين
(مصر 1954)

سويف ـ مصطفى — الأسس النفسية للابـداع الفنى فى الشعر
(مصر 1959)

السيوطى ـ الجلال — الاتقان فى علوم القرآن
(مصر 1935)

السيوطى ـ الجلال — لباب النقول فى أسباب النزول
(القاهرة 1954)

ـ ش ـ

الشافعى ـ أبو مدين — الاطمئنان النفسى
(القاهرة دار الفتوح للطباعة)

شلتوت ـ محمود — إلى القرآن الكريم
(مصر دار الهلال)

الشهرستانى ـ محمد — الملل والنحل
(مصر 1320 هـ)

ـ ص ـ

الصالح ـ صبحى — مباحث فى علوم القرآن
(بيروت 1969)

صاليبا ـ جميل — علم النفس
(دمشق 1948)

صبيح ـ محمد — عن القرآن
(مصر 1939)

ابن الصلاح ـ أبو عمرو فتاوى ابن الصلاح
(الهند 1357 هـ)

ـ ط ـ

طبارة ـ عفيف عبد الفتاح مع الأنبياء فى القرآن الكريم
(بيروت م. دار الكتب)

طبارة ـ عفيف عبد الفتاح اليهود فى القرآن
(بيروت م. دار الكتب)

الطرطوشى ـ أبوبكرمحمد بنالوليد الحوادث والبدع
(تونس 1959)

ـ ع ـ

ابن عاشور ـ محمد الطاهر أصول النظام الاجتماعى والدولى فى الاسلام
(تونس 1964)

ابن عاشور ـ محمد الفاضل التفسير ورجاله
(ط 1 تونس 1966)

عبده ـ محمد رسالة التوحيد
(مصر 1372 هـ)

العدوى ـ محمد أحمد دعوة الرسل الى الله تعالى
(مصر 1935)

عرجون ـ محمد الصادق سنن الله فىالمجتمع من خلال القرآن
(جدة 1391 هـ)

العقاد ـ عباس محمود إسلاميات
(مصر م. دار الشعب)

العقاد ـ عباس محمود الانسان فى القرآن
(بيروت 1969)

العقاد ــ عباس محمود — التفكير فريضة إسلامية
(الكويت م. دار القلم)

العقاد ــ عباس محمود — الفلسفة الاسلامية
(مصر 1947)

العقاد ــ عباس محمود — المرأة فى القرآن
(بيروت 1969)

ــ غ ــ

غردية ــ لويس ــ و ج. قنوانى — فلسفة الفكر الدينى بين الاسلام والمسيحية (ت) صبحى الصالح وزميله
(بيروت 1967)

الغزالى ــ أبو حامد — جواهر القرآن
(مصر 1329 هـ)

الغزالى ــ أبو حامد — فضائح الباطنية
(القاهرة 1964)

الغزالى ــ أبو حامد — القسطاس المستقيم
(بيروت 1959)

الغزالى ــ أبو حامد — المنقذ من الضلال
(مصر 1308 هـ)

الغزالى ــ محمد — الجانب العاطفى من الاسلام
(القاهرة 1962)

الغزالى ــ محمد — ركائز الايمان بين الدين والعقل
(بيروت 1967)

الغزالى ــ محمد — نظرات فى القرآن
(القاهرة 1961)

غلاب ـ محمد المعرفة عند مفكرى المسلمين
(القاهرة 1969)

ـ ف ـ

فهمى ـ مصطفى الدوافع النفسية
(مصر دار مصر للطباعة)

فهمى ـ مصطفى الصحة النفسية
(ط 2 القاهرة 1955)

فهمى ـ مصطفى فى علم النفس
(القاهرة 1970)

فهمى ـ مصطفى مجالات علم النفس
(القاهرة 1955)

الفيروزابادى ـ محمد بن يعقوب القاموس المحيط
(القاهرة 1938)

ـ ق ـ

القاسمى ـ محمد جمال الدين موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين
(القاهرة م. دار العهد الجديد)

قاسم ـ محمود المنطق الحديث ومناهج البحث
(مصر 1968)

ابن قتيبة ـ محمد بن عبد الله تأويل مختلف الحديث
(القاهرة 1326 هـ)

قطب ـ سيد التصوير الفنى فى القرآن
(مصر 1966)

قطب ـ سيد العدالة الاجتماعية فى الاسلام
(القاهرة 1964)

قطب ـ محمد — دراسات فى النفس الانسانية
(الكويت م. دار القلم)

قطب ـ محمد — منهج التربية الاسلامية
(ط 2 دمشق)

ڤولدتزيهر ـ إجنتس — العقيدة والشريعة فى الاسلام
(ت) يوسف موسى وزميله
(مصر 1948)

ڤولدتزيهر ـ إجنتس — مذاهب التفسير الاسلامى
(ت) عبد الحليم النجار
(مصر 1955)

ڤيتس ـ آثر ، وغيره — علم النفس التربوى
(ت) إبراهيم حافظ وزميله
(مصر 1954)

ابن القيم الجوزية ـ محمد — إعلام الموقعين عن رب العالمين
(مصر 1956)

ابن القيم الجوزية ـ محمد — شفاء الغليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل
(مصر 1323 هـ)

ابن القيم الجوزية ـ محمد — مدارج السالكين
(مصر 1331 هـ)

ـ ك ـ

ابن كثير ـ إسماعيل — قصص الأنبياء
(القاهرة 1928)

كارينجى ـ ديل — التأثير فى الجماهير عن طريق الخطابة
(ت) عزت صالح ورفيقه
(بيروت م. دار الفكر)

كاشف ـ سيدة إسماعيل مصادر التاريخ
(القاهرة 1960)

- ل -

لوبون ـ قستاف روح الاجتماع (ت) طه حسين
(مصر م. دار الهلال)

لوبون ـ ف حضارة العرب (ت) عادل زعيتر
(مصر 1948)

- م -

المبارك ـ محمد العقيدة فى القرآن الكريم (بحث قصير)
(بيروت م. دار الفكر)

المجلوب ـ محمد قصص وعبر
(جدة • المطبعة اليوسفية)

المحامى ـ محمد كامل حسين القرآن والقصة الحديثة
(بيروت 1970)

مراد ـ يوسف مبادىء علم النفس العام
(القاهرة 1966)

المسعدى ـ محمود السد
(تونس 1955)

المسعودى ـ على بن الحسين مروج الذهب
(القاهرة 1958)

المليجى ـ عبد المنعم تطور الشعور الدينى عند الطفل والمراهق
(مصر 1955)

موسى ـ محمد يوسف — القرآن والفلسفة
(مصر 1966)

الميدانى ـ أحمد — مجمع الأمثال
(مصر 1910)

ـ ن ـ

ابن نبى ـ مالك — الظاهرة القرآنية
(ت) عبد الصبور شاهين
(ط 2 القاهرة 1961)

النحاس ـ محمد كامل — سيكولوجية الضمير
(مصر م. الاعتماد)

الندوى ـ أبو الحسن على — النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن
(بيروت 1387 هـ)

ابن النديم ـ محمد بن إسحاق — الفهرست
(م. الرحمانية 1348 هـ)

النسفى ـ عبد الله بن أحمد — العقائد النسفية
(مصر 1321)

النفوسى ـ أبو طاهر إسماعيل — قناطر الخيرات
(القاهرة 1965)

نوفل ـ عبد الرزاق — بين الدين والعلم
(القاهرة م. الاستقلال)

النويرى ـ شهاب الدين أحمد — نهاية الأرب فى فنون الأدب
(القاهرة م. كوستاتسوماس)

ـ هـ ـ

ابن هشام ـ أبو محمد عبد الملك — السيرة النبوية
(ط 2 مصر 1955)

هورس ـ جوزاف — قيمة التاريخ
(ت) وهيبة الخازن ورفيقه
(بيروت م. دار مكتبة الحياة)

هيكل ـ محمد حسين — حياة محمد
(مصر 1952)

- و -

وافى ـ على عبد الواحد — ابن خلدون منشىء علم الاجتماع
(مصر م. الرسالة)

- ى -

اليعقوبى ـ أحمد بن إسحاق — تاريخ اليعقوبى
(النجف 1358 هـ)

مــراجـــع أجنبيـــة

Blachère. R. Le Problème de Mahomet (P.U.F. Paris 1952)

Brockolman. C. Geschichte Par Arabischan Littorature Supplément. (Loyde - 1937)

Borel. J. Le Déséquilibre Psychique (P.U.F. Paris)

Durkheim. E. Les formes élémentaires de la vie Religieuse. (P.U.F. Paris 1968)

Flournoy. Les principes de la psychologie religieuse (extrait des Archives. Psyche. T. 2. n° 9) (Paris 1903)

Guyant. M.J. L'irréligion de l'avenir Esquisse d'une Morale sans obligation ni sanction (Paris 1885)

Janet. P. La médecine Psychologique (Flammarion. Paris 1928)

Loti. P. Le Roman d'un enfant (Paris 1890)

Michaud. Guy. La Doctrine Symboliste (T. IV) (Paris 1947)

Risler J. La Civilisation Arabe (Paris 1956)

Sprenager. A. Das LeBen und die lehre des Mohamed (Berlin 1861)

استدراك لبعض الأخطاء المطبعية

الصواب	الخطأ	الصفحة
لأنه لم يعرفها	لأن لم يعرفها	70
للوقائع التاريخية	للوقائع التارخية	97
أن فكرة	أن فكوة	176
ولما وقع عليهم	فلما وقع عليهم	249
(1) القصص : 57	(1) الأنعام : 76	273 (التعليق)
أو فى تفاصيل	فى تفاصيل	296
العزير	العزيز	297
على عشيرته	على عشريته	316
(1) الشعراء : 27	(1) الشعراء : 29	371 (التعليق)
(3) الزخرف	(3) غافر	» »
(4) غافر	(4) الزخرف	» »
(2) القيامة : 21	(2) القيامة : (1)	388 »
على نقيض ذلك امرأة نوح وامرأة لوط	على نقيض ذلك امرأة لوط	401
(1) فاطر : 19	(1) فاطر : 35	432 (التعليق)
(1) القمر : 18 ـ 20	(1) القمر : 12 ـ 20	438 »
افتتنت بحبه	افتتنت بحسه	512
ليسجنُنه	ليسجنَنه	531
فنفعها إيمانها	فنعها إيمانها	546
(1) الأعراف : 26	(1) الأعراف : 36	550 (التعليق)
الانطلاق والارتقاء	الانطلاق والارتقاع	551
(2) البقرة	(2) المنار	552 (التعليق)
(3) المنار	(3) البقرة	» »
بين أفرادها	بين فردها	563
منه يُصدون	منه يَصدون	580
(1) الأعراف : 148	(1) الأعراف : 118	587

انتهى طبع هذا الكتاب
بالشركة التونسية لفنون الرسم
STAG
20 نهج المنجي سليم ـ تونس
فى شهر ديسمبر 1974